مِنْ نَوَادِرِ التُّرَاثِ الصُّوفِيّ

كِتَابُ الاقْتِصَاد

للشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي
(المتوفى سنة ٣٧١ هـ)

مِنْ أعيانِ تَلَامذةِ الإمام الأشْعَرِيّ رحمه الله

يُنشَرُ لأوّلِ مرّة مُقابلًا على ثَلَاثِ نُسَخٍ خَطِّيَّةٍ نَفِيسَةٍ

دِرَاسَةُ وَتَحْقِيقُ

الدّكتور
إبراهيم سليمان سويلم
مُدَرِّس العَقِيدَةِ والفَلسَفَةِ
كُلّية الدِّراساتِ الإسلاميةِ والعَربيةِ
جَامِعَة الأزهَرِ الشَّرِيفِ

الدّكتُور
قدري قدري الديب
مُدَرِّس العَقِيدَةِ والفَلسَفَةِ
كُلّية الدِّراساتِ الإسلاميةِ والعَربيةِ
جَامِعَة الأزهَرِ الشَّرِيفِ

تَقْدِيمُ

الأُسْتَاذِ الدّكتُور
عبد الله محمد إسماعيل
كُلّية أُصُولِ الدِّينِ - جَامِعَة الأزهَرِ الشَّرِيفِ

كتاب الاقتصاد

للشيخ الكبير أبي عبدالله محمد بن خفيف الشيرازي

Title : Kitab Alaiqtisad
Composing : Ibn Khafif Shirazi
Study and comment : Dr. Ibrahim Swilam and Dr. Qadri El Deeb
Submit : PROF. Abdullah Mohamed Ismail
Publisher : Nooryaqeen - Egypt
Pages : 432
Number of parts : 1
Book Size : 17 X 24 C.M
Year : 2023 - 1444
Printed in : Egypt
Edition : 1

اسم الكتاب : كتاب الاقتصاد
تأليف : ابن خفيف الشيرازي
دراسة وتحقيق : د. إبراهيم سويلم و د. قدري الديب
تقديم : أ.د. عبدالله محمد إسماعيل
الناشر : دار نور اليقين - جمهورية مصر العربية
عدد الصفحات : ٤٣٢ صفحة
عدد المجلدات : ١ مجلد
مقاس الكتاب : ١٧ x ٢٤ سم
سنة الطباعة : ٢٠٢٣م / ١٤٤٤هـ
بلد الطباعة : جمهورية مصر العربية
الطبعة : الأولى

رقم الإيداع : ٩٢٥٦ / ٢٠٢٢
I.S.B.N : ٩٧٨ - ٩٧٧ - ٦٩٨١ - ١٦ - ٠٤

الإدارة : 5 شارع أبي البركات سيدي أحمد الدرديري - خلف مسجد الأزهر الشريف
سيدنا الحسين - القاهرة - جمهورية مصر العربية
المكتبة : 10 درب الأتراك - خلف مسجد الأزهر الشريف - سيدنا الحسين - القاهرة
هاتف : 01002000788 (2+) - 01000702009 (2+) - 01000702006 (2+) - 25150250 (202+)
E-mail : nelyakeen@hotmail.com
Facebook page : NoorYaqeenBookstore

من نوادر التراث الصوفي

كتاب الاقتصاد

للشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي

(المتوفى سنة ٣٧١ هـ)

من أعيان تلامذة الإمام الأشعري رحمه الله

دراسة وتحقيق

الدكتور

إبراهيم سليمان سويلم

مدرس العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر الشريف

الدكتور

قدري قدري الديب

مدرس العقيدة والفلسفة

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

جامعة الأزهر الشريف

يُنشر لأول مرة مقابلاً على ثلاث نسخ خطية نفيسة

تقديم

الأستاذ الدكتور

عبد الله محمد إسماعيل

كلية أصول الدين - جامعة الأزهر الشريف

دار نور اليقين للطباعة والنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله حمدًا يستحقه لجلال هوية أحديته، ويستوجبه لكمال ألوهية صمديته، والصلاة على محمد صادع شعب الشرك، وقامع حزب الهلك، وعلى آله وأصحابه الذين أصبحوا نجومًا للمهتدين رجومًا للمعتدين.

فإن لله عبادًا تقدَّسوا عن مقاربة الأوضار، وتطَّهروا عن مقارفة الأوزار، فهم طوال الدهر في سبحات القدس عاكفون، وفي حظائر الأنس واقفون، لا تصدهم عن مثل محاضر الجمال مس طيف، ولا يردهم عن مواقف الجلال لم حيف، فهم في جلابيب العزة متبرجون، وعن الإدلاء بما يوهم النقص متحرجون، قد لبسوا خبير التحزيل، وسقوا غيرها خمرة التفريد، فهم في حبرات الوحدانية رافلون، وفي روضات الفردانية نازلون.

أما بعد:

فإن التراث الإسلامي - خاصة ذخائر المخطوطات - لا زال بحاجة ماسة إلى مواصلة الجهود الصادقة لإخراجه؛ لنتعرف من خلاله على إنتاج أسلافنا السابقين وإسهاماتهم المتنوعة، كأننا نستدعي أمجاد الماضي لننتفع بها في حاضرنا الفكري ونستضيء بضوئها في مستقبلنا الثقافي، وكفى بهذا داعيًا إلى شحذ الهمم وتحفيز النفوس للاهتمام بتراثنا المجيد.

ومن أهم جوانب ذلك التراث المتميز تراثنا الروحي الذي يمثله ما خلفه لنا الأوائل من مصنفات صوفية تبيِّن لنا مدى ما وفقهم الله إليه من العناية بهذا الجانب الذي يُعد من أهم جوانب الفكر الإسلامي، إن لم يكن أهمها جميعًا.

ذلك أن لهذا العلم عناية خاصة بأهم جوانب الإنسان، وهو الجانب الروحي الذي

يحتاج إلى تزكية دائمة بمطالعة المصنفات الصوفية المتميزة، ومن دون ذلك ينزوي ذلك الجانب ويتوارى مفسحًا المجال لتمدد الجانب المادي، وتلك مشكلتنا المعاصرة: طغيان الجانب المادي وخواء الجانب الروحي، ولا علاج لتلك المشكلة التي عاينا آثارها السلبية في واقعنا الحالي إلا بالرجوع إلى التصوف السني النابع من القرآن والسنة مستمدًا قواعده منهما ومهتديًا بهديهما في كل صغيرة وكبيرة.

ومن أروع الأمثلة على ذلك هذا الكتاب الذي نقدم له الآن وهو كتاب «**الاقتصاد**» للشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، الذي جاء نموذجًا للتصوف المقبول المعتمد على القرآن والسنة، ولذلك جاء سهلًا ميسورًا صالحًا للاستفادة منه للمتخصص وغيره.

وقد ألّف المصنف هذا الكتاب لطائفة مخصوصة من الصوفية وهم المريدون في مراحل البدايات أي المريد الذي التحق حديثًا بطريق التصوف، فوصف له ابن خفيف منهجًا علميًّا واضح المعالم فيما ينبغي عليه أن يلتزمه من تعليمات، وما يجب عليه أن يحذره من عقبات وآفات.

لقد نقل ابن خفيف في هذا الكتاب تجربته الشخصية التي مرَّ بها هو فعلًا في طريق التصوف منذ بواكير التحاقه بالطريق مرورًا بمراحله المختلفة، ثم انتهاءً بمرحلة الوصول واكتمال التجربة حيث أصبح - بحق - الشيخ الكبير الذي انتهى إليه علم التصوف في زمانه، وقد تناول ابن خفيف في كتابه هذا المسائل المشهورة والقضايا المعروفة في التصوف سواء ما يتعلق منها بجانب التخلية من صفات النفس وآفاتها المذمومة، وكذلك ما يتعلق بجانب التحلية بأسمى الصفات وأسنى المقامات.

وهو في الجانبين معًا لم يخرج عن حدود الشرع، بل سار في عرض مسائل الكتاب

وقضاياه مسيرة شرعية خالصة أضفت على الكتاب سهولة وقبولًا نتجا عن توشيح كل مسألة بأدلة شرعية من القرآن والسنة، تؤكد تأكيدًا واضحًا على تماهي التصوف الإسلامي مع أصول الدين ومصدريه الرئيسين.

وغني عن البيان أن حضور الدليل الشرعي كتابًا وسنة في أي موضوع من الموضوعات ييسر قبوله ويسهل فهمه، وبالتالي الإقبال عليه، وهذا ما قصد إليه الشيخ الكبير في هذا المصنف المتميز.

ومما يجب التنويه عليه هنا هو أن مصنف الكتاب من أعلام المدرسة الأشعرية بل هو من أعيان تلامذة الإمام الأشعري كما أجمع على ذلك المؤرخون، وهذا يدل على تشابك علمي التصوف والكلام، وإن شئت قل: انسجام العقل والذوق عند أقطاب المدرسة الأشعرية، فأصبح ذلك خطًّا مميزًا لأعلام المدرسة منذ نشأتها وبداياتها الأولى.

وهذا أقوى رد على المرجفين والمشككين في أصالة علم التصوف محاولين – دون جدوى – نسبته لغير البيئة الإسلامية، وهو في الوقت نفسه رد على الطاعنين حديثًا في المذهب الأشعري؛ لاعتماد أصحابه التصوف مسلكًا وطريقًا، فهذا الكتاب يؤكد أن التزام الأشاعرة خط التصوف ضارب بجذوره في الماضي حتى قبل الأشعري يقول ابن خفيف: «اقتدوا بخمسة من شيوخنا، والباقون سلِّموا لهم حالهم: الحارث بن أسد المحاسبي، والجنيد بن محمد، وأبو محمد رُويم، وأبو العباس ابن عطاء، وعمرو بن عثمان المكيّ؛ لأنهم جمعوا بين العلم والحقائق»[١].

وقد رفض هؤلاء التصوف؛ لأن هممهم قاصرة، وعزائمهم فاترة، وأجوافهم خاوية،

---

(١) الرسالة القشيرية للإمام القشيري ص٢١.

اقتصروا على القشر دون اللباب، ووقفوا عند الظاهر فلم تفتح لهم الأبواب.

والأمر في التصوف يحتاج إلى أذواق عالية، وعزائم سامية، وأرواح صافية، وإلى راغبي الوصول إلى اللباب وعدم الاكتفاء بالقشور، لينالوا الحظوة والحبور.

وقد اجتهد المحققان في إخراج هذا الكتاب بصورة لائقة وراعيا المنهج العلمي في التحقيق الخاص بمثل هذه الموضوعات المهمة، فاكتسى الكتاب بتحقيقهما حلَّة بهية ليأخذ مكانه المرموق بين مصنفات التصوف السني.

وإني أشكر للمحققين الكريمين استجابتهما لنصيحتنا حين قمت بتحفيزهما للاهتمام بتراث ابن خفيف، وذلك عند تقديمي لمحاولتهما الأولى في إخراج تراثه القيم، وهو كتاب «المعتقد الصغير» الذي خرج لعالم المطبوعات لأول مرة بتحقيق علمي مميز، فلاقى قبولًا تامًا من جموع القراء.

وهذه هي المحاولة الثانية التي قاما بها لإخراج مؤلف آخر لابن خفيف، وفي مجال آخر وهو مجال التصوف.

وإني إذ أكتب هذه الكلمات أتمنى لهما التوفيق والسداد والإخلاص في خدمة فكرنا وتراثنا الإسلامي المجيد، والله من وراء القصد، والهادي إلى سواء السبيل.

الأستاذ الدكتور

عبد الله محمد إسماعيل

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الرحيم الرحمن، الملك الديّان، العظيم الامتنان، بيَّن لخلقه الهدى ودعاهم إلى الإيمان، ففريق استجاب فَمَنَّ عليه بدرجات الإحسان، وأذاقه من نسيم قربه الروح والريحان، وفريق أعرض عنه فعوقب بالبعد والحرمان، فشتّان ما بين الفريقين شتّان، ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ كَٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْأَصَمِّ وَٱلْبَصِيرِ وَٱلسَّمِيعِۚ هَلْ يَسْتَوِيَانِ﴾ [هود: ٢٤].

والصلاة والسلام على من فاق دينه جميع الأديان، سيدنا محمد الذي دلّنا على الله بأوفى دليل وأوضح برهان، صَلَّى الله عليه وسَلَّم عدد ما هو كائن وما سيكون وما كان، وعلى آله وأصحابه خير الخلان، على أبي بكر المسطور فضله في القرآن، وعلى عمر الذي خاف منه الشيطان، وعلى ذي النورين عثمان بن عفان، وعلى عليّ بحر العلوم وسيد الشجعان.

وبعد، فإن التصوف من العلوم الشرعية الأصيلة في الملة الإسلامية، استمداد أصوله من الآيات القرآنية، ومأخذ قواعده من الأحاديث النبوية، ومن أصول التصوف الأساسية، قضية سلوك المريد والتماسه للأحوال السّنية والمقامات العليّة، والمريد في سلوكه يحتاج إلى من يوضح له الدليل، وينير له السبيل، حتى يكتسب ما يرنو إليه من الصفات، ويتغلب على ما يلقاه من العقبات.

وهذا السلوك لا يمكن أن يتلقاه المريد قواعد نظرية، بل لا بد فيه من تجربة عملية، ينقلها إليه أهل الرسوخ في الطريق، وهم مشايخ التصوف المتصفين بالصدق والتحقيق، الذين يقومون بإرشاد المريد إلى الخير وهدايته، ويحرصون على تحذيره من الشر وحراسته، يفتحون عينيه على معارج القبول، ثم يأخذون بيديه إلى مدارج الوصول، يفعلون ذلك معتبرين المريد أقرب إليهم من الولد، وأعز عندهم من فلذة الكبد، لذلك لا يُقَصِّرون في محبته، ولا يدخرون جهدًا في نصيحته.

وصارت نصيحة الشيخ للمريد من دساتير الحياة الروحية، ولا تتم من دونها الحقيقة الصوفية، وكان ممن ساهم في ذلك بأحسن التصانيف، الشيخ الكبير أبو عبد الله محمد بن خفيف، الذي جَرَّب طريق التصوف عمليًا في جميع مراحله، وسبر أغواره فعليًا في كافة منازله، ملتزمًا في كل خطواته بأصول الدين، متقيدًا بالكتاب والسنة بصدق، ويقين، حتى استقر لدينا أنه بين القوم مكين أمين.

ولم يشأ ابن خفيف أن يحتفظ لنفسه بالنتائج التي توصل إليها، ولا بالعلوم التي تَحَصَّل عليها، بل أراد أن ينقلها إلى المريدين، وأن يضيء الطريق أمام السالكين، فانقدح في ذهنه زناد التأليف، ليتحفنا بتصنيف ما أجمله من تصنيف، جاء وافيًا بالمراد، مختصرًا ميسورًا كما أراد، ولما كان كذلك اختار له اسم «كتاب الاقتصاد»، فجاء الاسم موافقًا للرسم، وهو وإن كان يسير المباني إلا أنه غزير المعاني.

وقد وَجَّهَ ابن خفيف كتابه إلى المريدين في مراحل البدايات، لذلك راعى سهولة الكلمات وعذوبة العبارات، وهو في كل فصل من فصوله يستضيء بضياء الآيات، ويستنير بنور صحاح المرويات، ليأتي الكتاب نموذجًا مضيئًا من نماذج التصوف السُّني، ومثالًا مشرقًا من أمثلة امتزاج السلوك الصوفي بالنص القرآني والحديث النبوي، حيث لم يفارقهما ابن خفيف في كتابه طرفة عين، بل يسوق في الموضع الواحد الآية والآيتين والحديث والحديثين.

وقد أبدع ابن خفيف في صياغة المسائل، وتفنّن في تحرير الدلائل، فكانت المسائل التي تستغرق في تصانيف غيره صفحات، تأتي عنده في أسطر وبضع كلمات، وهو في ذلك يراعي السهولة في مبانيه، وعدم الغموض في معانيه، وكأني به يبتغي أن ينشغل المريد بالعمل والتطبيق بغية الترقي في مراحل ومقامات الطريق.

وقد جاءت تعليمات الشيخ الكبير في صورة إلزام وتقرير، موزعة على صفات سلبية

يجب على المريد أن يبتعد عنها، وذلك جانب التخلية، وبين صفات إيجابية ينبغي على المريد أن يُقبل عليها، وذلك جانب التحلية.

وقد تناول ابن خفيف في كتابه أهم القضايا الصوفية من وجهة نظر شرعية، وتطرق إلى ما يلزم المريد من صفات، وكذلك عالج ما قد يلقاه في طريقه من عقبات، فَأَمَرَ المريد بلزوم المشايخ والتسليم لهم، وطاعة أمرهم والعيش في أكنافهم، وملاحظة أحوالهم، والاستفادة من علومهم، فلا يتم أمر المريد في بدايته إلا بالطاعة لهم والتسليم، وبهذا يستمسك المريد بالصراط المستقيم.

ثم يوصي ابن خفيف المريد بالجد والتشمير لنيل سَنِيِّ الصفات ورفيع المقامات، كالتوبة والصدق والإخلاص والورع والزهد إلا في الضروريات وغيرها مما شُحنت به المصنفات، وأكثر فيها الصوفية من كتابة المؤلفات، وإذا اعترضت المريد بعض العقبات، يصف ابن خفيف له كيفية التغلب على تلك الآفات، بخطوات عملية سهلة في تطبيقها، وخطط فعلية ميسورة في تنفيذها.

وبهذا جاء الكتاب صورًا صافية لسهولة التعليمات الصوفية، ونماذج ضافية ليسر القواعد الروحية، فهي في الأساس متوافقة مع قواعد الإسلام، وهذا هو التصوف الذي نصبو إليه في هذه الأيام، ونتشوق إليه شوق المحب المستهام.

ونحن إذ قمنا بتحقيق هذا السفر الجليل، أردنا أن نؤكد على هذا الأصل الأصيل، وهو أن التصوف لا ينفك أبدًا عن الشرع في التأسيس والاستمداد، فالشرع بالنسبة للتصوف هو الأساس والعماد، وخير دليل على ذلك هو هذا الكتاب «كتاب الاقتصاد».

والحمد لله في الانتهاء كما كان له الحمد في الابتداء والذي من علينا بالتوفيق في هذا التحقيق.

المحققان

القسم الأول: الدراسة

ويشتمل على فصلين:

الفصل الأول: التعريف بأبي عبدالله محمد بن خفيف الشيرازي.

الفصل الثاني: التعريف بكتاب «الاقتصاد» لابن خفيف.

الفصل الأول
التعريف بأبي عبد الله
محمد بن خفيف الشيرازي

ويشتمل على ثمانية مباحث:

- المبحث الأول: اسمه، ومولده، ونسبه، وكنيته، وألقابه.
- المبحث الثاني: أسرته.
- المبحث الثالث: نشأته.
- المبحث الرابع: شيوخه.
- المبحث الخامس: تلامذته.
- المبحث السادس: مؤلفاته.
- المبحث السابع: رحلاته.
- المبحث الثامن: وفاته وثناء العلماء عليه.

المبحث الأول
اسمه، ومولده، ونسبه، وكنيته، وألقابه

❁ اسمه:

هو محمد بن خفيف[1] بن عبد الله الضبّي الشيرازي، وزاد الذهبي في اسمه: الفارسي[2]، وزاد حاجي خليفة في اسمه: الشافعي[3].

وهذا الاسم السابق محل اتفاق بين المترجمين لابن خفيف، ولكنّهم قد اختلفوا في اسم جدّه بألفاظ قريبة، فهو عند جنيد الشيرازي: إسكفشاذ[4]، بهمزة وسين مهملة وكاف وفاء وشين معجمة وألف وآخره ذال معجمة.

وهو عند الذهبي: اسفكشار[5]، وعند ابن عساكر والسبكي: إسفكشاد[6]، وعند

(١) راجع في ترجمته: الهجويري: كشف المحجوب ج١ ص٣٧٠ (ترجمة: د/ سعاد عبد الهادي، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م)، وراجع أيضًا: الذهبي: تاريخ الإسلام ج٨ ص٣٦٥ (بتحقيق: د/ بشار عواد، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م، دار الغرب الإسلامي)، وراجع: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٣ ص٤٠٥ (بتحقيق: محب الدين العمري، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م، دار الفكر - بيروت).

(٢) راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٥ (الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، دار الحديث - القاهرة).

(٣) راجع: حاجي خليفة: سلم الوصول إلى طبقات الفحول ج٣ ص١٣٦ (بتحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسكيا - تركيا، سنة ٢٠١٠م).

(٤) جنيد الشيرازي: شد الإزار في حط الأوزار عن زوار المزار ص٣٨ (صححه: محمد قزويني وعباس إقبال، طبعة طهران سنة ١٣٢٨هـ).

(٥) راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٥.

(٦) راجع: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٣ ص٤٠٥، وراجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣=

حاجي خليفة: اسفكساد[١]، وعند ابن الملقن: أسيدكشاذ[٢].

وبالطبع فإنّ هذا الاختلاف في اسم جد ابن خفيف ليس ذا قيمة كبيرة، فإنّ في القدر الذي اتفق عليه المترجمون كفاية في تعريفنا باسم ابن خفيف، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّه يطلعنا على حقيقة أنّ ابن خفيف لم يكن من المغمورين الذين لا يُؤبه بهم، بل كان من الأعلام المعدودين والعلماء المذكورين الذين حرص المترجمون على أن يدققوا في اسمه واسم أبيه واسم جده.

❁ مولده:

اتفقت المصادر التي ترجمت لابن خفيف على أنّه وُلد في مدينة «شيراز»، إلا أنّ هذه المصادر لم تَنُصّ على تاريخ ولادته، غير ما جاء في «طبقات الأولياء» أنّه وُلد سنة ٢٦٧هـ[٣].

ويمكن تأكيد هذا التاريخ بما رواه الذهبي[٤] وابن عساكر[٥] أنّه عاش مائة وأربع سنين، وقد تُوفي سنة ٣٧١هـ، فيكون تاريخ ولادته ٢٦٧هـ موافقًا لما جاء في «طبقات الأولياء»، وهذا هو الأقرب أيضًا لرواية ذكرها خادم ابن خفيف أنّه ولد قبل السبعين

=ص١٤٩ (بتحقيق: د/ محمود الطناحي ود/ عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الثانية سنة ١٤١٣هـ دار هجر للطباعة والنشر).

(١) راجع: حاجي خليفة: سلم الوصول ج٣ ص١٣٦.

(٢) ابن الملقن: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب ص٢٢٧ (بتحقيق: أيمن نصر وسيد مهنى، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية - بيروت).

(٣) راجع: ابن الملقن: طبقات الأولياء ص٢٩٠ (بتحقيق: نور الدين شريبه من علماء الأزهر، الطبعة الثانية سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، مكتبة الخانجي، بالقاهرة).

(٤) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٥.

(٥) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٢ ص٤٠٥.

ومائتين[1].

❁ نسبه:

تُصادفنا في ترجمة ابن خفيف عدة نِسب بداية من بلدته الصغيرة إلى المدينة التي تنتمي إليها تلك البلدة إلى الإقليم الكبير كله، فيذكر الشيخ ابن خفيف نفسه هذه النِّسب فيقول: «كان أبي من كلاشم[2] وهي إحدى مدن الديلم»[3].

فابن خفيف يُنسب إلى «كلاشم» التي هي بلدة أبيه، والتي هي إحدى مدن «الديلم»، وبالتالي فهو يُنسب إلى «الديلم»[4]، وهذه النسبة الثانية للشيخ.

ثم يُنسب ثالثًا إلى «ضبة»، ولذلك أجمعتْ المصادر على ذكر تلك النسبة في اسمه فكلها تُجمع على أنّه: «الضَّبِّي»[5].

---

(١) راجع: عبد الله بن عبيد العتيبي: آراء محمد بن خفيف الشيرازي الاعتقادية والصوفية ص١٦ (بحث مطبوع بجامعة الملك خالد - السعودية سنة ١٤٣٩هـ).

(٢) لم نقف على تعريف بهذا البلد في الكتب المخصصة لذلك مثل: معجم البلدان، ولكن يبدو أن «كلاشم» هي البلدة الأولى التي يُنسب إليها ابن خفيف، ومن المؤكد أنها من بلاد فارس كما قال ابن خفيف، وهي إحدى مدن الديلم.

(٣) أبو الحسن الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٨٨ (ترجمها من العربية إلى الفارسية: ركن الدين يحيى بن جنيد الشيرازي، وترجمها إلى العربية: د/ إبراهيم الدسوقي شتا، طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية بالقاهرة، سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م).

(٤) يقول المقريزي: «يُقال في أصل الديلم: إنّ باسل بن ضبة بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان خرج مغاضبًا لأبيه فوقع في أرض الديلم، فتزوج امرأة من العجم فولدت له ديلم بن باسل، فهو أبو الديلم كلهم، وهم أفخاذ وعشائر ومنهم ملوك بنو بويه». (المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص١٢٩ (بتحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية - لبنان).

(٥) راجع على سبيل المثال: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٥، وسلم الوصول ج٣ ص١٣٦.

والشيخ نفسه يذكر تلك النسبة فيقول: «نحن من بني ضبّة، والديلم كلهم من بني ضبّة»[١].

ومن النِّسب المذكورة لابن خفيف أيضًا: «نيسابور»[٢]، وهو يُنسب إليها من ناحية أمّه التي كانت من تلك المدينة الكبيرة.

ويتحدث ابن خفيف عن ذلك فيقول: «كانت أمّي من مدينة نيسابور من بنات الكرّامية[٣]، والسبب في أنّ والدي خفيفًا تزوّج منها أنّه حين نزل خراسان مع عمر ابن

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٨٨.

(٢) نيسابور: يقول ياقوت الحموي: «نيسابور بفتح أوله، والعامة يسمونه نشاوور، وهي مدينة عظيمة ذات فضائل جسيمة معدن الفضلاء ومنبع العلماء لم أرَ فيما طوّفت من البلاد مدينة كانت مثلها... وكان المسلمون فتحوها في أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه، والأمير عبد الله بن عامر بن كريز في سنة ٣١ صلحًا وبنى بها جامعًا، وقيل إنها فُتِحَتْ في أيام عمر رضي الله عنه، على يد الأحنف بن قيس وإنّما انتقضتْ في أيام عثمان فأرسل إليها عبد الله بن عامر ففتحها ثانية». (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٥ ص٣٣٢ (الطبعة الثانية سنة ١٩٩٥م، دار صادر، بيروت).

(٣) الكرامية: أصحاب محمد بن كرام، ويُعد من الصفاتية لأنه كان ممّن يثبت الصفات إلا إنه ينتهي فيها إلى التجسيم والتشبيه. (راجع: الشهرستاني: الملل والنحل ج١ ص١٠٨ (طبعة مؤسسة الحلبي، بدون)، وعبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ص٢٠٣ (الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧م، دار الآفاق الجديدة - بيروت).
هذا ما ذُكِر في كثير من كتب الفرق والمقالات، إلا أنه يظهر من كلام المحققين أن قدماء الكرامية لم يكونوا من المجسمة الخُلَّص، بل هم أحسن حالًا وأقرب إلى أهل السُّنة من هؤلاء المجسمة، فقدماء الكرامية وإن أطلقوا على الله تعالى أنه «جسم» إلا أنهم لم يقصدوا من هذا الإطلاق أنه تعالى مُرَكَّب من أجزاء وأبعاض، بل أرادوا إثبات كونه تعالى موجودًا أو كونه سبحانه قائمًا بنفسه غنيًّا عن المحل، يقول الفخر الرازي: «اعلم أن المشهور من قدماء الكرامية اطلاق لفظ الجسم على الله تعالى، إلا أنهم يقولون: لا نريد به كون الله مؤلَّفًا من الأجزاء ومركَّبًا من الأبعاض، بل نريد كونه تعالى قائمًا بنفسه غنيًا عن المحل، وعلى هذا التقدير يصير النزاع في أنه تعالى جسم أم لا نزاعًا لفظيًا». (الفخر الرازي: أساس التقديس ص١٠٠، بتحقيق: أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية - القاهرة، سنة ١٩٨٦م، وراجع: السيد الشريف:=

الليث رجع عن الجندية وعاد إلى الله تعالى، ونزل في دار واحد من الكرّامية وكان شيخًا لهم، وحينما رأى فيه دلائل السداد والصلاح والرشاد، زاد في إكرامه ولم يغفل قط في شرط من شروط الشفقة، وزوَّجه ابنته، وبعد ذلك عاد أبي خفيفٌ إلى الجندية، واتجه إلى شيراز، وكانت أمّي قد حملتْ بي فوُلِدْتُ في شيراز»[1].

وقد أشار السلمي في طبقاته إلى هذه النسبة فقال عن ابن خفيف: «كانت أمّه نيسابورية»[2]، ....

=شرح المواقف ج٨ ص٢٩، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، بدون).

ويبدو أن قدماء الكرامية كانوا مجرد مجموعة من النساك والعباد - كما يظهر من تاريخ ابن كرام- ولم يكونوا من أهل التدقيق والتحقيق في المسائل العقدية ما جعلهم يقعون في إشكالات عقدية ترجع في كثير منها إلى الألفاظ، يدل على هذا رأيهم في مسألة نسبة المكان والجهة لله تعالى، يقول أبو بكر الفوركي: «وأمّا الكرامية، فإنهم في بدء أمرهم قالوا: إن الله تعالى على العرش، ثم تركوا ذلك، وقالوا: إن هذا يقتضي تشبيهه وتركيبه، وأن يكون كبعض الموجودات المخلوقات، وهذا لا يجوز، بل نقول: إنه في جهة فوق، ثم تركوا ذلك، وقالوا: حرف «في» يقتضي الظرف والوعاء، تقول: الماء في السطل، والدرهم في الكيس، والدقيق في الجراب، والله تعالى لا يجوز أن يتصف بذلك؛ فاللفظ الذي يُوهم ما يوجب تنزيه الحق ﷻ منه يجب أن يُتجنب، فلا نقول: إنه في جهة فوق، بل نقول: إنه بجهة فوق، ثم تركوا ذلك، وقالوا: لا نقول ذلك أيضًا؛ لأنه يقال: للعرض بجهة الجوهر، وإذا قلنا: إن الله تعالى بجهة فوق أوهمنا أن ذلك يجري مجرى قولنا: إن العرض بجهة الجوهر، بل يُحترز من إطلاق هذا اللفظ الذي يوهم هذا، فنقول: إنه تعالى فوق العالمين، بذلك أن الرائي له إذا نظر إليه نظر إلى جهة، فقالوا: إنه تعالى يتخصص بفوق دون سائر الجهات، لا جهة أفوق منها المدح، وبالكون في غيرها من الجهات ما يتمدح، فوجب أن يخصص ﷻ بما يتمدح به، قالوا: فلهذا قلنا: إنه يختص بجهة فوق دون سائر الجهات». (أبو بكر الفوركي: النظامي في أصول الدين، مخطوطة بمكتبة آيا صوفيا تركيا برقم: ٢٣٧٨).

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٨٨.

(٢) أبو عبد الرحمن السلمي: طبقات الصوفية ص٣٤٥ (بتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، دار الكتب العلمية - بيروت).

وكذلك الذهبي حيث قال: «أقام بشيراز وأمّه نيسابورية»[١].

على أنّ أشهر نسبة لابن خفيف هي نسبته إلى شيراز[٢]، فهي محل إجماع المترجمين له، فبالرغم من تعدد النِّسب كما سبق إلّا أنّ أحدًا من المترجمين لم يغفل أنّ ابن خفيف هو «الشيرازي».

۞ كنيته:

اشتهر ابن خفيف بكنيتين، إحداهما في صغره وهي «أبو الحسين»، والأخرى في كبره والتي ظل مشتهرًا بها طول حياته وهي «أبو عبد الله».

فأمّا «أبو الحسين» فيقول عنها ابن خفيف: «كانت كنيتي في زمن الطفولة أبا الحسين وبها عُرِفْتُ»[٣]، ويبدو من كلامه أنّ الذي كنّاه بهذه الكنية هو أبوه حيث يقول ابن خفيف: «وكان أبي قد كناني في طفولتي بأبي الحسين»[٤].

وأمّا «أبو عبد الله» فهي الكنية التي اشتهر بها ابن خفيف وشاعت في كتب التراجم حيث كان المترجمون يُصَدِّرون التعريف بابن خفيف بهذه الكنية وهي «أبو عبد الله»[٥].

۞ ألقابه:

لقد كثرتْ الألقاب التي أطلقها المترجمون على ابن خفيف وتنوعتْ وبلغت حدًّا

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٥.

(٢) شيراز: بالكسر، وآخره زاي: بلد عظيم مشهور معروف مذكور، وهو قصبة بلاد فارس، وهي ممّا استجدّ عمارتها واختطاطها في الإسلام، قيل: أول من تولّى عمارتها محمد بن القاسم بن أبي عقيل ابن عم الحجاج، وبها جماعة من التابعين مدفونون، وهي في وسط بلاد فارس. (راجع: ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص٣٨١).

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٨٨.

(٤) نفس المصدر ص٨٨.

(٥) راجع المصادر التي ذكرتها منذ قليل في اسمه.

هائلًا، لتدلنا على التقدير والتبجيل الكبيرين اللذين حظي بهما ابن خفيف سواء في صفاته الشخصية أو في جهوده العلمية والصوفية منها خاصة.

وقد لاحَظَت المستشرقة الألمانية «آنّا ماريا شميل» هذه الملاحظة فقالت عن ابن خفيف: «وكانت الصفات الرفيعة، والألقاب السامية التي تُضاف إليه تزداد بمرور الزمن»[١].

والواقع أنّه يمكن تقسيم هذه الألقاب الكثيرة إلى عدة أقسام تضمها حيثيات أربع:

القسم الأول: من حيث البلاد والأماكن التي نشأ بها أو سكنها، وابن خفيف من هذه الحيثية يلقب بألقاب أشهرها: «الضبي»، و«الشيرازي»، و«الفارسي»[٢].

القسم الثاني: من حيث المذهب الفقهي الذي انتمى إليه، وابن خفيف من هذه الحيثية يلقب بـ«الشافعي»؛ لأنّه كان فقيهًا على مذهب الإمام الشافعي[٣].

القسم الثالث: من حيث العلم الذي تخصّص فيه وفاقتْ براعته فيه العلوم الأخرى، وابن خفيف من هذه الحيثية يلقب بـ«الصوفي»[٤].

القسم الرابع: من حيث المكانة الكبيرة التي شغلها عند مريديه ومترجميه، وابن خفيف من هذه الحيثية قد حظي بعدة ألقاب، منها: «شيخ المشايخ»[٥]، و«الشيخ

---

(١) مقدمة «أنا ماريا شميل طاري» لكتاب سيرة الشيخ الكبير ص٥.

(٢) راجع على سبيل المثال: الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٥، وتاريخ الإسلام ج٨ ص٣٦٥، وابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٤٩.

(٣) راجع: ابن عساكر: تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري ص١٩٠ (الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٤هـ دار الكتاب العربي - بيروت)، وحاجي خليفة: سلم الوصول ج٣ ص١٣٦.

(٤) راجع: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج١٠ ص٢٠٤ حيث كان دائمًا يصفه بـ«الشيرازي الصوفي».

(٥) راجع: السلمي: طبقات الصوفية ص٣٤٥، وابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ج١ ص١٤٧ (بتحقيق:=

الكبير»[1]، و«شيخ إقليم فارس»[2]، و«إمام الزمان»[3]، و«قطب الوقت»[4]، و«شيخ الصوفية»[5]، و«إمام الصوفية في وقته»[6]، و«الإمام»[7]، و«الزاهد»[8].

هذا، وقد انفرد فريد الدين العطار بجعل «خفيف» لقبًا وليس اسمًا لوالد محمد بن خفيف، فعلى الرغم من إجماع المترجمين لابن خفيف على أنّ اسمه محمد بن خفيف، أي إنّ خفيفًا هو اسم أبيه، إلّا أنّ فريد الدين العطار قد خالف هذا الإجماع، ففي ترجمته لابن خفيف لم يذكر ما أجمع عليه المترجمون وهو: محمد بن خفيف، بل ترجمه هكذا: أبو عبد الله محمد بن الخفيف[9]، بـ«أل» التعريف، ثم ذكر أن «الخفيف» ليس اسمًا وإنّما هو لقب من ألقاب الشيخ، ثم ذهب يُعلّل سر هذا اللقب وسببه، يقول فريد الدين العطار: «وأطلقوا عليه «الخفيف» لأنّ طعام إفطاره في كل ليلة كان سبع زبيبات لا غير، وكان خفيف الحمل وخفيف الروح، وخفيف الحساب في الآخرة»[10].

وقد أشارت المستشرقة «أنا ماريا شميل» إلى هذه النقطة التي ذكرها العطار فقالت

=د/ الحافظ عبد العليم خان، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ عالم الكتب - بيروت).

(١) راجع: اليافعي: مرآة الجنان ج٢ ص٢٩٨ (وضع حواشيه: خليل المنصور، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية - بيروت)، وفريد الدين العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٣ (ترجمة: د/ منال اليمني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٩م).

(٢) راجع: الذهبي: تاريخ الإسلام ج٨ ص٣٦٥.

(٣) راجع: الهجويري: كشف المحجوب ص٣٧٠.

(٤) راجع: العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٣.

(٥) راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٥.

(٦) راجع: ابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ج١ ص١٤٧.

(٧) راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٥.

(٨) راجع: الذهبي: تاريخ الإسلام ج٧ ص٣٤.

(٩) فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٣.

(١٠) نفس المصدر ج٢ ص٢١٤.

عنه: «أمّا بالنسبة للعطار المتوفى (١٢٢٠م - ٦٢٧هـ) فقد جمع كل ما وصل إلى يديه من معلومات عن ابن خفيف بانتباه وكدح، ولأنّه قرأ اسم الشيخ على أصوله الفارسية فهم أنّ «خفيفًا» لقب له فجاهد في شرح معنى هذا اللقب»[١].

ورغم أنّ هذه الأوصاف التي وصف العطار بها ابن خفيف لتعليل كون «خفيف» لقبًا وليس اسمًا، رغم أنّها أوصاف صادقة على ابن خفيف الذي اشتهر عنه التقلّل والتزّهد والتخفّف الشديد من متاع الدنيا حتى في طعامها، وقد رُويت عنه روايات تكاد لا تصدق لولا إجماع الثقات عليها، أقول: بالرغم من هذا إلّا أنّ الراجح هو أنّ «خفيفًا» اسم لأبيه وليس لقبًا له، ويؤيد هذا كلام ابن خفيف نفسه الذي يقول أثناء الحديث عن أبيه وأمه: «كانت أمّي من مدينة نيسابور من بنات الكرّامية، والسبب في أنّ والدي خفيفًا تزوّج بها...»[٢].

فهذا يدل على أنّ «خفيفًا» هو اسم والده وليس لقبًا، فإذا أضفنا إلى ذلك إجماع المؤرخين ثبت أنّ انفراد العطار بذكر أنّ «خفيفًا» هو لقب، وليس اسمًا إنّما هو مخالف لإجماع المترجمين والرواة على أنّ «خفيفًا» هو اسم أبي الشيخ الكبير.

وعلى أيّة حال فإنّ هذه الألقاب الكثيرة تدل على قيمة الشيخ ومكانته، إلّا أنّه يبقى أنّ أهم لقبين للشيخ هما «شيخ المشايخ» و«الشيخ الكبير» بحيث أصبحا كأنهما مختصان به، وهذا ما أشار إليه ابن الجنيد الشيرازي حين قال عن ابن خفيف: «ولم أرَ في طبقات الشيوخ من دُعِيَ بشيخ المشايخ والشيخ الكبير غيره»[٣].

---

(١) مقدمة «أنا ماريا شميل طاري» لكتاب سيرة الشيخ الكبير ص١٠،١١.

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٨٨.

(٣) نفس المصدر ص٨٤.

المبحث الثاني
أسرته

تُجمِع المصادر التي ترجمت للشيخ الكبير أنّه كان من أسرة مرموقة أبًا وأمًّا، حيث كان أبوه من كبار القوّاد العاملين مع أمير بلادهم، وكانت أمّه بنت رئيس طائفة الكرّامية، وبين هاتين الأسرتين اللتين ينتمي إليهما الأب والأم وُلِدَ محمد بن خفيف.

ونستطيع أن نشير إلى معلومات تؤيد هذا حول الأب والأم:

❁ **الأب:**

يُصرح المترجمون لابن خفيف بأنّه كان من أولاد الأمراء، فيقول الذهبي والسبكي وابن العماد وغيرهم: «كان أبو عبد الله من أولاد الأمراء فتَزَهَّد»[1]، فهل يعني هذا أنّ والد ابن خفيف كان أميرًا حقًّا؟.

الواقع أنّ وصف والد ابن خفيف بأنّه كان أميرًا جرى من المؤرخين مجرى التسامح والتساهل؛ لأنّه في الحقيقة لم يكن أميرًا حقيقيًا، بل كان من المُقَرَّبين إلى الأمراء، فهو كان قائدًا من قوّاد أمير البلاد في زمانه، يقول الديلمي عن ابن خفيف: «اعلم أنّ والده كان من ضمن قوّاد عمرو بن الليث[2]..،

(١) راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٦، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٠، وابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٣٨٦ (حققه: محمود الأرناؤوط، خرّج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار ابن كثير، دمشق - بيروت).

(٢) عمرو بن الليث: أخو يعقوب بن الليث السجستاني المَلِكَين، كان هو وأخوه صفارين بسجستان يصنعان النحاس، وقيل: كان عمرو مكاري حمير، وَلِيَ عمرو بن الليث مملكة فارس متغلّبًا عليها بعد موت أخيه، وقد جرتْ لهما أمور يطول شرحها، وتقلبتْ بهما الأمور حتى بلغا درجة السلطنة بعد الصنعة في الصُّفر،=

وكان عمرو بن الليث هذا من الديالمة»[١].

وعمرو بن الليث هذا كما هو واضح من ترجمته كان ثاني أمراء الدولة الصفارية وَوَلَّاه الخلفاء ولايات كثيرة، فيكون والد ابن خفيف - وهو أحد قوّاده- من مشاهير الساسة ورجال الحكم في عصره، وهذا ما دَعَى المترجمين أن ينسبوه إلى الإمارة، وإن لم يكن أميرًا حقيقيًا.

هذا فيما يخص والد ابن خفيف.

❁ الأم:

لا تكاد تُذكر والدة الشيخ الكبير إلّا وتقترن بذكرها مجموعة من الصفات التي تدل على تقواها وصلاحها الكبيرين، ومن هنا كانت الأمّ التَقِيَّة ذات تأثير كبير في الدفع بولدها الوحيد خطوات واسعة في طريق الله تعالى.

ويدل على مكانتها أنّ مِن المترجمين مَنْ أفرد لها ترجمة خاصة كما فعل جنيد الشيرازي في «شد الإزار»، فقد ترجم لها في فصل خاص بعنوان: «الست أمّ محمد والدة الشيخ الكبير»[٢]، وذكر فيه عنها أنها «كانت من العابدات القانتات ولها مكاشفات

=وقد دخل في طاعة الخلفاء، فولي للمعتضد إمرة خراسان، وامتدتْ أيامه واتسع سلطانه، وقال عنه الزركلي: ثاني أمراء الدولة الصفارية، وأحد الشجعان الدهاة، ولي بعد وفاة أخيه يعقوب، وأقرّه المعتمد العباسي على أعمال أخيه كلها وهي: خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان، توفي سنة ٢٨٩هـ. (راجع في ترجمته: الذهبي: تاريخ الإسلام ج٦ ص٧٨٧، وسير أعلام النبلاء ج١٢ ص٥١٦، وابن خلكان: وفيات الأعيان ج٦ ص٤٣٠ (بتحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت)، والزركلي: الأعلام ج٥ ص٨٤ (الطبعة الخامسة عشر سنة ٢٠٠٢م، دار العلم للملايين).

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٨٨.

(٢) الجنيد الشيرازي: شد الإزار ص٣٦٨.

ومشاهدات»[1].

ويتحدّث الشيخ الكبير عن والدته، فيقول: «كانت أمّي من مدينة نيسابور من بنات الكرّامية، والسبب في أنّ والدي خفيفًا تزوّج منها أنّه حينما نزل خراسان مع عمرو بن الليث رجع عن الجندية وعاد إلى الله تعالى، ونزل في دار واحد من الكرّامية وكان شيخًا لهم، وحينما رأى فيه دلائل السداد والصلاح والرشاد زاد في إكرامه، ولم يغفل قط عن شرط من شروط الشفقة، وزوَّجه ابنته، وبعد ذلك عاد أبي خفيف إلى الجندية، واتجه إلى شيراز، وكانت أمّي قد حملت بي فولدت في شيراز»[2].

ويذكر جنيد الشيرازي حكاية عن ابن خفيف تدل على مكانة والدته في العبادة ورسوخ قدمها في الوصول إلى المقامات العالية، فيقول: «روي أنّ الشيخ - أي: ابن خفيف - قام ليلة من رمضان في العشر الأخير ليدرك قدرها فجعل يصلي على سطح الدار وكانت والدته في البيت متوجّهة إلى الله تعالى، فكوشفتْ بأنوار القَدْر، فنادته يا محمد يا ولدي: ههنا ما تطلبه، فنزل الشيخ عن السطح فرآها في تلك الأنوار، فوقع في قدمها حتى أخذ منها بنصيب، وكان الشيخ بعد ذلك يقول: الآن عرفتُ قدر الوالدة»[3].

وامرأة بهذه الصفة لا شك أنها أثّرتْ في ولدها تأثيرًا كبيرًا، وقد أشارت «أنا ماريا» إلى ذلك، فقالت: «وكانت والدته - التي انحدرت من بيئة دينية - امرأة طاهرة جدًا، عميقة الروح، ويُخصص لها كل من الجنيد الشيرازي في كتابه «شد الإزار»، وجامي في «نفحات الأنس» بابًا مستقلًا، وأغلب الأمر أنّ هذه السيدة تَرَكَتْ أثرًا عميقًا في طفلها الوحيد

---

(١) نفس المصدر ص٣٦٨.

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٨٨.

(٣) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٣٦٩.

محمد»[1].

ونستطيع أن نُدلل على هذا التأثير من هذه الوالدة المباركة على ابنها بمثالين:

الأول: أنّها كانت تُشجع ابنها على تحصيل العلم وتحتفي به عند إنجاز شيء من العلوم، وذلك كما فعلتْ عند فراغ ابنها من كتابة الحديث على بعض المشايخ، يتحدّث ابن خفيف عن ذلك فيقول: «لما فرغتُ من كتابة الحديث عن ابن سعدان ورجعتُ من فَسَا[2] إلى شيراز كانت لوالدتي دعوة حضر فيها المشايخ والصوفية»[3].

فهي تُشجع ابنها وتحتفي به، وتدعو له العلماء والمشايخ فرحًا واحتفالًا.

الثاني: أنّ ابن خفيف قد حصلتْ بينه وبين شيخين من كبار مشايخ الصوفية في عهده وهما الشيخ أبو العباس بن عطاء والشيخ أبو محمد الجريري مناقشة في مسألة علمية واحتجّ ابن خفيف لرأيه بالقرآن الكريم والسنة النبوية، فأُعجب به الشيخ أبو العباس بن عطاء وأراد أن يُلبسه خرقة خاصة به، فلم يُجبه ابن خفيف؛ وذلك لأنّ أمّه كانت قد ألبسته خرقة، فلم يشأ ابن خفيف أن يخالف أمّه أو أن يخلع خرقتها، فأُعجب به الشيخ أبو العباس بن عطاء وعدَّ هذا من حفظ الجميل لأمّه، يتحدّث الشيخ الكبير عن هذا فيقول: «وحينما انتهت المناقشة أخذني أبو العباس إلى منزله وأحضر لي طعامًا فأكلتُ، وجاهد كثيرًا في أن يُلبسني خرقة ولم أقبل، فقال: لماذا لا تقبل؟ قلتُ: هذه الخرقة التي معي

---

(١) مقدمة المستشرقة «أنا ماريا شميل طاري» لسيرة الشيخ الكبير ص١٨.

(٢) فَسَا: بالفتح، والقصر، كلمة عجمية، وعندهم بسا، بالباء، وكذا يتلفظون بها وأصلها في كلامهم الشمال من الرياح: مدينة بفارس، وهي مدينة مفترشة البناء واسعة الشوارع تقارب في الكبر شيراز، وهي أصحّ هواء من شيراز وأوسع أبنية، وهي مدينة قديمة ولها حصن وخندق، ومن شيراز إلى فسا سبعة وعشرون فرسخًا. (ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٢٦١).

(٣) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٣٦٩.

ألبستني أمّي إياها، ولا يستطيع غيرها أن يخلعها عني، وحينما سمع أبو العباس هذا الكلام توجّه إلى أصحابه، وقال: انظروا كيف يراعي الأصول، وكيف يحفظ جميل أمه؟»[1].

وهكذا أثّرت الأمّ في ابنها تأثيرًا إيجابيًا، فعرف الابن البارّ قدرها وحفظ جميلها.

وقد توفيتْ هذه الأمّ المباركة كما يذكر جنيد الشيرازي «قبل الشيخ بسنين، ودُفنت عند القنطرة العليا بدرب اصطخر في حظيرتها»[2].

وهكذا تعرّفنا على والدي ابن خفيف اللذين بينهما وُلِدَ ونشأ وبدأ مراحله الأولى.

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٩.

(٢) شد الإزار ص٣٧١.

المبحث الثالث
نشأته

لم تذكر المصادر المختلفة تفاصيل كثيرة عن نشأة ابن خفيف ولا عن أيام طفولته، لكن هناك إشارات خفيفة يمكن من خلالها أن نستوضح أهم معالم حياة ابن خفيف ونشأته الأولى، ومن ذلك ما يلي:

❁ أولًا: ميله المبكر إلى الزهد والاجتهاد في العبادة:

وهذا ما نستطيع أن نفهمه من كلام المترجمين لحياة ابن خفيف حيث ذكروا جميعًا أنّه «كان من أبناء الأمراء فتزهّد»[1]، وقد وضّحنا فيما سبق المقصود من كونه من أبناء الأمراء، وبهذا يظهر أنّه كان في رغد من العيش كونه أحد أبناء قوّاد أمير البلاد، ومع ذلك ترك ذلك وبدأ في طريق الزهد والاجتهاد في العبادة، فـ«أظهر ابن خفيف منذ طفولته شغفًا شديدًا بمزاولة الزهد والرياضة»[2].

والواقع أنّ تَرْكَ ابن خفيف الغنى واختيار الزهد له أشباه في سِيَرِ الصوفية الكبار، فإبراهيم بن أدهم كما يقول القشيري: «كان من أبناء الملوك فخرج يومًا متصيّدًا، فأثار ثعلبًا أو أرنبًا وهو في طلبه، فهتف به هاتف: يا إبراهيم ألهذا خُلقت أم بهذا أُمرت؟ ثم هتف به أيضًا من قَرَبُوس[3] سَرْجه: والله ما لهذا خُلقت ولا بهذا أُمرت، فنزل عن دابته وصادف راعيًا لأبيه، فأخذ جُبّة للراعي من صوف ولبسها وأعطاه فرسه وما معه، ثم إنّه دخل

---

(١) راجع: الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٢ ص٣٤٦، وابن السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٠، وابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٣٨٦.

(٢) مقدمة «أنا ماريا شميل طاري» لسيرة الشيخ الكبير ص٢١.

(٣) القَرَبُوس: حِنْوُ السَّرْج، أي قسمه المُقَوَّس المرتفع، وللسرج قربوسان من قدَّام المقعد ومن مؤخره. (راجع: ابن منظور: لسان العرب ج٦ ص١٧٢).

البادية»[1].

والحارث المحاسبي «ورث من أبيه سبعين ألف درهم فلم يأخذ منها شيئًا، قيل: لأنّ أباه كان يقول بالقَدَر، فرأى من الورع أن لا يأخذ من ميراثه شيئًا»[2].

وشقيق البلخي الذي «كان من أبناء الأغنياء، خرج للتجارة إلى أرض التُرك وهو حَدَثٌ فدخل بيتًا للأصنام فرأى خادمًا للأصنام فيه قد حلق رأسه ولحيته ولبس ثيابًا أرجوانية، فقال شقيق للخادم: إنّ لك صانعًا حيًا عالمًا قادرًا فاعبده ولا تعبد هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فقال: إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك، فلِمَ تَعَنَّيتَ إلى هاهنا للتجارة، فانتبه شقيق وأخذ في طريق الزهد»[3].

والأمثلة على ذلك كثيرة، إلّا أنّ المُلفت للنظر في تزهّد ابن خفيف وتركه للغنى وعَرَض الدنيا أنّه كان في مرحلة مبكرة جدًا من حياته، وقد كان هذا الأمر موضع ملاحظة الباحثين، حيث تقول «أنا ماريا» عن ابن خفيف: «إنّ هذه التوبة وهجر الرفاهية حالة لم تحدث بعد شبابه، بل كانت حالة روحية موجودة منذ طفولته، فمنذ طفولته وهو يثير الدهشة في البيئة المحيطة به بتدينه»[4].

والحقيقة أنّه يمكننا بسهولة أن ندرك سبب هذا الميل المبكر، وهذا الاتجاه الزهدي الذي سلكه ابن خفيف إذا وضعنا في الاعتبار تلك الأمّ الصالحة التي أثّرَتْ في ابنها هذا التأثير الإيجابي الكبير، ومن هنا ندرك حكمة الإسلام في الأمر بالتدقيق في اختيار الزوجة

---

(١) القشيري: الرسالة القشيرية ص٢٢ (بتحقيق: الإمام الأكبر د/ عبد الحليم محمود ود/ محمود ابن الشريف، دار المعارف - القاهرة، بدون).

(٢) نفس المصدر ص٣٢.

(٣) نفسه ص٣٦.

(٤) مقدمة «أنا ماريا شميل» لسيرة الشيخ الكبير ص٢١.

التي سوف تصبح بعد ذلك أمًّا عليها تتفتح أعين الأبناء أول ما تتفتح، وبها يتأثرون أول ما يتأثرون.

من صور الزهد عند ابن خفيف:

ومن صور الزهد والتقشُّف التي اشتهرت عن ابن خفيف زهده في الملبس الضروري: وهذا ما رواه أبو الحسن الديلمي عن ابن حفيف قال: «أخذتُ أتردد في المزابل فترة حتى جمعتُ بعض الخرق، وغسلتُها وخطتُ منها قميصًا، واشتريتُ رداءً بثلاثة دراهم، وكنتُ ألبسه بين الناس فوق ذلك القميص، وذات يوم جاءني درويش كان لي معه حق الصحبة ذات سفر، وكان يرتدي رداء خَلِقًا باليًا فآثرتُه بذلك الرداء العلوي وخلعتُه عليه، وبقيتُ طيلة الشتاء في المنزل من شدة البرد، وبعد فترة هيأتُ قميصًا وارتديتُه وخرجتُ»[1].

وواقع الأمر أنّ ابن خفيف لم يكن بدعًا في الزهد في الثياب والتقشف فيه إلى هذا الحد، وذلك أنّه في ذلك ملتزم بسيرة الزهاد والصوفية من قبله ومن بعده، حيث جعلوا للثياب ضابطًا لا بُدَّ منه، يقول الغزالي: «وأقل درجته: ما يدفع الحرّ والبرد ويستر العورة، وهو كساء يتغطى به، وأوسطه: قميص وقلنسوة ونعلان، وأعلاه: أن يكون معه منديل وسراويل، وما جاوز هذا من حيث المقدار فهو مجاوز حد الزهد»[2].

وقد وصف الغزالي حال أويس القرني ﷺ وما كان عليه من الزهد، ومن ذلك طعامه وثيابه فقال: «وكان طعامه أن يلتقط النوى، وكلما أصاب حشفة خبّأها لإفطاره، وإن لم يصب ما يقوته من الحشف باع النوى، واشترى بثمنه ما يقوته، وكان لباسه ممّا يلتقط من المزابل من قطع الأكسية، فيغسلها في الفرات ويلفق بعضها إلى بعض، ثم يلبسها فكان

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٦، وراجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٠.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين ج٤ ص٢٣١ (دار المعرفة - بيروت، بدون).

ذلك لباسه»[1].

وكذلك: «قال يحيى بن معين: رأيتُ أبا معاوية الأسود، وهو يلتقط الخرق من المزابل ويغسلها ويلفقها ويلبسها، فقلتُ: إنّك تُكسى خيرًا من هذا، فقال: ما ضرهم ما أصابهم في الدنيا جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة، فجعل يحيى بن معين يُحدّث بها ويبكي»[2].

ومن صور زهده أيضًا زهده في المال: يقول ابن خفيف: «مرت أربعون سنة لم تجب عليّ فيها زكاة فطر، مع أني كنتُ مُقتدى الخلق ومقبولًا لدى الخاص والعام»[3]، ومعنى ذلك أنّه ظل مدة أربعين سنة لا يملك شيئًا زائدًا عن قوت يومه حتى يُخرج منه زكاة فطره.

ولكن هناك روايات أخرى تقول بأنّه كان يملك الكثير، ولكنّه كان يتصدّق به حتى لا يبقى عنده شيء، يروي الحافظ ابن عساكر عن أبي أحمد الكبير خادم ابن خفيف يقول: «كان أبو عبد الله إذا أراد أن يَخرج إلى صلاة الجمعة يقول لي: هات ما عندنا، فأحمل إليه كل ما قد فتح من الذهب والفضة وغيره، فيفرّقه كله ثم يخرج إلى صلاة الجمعة، وكان كل سنة في أوان يُخرج جميع ما عنده من الثياب حتى لا يبقي لنفسه ما يَخرج به إلى الناس»[4]، فهذا يعني أنّه كان في بعض الأوقات يمتلك الشيء الكثير من المال، ولكنّه كان ينفقه ويتصدق به.

ومن صور زهد ابن خفيف زهده في المأكل الضروري: يروي الديلمي في ذلك رواية عن الشيخ فيقول: «في بداية رياضتي مَرَّ عليّ أربعون يومًا لم أكن أُطعم فيها إلا كف من

(١) نفس المصدر ج٣ ص٢٢٢.

(٢) الغزالي: الإحياء ج٤ ص٢٣٥، وراجع: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٦٧ ص٣٤٢.

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٦، وراجع: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٢ ص٤١٦.

(٤) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٢ ص٤١٦، وراجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٢.

الباقلاء كل ليلة، ثم افتصدتُ ذات يوم وكان الدم الذي خرج مني كأنّه ماء لحم، فغبتُ عن نفسي وأُغمي عليّ، وفجأة مَرَّ طبيب كان يعتقد في هذه الطائفة، ورآني على هذا الحال فاغتم، وغضب على الفصّاد غضبًا شديدًا، وقال: إلى هذا الحد لا تعلم أنّه لا يوجد دم في أمثال هذا الرجل، ثم حملني وأخذني إلى داره، وأخذ يعالجني عدة أيام، ويعطيني الأغذية المقوية، حتى عاد إليّ الرمق، واستردتُ قليلًا من القوة»(١).

وكذلك رُوي في زهده وتقلّله من الطعام الضروري هذه الرواية التي ذكرها ابن عساكر والسبكي: «قال بعض أصحاب ابن خفيف: أمرني ابن خفيف أن أُقَدِّم كل ليلة إليه عشر حبات زبيب لإفطاره، قال: فأشفقتُ عليه ليلة فجعلتُها خمس عشرة حبة، فنظر إليّ وقال: مَنْ أمرك بهذا؟ وأكل منها عشر حبات وترك الباقي»(٢).

ويروي فريد الدين العطار هذه الرواية بصيغة أخرى، فيقول: «وكان إفطاره في كل ليلة سبع زبيبات لا غير، وذات ليلة أعطاه الخادم ثمان زبيبات ولم يعلم الشيخ فأكلها، فلم يجد حلاوة الطاعة التي اعتادها في كل ليلة، فاستدعى الخادم وسأله عن الحال، فقال: أعطيتك الليلة ثمان زبيبات، فقال الشيخ: لماذا؟ قال: وجدتُك ضعيفًا فتألمتُ وقلتُ حتى تقوى، قال الشيخ: إنّك لست صاحبي بل عدوي، فإن كنتَ صاحبي لأعطيتني ست زبيبات لا سبع، وأقصاه الشيخ عن خدمته، واتخذ خادمًا آخر»(٣).

ومن صور زهده في الطعام أنّه كان يؤثر به إخوانه وجيرانه على نفسه، يروي ذلك خادمه، فيقول: «كان من عادة الشيخ حين يوضع الطعام أمامه ألّا يمد يده إليه حتى يُكثر من السؤال عن الإخوان والجيران هل أكلوا شيئًا أو لا؟ فإذا قيل له: قد أكلوا، أكل، وإلا

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٨.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٢ ص٤١٦، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٢.

(٣) العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٤.

آثرهم بطعامه»(١).

وهذا الزهد والتقلّل من كل شيء كان منهجًا أخذ به ابن خفيف نفسه، وحملها عليه حملًا، وقد طبّقه ابن خفيف عمليًا كما رأينا وجعله من أصول منهجه النظري بقوله: «ليس شيء أضر على المريد من مسامحة النفس في ركوب الرخص، وقبول التأويلات»(٢).

كانت هذه صورًا لزهد ابن خفيف.

من صور الاجتهاد في العبادة عند ابن خفيف:

ومن صور الاجتهاد في العبادة منذ زمن طفولته: ما يقوله عن نفسه: «كنتُ قد نظمتُ أوقاتي في زمان الطفولة من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح، بحيث لم أكن لأضيّع لحظة واحدة، ففي بداية النهار حينما يُشرق الصباح كنتُ أقوم بصلاة الفرض وأشتغل بقراءة القرآن، وذلك حتى ترتفع الشمس في السماء، ثم أصلي الضحى وأعمل بصناعة الأحقاق، ولم أكن أعرف من الحرف ما يزيد عنها، وأقوم بهذا الأمر حتى صلاة الظهر فأقوم بفرضها وسننها، وأقوم ببعض النوافل حتى صلاة العصر، فأقوم بها فرضًا وسنة، وحينما أنتهي من صلاة العصر أذهب إلى سماع الحديث حتى المغرب، وحينما أفرغ من فرض المغرب أتلو أورادي حتى صلاة العشاء، وحينما أنتهي منها لا أترك أورادي، ثم أذهب إلى منزلي وأفطر، وأقوم بعد ذلك بكتابة الأحاديث الأربعين للرسول ﷺ، ثم أنام ساعة من الليل، وأستيقظ بعد ذلك فأصلي إلى الصباح»(٣).

ويُعلق الديلمي على هذا التنظيم لأوقات الشيخ واجتهاده في الذكر والعبادة فيقول: «وحقيقة: إنّ المواظبة على العبادات وتوزيع الأوقات على الطاعات تَشَبُّهٌ بالملائكة؛ إذ

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٠٠.

(٢) القشيري: الرسالة القشيرية ص٨٢، وراجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص١٥٥.

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٣.

إنّهم يواظبون على التسبيح والتهليل، وهم ملازمون لتمجيد الحق تعالى وتعظيمه، ويذكر الحق صفتهم في القرآن الكريم قائلًا: ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]»[1].

ومن صور الاجتهاد المواظبة على حضور الجماعة في المساجد حتى ولو كانت له رخصة في عدم الحضور: يروي ذلك ابن عساكر عن الديلمي: «قال بعض المشايخ: كان بالشيخ - أي: ابن خفيف - قديمًا وجع الخاصرة، فكان إذا أخذه أقعده عن الحركة، فكان إذا أقيمت الصلاة يُحمل على الظهر إلى المسجد ليُصلي، فقيل له في ذلك: لو خَفَّفْتَ على نفسك لكان لك سعة في العلم، فقال: إذا سمعتم حي على الصلاة ولا تروني في الصف فاطلبوني في المقابر، قال - الديلمي-: وسمعتُ عبد الرحمن يقول: ما رأيتُ الشيخ قط فاتته تكبيرة الإحرام في جميع صلواته منذ رأيته»[2].

ويذكر الشيخ عن نفسه أيضًا صورة من صور الاجتهاد في العبادة: فيقول: «ذات يوم قال لي عبد الله الأزرقاني - وهو شيخه في الحديث -: يا أبا عبد الله، يلزمك اليوم أن تشاركنا في صلوات النوافل ونرجئ درس الحديث إلى يوم آخر، فقلتُ: الأمر كما أراد الشيخ، وإلى أن حانت صلاة العصر ربما صليت ألف ركعة»[3].

ويقول ابن خفيف عن نفسه أيضًا: «ربما كنتُ في ابتداء عمري أقرأ القرآن كله في ركعة واحدة، وربما كنتُ أصلي من الغداة إلى العصر ألف ركعة»[4].

ومن صور اجتهاده البالغ في متابعة سنة النبي ﷺ: ما يُروى عنه أنّه قال: «ما سمعتُ

---

(١) نفس المصدر ص٩٣، ٩٤

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٢ ص٤١٥، وراجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٤.

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٢، ٩٣.

(٤) نفس المصدر ص٩٣، وراجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١١٤.

شيئًا من سُنَّة النبي ﷺ إلّا استعملته، حتى الصلاة على أطراف الأصابع»[1].

ويؤكد فريد الدين العطار على هذه الروايات السابقة، واجتهاد الشيخ الكبير فيقول: «انشغل أبو عبد الله بأمر الدين في بداية حاله، فكان يقرأ عشرة آلاف مرة في ركعة واحدة «قل هو الله أحد»، وكثيرًا ما كان يُصلي ألف ركعة من الغداة إلى العصر»[2].

واستمر على تلك الحالة من الاجتهاد في العبادة حتى آخر حياته حيث روي عنه أنّه «لمّا ضعف في آخر عمره عن القيام في النوافل، فجعل بدل كل ركعة من أوراده ركعتين قاعدًا، للخبر: «صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم»[3]»[4].

وهكذا مال الشيخ الكبير إلى الزهد والاجتهاد في العبادة منذ مراحل عمره الأولى.

❁ ثانيًا: مشايخ ابن خفيف يتنبأون له بمنزلة كبيرة في طريق التصوف:

بناء على هذا الاجتهاد والزهد اللذين ألزم ابن خفيف بهما نفسه، وكان مُلفتًا للأنظار فيهما تَنَبَّأَ له مشايخه بأنّه سيكون صاحب مقام راسخ، ومنزلة كبيرة في طريقهم.

وأول من بَشَّرَه بذلك هو شيخه الأول الذي تلمذ عليه أول مرة، وهو أحمد بن يحيى، فقد اختبره ذلك الشيخ وبشّره بمكان عظيم في طريق الله تعالى.

يتحدّث الشيخ الكبير عن هذا، فيقول: «حينما أردتُ في زمن الطفولة أن أشرع في

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥١.

(٢) العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٤.

(٣) عن عمران بن حصين ﷺ – وَكان مَبْسُورًا – قال: سألتُ رسول الله ﷺ عن صلاة الرجل قاعدًا، فقال: «إن صلى قائمًا فهو أفضل ومن صلى قاعدًا، فله نصف أجر القائم، ومن صلى نائمًا، فله نصف أجر القاعد». (أخرجه البخاري في الصحيح، أبواب «تقصير الصلاة»، باب «صلاة القاعد»، ج٢ ص٤٧ برقم ١١١٥ (بتحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٢هـ دار طوق النجاة «مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي»).

(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥١.

أحوال الآخرة، وأن أَجِدَ نصيبًا من عالم الملكوت، كنتُ أتردد على أحمد بن يحيى، فقال لي ذات يوم: اتبعني، فتبعته، حتى وصلنا إلى دكان قصّاب، فقصد أحمد الدكان، واشترى قطعة من اللحم، وقال لي: احمل هذا اللحم بيديك واذهب به إلى منزلي ثم عُدْ إليّ، فأخذتُ اللحم وذهبتُ إلى أحد المساجد، ووضعتُ اللحم أمامي وأخذتُ أفكر: هل أحمل هذا اللحم بنفسي أو أكتري حمالًا، وبينما كنتُ أفكر في هذا الأمر تذكرتُ قول أحمد: احمل بيديك، فرجحتُ إشارته على إرادتي، وحملتُه بنفسي وأوصلتُه بنفسي إلى منزله، ثم عدتُ إليه وحدّثتُه بما جرى، فابتسم الشيخ وبشرني قائلًا: هذا دليل على ما سيكون لك من مقام عظيم عند الله تعالى»[1].

ويروي الشيخ الكبير بشارة أخرى من شيخه هذا، فيقول: «كان من عادتي ألّا أتناول طعامًا بعد المغرب حتى أنتهي من أورادي، وذات ليلة أتت أمّي ببعض الرطب، وكنتُ في الصلاة وخطر لي أن آكل أولًا ثم أشتغل بالصلاة، وفي اليوم التالي نقلتُ هذا الأمر إلى شيخي أحمد بن يحيى أثناء المحادثة، فضحك وهنّأني قائلًا: طوبى لمن كانتْ هذه سيرته وطريقته، وكانتْ هذه أول واقعة أسأل فيها الشيخ أحمد»[2].

وهكذا كان مشايخه يبشرونه بمقام كبير ينتظره في طريق التصوف، فكان مُقَدَّمًا فيهم رغم حداثته، وتبعه قوم من الصوفية، بل قدّمه المشايخ الكبار.

ويذكر الديلمي رواية في ذلك عن الشيخ نفسه، فيقول: «قال الشيخ رَحِمَهُ اللهُ: أول ما صنفتُ كان كتاب «شرف الفقر»، وأخذه مني أحد الأصحاب واسمه أبو بكر بن يزيد، وقد أوصيتُه قائلًا: لا تُظهره لإنسان قط.

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩١.

(٢) نفس المصدر ص٩٢.

وذات يوم اتفق لي أن حضرتُ حديث جماعة من المشايخ، وكان أبو بكر يقرأ عليهم هذا الكتاب فاستحسنوه كثيرًا وسألوه: مَنْ هو مُصنف هذا الكتاب؟ فأشار أبو بكر إليّ، فتعجّب الجميع وتحيّروا، ثم حان وقت الصلاة فأشاروا إليّ قائلين: أُمَّنا، فقلتُ: إنّ الشيوخ أليق بالإمامة والقيادة، فقالوا جميعًا: إنّ شخصًا له هذا الكلام تقديمه وجعله مقتدى للمرء من جملة الواجبات»[1].

وأصبح للشيخ مريديون وطلاب منهم المشايخ في وقته، وهو بعد لم يجاوز مرحلة البداية، كما يقول هو عن نفسه: «صرتُ في زمن البداية رئيسًا لجملة من المشايخ، وقائدًا لجملة من الصحاب، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[2].

ويؤكد الهجويري على هذه الحقيقة، فيقول عن الشيخ الكبير: «كان إمام زمانه في مختلف العلوم، وذا شأن عظيم في المجاهدات، وبيان شافٍ في الحقائق»[3].

ويذكر العطار تَقَدُّم ابن خفيف في الطريقة، واتخاذ الصوفية له شيخًا رغم حداثته، فيقول: «كان شيخ مشايخ عهده، أوحد زمانه، وكان قدوة في علوم الظاهر والباطن، ورجع إليه أهل الطريقة في ذلك الوقت، وحظي ببصيرة عظيمة وذكاء حاد، واحترام وفير، وفضائله لا تُحصى، ولا يمكن ذكرها، كان مجتهدًا في الطريقة، وله فيها مذهب خاص، وتدين له جماعة من الصوفية بالولاء»[4].

فعلى الرغم من حداثة عهده وصغر سِنّه إلّا أنّ اجتهاده في العبادة ومواظبته على آداب الطريق أدى به إلى أن يكون مُقدَّمًا ذا شأن يُتنبأ له به من شيوخه.

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٧.

(٢) نفس المصدر ص٩٧.

(٣) الهجويري: كشف المحجوب ج١ ص٣٧٠.

(٤) العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٣.

❁ ثالثًا: طاعته التامة لمشايخه:

إنّ العلاقة بين المريد ومشايخه لها خصوصيتها في طريق التصوف، ولها أهميتها الكبيرة عن أي مجال علمي أو تربوي آخر، ذلك أنّه «لا غني لمن يسلك الطريق عن شيخ خبير بصير، تَهَذَّبَ وسَلَكَ وتَمَرَّنَ وتَفَرَّسَ، والتربية الصوفية في هذا الجانب منفردة عن أي نوع أو أي مجال تربوي؛ إذ يمكن لكثير من المعارف أن تُحَصَّل بدون قائد أو دال، ويمكن للخبرة الإنسانية وحدها أن تكشف كثيرًا ممّا نحتاج في المجالات الأخرى، وتلعب تجربة الخطأ والصواب دورًا هامًا في غير مجالنا الروحي، أمّا في هذا الميدان النفسي والروحي والقلبي فلا يُسعفنا إلا عارف ولا يقودنا إلا من حمل المشعل وقطع الدرب، ولا يُسَلِّكُنا إلا مَنْ تَخَلَّصَ من العوائق والعوارض، ولا يدلنا على النهايات إلا مَنْ سار إليها مرة، ولا يجتاز بنا المواقف الصعبة إلا مَنْ تخطّاها، ولا يحل لنا ألغاز الرحلة إلا مَنْ عكف عليها طويلًا، وسهر على حلها في نفسه أولًا، ونظر بعين قلبه، وأبصر ضوء معرفته وذاق حلاوة يقينه، ولا يُلَقِّن موات نفوسنا ما ينجيها إلا مَنْ ذهب إلى ديار السرّ، واقتحم حجب النور، وكشف له الستر، فعرف أسرار النجاة، وردد عبارة الحياة، ولفظة الخلود، مقتربًا من نور الأزل، متحققًا بكلمة التوحيد، متحسّسًا معاني الوهب، متذوّقًا كلمات الفتح، يسمع همس الخاطر وإلهام الحاضر»[1].

وإذن: «فالمشايخ هم الطريق إلى الله ﷻ والأدلّاء عليه والباب يُدْخَل منه عليه، فلا بُدَّ لكل مريد لله ﷻ من شيخ إلّا على الندور والشذوذ»[2].

«وقد أجرى الله العادة بأن يكون في الأرض شيخ ومريد، صاحب ومصحوب، تابع

(١) أستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي: التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة ج٤ ص٢٤٠، ٢٤١.

(٢) عبد القادر الجيلاني: الغنية لطالبي طريق الحق ج٢ ص٢٨١ (بتحقيق: صلاح عويضة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية - بيروت).

ومتبوع، من لدن آدم إلى قيام الساعة»[١].

وهذا من تَطَلُّبات الطريق ومهماته الأولى التي لا يتم الطريق إلّا بها، أو على حد تعبير أبي الحسن الشاذلي: «لا يتم سلوك طريق القوم إلّا بصحبة أخ صالح أو شيخ صالح»[٢].

وقد طبّق ابن خفيف هذا المبدأ الصوفي تطبيقًا عمليًا من أول أمره إلى آخره، وفي جميع شئونه علمًا ومعيشة، وبوسعنا أن نذكر لهذا التطبيق العملي أمثلة محددة من حياة الشيخ الكبير:

ففي بداية أمره ابتدأ بصحبة شيخ: يقول ابن خفيف: «حينما أردتُ في زمن الطفولة أن أشرع في أحوال الآخرة، وأن أجد نصيبًا من عالم الملكوت، كنتُ أتردد على أحمد بن يحيى، فقال لي ذات يوم: اتبعني، فتبعته»[٣].

وفي العلوم التي أراد أن يتعلمها كان يستشير مشايخه: يقول الشيخ الكبير: «خطر لي ذات يوم أن أشتغل فترة بدراسة الحديث، وأن أحصل على طرف من علم الأخبار والسنن، وفي ذلك العصر كان هناك اثنان مشهوران بعلم الحديث ونقل الأخبار... ورأيتُ أن مشاورة الشيخ أحمد بن يحيى في هذا الأمر واجبة، كما رأيتُ أن أستعين بهمته، فأرسل الشيخ أحمد إليهما، فاستدعاهما وأوصاهما بي خيرًا حتى لا يبخلا عليّ بمعروف، ويبذلا الجهد المطلوب»[٤].

حتى في الحرفة التي أراد أن يتعلمها ليكسب منها قوته: يقول الشيخ: «كان معظم المشايخ في أيامي يشتغلون بالكسب وكان قوتهم في كسب أيديهم...ثم تشاورتُ في هذا

(١) نفس المصدر ج٢ ص٢٨٠.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى ج٢ ص١٢ (بتحقيق: أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح والمستشار توفيق علي وهبة، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة).

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩١.

(٤) نفس المصدر ص٩٢.

الأمر مع المشايخ وسألتهم: أي عمل أقوم به أحصل منه على ما يسد رمقي، فقالوا: المصلحة أن تتعلم صناعة الأحقاق، فتعلمتها»[1].

وحتى في أبسط أموره كان يسأل المشايخ: فبينما هو يصلي أتت له أمّه ببعض الطعام وخطر له أن يأكل أولًا ثم يشتغل بالصلاة، وفي اليوم التالي نقل هذا الأمر وهذا الخاطر إلى شيخه أحمد بن يحيى[2].

فعلى الرغم من أنّ هذا خاطر سهل خَطَرَ له إلّا أنّ حرصه الشديد على طاعة شيخه دعاه إلى مشاورته في اليوم التالي، ولا شك أنّ شيخه كان يُعجب بهذا لِمَا لهذا الأمر من أهمية كما أسلفنا.

على أنّ هنا أمرًا جديرًا بالذكر والاهتمام وهو أنّ طاعة ابن خفيف لمشايخه لم تكن طاعة عمياء، بل كانت طاعة عن بصيرة ناقدة، وذلك أنّه كان يطبّقها مع مشايخه، ويُبدي لهم احترامًا كبيرًا إلّا إذا بدر من بعض مشايخه ما يُشم منه رائحة مخالفة شرعية، فكان ابن خفيف - والحال تلك - يُنبِّه على هذا، ويَسأل عن وجهه، بل ربما عارض معلميه ومشايخه، ومن ذلك ما يلي:

وهو يتعلم صنعة في بداية حياته: يقول ابن خفيف: «تعلمتُ صناعة الفلكات، وكنت أقيم بها أودي، وذات يوم رأيتُ أستاذي يقطع عظام بعير ميت، كان عنده من هذه العظام بضع صناديق ممتلئة، فقلتُ له: هل ستصنع فلكة من هذه العظام النجسة؟ قال: بلى، فنهضتُ، وتُبتُ عن هذه الصنعة»[3].

---

(١) نفس المصدر ص٩٩.

(٢) راجع: سيرة الشيخ الكبير ص٩٢.

(٣) نفس المصدر ص٩٩.

فرغم حاجته للصنعة التي يعتمد عليها في كسب قوته إلّا أنّه لمّا رأى أنّ فيها مخالفة شرعية لم يوافق عليها.

ومن ذلك أنّ بعض مشايخه كان يتكلم في مسألة من كلام الصوفية، فلمّا شعر ابن خفيف أنّ الكلام خالٍ عن الدليل استفهم، بل واعترض على كلام شيخه، يقول ابن خفيف: «كان أبو علي الوارجي - وهو أحد شيوخه كما سيأتي - قد جاء من مصر، وذات يوم كنت جالسًا مع جماعة من المشايخ، وكان أبو سعيد الأعرابي حاضرًا، فوجّه رجل إلى أبي علي سؤالًا، وأخذ أبو علي يسوق كلامًا كثيرًا فيه، ثم أخذ يكرر هذه العبارة: حينما يصل العارف إلى درجة الكمال لا يضره وجود المعلوم، فبالنسبة إلى أحوال العارف يستوي الموجود والمعدوم.

وكان المشايخ حاضرين جميعًا، ولم يعترض أحد، فبدا في خاطري معارضة هذا الكلام، وأخذتُ أقول: يا سيدي: إذا كنتَ قد شاهدتَ هذا المعنى في واقعة، أو تقوله على سبيل المكاشفة فهو مُسَلَّم لك ولا جدال فيه، وأمّا إذا كنتَ تقوله على سبيل الشريعة، فيلزمك لهذا الكلام دليل من الكتاب أو السنة أو كلام السلف.

وكان المشايخ يريدون مني أن أتجاوز عن كلامه، فأشار إليّ أبو سعيد الأعرابي قائلًا: استمر وأتمم كلامك، وكلما أوردتُ دليلًا من الكتاب أو السنة كان أبو علي يقول: هذا الحديث وارد في حق الأمة، وكنتُ أقول: ألست من الأمة؟

قال أبو علي: يا ابن خفيف: إنّ التجاوز عن الإخوان في المجادلة من قبيل الإحسان، فقلتُ: لا يجوز التساهل في الشريعة»[1].

فعلى الرغم من أنّ ابن خفيف يجلس مع جملة من المشايخ، ورغم أنّهم يتحدّثون في

---

(١) نفسه ص١٣٤، ١٣٥.

مسألة من دقائق المسائل الصوفية المتعلَّقة بحال العارف الذي يصل إلى درجة الكمال، وكل هذه أمور تُغري السامع بالسكوت سيّما إذا كان مريدًا متبدئًا وسط مشايخ كبار، ولكنّ ابن خفيف لم يُسَلِّم لهم الكلام تسليمًا، بل جعل الشيخ المتحدّث بين أمرين:

إمّا أن يكون واقعة فردية أو حالًا خاصًا به فهذا مُسَلَّم له ولا اعتراض عليه.

وإمّا أن يكون هذا حكمًا شرعيًا فلا بُدَّ له من سند شرعي، ودليل من القرآن أو السنة أو أقوال السلف، فهو يَرُدُّ الجميع إلى ساحة الشريعة ليكون لها الحكم أولًا وأخيرًا.

ثم إنّ هناك رحابة صدر وسعة أفق من المشايخ الذين لم يتبرّموا من اعتراض مريدٍ عليهم، بل أفسحوا المجال حتى أتم كلامه طالما كان الكلام معتمدًا على الكتاب والسنة.

ومع هذا الموقف من المشايخ لم يتجاوز ابن خفيف حدود الأدب في السؤال والمناقشة، بل خاطب الشيخ المتحدث بقوله: يا سيدي.

ثم أصدر ابن خفيف حكمه النهائي في المسألة وهو: لا يجوز التساهل في الشريعة، وسوف نرى فيما يأتي أنّ هذا الحكم كان من معالم منهج ابن خفيف الرئيسة.

وما أعظمها من حالة طيبة من الحوار والمناقشة للوصول إلى الحق، وليتَ المتناقشين حول مسألة علمية وكذا المتحاورين في أمر من الأمور يحتذون حذو هؤلاء السادة الأكابر في أدبهم ورغبتهم في الوصول إلى الحق المؤيد بدليل الشرع.

ومن ذلك مناقشته للإمام الكبير أبي العباس بن عطاء: يقول ابن خفيف: «حينما وصلتُ إلى مجلس أبي العباس بن عطاء، وكان أبو محمد الجريري جالسًا معه وقد اعترضتُ عليه مرتين، مرة في موضوع الفراسة، والثانية في رواية حديث أورده أبو العباس لا على وجهه الصحيح»[1].

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٨.

وطالت بينهما المناقشة بحضرة المشايخ إلى أن انتهت، وأخذه الشيخ أبو العباس إلى بيته وأثنى عليه ودعا له[1].

وهذه الرواية يرويها الشيخ بالتفصيل وينقلها عنه الديلمي في سيرته، والذي يعنينا منها نقطتان:

أولاهما: أنّ ابن خفيف كان الحق عنده أولى من الرجال ومن مشايخه، فعلى الرغم من أنّ أبا العباس بن عطاء من المشايخ الكبار الذين كان ابن خفيف يُجِلُّهم إجلالًا عظيمًا، وكان دائمًا يذكره ضمن الخمسة الكبار الذين ينبغي أن يقتدي بهم الصوفية، وذلك في قوله: «اقتدوا بخمسة من بين الشيوخ: الحارث المحاسبي، وأبي القاسم الجنيد، وأبي محمد رويم، وأبي العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان؛ وذلك لأنّهم جمعوا بين العلم والحقائق»[2].

ومع ذلك لم يمنعه هذا التقدير الكبير أن يناقشه في بعض المسائل، فهو يبتغي الحق لا غيره.

ثانيتهما: أنّ الشيخ ابن عطاء لم يمنع ابن خفيف من السؤال والمناقشة، بل استجاب له قائلًا: «قل: ما وصلك من كلام عني ليس على نهج الشريعة ولا يوافق السنة؟»[3].

فأخبره ابن خفيف بشيئين وتباحثا فيهما بُغية الوصول إلى الحق.

ومهما يكن من أمر فإنّ الاختلاف بينهما قد وصل بهما إلى حالة من الوفاق! حتى أخذه أبو العباس إلى بيته وأكرمه وأراد أن يلبسه خرقة خاصة به لولا أنّ ابن خفيف كان وَفِيًّا لأمّه، فرفض أن يترك خرقتها لغيرها، يقول ابن خفيف: «وجاهد كثيرًا حتى أقبل منه

---

(١) نفس المصدر ص١٥٩.

(٢) نفسه ص١٠٩، وراجع: القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٥١.

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٨.

شيئًا، ولم أفعل، فدعا لي وقال: طوبى لأولئك الذين غنمتَ صحبتهم، وتنعمتَ بمجالستهم، قلتُ: لي التماس من جنابكم، أن تكتب بخطك هذه الكلمات المباركة التي جرى بها لسانك وتعطيني إياها، إذ إني أُفَضِّلُها على الدنيا بأجمعها، فَقَبِلَ وكتبها وأعطاها لي»[1].

❁ رابعًا: حرفة ابن خفيف وصناعته:

من المعروف في الساحة الصوفية أنّهم يُفضلون المُتَجَرِّد على المُتَسَبِّب، والمتجرّد هو المنقطع كلية إلى الله تعالى بحيث لا يركن إلى سبب ولا صنعة ولا حرفة، والمتسبّب هو الذي يطلب الرزق بسبب دنيوي كتجارة أو صنعة أو حرفة.

ومع هذا فإنّنا رأينا الصوفية في الغالب الأعم يحترفون حرفة يكتسبون منها أقواتهم الضرورية، فهل هذا تناقض؟.

الجواب القاطع: لا، ليس هناك تناقض في هذا الأمر؛ إذ إنّ الصوفي حينما يحترف حرفة يجني من ورائها شيئًا من المال، فإنّه لا يكتنز ذلك المال ولا يدّخره، بل يُنفقه في حاجاته الضرورية، يستغني عن سؤال الناس والحاجة إلى الخلق، والتي قد تنافي انشغاله بالله وحده لا شريك له.

فإنّ الصوفية إذا جمعوا شيئًا من المال بيّنوا أنّه لا يُطلب لذاته، وإنّما يُطلب للأغراض الآتية:

الأول: أن ينفقه المرء على نفسه: إمّا في عبادة أو في الاستعانة على العبادة، أمّا في العبادة فهو كالاستعانه به على الحج والجهاد، وأمّا فيما يُقويه على العبادة، فذلك هو المطعم والملبس والمسكن، وما إلى ذلك من ضرورات العيش؛ لأنّ هذه الشئون إذا لم

---

(١) نفس المصدر ص١٥٩.

تيسر كان القلب مصروفًا إلى تدبيرها فلا يتفرغ للدين.

الثاني: ما يصرفه في الصدقة والمروءة ووقاية العرض، وأجرة الاستخدام، ومِن وقاية العرض عندهم بذل المال لدفع هجو الشعراء وثلب السفهاء وقطع ألسنتهم ودفع شرهم، ومن وقاية العرض صرف للناس عن رذيلة الاغتياب، وليس من الإسراف أن يكون للرجل خدم؛ لأنّ قيامه بجميع شئونه قد يُعَطِّل عليه أوقاته، فلا يتفرّغ لعبادة الله تعالى على الوجه المقبول.

الثالث: ما يُنفقه للخير العام كبناء المساجد وغيرها[1].

وبناء على هذه الأغراض الدينية المستحبة: «لا بأس بأن يحمد المتصوف ما في المال من الحظوظ الدنيوية، كالخلاص من ذلّ السؤال وحقارة الفقر»[2].

وكانت أحوال الصوفية وكلماتهم تدل على ذلك:

فأبو سليمان الداراني كما يروي عنه الغزالي يقول: «ليس العبادة عندنا أن تصفّ قدميك وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تَعَبَّد»[3].

ويقول الغزالي أيضًا: «قال أبو قلابة لرجل: لأن أراك تطلب معاشك أحب إليّ من أن أراك في زاوية المسجد»[4].

ويروي الغزالي أيضًا: «أنّ الأوزاعي لقي إبراهيم بن أدهم رحمهم الله وعلى عنقه حزمة حطب، فقال له: يا أبا إسحق إلى متى هذا؟ إخوانك يكفونك، فقال: دعني عن هذا

(١) انظر: د/ زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ج٢ ص١٧٠ (طبعة دار الكتب القومية بالقاهرة سنة ٢٠١٦م).

(٢) د/ زكي مبارك: التصوف الإسلامي في الأدب والأخلاق ج٢ ص١٧٠.

(٣) الغزالي: إحياء علوم الدين ج٢ ص٦٣.

(٤) نفس المصدر ج٢ ص٦٣.

يا أبا عمرو، فإنّه بلغني أنّه من وقف موقف مذلّة في طلب الحلال وجبتْ له الجنة»(١).

ويذكر أبو طالب المكي أيضًا يقول: «حدثني بعض إخواني عن أبي جعفر الفرغاني قال: كنّا يومًا عند الجنيد، فجرى ذكر ناس يجلسون في المساجد يتشبّهون بالصوفية، ويقصرون عمّا يجب عليهم من حق الجلوس، ويعيبون مَنْ يدخل السوق، فقال الجنيد: كم ممّن هو في السوق حكمه أن يدخل في المسجد فيأخذ بأُذُنِ بعض مَنْ هو فيه فيخرجه ويجلس مكانه، إنّي لأعرف رجلًا يدخل السوق، وَوِرْدُه في كل يوم ثلاثمائة ركعة وثلاثون ألف تسبيحة، قال: فسبق، وهمّي أنّه يعني نفسه»(٢).

ويقول الزبيدي: «التعب في كسب الحلال يتضمن فوائد، منها: استغناؤه عن الناس وعن إظهار الحاجة، لكن شرطه اعتقاد أنّ الرزق من الرازق لا من الكسب، ومنها: إيصال النفع إلى الغير، ومنها: السلامة من البطالة واللهو، ومنها: كسر النفس ليقلّ طغيانها، ومنها: التعفّف عن ذلّ السؤال»(٣).

وهكذا فالاشتغال بالكسب الحلال له مقاصده الشرعية وغاياته السامية عند الصوفية، ولا شك في أنّ أوضح دليل على اشتغال الصوفية بالحرف والصناعات المختلفة هو أسماؤهم وألقابهم، كما يقول الدكتور زكي مبارك عن الصوفية: «انظر إلى أسمائهم وألقابهم تجد فيهم الخوّاص والخرّاز والوقّاد والصبّاغ والحدّاد والسمّاك والقصّاب والدقّاق، انظر إلى ألقابهم تجدهم كانوا أهل العمارة والصناعة والزراعة، انظر إلى ألقابهم

(١) نفسه ج٢ ص٦٣.

(٢) أبو طالب المكي: قوت القلوب ج٢ ص٤٣٣ (بتحقيق: د/ عاصم الكيالي، الطبعة الثانية سنة ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م، دار الكتب العلمية – بيروت).

(٣) الزبيدي: إتحاف السادة المتقين ج٥ ص٤١٥ (مؤسسة التاريخ العربي – بيروت، سنة ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م).

تجدهم كانوا من أقطاب السعي في سبيل الرزق الحلال»[1].

وبناء على ذلك وجدنا ابن خفيف يسلك نفس السلوك وينهج نفس النهج فيجتهد في إيجاد حرفة مناسبة تحقق له المقاصد والغايات السابقة، وفي نفس الوقت لا تصرفه عن مقصده السامي، وهو الانشغال بطاعة الله تعالى، فبدأ بالاشتغال ببعض الحرف تأسيًا منه بمشايخه ومعاصريه، وفي ذلك يقول ابن خفيف: «كان معظم المشايخ في أيامي يشتغلون بالكسب، وكان قوتهم من كسب أيديهم»[2].

وإلى نفس تلك الحقيقة تشير المستشرقة «أنا ماريا» قائلة: «ومعلوم أنّ القسم الأعظم من متصوفة ذلك العصر كان يزاول حرفة لكسب المعاش...وألقاب الصوفية توضح الحرف التي كانوا يزاولونها مثل: الحلّاج، الخرّاز، الرقّام، القواريري، المزيّن، وهلمّ جرًّا»[3]، وقد احترف ابن خفيف عدة حرف ذكرها هو بنفسه، وهي:

صناعة الفلكات[4]:

وكانت هذه أول صناعة يتعلمها ابن خفيف حين أراد أن يقتدي بمشايخ عصره في الاشتغال بحرفة يكتسب منها قوته، ويذكر ابن خفيف ذلك فيقول: «فتعلمتُ أنا أيضًا صناعة الفلكات، وكنتُ أقيم أودي بها، وذات يوم رأيتُ أستاذي يقطع عظام بعير ميت كان عنده من هذه العظام بضع صناديق ممتلئة، فقلتُ له: هل ستصنع فلكة من هذه العظام

(١) د/ زكي مبارك: التصوف الإسلامي ج٢ ص١٨٤.

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٩.

(٣) مقدمة «أنا ماريا» لكتاب سيرة الشيخ الكبير ص٢٢.

(٤) الفلكات: جمع الفَلْكَة، وهي ما يُوضَع في قِمَع الدُّهْن ونحوه، أو قطعة خشب تُدْخَل في خَرْقِ القِرْبة.(راجع: ابن منظور: لسان العرب ج١ ص٤٧١ (الطبعة الثالثة سنة ١٤١٤هـ، دار صادر - بيروت)، والفيروزآبادي: القاموس المحيط ص٩٧ (بتحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم العرقسُوسي، الطبعة الثامنة سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت).

النجسة؟ قال: بلى، فنهضتُ وتُبْتُ عن هذه الصنعة، وطَهَّرْتُ بدني وثيابي وقضيتُ صلواتي»[١].

وهنا لا بُدَّ من الإشارة كما سبق إلى أنّ الشيخ الكبير يهمه في المقام الأول تعظيم الشريعة تعظيمًا كبيرًا، ولذا انصرف عن هذه الصنعة التي يكسب منها قوته.

نحت المغازل[٢]:

يقول الشيخ الكبير: «وذهبتُ وتعلمتُ نَحْتَ المغازل وزاولتُ هذه الحرفة حتى جُرِحْتُ منها ذات يوم فتركتُها أيضًا»[٣].

القصارة[٤]:

يقول ابن خفيف: «فذهبت إلى قصّار، وأخذتُ أَدُقُّ الثياب طيلة نهار، فسقطتُ من شدة الجوع وانكسرتْ ركبتي فتركتها أيضًا»[٥].

وقد لجأ الشيخ إلى مشايخه يشاورهم كعادته، فأشاروا عليه بترك القصارة لصعوبتها، وحاجتها إلى قوة بدنية لا تليق بزاهد متقشف لا يأكل إلا الضروري من الطعام، وأشاروا عليه بحرفة أخرى هي:

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٩.

(٢) المغازل: جمع المِغْزَل، وهو اسم ما تَغْزِل به المرأة. (راجع: لسان العرب ج١١ ص٤٩٢، والقاموس المحيط ص١٠٣٨).

(٣) سيرة الشيخ الكبير ص٩٩.

(٤) القَصَّار والمُقَصِّر: المُحَوِّر للثياب لأنه يدقها بالقَصَرَة التي هي القطعة من الخشب، وحرفته القِصارة. (راجع: لسان العرب ج٥ ص١٠٤، والقاموس المحيط ص٤٦٣).

(٥) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٩.

صناعة الأحقاق[1]:

ويتحدث الشيخ عن هذه الصنعة التي جاءت بتوجيه من مشايخه فيقول: «ثم تشاورتُ في هذا الأمر مع المشايخ وسألتهم: أيّ عمل أقوم به وأحصل منه على ما يسد رمقي؟ فقالوا: القصارة حرفة صعبة ويصلح لها شخص ذو قوة يأكل طعامًا كاملًا ملائمًا، والمصلحة أن تتعلّم صناعة الأحقاق، فذهبتُ إلى أبي محمد العتايدي وتعلمتُ منه هذه الحرفة، وكنتُ أكسب كل يوم درهمين في المتوسط فأشتري أوراقًا بجزء منها، وأجعل الباقي لنفقتي أنا ووالدتي»[2].

صناعة النسخ:

يقول الشيخ الكبير عن هذه الصناعة: «كنتُ في الكوفة أعمل ورّاقًا، وكنتُ أجمع كل ما أكتسب من الصنعة حتى يأتي أبو تراب إلى الكوفة وأنفقه عليه، وذات مرة تَجَمَّعَ لديّ ستة عشر دينارًا...»[3].

وتذكر المستشرقة «أنا ماريا شميل» أنّ هذه الحرفة وهي النسخ توجّه إليها ابن خفيف بإشارة من شيخه العتايدي فتقول: «فإنّه بتوصية من الزاهد الكبير العتايدي كان يكسب معاشه بصناعة النسخ... وكان يقوم بنسخ الأحاديث، وكان قسم كبير من النقود التي يكسبها ينفقها على ثمن الكاغد»[4].

---

(١) الحِقاق: جمع الحُقّ والحُقَّةُ، وهو وعاء صغير ذو غطاء منحوت من الخشب والعاج وغير ذلك مما يصلح أن يُنحت منه. (راجع: ابن منظور: لسان العرب ج١٠ ص٥٦، والمعجم الوسيط ج١ ص١٨٨ (إعداد: مجمع اللغة العربية بالقاهرة إبراهيم مصطفى وآخرون، طبعة دار الدعوة، بدون).

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٩.

(٣) نفس المصدر ص١٧٤.

(٤) نفسه ص٢٣.

وهكذا تعددتْ الحِرَف والصناعات التي عمل بها الشيخ الكبير بغرض كسب قوته الضروري والإنفاق في ضروريات حياته، بحيث يعفّ نفسه عن سؤال الناس، وهذا منهج شرعي ومبدأ إسلامي أصيل قال عنه النبي ﷺ: «ما أكل أحد طعامًا قط، خيرًا من أن يأكل من عمل يده، وإنّ نبي الله داود عليه السلام، كان يأكل من عمل يده»[1].

(١) أخرجه البخاري في الصحيح عن المقدام رضي الله عنه، كتاب «البيوع»، باب «كسب الرجل وعمله بيده»، ج٣ ص٥٧ برقم ٢٠٧٢.

المبحث الرابع
شيوخه

۞ أولًا: شيوخ ابن خفيف في التصوف:

إنّ طلب الشيخ للاقتداء به والسلوك على يديه، والسير إلى الله تعالى بتوجيه منه من أهم مقاصد التصوف الرئيسة، وهو أمر لا شك نابع من الشرع، وعن هذا يتحدّث صاحب «عوارف المعارف» فيقول: «ورد في الخبر عن رسول الله ﷺ: «والذي نفس محمد بيده لئن شئتم لأقسمنّ لكم أنّ أحب عباد الله إلى الله الذين يُحَبِّبُون الله إلى عباده، ويُحَبِّبُون عباد الله إلى الله، ويمشون على الأرض بالنصيحة»[١].

وهذا الذي ذكره رسول الله ﷺ هو رتبة المشيخة والدعوة إلى الله تعالى؛ لأنّ الشيخ يُحَبِّبُ الله إلى عباده حقيقة، ويُحَبِّبُ عباد الله إلى الله، ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية، ونيابة النبوة في الدعاء إلى الله.

وَوَجْهُ كون الشيخ يُحبب الله إلى عباده؛ لأنّه يَسْلُكُ بالمريد طريق التزكية، وإذا تَزَكَّتْ النفس انجلتْ مرآة القلب، وانعكستْ فيه أنوار العظمة الإلهية، ولاح فيه جمال التوحيد، وانجذبتْ أحداق البصيرة إلى مطالعة أنوار جلال القدم ورؤية الكمال الأزلي، فأحب العبد ربه لا محالة، وذلك ميراث التزكية، قال تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٩]، وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى»[٢].

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا بإسناد صحيح عن الحسن عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، في كتاب «الأولياء» ج٢٠ ص٣٦ (بتحقيق: محمد السعيد بن بسيوني زغلول، الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت).

(٢) أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ج١ ص١٦٢ (بتحقيق: الإمام الأكبر د/ عبد الحليم محمود=

وبناء على هذا المبدأ الصوفي الشرعي رأينا ابن خفيف يتخذ مشايخ متعددين ويتتلمذ على أساتذة كثيرين.

لكنّ الحقيقة أنّه إذا كان لكل عالم من العلماء مجموعة محددة من المشايخ يُنسب إليهم، فإنّا رأينا ابن خفيف مِنْ أكثر الناس أساتذة ومشايخ، ولعل ذلك راجع إلى أسفاره المتعددة شرقًا وغربًا، وحرصه الشديد على لقاء المشايخ، وصحبتهم والتعلُّم منهم والأخذ عنهم.

ولذلك وجدنا كتب التّراجم تتحدث عن مجموعات من المشايخ لا يُحصون عددًا يُذكرون على أنّهم مشايخ ابن خفيف.

وعند قراءة هذه التراجم وهؤلاء المشايخ لوحظ أنّهم لم يكونوا كلهم مشايخ مباشرين لابن خفيف، بل منهم من لقيهم، ومنهم من صحبهم، ومنهم من ناقشهم، ومنهم من ليسوا كذلك، ومع ذلك اقتدى بهم ابن خفيف.

ولكي يكون الحديث عن هؤلاء المشايخ أكثر انضباطًا يمكن تقسيمهم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: مشايخ وأساتذة تَعَلَّمَ ابن خفيف على أيديهم مباشرة.

الثاني: مشايخ لقيهم أو صحبهم في أسفاره ورحلاته.

الثالث: مشايخ أَمَرَ بالاقتداء بهم، وإن لم يأخذ عنهم مباشرة.

القسم الأول: وهم المشايخ الذين تَعَلَّمَ على أيديهم مباشرة:

المشايخ الذين تعلم الشيخ الكبير على أيديهم مباشرة كثيرون؛ وذلك لأنّ الشيخ

=ود/ محمود بن الشريف، الطبعة الثانية سنة ٢٠١٧م، دار المعارف - القاهرة).

الكبير قد تنوعتْ معارفه وتعددتْ علومه؛ لأنّه نهل من ينابيع مختلفة، وشرب من جداول علمية متنوعة، فقد تعلم التصوف، والحديث، والفقه، وعلم الكلام على يد المشايخ في كل تخصص، ولذلك يمكن ذكر مشايخ هذا القسم كالآتي:

صحب ابن خفيف جماعة من أكابر الصوفية في عصره، وتأدّب وسلك في طريق الله تعالى على أيديهم، ومن أشهرهم:

١) **أبو العباس أحمد بن يحيى**(١): وهذا هو أول شيخ اتخذه ابن خفيف وتعلم على يديه وتنبأ له بمستقبل باهر في طريق التصوف، يقول ابن خفيف عن شيخه هذا: «حينما أردتُ في زمن الطفولة أن أشرع في أحوال الآخرة، وأن أجد نصيبًا من عالم الملكوت كنتُ أتردد على أحمد بن يحيى، فقال لي ذات يوم اتبعني فتبعته»(٢).

ويقول الشيخ في موضع آخر: «كان أحمد بن يحيى أول شيخ صحبته»(٣).

وكان ابن خفيف يُجِلُّ هذا الشيخ إجلالًا كبيرًا من أول أمره إلى آخره ويُطيع أمره طاعة كاملة، ولذلك كان يعجب شيخه هذا بتقدمه في طريق التصوف.

ويروي ابن الملقن عن الشيخ الكبير أنّه قال: «أول من لقيتُ من المشايخ أحمد بن يحيى وعلى يده تُبْتُ، وأول ما أمرني به كتابة الحديث، ثم أخذ بعد ذلك في رياضتي»(٤).

وقد تقدم أنّ الشيخ أحمد بن يحيى أمر ابن خفيف بأمر وأحب أن يختبره في الطاعة

---

(١) هو أحمد بن يحيى، وكنيته أبو العباس: لقي الأفاضل من الصوفية وكتب عن الجنيد وأبي محمد رويم، ولقي سهل بن عبد الله، وهو أول شيخ صحبه ابن خفيف. (راجع: جنيد الشيرازي: شد الإزار ص١٣٧، ١٣٨).

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩١.

(٣) نفس المصدر ص١٨٨.

(٤) ابن الملقن: طبقات الأولياء ص٢٩١.

فوجده قائمًا بشروطها متأدّبًا مع شيخه.

ويذكر الشيخ الكبير ذلك فيقول: «فأولها - أي: أول رياضة وتعلُّم من الشيخ- أنّه حملني إلى السوق، وجلس على باب مسجد حتى عبر قَصَّاب، فاشترى قطعة لحم، وقال: احملها بيدك إلى المنزل وارجع، فأخذتُها واستحييتُ من الناس، فدخلتُ مسجدًا، وتركتُها بين يدي، أفكر بين حملها وأن أعطيها إلى الحمّال، فاستخرتُ الله وقلتُ لا أخالف الشيخ، فحملتها والناس يقولون: إيش هذا؟! وأنا أخجل وأسكتُ، حتى صرتُ بها إلى منزله، ورجعتُ إليه فقال: يابني: كيف كانت نفسك في حمل هذا اللحم بعد أن كان الناس ينظرون إليك بعين التعظيم وأنّك من أولاد الملوك؟ فَحَدَّثْتُه، فَتَبَسَّمَ وقال: يا بني قد حمدتُ فعلك وسترى بركته»[1].

وهذا يدل على تسليم الطفل الصغير المريد زمام أموره إلى شيخه، ولذلك أعجب الشيخ به وحمده على أفعاله.

ويبدو أنّ شيخه هذا لمّا تنبأ له بنصيب عظيم في التصوف أَحَبَّ أن يصقله من علوم الشرع، فوجّهه إلى علم الحديث، وجاء بمشاهير المحدثين في عصره، وأوصاهم بابن خفيف خيرًا.

يذكر الحافظ ابن عساكر تلك الحقيقة، فيروي عن الشيخ الكبير أنّه قال: «أول من لقيتُ من المشايخ أبا العباس أحمد بن يحيى وعلى يده تُبْتُ، وأول ما أمرني به كتابة الحديث، وقال لي: اختلف إلى أحمد بن أبان الراوي وإلي عبد الله بن جعفر الأزرقاني، وكان من كبار مشايخ شيراز في الديانة والرواية، ثم دعاهما بعد ذلك وأوصاهما»[2].

(١) نفس المصدر ص٢٩١.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٢ ص٤٠٨.

وقد حفظ ابن خفيف الجميل لهذا الشيخ الذي ابتدأ طريقه إلى الله تعالى بالأخذ عليه، فكان يذكره بشيء كثير من التبجيل والتقدير.

فمرة يذكر اجتهاده في العبادة، فيقول: «أقام أحمد بن يحيى في صحن الجامع، وكان يصلي حتى طلوع الصبح، كما كان يصلي الصبح على نفس الوضوء الذي صلى به صلاة العشاء»[1]، وأنّه «صلى ثلاثين سنة صلاة الصبح بوضوء العشاء»[2].

ويذكر الجنيد الشيرازي نفس الأمر، فيقول عن أحمد بن يحيى: «أنّه كان يَبِيتُ في صحن المسجد الجامع يجمع طيلسانه، ويجعله تحت رأسه، ويستلقي على قفاه، ويأخذ الحصا ويكسره بأسنانه، ويرميه إلى أن يُؤَذَّن للصبح، ثم يقوم ويصلي بطهارة العشاء»[3].

ومرة يذكره ابن خفيف مادحًا تقلّله من الطعام وزهده إلّا في الضروري منه، فيذكر قصصًا في ذلك[4]، ثم يعقب عليها بقوله: «ما رأيتُ زاهدًا جَرَّدَ نفسه من علائق الدنيا مثله»[5].

والحقيقة أنّ هذه الصفة قد تعلمها ابن خفيف من شيخه أحمد بن يحيى، وزاد عليها حيث كان تقلّله من الطعام وزهده فيه مضرب الأمثال.

ومرة ثالثة يذكر ابن خفيف شيخه مُثْنِيًا عليه في وصوله إلى أعلى حالات الوَجْد، فيقول: «رأيتُ كثيرين من أصحاب الوجد، ولكنّي لم أرَ قط صاحب حال مثله»[6]، وفي

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٩٠.

(٢) نفس المصدر هامش ص١٩٠.

(٣) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص١٣٨.

(٤) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٩٣.

(٥) نفس المصدر ١٩٤.

(٦) نفسه ص١٨٨.

رواية عند الجنيد الشيرازي يقول ابن خفيف عن شيخه: «ما رأيتُ واجدًا مُتَحَقِّقًا في وَجْدِه على السرمدية مثل أحمد بن يحيى»(١).

ويروي صاحب «نفحات الأنس» عن ابن خفيف: «ما رأيتُ أحدًا متحققًا في الوجد مثله، وكان له سُكْر تام»(٢)، ثم يروي جامي له بعض الكرامات(٣).

٢) **أبو محمد رويم**(٤): من المشايخ الكبار الذي أجمع المؤرخون على أنّ ابن خفيف صحبه، فقال القشيري عن ابن خفيف: «صحب رويمًا والجريري وابن عطاء»(٥)، وقال ابن الملقن عن ابن خفيف: «صحب رويمًا والجريري وابن عطاء وغيرهم، وهؤلاء أعلمهم بالظاهر»(٦).

ويتحدّث ابن خفيف نفسه عن لقائه برويم، فيقول: «كان أول شيخ لقيته في العراق هو أبا محمد رويم»(٧).

ويبدو أنّ ابن خفيف أقام معه مدة، وتعلّم منه أشياء كثيرة ظهرت في هذه الروايات

---

(١) الجنيد الشيرازي: شد الإزار ص١٣٨.

(٢) عبد الرحمن جامي: نفحات الأنس من حضرات القدس ص٥٠٢ (طبعة الأزهر الشريف، بدون تاريخ).

(٣) نفحات الأنس ص٥٠٢.

(٤) هو رويم بن أحمد بن يزيد، وهو من أهل بغداد من جلة مشايخهم، وكان فقيهًا على مذهب داود الأصبهاني وكان مقرئًا فقرأ على إدريس بن عبد الكريم الحدّاد مات سنة ٣٠٣هـ من كلامه: «إنّ الله تعالى غَيَّب أشياء في أشياء، غيّب مكره في حلمه، وغيّب خداعه في لطفه، وغيّب عقابه في كرامته». (انظر: السلمي: طبقات الصوفية ص١٤٧:١٥١، وأبو نعيم: حلية الأولياء ج١٠ ص٢٩٦:٣٠١ (مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م).

(٥) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٨٢.

(٦) ابن الملقن: طبقات الأولياء ص٢٩١.

(٧) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٢.

التي رواها ابن خفيف عن رويم.

فأول ما يلفت النظر في صحبة ابن خفيف لرويم أنّ ابن خفيف هو الذي طلب رويمًا وبحث عنه وقصد صحبته، وفي ذلك يقول الشيخ الكبير: «لمّا دخلتُ بغداد قصدتُ رويمًا وقد تولّى القضاء، فلمّا دخلتُ عليه رَحَّبَ بي وأدناني، وقال: مِن أين أتيتَ؟ قلتُ: مِن فارس»[١].

وهكذا يُنَفِّذ ابن خفيف عمليًا المبدأ الصوفي في ضرورة البحث عن شيخ والسلوك على يديه، ولذلك كان ابن خفيف دقيق الملاحظة مع مشايخه ثاقب النظر إلى أحوالهم مقتديًا بهم، ومن ذلك ما رواه عن رويم من أحوال وأفعال وأقوال:

فمن ذلك حكايته عن زهد رويم، يقول الشيخ الكبير: «سمعتُ من رويم أنّه قال: كانت وسادتي في الشونزية[٢] قطعة آجر طيلة اثني عشر عامًا، ثم فارقتُ ذلك الموضع عشرين يومًا، وعدتُ إليه ذات يوم فوجدتُ قطعة الآجر ملقاة في مكانها المعهود فرفعتها وألقيتها على الأرض حتى صارت إلى قطع صغيرة، وقلتُ: منذ ذلك التاريخ الذي فارقتك فيه مِتُّ عدة مرات وحييتُ، ولم يَجْرِ عليك تغيير قط، فأخذ كل واحد من دراويش الشونيزيه قطعة منها تبرُّكًا»[٣].

وقد تعلّم ابن خفيف هذا الزهد من رويم، وطبّقه عمليًا كما مرَّ عند الحديث عن زهد ابن خفيف.

---

(١) انظر هامش ص١٥٢ من سيرة الشيخ الكبير.

(٢) الشُّونيزيّة: مقبرة ببغداد بالجانب الغربي دفن فيها جماعة كثيرة من الصالحين، منهم: الجنيد، وجعفر الخلدي، ورويم وسمنون المحبّ، وهناك خانقاه للصوفية. (راجع: ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٣ ص٣٧٤).

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٦.

ومن ذلك أيضًا ما نقله ابن خفيف إلى رويم من أنّ الصوفية يعيبون عليه إقباله على الدنيا، وبيان رويم لابن خفيف سبب ذلك، يحكي الشيخ الكبير عن رويم أنّه قال له: «يا أبا عبد الله: اعلم أنّه ربما منعك المشايخ من رؤيتي، وربما قالوا لك: إنّ رويمًا قد أعرض عن الآخرة واتجه إلى الدنيا فهي قبلته، ومقصد باطنه حطامها، قلتُ: بلى سمعت أقوالًا من هذا القبيل، فنادى ودعا بصبية وأجلسها بجواره، وكانت ترتدي ثوبًا أحمر، وقال: يا أبا عبد الله يريد إخواني أن أجلس على التوكل، وأترك مثل هذه الطفلة على يد التوكل وأعرض عن رعايتها وتربيتها، وبحق ذلك الإله الذي لا يجوز عليه الموت أن لو أحدًا يتكفل مؤونتها، ويحمل شغل قلبي بها، لقلتُ أيّة أحوال شريفة مَرَّتْ عليّ طيلة خمسين سنة، وأيّة مقامات سامية وهبها لي الله تعالى»[(1)].

فالمشايخ عابوا على رويم اتجاهه للأسباب الدنيوية، ولم يلجأ إلى التجرّد عن الأسباب الذي هم عليه، فشرح رويم لابن خفيف سبب ذلك، وهو رعايته لعياله وقيامه بشئونهم، وهذا أمر شرعي مقبول لا شيء فيه.

وقد استفاد ابن خفيف من شيخه هذا أيضًا، فبرغم زهده الشديد إلّا أنّه صاحب حرفة، بل حرف يَتَقَوَّتُ منها كما مرَّ منذ قليل.

ويبدو أنّ رويمًا كان يتبنى وجهة النظر الداعية إلى أنّه لا بُدَّ لكل متصوف من حرفة يحترفها لإحراز قوته لدرجة أنّه منع أن ينتسب إليه بعض الصوفية المتجردين عن الأسباب.

يروي الشيخ الكبير ابن خفيف ذلك، فيقول: «كنتُ ذات يوم جالسًا مع رويم، فدخل درويش - أي: صوفي - وقال: يبلغك الأصحاب السلام ويقولون: الوقت سيف، وما من

---

(1) نفس المصدر ص١٥٢.

أحد يُعنى بأمرنا، ويرى أنّ من واجبه رعاية أحوالنا، فأجاب رويم: هذه الجماعة التي أنت رسولها ليست من جملة أصحابي»[1].

ومن تقدير الشيخ الكبير لشيخه رويم أنّه طلب منه الوصية عند فراقه بعد ما قضى معه فترة، يقول الشيخ الكبير: «حين كنتُ أودع رويمًا قلتُ: أوصني، فقال: ماذا كنا نفعل إذن كل هذه الأيام؟! قلتُ: بي حاجة إلى الوصية، قال: يا بني: لقد وُضِع أساس هذا الأمر على بذل الروح، فإن قدرتَ فبها ونعمت، وإلّا فلا تشغل نفسك بترهات الصوفية، وكان دائمًا يقول: إياكم وهوى النفس فهو مضل للغاية وأخلاقها دائمًا ضلال»[2].

ومن تقدير ابن خفيف لشيخه رويم أنّه يذكره على أنّه أفضل من سمعه يتحدّث عن التوحيد فيقول: «ما وقع بصري على أحد قط تحدث في التوحيد مثل رويم»[3].

ولا يزال ابن خفيف يُقَدِّرُ رويمًا فينقل إلى الناس كلامه ووصاياه له، فيوصي رويم تلميذه ابن خفيف بأن يستكثر من الأدب حتى ولو قَلَّ العلم، يقول الشيخ الكبير: «قال لي رويم: يا بني اجعل علمك مِلحًا وأدبك دقيقًا»[4].

وينقل ابن خفيف لنا رأي رويم وتعريفه للتصوف، فيقول: «سألتُ رويمًا بن محمد عن التوحيد فقال: يا بني، التصوف إفناء الناسوتية وإظهار اللاهوتية، فقلتُ: زدني رحمك الله، فقال: لا رحمني إن كان في ذلك مزيد»[5].

وقد استفاد ابن خفيف من شيخه هذا المعنى حيث سيعرف ابن خفيف التصوف

---

(١) نفسه ص١٥٣.

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٦.

(٣) نفس المصدر ص٢٧٨.

(٤) نفسه ص٢٧٨.

(٥) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٧٩.

بمعنى قريب جدًا من هذا.

وينقل لنا ابن خفيف عن شيخه رويم كلامًا عن حقيقة التصوف ومَنْ هم الصوفية الحقيقون بهذا الاسم، فيقول: «قال رويم: كلّ الخلائق قعدوا على الرسوم، وقعدتْ هذه الطائفة على الحقائق، وطالب الخلق كلهم أنفسهم بظواهر الشرع، وهم طالبوا أنفسهم بحقيقة الورع ومداومة الصدق»[1].

وهكذا صحب ابن خفيف شيخه رويمًا الذي كان من أكبر مشايخ العصر، وكان له منهجه الخاص في التصوف، ونفع الله به ابن خفيف حيث سَرَتْ فيه أحواله وتَشَبَّهَ به في أفعاله، وكذا أتحف اللاحقين بجملة من جيد أقواله.

٣) **أبو العباس بن عطاء**[2]: وهذا أيضًا من الصوفية الذين أجمعت كتب التراجم[3] على أنّه من المشايخ الذين لقيهم ابن خفيف وصحبهم.

ولم يَرْوِ لنا ابن خفيف تفاصيل كثيرة عن صحبته لأبي العباس بن عطاء خلا رواية واحدة تبدأ باعتراض ابن خفيف ومناقشته لابن عطاء فى مسألتين من المسائل، فبدأ التعارف بينهما بالمناقشة والاعتراض، وانتهى الأمر بينهما بالصحبة والدعاء، يقول ابن خفيف: «لما وصلت إلى مجلسه (يقصد أبا العباس بن عطاء) كان أبو محمد الجريري

---

(١) نفس المصدر ص٢٧٨.

(٢) هو أبو العباس بن عطاء، واسمه أحمد بن محمد بن سهل بن عطاء الأدمي، من ظرّاف مشايخ الصوفية وعلمائهم، له لسان في فهم القرآن يختص به، صحب إبراهيم المارستاني والجنيد بن محمد ومَنْ فوقهما من المشايخ، كان أبو سعيد الخراز يُعظم شأنه، توفي سنة ٣٠٩هـ من كلامه: «من ألزم نفسه آداب السُّنة نوّر الله قلبه بنور المعرفة». (انظر: السلمي: طبقات الصوفية ص٢٠٧، وابن الملقن: طبقات الأولياء ص٥٩).

(٣) راجع: القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٨٢، والهجويري: كشف المحجوب ص٣٧٠.

جالسًا معه، وقد اعترضتُ عليه مرتين: مرة في موضوع الفراسة، والثانية في رواية حديث أورده أبو العباس لا على وجهه الصحيح»[١].

ولا مانع من إيراد هاتين المرتين كما رواهما ابن خفيف ليتبين لنا من خلالهما كيف كانت الحوارات تدور بين هؤلاء السادة الأكابر، وكيف كانوا يتمتعون بالقسط الأكبر من سعة الصدر وقبول الرأي الآخر.

المرة الأولى: يقول ابن خفيف: «قال أبو العباس: قل: ما وصلك من كلام عني ليس على نهج الشريعة ولا يوافق السنة؟»[٢]، وهنا نلاحظ أنّ الشيخ أبا العباس رغم منزلته وعلو شأنه في طريق التصوف إلّا أنّه يفسح المجال للحديث من مريد لا شك أنّه في هذه اللحظة أقل منه حظًا ونصيبًا في التجربة الصوفية، بالإضافة إلى أنّ ابن عطاء يلفت نظر ابن خفيف إلى الميزان الذي يكون ضابطًا للخلاف، وهو كون الكلام موافقًا للشريعة والسنة أم لا!

ويبدو أنّ ابن عطاء كان مُعظّمًا للسنة والشريعة إلى أقصى حد، حيث يروي القشيري عنه قوله: «مَنْ ألزم نفسه آداب الشريعة نوَّر الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه»[٣].

قال ابن خفيف: «قلتُ: أوله الحديث الذي ترويه أنّ الرسول ﷺ قال: «يخاطب الله تعالى الأغنياء قائلًا: أيّ حق قمتم به فيما أعطيتكم من الدنيا؟ فيجيبون: امتثلنا لأوامرك واجتنبنا نواهيك وقمنا بطاعتك، ويُصدّقهم الله تعالى، وليس هناك مقام أعلى من أن يُصدّق الله أحدًا».

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٨.

(٢) نفس المصدر ص١٥٨.

(٣) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص١٠٣.

قال أبو العباس: وأيّ اعتراض لك على هذا يا بني؟ قلتُ: إنّ هذا الحديث مروي في حقّ الفقراء وأنت ترويه في حق الأغنياء.

قال أبو العباس: ارْوِ إذن الحديث الذي ورد في حقّ الفقراء، قلتُ: الحديث: «يحشر الفقراء يوم القيامة وهم على أمثال الحمائم، وينادي الحق تعالى: أوقفوهم ليحاسبوا وليعرضوا سيئاتهم، فيجيبون: لم يصدر منا جُرم واحد حتى تحاسبنا عليه أو تعاقبنا من أجله، وحين ذاك ينادي: صدق عبيدي اتركوهم فيذهبون إلى الجنة»[1]»[2].

المرة الثانية: بعد أن أورد ابن خفيف هذا الاعتراض قال له أبو العباس: «سمعتُ هذا الاعتراض، فما الاعتراض الثاني الذي هو في موضوع الفراسة؟ قلتُ: لقد أوردتَ دليلًا على الفراسة هذه الآية: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [محمد: ٣٠]، وهذه الآية لا تدل على أنّ الفراسة بلا سبب، وطالتْ المناقشة بيني وبينه»[3].

والحقيقة أنّ استدلال أبي العباس بن عطاء بهذه الآية على الفراسة استدلال صحيح مستعمل عند الصوفية، يقول القشيري: «قوله جل ذكره: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ أي: في معنى الخطاب، فالأَسِرَّةُ تدلّ على السريرة، وما

---

(١) عن سعيد بن عامر قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن فقراء المسلمين يُزَفُّون كما تُزَفُّ الْحَمَامُ»، قال: «فيقال لهم: قِفُوا للحساب، فيقولون: والله، ما تركنا شيئًا نُحَاسَب به، فيقول الله ﷻ: صدق عبادي، فيدخلون الجنة قبل الناس بسبعين عامًا». (أورده الهيثمي في مجمع الزوائد ج١٠ ص٢٦١ برقم ١٧٨٩٧، بتحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي - القاهرة، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م، وقال: رواه الطبراني، وذكر بعده عن سعيد بن عامر، عن النبي ﷺ قال مثله. وفي إسناديهما يزيد بن أبي زياد، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجالهما ثقات، ورواه البزار، عن سعيد بن عامر بنحوه كذلك).

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٨.

(٣) نفس المصدر ص١٥٩.

يخامر القلوب فعلى الوجوه يلوح أثره:

لست ممن ليس يدرى ❁ ما هوان من كرامة

إنّ للحبّ وللبغــــض ❁ على الوجه علامــة

والمؤمن ينظر بنور الفراسة، والعارف ينظر بنور التحقيق، والمُوحّد ينظر بالله فلا يستتر عليه شيء، ويقال: بصائر الصديقين غير مغطّاة، قال رسول الله ﷺ: «سدوا كل خَوْخَةٍ غير خَوْخَةِ أبى بكر»[(1)][(2)].

فلا ندري لماذا اعترض ابن خفيف على أبي العباس بن عطاء في استدلاله بهذه الآية؟!.

وبعد هذه البداية التي قامت على الاعتراض والمناقشة بين الشيخ ابن عطاء والمريد ابن خفيف، جاءت الصحبة والإكرام والدعاء.

يقول ابن خفيف: «وحينما انتهت المناقشة أخذني أبو العباس إلى منزله وأحضر لي طعامًا فأكلتُ وجاهد كثيرًا أن يلبسني خرقة فلم أقبل...وبعد ذلك جاهد كثيرًا حتى أقبل منه شيئًا ولم أفعل، فدعا لي وقال: طوبى لأولئك الذين غنمتَ صحبتهم وتنعمتَ بمجالستهم، قلتُ: لي التماس من جنابكم أن تكتب بخطك هذه الكلمات المباركة التي جرى بها لسانك، وتعطيني إياها، إذ إنّي أُفَضِّلُها على الدنيا بأجمعها، فَقَبِلَ وكتبها وأعطاها

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح عن ابن عباس، كتاب «الصلاة»، باب «الخَوْخَةِ وَالمَمَرِّ في المسجد»، ج١ ص١٠٠ برقم ٤٦٧، ومسلم في الصحيح عن أبي سعيد، كتاب «فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم»، باب «من فضائل أبي بكر الصديق رضي الله عنه»، ج٤ ص ١٨٥٤ برقم ٢٣٨٢ (بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، بدون).

(٢) القشيري: لطائف الإشارات ج٣ ص٤١٤ (بتحقيق: إبراهيم البسيوني، الطبعة الثالثة، الهيئة العامة للكتاب - القاهرة، بدون).

لي»[١].

٤) **أبو محمد الجريري**[٢]: وهو من مشايخ ابن خفيف الذين يُنسب إليهم وإلى صحبتهم، وهو من متقدمي القوم ممّن صحب الجنيد، وكان عالمًا بعلوم الصوفية كبير الحال عالي المقام فيهم[٣].

ولم يَرْوِ لنا ابن خفيف كثيرًا من الأخبار عن شيخه الجريري، وإنّما ذكر كلامًا مختصرًا، ومن هذا الكلام المختصر ما يلي:

تعظيم ابن خفيف الكبير لهذا الشيخ وعدّه إياه في الأولياء: يقول ابن خفيف: «كنت أَعُدُّ أبا محمد من جملة الأولياء، وكلّ من رأى سيرته وسلوكه لا يشك في ولايته»[٤].

ويقول ابن خفيف عن أبي محمد الجريري أيضًا: «لم أرَ أحدًا يتحدّث في المعرفة مثل أبي محمد»[٥].

ويروي ابن خفيف عنه أنّه كان متحققًا بحال الرضا والتسليم: يقول ابن خفيف: «أوقع القرامطة فتنة ذات سنة، وكانوا يقتلون الناس، وذات يوم كان أبو محمد متكئًا في دعة وأخذ

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٩.

(٢) هو أحمد بن محمد الحسين الجُريري، كان من كبار أصحاب الجنيد وصحب أيضًا سهل بن عبد الله التستري، وهو من علماء مشايخ القوم أُقعِد بعد الجنيد في مجلسه لتمام حاله وصحة علمه، توفي سنة ٣١١هـ من كلامه: «مَنْ استولتْ عليه النفس صار أسيرًا في حكم الشهوات، محصورًا في سجن الهوى، وحرّم الله على قلبه الفوائد، فلا يستلذ بكلام الحق ولا يستحليه، وإن كثر ترداده على لسانه». (انظر: السلمي: طبقات الصوفية ص٢٠٣:٢٠٦، وابن الملقن: طبقات الأولياء ص٧١:٧٦).

(٣) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص١٠٢.

(٤) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٦٠.

(٥) نفس المصدر ص١٦٠.

الناس يلتمسون منه: ادع لنا يخمد الله هذه الفتنة، فقال أبو محمد: هذه ساعة الرضا والتسليم وليست ساعة الدعاء»[1].

وقد تعلّم ابن خفيف هذا الحال العالي، وظهر الرضا والتسليم في حياة ابن خفيف في مواقف كثيرة.

٥) **أبو الحسن المزين**[2]: وهو من المشايخ الكبار الذين صحبهم ابن خفيف في مكة، ويبدو أنّ هذه الصحبة قد امتدتْ زمنًا؛ لأنّ الشيخ الكبير يروي عنه روايات كثيرة رواها أبو الحسن عن مشايخه وأقرانه.

وقد نقل ابن خفيف من أحوال الشيخ وكراماته وزهده أشياء كثيرة من أهمها ما يلي:

كان أبو الحسن المزين عظيم الصبر عند الإساءة إليه: يحكي ذلك ابن خفيف فيقول: «جرت مجادلة بين أبي الحسن المزين وأحد الدراويش، فأحضر ذلك الدرويش أدوات الحجامة غاضبًا ووضعها أمام أبي الحسن، وقال: قم وامض إلى عملك واترك الفقر للفقراء، فَهَمَّ مريدو أبي الحسن بإيذاء الدرويش وتأديبه، فنهاهم أبو الحسن، وقال: ينبغي على كلّ من جالس الدراويش ألّا يتأذى من كلامهم»[3].

وقد تَعَرَّضَ الشيخ الكبير لمثل هذا الموقف، فصبر على الأذى وقابل الإساءة بالحلم متأسيًا بمشايخه الذين منهم أبو الحسن المزين.

---

(١) نفسه ص١٦٠.

(٢) هو أبو الحسن علي بن محمد المزين، مِن أهل بغداد، صحب الجنيد وسهل بن عبد الله ومَنْ في طبقتهما مِن البغداديين، وأقام بمكة مجاورًا ومات بها، وكان مِن أورع المشايخ وأحسنهم حالًا، توفي سنة ثمان وعشرين وثلاثمائة، من أقواله: «الذنب بعد الذنب عقوبة الذنب والحسنة بعد الحسنة ثواب الحسنة». (السلمي: طبقات الصوفية ص٢٨٩، وابن الملقن: طبقات الأولياء ص١٤٠).

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٢٣.

ومما يرويه ابن خفيف من كرامات أبي الحسن المزين: قوله: «روى الشيخ أبو الحسن: ذهبتُ إلى بئر في بادية تبوك لآخذ بعض الماء فَزَلَّتْ قدمي، فقلتُ في نفسي: وآسفاه! لقد عَكَّرْتُ ماء البئر على الناس، فرأيتُ في ركن البئر حفرة، فألقيتُ بنفسي من بين الماء في هذه الحفرة، فأبصرتُ حية عظيمة قد تقدمتْ مني فراجعتُ سِرّي ووجدته ساكنًا، ثم حملتني تلك الحية وألقتْ بي خارج البئر، بحيث لم يلحقني أذى ثم انفصلتْ عني»[1].

يقول الديلمي: «وفي كل آن ينقاد فيه الإنسان إلى الحق تعالى، تنقاد له كل الحيوانات، وكلّ مَنْ يمتثل لأمر الله تمتثل الوحوش والسباع لأوامره»[2].

٦) **أبو يعقوب الأقطع**[3]: كان هذا الشيخ من مشايخ ابن خفيف أيضًا، وقد صحبه

(١) نفس المصدر ص١٢٤.

(٢) نفسه ص١٢٤.

(٣) أحد صوفية بغداد من طبقة الجنيد وأضرابه، وقد زوّج ابنته للحلاج لما رأى من حسن طريقته واجتهاده، ثم نسبه بعد ذلك للسحر والاحتيال، أورد عنه القشيري في «الرسالة» أنه قال: «جعتُ مرة بالحرم عشرة أيام، فوجدتُ ضعفًا، فحدثتني نفسي فخرجتُ إلى الوادي لعلي أجد شيئًا يسكن ضعفي، فرأيت سلجمة مطروحة فأخذتُها، فوجدتُ في قلبي منها وحشة وكأن قائلًا يقول لي: جعتَ عشرة أيام فآخره يكون حظك سلجمة متغيرة، فرميتُ بها ودخلتُ المسجد فقعدتُ فإذا أنا برجل أعجمي جلس بين يدي ووضع قمطرة وقال: هذه لك، فقلتُ: كيف خصصتني بها؟ فقال: اعلم أنا كنا في البحر منذ عشرة أيام وأشرفتْ السفينة على الغرق فنذر كل واحد منا إن خلّصنا الله تعالى أن يتصدق بشيء، ونذرتُ أنا إن خلصني الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع بصري عليه من المجاورين وأنت أول من لقيته، فقلتُ: افتحها ففتحه فإذا فيها كعك سميد مصري ولوز مقشور وسكر كعاب، فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقبضة من ذا وقلتُ: ردّ الباقي إلى صبيانك هو هدية مني لكم وقد قبلتها، ثم قلتُ في نفسي: رِزْقُك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادي». (انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج٨ ص٦٨٨ (بتحقيق: د/ بشار عواد معروف، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، دار الغرب الإسلامي - بيروت)، والذهبي: تاريخ الإسلام ج٢٣ ص٣٥، والقشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٣٠٦).

ابن خفيف فترة من الزمن، ويحكي الشيخ عن صحبته وإكرامه له فيقول: «كان أبو يعقوب يحبني كثيرًا ويغمرني بعطفه بحيث كان يوصيني كل يوم قائلًا: اذهب، وتردد على ما تشاء من أماكن، ولكن يجب أن تأتيني ليلًا، وحينما كنتُ أذهب إليه كل ليلة، كان يعد لي فراشًا ثم ينشغل بالصلاة حتى بزوغ الصبح، حتى إنّني كلما كنتُ أستيقظ من النوم أراه قائمًا يصلي، ومن جملة إكرامه لي أنّني كلما كنتُ أذهب إليه كان يقول: يا أبا عبد الله هل أكلتَ شيئًا؟ فإذا قلتُ: لا، مدَّ يده إلى صندوق وأحضر لي شيئًا، وإذا لم يكن شيء أرسل خادمه إلى السوق ليحضر شيئًا»(1).

ومن المعلوم أنّ المشايخ في طريق التصوف كان من عاداتهم إكرام مريديهم تأنيسًا لنفوسهم وتأليفًا لقلوبهم.

ويبدو أنّ هذا الشيخ أبا يعقوب الأقطع كان عالي المقام عند الله تعالى، فأحسن الله خاتمته وظهرت كرامته عند ربه عند موته، يروي في ذلك الشيخ الكبير رواية فيقول: «روى أبو الحسن المزين أنّ أبا يعقوب الأقطع قد مرض، وأردتُ أن أذهب لعيادته، وحينما ذهبتُ كان جماعة من الإخوان في حضرته، فأجلسوني على فراشه، وقالوا لي: حينما يفتح عينيه لقنه كلمة الشهادة، وحينما فتح عينيه لقنته إياها، فاتجه إليّ الأقطع وقال: هل تلقنني؟ قلتُ: بلى، فابتسم وقال: بعزّة ذلك الإله الذي لا يموت لم يبقَ بيني وبينه إلا حجاب العزة، قالها وأسلم الروح»(2).

٧) **أبو علي الروذباري**(3): صحب ابن خفيف أبا علي الروذباري، وروى عنه بعض

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٤١.

(٢) نفس المصدر ص١٢١.

(٣) من صوفية بغداد، سكن مصر وصار شيخها، ومات بها، صحب أبا القاسم الجنيد وأبا الحسين النوري وأبا حمزة وحسنًا المسوحي ومَنْ في طبقتهم من مشايخ بغداد، وصحب بالشام ابن الجلاء، وكان عالمًا فقيهًا عارفًا بعلم الطريقة حافظًا للحديث، توفي سنة اثنتين وعشرين وثلاثمائة، وأسند الحديث، سُئل عن=

الأحوال، ومن أشهر ما رواه عنه أنّ أبا علي كان كثير المدح للمشايخ عظيم الثناء عليهم، يقول الشيخ الكبير: «كنتُ جالسًا معه في مكة ذات يوم، فدخل أحد الدراويش وأخذ أبو علي يسأله عن أحوال المشايخ، والدرويش يتحدّث عن أحوالهم فأنشد أبو علي:

رمى الحق بالفتيان حتى كأنهم ❊ بأطراف آفاق البلاد نجوم»[1]

يقول الديلمي: «ويعني بالبيت أنّ الحق تعالى قد اصطفى عددًا من عباده، وألقى عنهم بعلائق الدنيا، وجعلهم محرومين من لذاتها وشهواتها، بحيث بلغوا مرتبة رجحوا بها على نجوم السماوات، وزادوا قدرًا عن الشمس والقمر، حتى يجد الخلق بهدايتهم الطريق في كل آن»[2].

ومما يرويه الشيخ الكبير عن أبي علي الروذباري أنّه كان مشهورًا بالحلم لم يُرَ غاضبًا قط، يقول الشيخ الكبير: «كان أبو علي مشهورًا بالحلم ولم يُرَ قط وقد غلبه الغضب، وذات يوم حضر جمع من الفقراء وقالوا: تعالوا نختبره أهو راسخ القدم في مقام الحلم أم لا؟ وكان من عادة المشايخ أن يقوم كل واحد منهم بخدمة الجماعة يومًا، وحينما حَلَّتْ نوبة أبي علي لم يغفل شيئًا قط من شروط الخدمة، بحيث أنّهم أيقظوه في الليل قرابة سبعين مرة، وكلما كان يستيقظ كان يجيب: لبيكم يا سادتي، ولم يظهر عليه ضجر أو ملل، وخدم المشايخ على هذا النمط ثلاثة أيام بلياليها، فلم يسترح في نهار أو ليل، وحينما انتهت نوبة خدمته، ولم يجد إليه الملل طريقًا، قال القوم لبعضهم: ليس هذا التصرف الذي قمنا به مقبولًا، وهو بعيد عن الطريقة، وحينما وقف أبو علي على تفكيرهم قال: أيّ تفكير

=التصوف فقال: «هذا مذهب كلّه جدّ فلا تخلطوه بشيء من الهزل». (انظر: السلمي: طبقات الصوفية ص٢٦٩:٢٧٤، وابن الملقن: طبقات الأولياء ص٥٠:٥٨).

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٢٨.

(٢) نفس المصدر ص١٢٩.

وظن هذا تدعون طريقه إليكم؟ فقصوا عليه الأمر قائلين: لقد كنا نختبرك، هل تمل أو تغضب من تلك الأحكام، التي كنا نجريها عليك أم لا؟ قال أبو علي: لو كنتُ أعلم أنّ هذا مرادكم لغضبت منذ البداية، ولأظهرتُ الملل، حتى يتم مرادكم، ثم قال: طيبوا نفسًا، وأخذ يمزح، ويسعد أوقاتهم»[1].

۞ القسم الثاني: المشايخ الذين لقيهم الشيخ الكبير في أسفاره ورحلاته:

كان المشايخ الذين ذكرناهم في الفقرة السابقة هم الذين نعدهم مشايخ مباشرين لابن خفيف، التقى بهم وصحبهم زمنًا وأخذ عنهم وتعلم منهم، وأمّا المشايخ الذين سنذكرهم في هذه الفقرة فقد لقيهم ابن خفيف في أسفاره ورحلاته، أو رحل إليهم للزيارة والاستفادة والوقوف على أحوالهم، فلا نعدهم من مشايخه لمجرد لقاء.

وأشهر نموذج لهؤلاء: الحسين بن منصور الحلاج[2]، وقد اختلف الصوفية حوله، فرده أكثرهم ورفضوا أقواله، وقبله بعضهم وصحّحوا حاله، وكان مِن هؤلاء القابلين للحلاج ابن خفيف الذي وصفه بأنّه عالم رباني.

يقول أبو عبد الرحمن السلمي عن الحلاج: «والمشايخ في أمره مختلفون رده أكثر المشايخ ونفوه، وأبوا أن يكون له قدم في التصوف، وقَبِلَه من جملتهم أبو العباس بن عطاء

---

(١) نفسه ص١٣٠، ١٣١.

(٢) هو أبو مغيث الحسين بن منصور، وهو من أهل بيضاء فارس ونشأ بواسط والعراق وصحب الجنيد وأبا الحسين النوري وعمرًا المكي والفوطي وغيرهم، ومشايخ الصوفية في أمره مختلفون، ردّه أكثر المشايخ ونفوه وأبوا أن يكون له قدم في التصوف، وقَبِلَه من جملتهم أبو العباس بن عطاء وأبو عبد الله محمد بن خفيف وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي وأثنوا عليه وصحّحوا له حاله وحكوا عنه كلامه وجعلوه أحد المحقّقين، وكثرتْ الوشايات به إلى المقتدر العباسي فأمر بالقبض عليه، فسُجن وعُذب وضُرب، ثم قُتل بباب الطاق ببغداد سنة ٣٠٩هـ من مؤلفاته: كتاب «الطواسين»، و«خلق الإنسان والبيان»، و«الأصول والفروع». (انظر: السلمي: طبقات الصوفية ص٢٣٦:٢٣٩، وابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص١٤٠:١٤٦).

وأبو عبد الله محمد بن خفيف وأبو القاسم إبراهيم بن محمد النصراباذي، وأثنوا عليه وصحّحوا له حاله، وحكوا عنه كلامه وجعلوه أحد المحقّقين حتى قال محمد بن خفيف: الحسين بن منصور عالم رباني»(١).

ويقول الذهبي عن الحلاج: «وسائر مشايخ الصوفية ذمّوا الحلاج إلا ابن عطاء، ومحمد بن خفيف الشيرازي، وإبراهيم بن محمد النصراباذي، فصحّحوا حاله ودوّنوا كلامه»(٢).

وقد سُئل ابن خفيف: ما تقول في الحلاج؟ قال: «أعتقد فيه أنّه رجل من المسلمين فقط، فقيل له: قد كفّره المشايخ وأكثر المسلمين، فقال: إن كان الذي رأيتُه منه في الحبْس لم يكن توحيدًا، فليس في الدنيا توحيد»(٣).

ورغم أنّ ابن خفيف لقي في أسفاره خلقًا كثيرين إلّا أنّ أهم تلك اللقاءات كانت بالحلاج، تقول «أنا ماريا شميل»: «وأكثر اللقاءات التي قام بها الشيخ في بغداد إثارة ذلك اللقاء الذي كان مع الحلاج، وطبقًا لشهادة كافة المراجع زاره ابن خفيف في السجن، ووصفه بكل تقدير بأنّه مُوَحِّد عالم رباني»(٤).

ولم يذهب إليه في السجن لزيارته أحد طيلة خمسة أشهر إلا ابن عطاء مرة وابن خفيف مرة، بل قد بلغ من تقدير ابن خفيف للحلاج أنّه قَبَّل يده عند لقائه(٥).

وقد اجتهد ابن خفيف في زيارة الحلاج حتى اتخذ وسيطًا ليحقق له هذه الزيارة، وقد رَوَتْ بعض المصادر تفاصيل هذه الزيارة التي تدل على الإعجاب والتقدير من ابن خفيف

---

(١) السلمي: طبقات الصوفية ص٢٣٦.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٧ ص١٦.

(٣) نفس المصدر ج٧ ص١٦.

(٤) مقدمة «أنا ماريا شميل طاري» لسيرة الشيخ الكبير ص٢٨.

(٥) نفس المصدر ص٢٨٠.

للحلاج[1].

ومع هذا الإعجاب والتقدير الكبيرين اللذين يحملهما ابن خفيف بين جوانحه للحلاج إلّا أنّنا لاحظنا أنّ ابن خفيف لا يتردد أن يرفض كلامًا منسوبًا للحلاج حين ظهرت منه رائحة مخالفة للشريعة، وذلك قد حدث حين سُئل ابن خفيف عن أبيات منسوبة للحلاج، وهذه الرواية يرويها كثيرون كابن الجوزي والخطيب البغدادي والذهبي وابن كثير، ويذكرها من المستشرقين «ماسينيون» أيضًا[2].

فعن ابن باكويه الشيرازي «قال: سمعت ابن بزول القزويني - وقد سأل أبا عبد الله بن خفيف عن معنى هذه الأبيات -:

سبحان من أظهر ناسوتُه ✿ سرَّ سنا لاهوته الثاقب

ثم بدا في خلقه ظاهرًا ✿ في صورة الآكل والشارب

حتى لقد عاينه خلقه ✿ كلحظة الحاجب بالحاجب

فقال الشيخ: على قائلها لعنة الله، فقال عيسى بن بزول: هذا الحسين بن منصور، فقال: إن كان هذا اعتقاده فهو كافر، إلّا أنّه لم يَصِحّ أنّه له، ربما يكون مقولًا عليه»[3].

وهذه الرواية الشائعة تطلعنا على أمور ثلاثة جديرة بالذكر وهي:

الأول: أنّ ابن خفيف لا يحابي أحدًا يخالف الحق مهما كان مُعجبًا به أو مُقدرًا له،

(١) راجع في تفاصيل هذه الزيارة: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٨٠:٢٨٦.

(٢) راجع هذه الرواية عند: ابن الجوزي: تلبيس إبليس ص١٥٤ (الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت)، والخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج٨ ص١٢٦، وابن كثير: البداية والنهاية ج١١ ص١٥٤ (بتحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي).

(٣) الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج٨ ص١٢٨.

فالاتباع عنده أولى، والحق إليه أقرب.

الثاني: أنّه يفتح لحسن الظن بابًا، فهو لا يبادر بالحكم بالكفر على إطلاقه، وإنّما يقول: إن كان هذا ثابتًا عنه وكان معتقدًا له فهو كافر، وهذا حق، لكن ليس هذا هو الحكم النهائي، فهناك احتمال أنّه ليس كلام الحلاج، أو أنّ أحدًا تَقَوَّلَه عليه.

الثالث: يلفت ابن خفيف نظر الباحثين في التصوف إلى مسألة هامة جدًا، هي ما عُرِفَتْ عند المتأخرين باسم «الدَّسُّ على الصوفية».

والواقع أنّنا نذهب مع ابن خفيف بتصحيح حال الحلاج، وذلك استنادًا على أقوال الحلاج ذاته التي رُوِيَتْ وصَحَّتْ عنه، ومن ذلك:

«قال أحمد بن أبي الفتح بن عاصم البيضاوي: سمعتُ الحلاج يملي على بعض تلامذته: إنّ الله تبارك وتعالى وله الحمد ذات واحد قائم بنفسه، منفرد عن غيره بقدمه، متوحّد عمّن سواه بربوبيته، لا يمازجه شيء، ولا يخالطه غير، ولا يحويه مكان، ولا يدركه زمان، ولا تُقدّره فكرة، ولا تُصوّره خطرة، ولا تُدركه نظرة، ولا تعتريه فترة»[1].

وأوضح من هذا في نفي الحلول أو الاتحاد بين الإله جل في علاه وبين شيء من خلقه هذا النص الذي يرويه أحمد بن فاتك عن الحلاج أنّه قال: «مَنْ ظنّ أنّ الالهيّة تمتزج بالبشريّة أو البشرية بالإلهية فقد كفر، فإنّ الله تعالى تفرّد بذاته وصفاته عن ذوات الخلق وصفاتهم، فلا يشبههم بوجه من الوجوه، ولا يشبهونه بشيء من الأشياء، وكيف يُتصوَّر الشبه بين القديم والمحدَث، ومَنْ زعم أنّ الباري في كل مكان أو على مكان أو متصل بمكان، أو يُتصوّر على الضمير، أو يتخايل في الأوهام أو يدخل تحت الصفة والنعت فقد

---

(١) علي بن أنجب الساعي البغدادي: أخبار الحلاج ص٧٢ (بتحقيق: موفق فوزي الجبر، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧م، دار الطليعة الجديدة - دمشق).

أشرك»[1].

وليس هناك وضوح أكثر من هذا في نفي المشابهة أو المشاكلة بين الله تعالى وبين خلقه، ناهيك عن أن يحلّ أو يتّحد بشيء من مخلوقاته.

وهذا التوحيد الخالص الذي نطقت به عبارات الحلاج واضحة في معظمها وغامضة في أقلها هو الذي دعا القشيري أن يستشهد بأقوال الحلاج على إثبات التوحيد السُّنّي الخالص وجعل كلماته مِن بين كلمات أكابر الصوفية عن التوحيد السُّني، بل جاء نص الحلاج أطول نص نقله القشيري عن عَلَم من الأعلام في رسالته على الإطلاق، يقول القشيري: «قال الحسين بن منصور: أَلْزَمَ الكل الحدث؛ لأنّ القدم له، فالذي بالجسم ظهوره فالعرض يلزمه، والذي بالأداة اجتماعه فقواها تمسكه، والذي يؤلّفه وقت يفرّقه وقت، والذي يقيمه غيره فالضرورة تمسّه، والذي الوهم يظفر به فالتصوير يرتقي إليه، ومَنْ آواه محلّ أدركه أين، ومَنْ كان له جنس طالبه مُكَيِّف، إنّه سبحانه لا يظلّه فوق، ولا يقلّه تحت، ولا يقابله حدّ، ولا يزاحمه عند، ولا يأخذه خلف، ولا يحدّه أمام، ولم يُظهره قبل، ولم يَنْفِه بعد، ولم يجمعه كلّ، ولم يوجده كان، ولم يفقده ليس، وَصْفُهُ لا صفة له، وفعله لا علة له، وكونه لا أَمَدَ له، تنزّه عن أحوال خلقه، ليس له من خلقه مزاج، ولا في فعله علاج، باينهم بقدمه كما باينوه بحدوثهم، إن قلتَ: متى؟ فقد سبق الوقت كونه، وإن قلتَ: هو فالهاء والواو خلقه، وإن قلتَ: أين؟ فقد تَقَدَّمَ المكان وجوده، فالحروف آياته، ووجوده إثباته، ومعرفته توحيده، وتوحيده تمييزه من خلقه، ما تُصُوِّرَ في الأوهام فهو بخلافه، كيف يحلّ به ما منه بدأ، أو يعود إليه ما هو أنشاه، لا تماقله العيون، ولا تقابله الظنون، قربه كرامته، وبُعده إهانته، علوه من غير توقّل، ومجيئه من غير تنقّل، هو الأول

---

(١) نفس المصدر ص٧٤.

والآخر والظاهر والباطن، القريب البعيد الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير»[1].

فأيّ كفر أو أيّ زندقة أو أيّ حلول أو أيّ اتحاد أو أيّ مخالطة بين الخالق والمخلوق يستطيع أيّ أحد أن يستخرجها من هذا النص؟!.

وقد استحسن الشيخ الأكبر محي الدين ابن عربي صنيع القشيري في رسالته حين استشهد بكلام الحلاج في التوحيد حتى ينفي عنه أيّ شبهة، فقال: «وقد فعل مثل هذا القشيري في رسالته حيث ذكر أولئك الرجال من أول رسالته، وما ذكر فيهم الحلاج للخلاف الذي وقع فيه حتى لا تتطرق التهمة لمن وقع ذكره من الرجال في رسالته، ثم إنّه ساق عقيدته في التوحيد في صدر الرسالة، يزيل بذلك ما في نفس الناس منه من سوء الطويّة»[2].

وهكذا كان الحلاج أشهر مَنْ لقيهم الشيخ الكبير مِن الصوفية، ورغم أنّ الشيخ رحل للقاء مشايخ كبار إلّا أنّ الحلاج كان أشهرهم على الإطلاق، ولذلك اكتفينا بذكره وإن كان هناك عدد من المشايخ لكنّهم ليسوا في درجة الحلاج وشهرته[3].

۞ القسم الثالث: المشايخ الذين أَمَرَ ابن خفيف بالاقتداء بهم، وإن لم يلقهم، أو يأخذ عنهم مباشرة:

لقد كان ابن خفيف - كما سبق - يُكِنُّ في نفسه احترامًا كبيرًا لمشايخ الطريق حتى الذين لم يصحبهم ولم يلتقِ بهم، وما ذلك إلّا لأنّ لهؤلاء المشايخ قَدَمًا راسخة في الطريق

---

(١) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٢١:٢٣.

(٢) ابن عربي: الفتوحات المكية ج٧ ص٢٨٦، ٢٨٧ (ضبطه وصححه ووضع فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، بدون).

(٣) راجع: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٨٨ وص١٩٥ وص٢١١، وغيرها من مواضع ذكر فيها الشيخ بعض لقاءاته بكثير من المشايخ.

واتباعًا صحيحًا للشريعة، ولم تغلب عليهم الأحوال التي تغلّبتْ على أضرابهم.

يقول الشيخ الكبير: «اقتدوا بخمسة من بين الشيوخ: الحارث المحاسبي[1]، وأبي القاسم الجنيد[2]، وأبي محمد رويم، وأبي العباس بن عطاء، وعمرو بن عثمان[3]؛ وذلك لأنّهم جمعوا بين العلم والحقائق، أمّا الشيوخ الآخرون فكانوا أرباب حال، وأصحاب مقامات ومكاشفات، وقد صَدَرَ عنهم في حال الاستغراق بعض كلمات لا تستقيم بميزان الشرع، وحينما كانوا يعودون إلى وعيهم، كانوا يتوبون عن هذه الكلمات، ويعودون

---

(١) هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبي، من علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات، وهو شيخ الجنيد وأستاذ أكثر البغداديين، قيل: سُمِّيَ المحاسبي لشدة محاسبته لنفسه، وهو من أهل البصرة مات ببغداد سنة ٢٤٣هـ له مصنفات كثيرة قدّرها البعض بنحو مائتي كتاب، وأشهر كتبه «الرعاية لحقوق الله»، وله أيضًا: «مائية العقل ومعناه واختلاف الناس فيه»، و«كتاب التوهم». (راجع: السلمي: طبقات الصوفية ص٥٨:٦٣، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص٢٧٥:٢٧٨).

(٢) هو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد النهاوندي الأصل البغدادي القواريري الخزاز، سيد الطائفة ومقدم الجماعة وإمام أهل الخرقة وشيخ طريقة التصوف وعلم الأولياء في زمانه، تفقّه على أبي ثور وكان يفتي بحلقته وله من العمر عشرون سنة، وسمع الحديث من الحسن بن عرفة، واختص بصحبة السري السقطي والحارث بن أسد المحاسبي وأبي حمزة البغدادي، قال جعفر الخلدي: لم نرَ في شيوخنا من اجتمع له علم وحال غير الجنيد إذا رأيت علمه رجّحته على حاله وإذا رأيت حاله رجّحته على علمه، وقال أبو القاسم الكعبي المتكلم المعتزلي: ما رأت عيناي مثله كان الكتبة يحضرونه لألفاظه والفلاسفة لدقة معانيه والمتكلمون لعلمه، توفي سنة ٢٩٧هـ من مؤلفاته: «رسائل» منها ما كتبه إلى بعض إخوانه، ومنها ما هو في التوحيد والألوهية، ومسائل أخرى، وله «دواء الأرواح». (راجع: السلمي: طبقات الصوفية ص١٢٩:١٤٠، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص٢٦٠:٢٧٥).

(٣) هو أبو عبد الله عمرو بن عثمان بن كرب بن غصص المكي، كان ينتسب إلى الجنيد في الصحبة ولقي أبا عبد الله النباجي وصحب أبا سعيد الخراز وغيره من المشايخ القدماء، وهو عالم بعلوم الأصول وله كلام حسن، زار أصبهان وتوفي سنة ٢٩٧هـ ببغداد، وقيل بمكة، من كلامه: «اعلم أن رأس الزهد وأصله في القلوب هو احتقار الدنيا واستصغارها والنظر إليها بعين القلة». (راجع: السلمي: طبقات الصوفية ص١٦٢:١٦٦، وأبو نعيم: حلية الأولياء ج١٠ ص٢٩١:٢٩٦).

ويرون الاستغفار واجبًا»[١].

ويظهر لنا من هذا النص أنّ سبب تفضيل ابن خفيف لهؤلاء المشايخ أنّهم لم تظهر عليهم مخالفات شرعية حتى في كلماتهم التي كانوا يتحكمون فيها ويزنونها بميزان الشرع، وأمّا الآخرون من المشايخ فهم - مع قدرهم - كانت تخرج منهم بعض عبارات أو ما يُسمى في عرف البحث الصوفي بـ«الشطح»، ولكن ابن خفيف يذكر أنّهم كانوا يتوبون منها بعد الإفاقة من هذا السُكْر.

ويشير أيضًا الجنيد الشيرازي إلى علّة تفضيل ابن خفيف لهؤلاء الخمسة فيقول: «لأنّهم جمعوا بين العلم والحقيقة، والباقون كانوا أرباب أحوال وأصحاب غلبات»[٢].

وهذا يدلنا على أنّ مقياس التفضيل عند ابن خفيف كان دائمًا الميزان الشرعي الذي يَزِنُ به المشايخ وأقوالهم، وما أعظمه من ميزان يُصَحِّح ويُقَوِّم كل موزون به.

وقد مرّ بنا آنفًا حديث الشيخ الكبير عن رويم وصحبته له، وكذلك عن أبي العباس بن عطاء، وأنّه صحبهم وأخذ عنهم.

وأمّا الثلاثة الآخرون الواردون في النص السابق فهم:

الحارث المحاسبي: وهو من هو في الميدان الصوفي علمًا وعملًا وحالًا وأقوالًا، فهو «عَلَمُ العارفين في زمانه، وأستاذ السائرين الجامع بين علمي الباطن والظاهر، وهو شيخ الجنيد، وهو إمام المسلمين في الفقه والتصوف والحديث والكلام، وكتبه في هذه العلوم أصول مَنْ يصنف فيها، وله كتب كثيرة في الزهد وأصول الديانة والرد على المعتزلة والرافضة، وكتبه كثيرة الفوائد جمّة المنافع، وقال جمع من الصوفية: إنّها تبلغ مائتي

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٠٩، ١١٠.
(٢) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٤٤.

مصنف»[1].

والمحاسبي كما يقول القشيري: «عديم النظير في زمانه علمًا وورعًا ومعاملة وحالًا»[2].

والمحاسبي كما يقول أبو عبد الرحمن السلمي: «مِن علماء مشايخ القوم بعلوم الظاهر وعلوم المعاملات والإشارات، له التصانيف المشهورة، وأسند الحديث»[3].

وهذه النقول عن المترجمين للمحاسبي تُجمع على علو قدره في العلوم كلها، ولكن الأهم أنّهم أجمعوا كذلك على أنّه عالم في علوم الشريعة، كالفقه والحديث والكلام، وهذا يجعل منه حجة في علم التصوف كذلك، لا يخالف تصوفه أصول الشريعة، وهذا هو الذي دعا ابن خفيف إلى أن يأمر بالاقتداء به.

أبو القاسم الجنيد: وهو مِن علماء الشريعة أيضًا بجانب رسوخه في علم التصوف حيث كان: «فقيهًا تَفَقَّهَ على أبي ثور، وكان يفتي في حلقته، وصحب السري السقطي والحارث المحاسبي وغيرهم من أئمة القوم وساداتهم، مقبول على جميع الألسنة»[4].

والجنيد كما يقول القشيري: «سيد هذه الطائفة»[5]، وله في التمسك بالشريعة وتأسيس التصوف عليها الأقوال المشهورة المأثورة، فالجنيد هو الذي قال: «مَنْ لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يُقتدى به في هذا الأمر؛ لأنّ علمنا هذا مُقَيَّدٌ بالكتاب

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٢ ص٧٦٢.

(٢) القشيري: الرسالة ج١ ص٥١.

(٣) السلمي: طبقات الصوفية ص٥٨.

(٤) نفس المصدر ص١٢٩.

(٥) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٧٩.

والسنة»(١).

وقال الجنيد أيضًا: «علمنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة»(٢).

وقال أيضًا: «علمنا هذا مُشَيَّدٌ بحديث رسول الله ﷺ»(٣).

وهذا التقيُّد بالشريعة هو الذي أثار إعجاب ابن خفيف، ودعاه إلى الأمر بالاقتداء بالجنيد رَحِمَهُ اللهُ.

وأمّا الثالث فهو عمرو بن عثمان المكي: «كان ينتسب إلى الجنيد في الصحبة، وصحب كثيرًا من المشايخ القدماء، وهو عالم بعلوم الأصول وروى الحديث»(٤).

وقال عنه القشيري: «إمام الطائفة في الأصول والطريقة»(٥).

فهؤلاء المشايخ الكبار الثلاثة أَمَرَ ابن خفيف بالاقتداء بهم، وقد لاحظنا ملاحظتين تخص هؤلاء الثلاثة رحمهم الله، وهما:

الأولى: أنّهم يُمَثِّلُون مدرسة واحدة متصلة السند متحدة المشرب، فالمحاسبي أستاذ الجنيد، والجنيد أستاذ عمرو بن عثمان المكي.

الثانية: أنّهم - ثلاثتهم - متمكنون من العلم الشرعي سيّما الفقه والحديث، وهذا يجعل أحوالهم مأمونة، وكلماتهم مضمونة، بحيث لا يستولي عليهم الوجد، فيغيبون عن الوعي والإدراك، ويلجأون إلى الكلمات الغريبة التي تصادم ظاهر الشريعة، كما هو

---

(١) نفس المصدر ص٨٠.

(٢) نفسه ص٨٠.

(٣) القشيري: الرسالة القشيرية ص٨٠.

(٤) السلمي: طبقات الصوفية ص١٦٣.

(٥) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٩٣.

الحال عند بعض مِن الصوفية مِن غيرهم.

وهذه النقطة الثانية بخصوصها يتشابه فيها ابن خفيف مع هؤلاء المشايخ رحمهم الله، فهو - بجانب شهرته الصوفية - إلّا أنّه تَعَلَّمَ الحديث ورواه، كذلك تعلّم الفقه على مذهب الإمام الشافعي على يد ابن سريج، وسيأتي هذا.

وهذا هو الذي دعاه إلى الإعجاب بهم، والأمر بأخذهم قدوة في طريق التصوف، ويمكن أن يقال: إنّ ابن خفيف قد استفاد من هؤلاء المشايخ الذين ذكرناهم في هذه النقطة - أي مشايخه في التصوف - بحيث كانت صفاتهم حاضرة أمام عينيه وأَثّرَتْ في تكوينه الصوفي، فلا جرم أن وجدنا معظم تلك الصفات عند ابن خفيف.

ثانيًا: مشايخه في علم الحديث:

لقد كان علم الحديث هو أول علم تعلّمه الشيخ ابن خفيف بعد دخوله في طريق التصوف مباشرة، وذلك بنصيحة من شيخه الأول في التصوف أحمد بن يحيى، الذي أوصاه بأخذ علم الحديث عن كبار المشايخ المعاصرين، بل أحضرهم وأوصاهم بابن خفيف خيرًا، ثم انطلق ابن خفيف في هذا الميدان، وأصبح من محدثي عصره حتى طُلب منه أن يجلس للإملاء، فجلس وقتًا قصيرًا ثم انصرف عن إملاء الحديث.

ويمكن تناول تحصيل ابن خفيف لعلم الحديث في نقاط محددة فيما يلي:

١) بداياته في علم الحديث:

اهتم ابن خفيف ببناء شخصيته العلمية بناءً علميًا متكاملًا، فبعد أن دخل طريق الصوفية أراد أن يتضلع من علوم الشريعة المختلفة، فبدأ بعلم الحديث، وفي هذا يقول: «خطر لي يوم أن أشتغل فترة بدراسة الحديث، وأن أحصل على طرف من علم الأخبار والسنن، وفي ذلك العصر كان هناك اثنان مشهوران بعلم الحديث ونقل الأخبار، أحدهما:

عبد الله بن أحمد الشارداني، والآخر: عبد الله بن جعفر الأزرقاني.

ورأيتُ أنّ مشاورة الشيخ أحمد بن يحيى واجبة في هذا الأمر، كما رأيتُ أن أستعين بهمته، فأرسل الشيخ أحمد إليهما، فاستدعاهما وأوصاهما بي خيرًا، حتى لا يبخلا عليّ بمعروف ويبذلا الجهد المطلوب، ثم أخذتُ أذهب إلى مجلسهما كل يوم أستملي الحديث من فيهيهما، وأقتبس من الفوائد الأخرى.

وفي ذات يوم قال لي عبد الله الأزرقاني: يا أبا عبد الله: يلزمك اليوم أن تشاركنا في صلوات النوافل، ونرجئ درس الحديث إلى يوم آخر، فقلتُ: الأمر ما أراد الشيخ، وإلى أن حانت صلاة العصر ربما صليتُ ألف ركعة»[(١)].

ابتدأ الشيخ الكبير إذن في دراسة الحديث وتلقيه عن مشاهير المشايخ، ووجد التشجيع الكافي من شيخه في التصوف.

وقد وجدنا كُتّاب السِّيَر والتراجم يُجمعون على أنّ الشيخ الأزرقاني هذا هو الشيخ الأول لابن خفيف في علم الحديث، بينما تذهب المستشرقة «أنا ماريا» إلى أن الأزرقاني هو ثاني شيوخه، والأول هو أبو محمد العتايدي، فتقول: «إنّ أول أساتذته الذين قرأ عليهم الحديث أبو بكر العتايدي، وكان زاهدًا كبيرًا»[(٢)].

وابن خفيف يذكر هذا الشيخ - العتايدي - بشيء من التفصيل في باب الزهد، ولكنّه لم يذكره على أنّه أستاذه في علم الحديث.

وينص السمعاني في الأنساب على أنّ الأزرقاني كان من أساتذة ابن خفيف حيث روى عنه، فيقول: «أبو عبد الرحمن عبد الله بن جعفر الأزرقاني، ذكره أبو عبد الله محمد بن عبد

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٢، ٩٣.

(٢) مقدمة «أنا ماريا شميل» لسيرة الشيخ الكبير ص٣١.

العزيز الشيرازي في تاريخ فارس، روى عنه جماعة من أهل شيراز منهم أبو عبد الله بن خفيف»[1].

على كل حال فإنّ هناك اتفاقًا على أنّ الأزرقاني هو من أوائل شيوخ ابن خفيف الذين ابتدأ طلب الحديث على يديه.

٢) اجتهاده الكبير في تحصيل علم الحديث:

لقد كان من سمات ابن خفيف اجتهاده الكبير في العلوم التي يتصدى لطلبها، وحكاياته في الزهد والتقلّل مشهورة وقد سبق ذكرها.

وممّا يُذكر من اجتهاده في تحصيل العلوم الشرعية أنّ بعض الصوفية كانوا يعيبون عليه طلب علوم الظاهر فلم يستجب لهم، وكان يذهب إلى أهل العلم خفْية، يقول الذهبي: «قال ابن باكويه: نظر أبو عبد الله بن خفيف يومًا إلى ابن أُمّ مَكْتُوم وجماعة من أصحابه يكتبون شيئًا، فقال: ما هذا؟ قالوا: نكتب كذا وكذا، قال: اشتغلوا بتعلُّم شيء ولا يغرّنكُم كلام الصوفية، فإنّي كنتُ أُخبئ مَحْبَرَتي في جيب مُرَقَّعَتي، والورق في حجزة سراويلي، وأذهب خفْية إلى أهل العلم، فإذا علموا بي خاصموني، وقالوا: لا تُفلح، ثم احتاجوا إليّ»[2].

وكذلك رأينا هذا الاجتهاد يلازمه في طلب الحديث حتى إنّه غاب عن الشعور بالألم ذات مرة وهو يكتب الحديث عن بعض مشايخه، يروي ابن خفيف عن ذلك فيقول: «كنتُ ذات يوم منصرفًا إلى الصلاة، وكان قد سقط كثير من الثلج، فرأيتُ في الطريق أحد المشايخ الذين كنتُ أقرأ عليهم الحديث، فجاذبني أطراف الحديث، وكنتُ حافي

(١) السمعاني: الأنساب ص١٨٦ (بتحقيق: عبد الرحمن المعلمي اليماني، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢م، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد).

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٨ ص٣٦٥.

القدمين، ولم يلحظ هو حفائي، وطال الكلام، حتى أُذِّنَ للعصر، وحينما انتهى الحديث هممتُ بالعودة، وحينما رفعتُ قدمي بقي جلده في الثلج، وحينما رأى الشيخ ذلك اغتمّ، وتألّم ضميره من أجلي، فقلتُ من أجل أن أريح ضميره: كن مرتاح الضمير فلا بأس.

ثم عدتُ إلى المسجد وأدّيتُ صلاة العصر، فبدأ ألَمٌ شديد، واشتد ظهوره حتى لم تعد لي طاقة على احتماله، فعدتُ إلى المنزل وقصصتُ الأمر على والدتي، ومن كثرة ما توجعتُ في تلك الليلة، أتى الجيران واستفسروا من والدتي على الأمر، فقصتْ لهم ما حدث فقالوا: إنّ علاج هذا الداء هو شحم الثور، وأعطوا أمي بعض شحم الثور وقالوا لها: «ذوبيه على النار، وادهني بها قدمه»، ولم يكن في منزلنا الحطب الكافي لإذابة ذلك القدر من الشحم، وكان في المنزل طبق قديم، كسرتُه وأشعلنا فيه النار، وغلينا شحم الثور، ودهنّا به قدمي، وظللتُ على هذا الألم أربعين يومًا، بحيث لم أكن أستطيع الوقوف على قدمي من خلالها»[1].

ومن هذه الرواية نلاحظ عدة أمور، أهمها:

- أدب ابن خفيف مع شيخه حيث لم يشعره بمدى ألمه لئلا يُنغص عليه حاله أو يُشعره بالذنب.

- ثم هو قد آثر كتابة الحديث والاستماع إلى شيخه والاستفادة منه على راحته الشخصية، فهل كان يستعذب الألم في طلب الحديث؟! فأيّ اجتهاد هذا في طلب هذا الصوفي الكبير لهذا العلم الشريف؟!

- ومن الملاحظات أيضًا هنا أنّه كان حافي القدمين، وهذا الأمر فعله ابن خفيف على سبيل المجاهدة ورياضة نفسه، حيث كان قد تَعَهَّدَ على أن يسير حافي القدمين، وقد نص ابن عساكر على أنّ ذلك الأمر كان من رياضات ابن خفيف ومجاهداته، فيقول: «قال ابن

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٤، ٩٥.

خفيف: خرجتُ يومًا من الأيام إلى الصلاة وكنتُ حافي القدمين على سبيل الرياضة، فاستقبلني إبراهيم بن روزبة، وكان من كبار المشايخ في الحديث، ففاتحني في الكلام، وقد سقطتْ ثلجة وجمدتْ رجلي، ولم يعلم أنّي حافي القدمين، فلم يزل يحدثني إلي أن أذَّنُوا، فلمّا أردتُ الانصراف لم يمكنني المشي ممّا قد أثَّرَ في رجلي من التزاقه على الجليد، فعلم الشيخ واغتمّ، وأوهمته أنّي في عافية، فرجعتُ إلى البيت وبقيتُ أربعين يومًا لا أقدر على النهوض واحتجتُ إلى المعالجات»[1].

وهكذا لازم ابن خفيف الاجتهاد في علومه كلها، ومنها علم الحديث الشريف.

٣) أشهر مشايخه في علم الحديث:

لقد حدّثنا المترجمون عن جملة كبيرة من المشايخ أخذ ابن خفيف علم الحديث على يديهم، فبالإضافة إلى مشايخه الأوائل كالأزرقاني والعتايدي وإبراهيم بن روزبة نجد مشايخ آخرين كثيرين.

يقول ابن عساكر عن ابن خفيف: «قدم دمشق، وحدث عن حماد بن المبارك، والحسين المحاملي، وأحمد بن محمد الأصبهاني، وأبي الطيب النعمان بن أحمد الواسطي، ومحمد بن جعفر التمار، وأحمد بن سمعان، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن سهل التريكاني القاضي وأظنه سمع منه بدمشق، وأبي بكر محمد بن أحمد ابن شاهد هرمز»[2].

ويذكر الذهبي أيضًا أن ابن خفيف «حدث عن حماد بن مدرك، والنعمان بن أحمد الواسطي، ومحمد بن جعفر التمار، والحسين المحاملي، وجماعة»[3].

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٥٢ ص٤٠٨.
(٢) نفس المصدر ج٥٢ ص٤٠٥.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٨ ص٣٦٥.

هذا، ويذكر أبو الحسن الديلمي مجموعة كبيرة من المشايخ في علم الحديث الذين أخذ عنهم ابن خفيف، ويقترب عددهم إلى خمسين شيخًا، يقسمهم كالآتي:

مشايخه من شيراز، ويذكر ستة عشر شيخًا، أشهرهم العتايدي، والأزرقاني، وإبراهيم بن روزبة، وغيرهم(١).

ومن الغرب: يذكر واحدًا وعشرين شيخًا، أشهرهم حماد بن مدرك، وأبو الطيب النعمان بن أحمد القاضي، وأبو العباس بن عبد الله بن نصر بن كيسان القاضي، وغيرهم(٢).

ومن البصريين: أبو خليفة الفضل بن حماد الجمي ومَنْ في طبقته(٣).

ومِن البغداديين: محمد بن جرير الطبري ومَنْ في طبقته، ويذكر أربعة آخرين(٤).

ومِن أهل فَسَا: أحمد بن يحيى المعروف بجور، وعلي بن الحسين بن معدان، ومحمد بن إسماعيل(٥).

ومِن الإصطخريين: محمد بن أحمد السوقي القاضي(٦).

إذن: أخذ ابن خفيف عن كوكبة كبيرة من مشاهير محدثي عصره، ولا شك أنّ هذه الكثرة من المشايخ قد أصقلت ابن خفيف وثَبّتَتْ قدميه في هذا العلم بحيث أصبح ذا شأن كبير فيه، وأصبح مؤهلًا لأن يكون مُحدّثًا يُعلّم الناس الحديث ويمليه عليهم.

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٥٢.

(٢) نفس المصدر ص٢٥٢.

(٣) نفسه ص٢٥٣.

(٤) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٥٣.

(٥) نفس المصدر ص٢٥٣.

(٦) نفسه ص٢٥٣.

٤) جلوسه للإملاء:

لقد ثبت أنّ ابن خفيف طُلب منه أن يجلس لإملاء الحديث، فاستجاب لطالبيه، ولكنّه لم يستمر في إملاء الحديث، «يقول محمد بن علي: لم يجلس الشيخ طوال عمره لإملاء الحديث إلا مرة واحدة، وكان ذلك بعد أن ألحّوا عليه كثيرًا، وحين جلس لم يكن هادئ البال لهذا الأمر، وكان يقول: ليس هذا عملي، وفي هذه المرة أملى بعض الأحاديث»[١].

٥) الأحاديث التي رواها ابن خفيف:

هكذا أتقن ابن خفيف صنعة الحديث بحيث صار واحدًا من علمائها المستحقين للتقدّم فيها، وقد أملى ابن خفيف وروى أحاديث كثيرة.

ومن هذه الأحاديث ما ذكره الذهبي عن سلسلة سند ابن خفيف قال: «حدثنا أبو المعالي الأبرقوهي، قال: أخبرنا عمر بن كرم ببغداد، قال: أخبرنا أبو الوقت السجزي، قال: حدثنا عبد الوهاب بن أحمد الثقفي، قال: أخبرنا محمد بن عبدالله بن باكويه، قال: حدثنا محمد بن خفيف الضبي إملاء، قال: قرئ عَلَيّ حماد بن مدرك وأنا أسمع: حدثنا عمرو بن مرزوق، قال: حدثنا شعبة، عن أبي عمران الجوني، عن عبد الله بن الصامت، عن أبي ذر، قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا صنعتَ قدرًا فأكثر مرقها، وانظر أهل بيت من جيرانك فأصبهم بمعروف»»[٢].

ومن الأحاديث التي رواها ابن خفيف، أنّه قال: حدثنا أحمد بن سمعان، قال: حدثنا الفضل بن حماد، حدثنا عبد الكبير بن معاذ بن عمران، قال: حدثنا صالح بن موسى

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٥٣.

(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٨ ص٣٦٥، والحديث أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه بلفظ: «يا أبا ذر إذا طَبَخْتَ مرقة، فأكثر ماءها، وتعاهد جيرانك»، كتاب «البر والصلة والآداب»، باب «الوصية بالجار والإحسان إليه»، ج٤ ص٢٠٢٥ برقم ٢٦٢٥.

الطلحي، قال: عن أبي حازم، عن سهل بن سعد، قال رسول الله ﷺ: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء»[1].

إلى غير ذلك من أحاديث رواها الشيخ الكبير وأملاها بإسناده[2].

ثالثًا: مشايخه في الفقه:

كان من العلوم التي حرص ابن خفيف على تحصيلها وإتقانها علم الفقه؛ وذلك لأنّه من المعلوم لدى محققي الصوفية أنّ تصحيح الشريعة، وإقامة أركانها على الاتباع هو من أهم المهمات التي يُلزم بها المشايخ مريديهم، وقد اتّبع ابن خفيف هذه السنة الصوفية، فراح يطلب علم الفقه.

وقد كان من توفيق الله تعالى لابن خفيف أنّه أخذ هذا العلم على أكبر فقهاء عصره، وأعظمهم شأنًا في الفقه على مذهب الشافعي، وهو أبو العباس بن سريج[3].

وأجمعت المصادر المترجمة لابن خفيف على أنّه أخذ الفقه على ابن سريج[4]، وقد

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن بسنده عن سهل ابن سعد، باب «ما جاء في هوان الدنيا على الله ﷻ»، ج٤ ص١٣٨ برقم ٢٣٢٠ (بتحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي - بيروت، سنة ١٩٩٨م)، وقال: «هذا حديث صحيح غريب من هذا الوجه».

(٢) راجع: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٥٣:٢٥٦، وص٣١٢، ٣١٣.

(٣) هو أبو العباس أحمد بن عمر بن سريج، الفقيه الشافعي، كان من عظماء الشافعيين، وأئمة المسلمين، وكان يقال له: الباز الأشهب، ولي القضاء بشيراز، وكان يُفضَّل على جميع أصحاب الإمام الشافعي، حتى على المزني، وقام بنصرة مذهب الشافعي وردّ على المخالفين، وكان حاضر الجواب له مناظرات ومساجلات مع محمد بن داود الظاهري، توفي ببغداد سنة ٣٠٦هـ من مؤلفاته: «الأقسام والخصال»، و«الودائع لمنصوص الشرائع». (راجع: ابن خلكان: وفيات الأعيان ج١ ص٦٦، ٦٧، والسبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٢١:٣٩).

(٤) راجع: الذهبي: تاريخ الإسلام ج٨ ص٣٦٥، وابن قاضي شهبة: طبقات الشافعية ص١٤٨.

تحدّث ابن خفيف بتقدير وإجلال كبيرين عن ابن سريج وبَيَّنَ ما كان بينه وبين الصوفية من مودة كبيرة واحترام كبير، فيقول: «كان أبو العباس بن سريج القاضي من جملة الأئمة الكبار، وقد أدرك صحبة الجنيد، وكان أيضًا مِن بين تلاميذ الحارث المحاسبي، كما كان له مع كبار المشايخ حق الصحبة، وكان يُجل كلام الصوفية كثيرًا، أمّا المشايخ فكانوا غير ذوي قيمة لدى علماء شيراز أنفسهم، كما كانوا يعدونهم من الجهلاء ويحتقرونهم ولا يعاملونهم معاملة الند للند، حتى أتى أبو العباس بن سريج إلى شيراز.

وحينما جاء كان يُظهر إجلاله لهذه الطائفة، وكان يقول دائمًا في مجالس العلماء: لقد وصلتُ إلى ما أنا فيه ببركتهم، ووجدتُ ما وجدتُ من صحبتي لهم، وكانت هذه الطائفة تحترم ابن سريج دائمًا كما كان له في قلوبهم وقع كبير، وفي باطنهم منزلة كبيرة»[1].

فهذا النص يفيدنا أنّ الفقيه الكبير ابن سريج كانت له صلات ومودة مع الصوفية الذين يُجلهم ويُجلونه، فلا ريب إذن أن يكون لديه كثير من علومهم، وقد ثَبَتَ ذلك فعلًا أنهم كانوا يتعلمون الفقه، وكذلك الأحوال العالية السامية لا تغيب عن مجالسهم، فقد تناقشوا حال المحبة، يقول ابن خفيف: «سألنا يومًا القاضي أبو العباس ابن سريج بشيراز، وكنّا نحضر مجلسه لدرس الفقه، فقال لنا: محبة الله فرض أو غير فرض؟ قلنا: فرض، قال: وما الدلالة على فرضها؟ فما فينا من أتى بشيء فقبل، فرجعنا إليه وسألناه على فرض محبة الله ﷻ، فقال: قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]، قال: فتوعدهم الله ﷻ على تفضيل محبتهم لغيره على محبته ومحبة رسوله،

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٢٥.

والوعيد لا يقع إلا على فرض لازم وحتم واجب»[١].

ويبدو أنّ الشيخ الكبير قد برع في علم الفقه وأتقنه حتى صار فقيهًا، كما ينقل ابن الصلاح عن السلمي أنّ ابن خفيف: «من أعلم المشايخ بعلوم الشريعة من الكتاب والسنة، وهو فقيه على مذهب الشافعي»[٢].

وبلغ من إتقانه علم الفقه أنّه صار من المؤلفين فيه كما تشير إلى ذلك «أنا ماريا شميل» حيث تقول عن ابن خفيف: «إنّه ظل مستمسكًا بالشريعة حتى أدق تفاصيلها، واهتم بالفقه والشريعة بضع سنوات، ومن بين آثاره كتاب «المنهاج في الفقه»»[٣].

ومن الأمور التي تأثّر فيها ابن خفيف بشيخه ابن سريج موقفه من الحلاج، فقد كان ابن سريج من القابلين للحلاج المصححين لحاله «فقد سأله إبراهيم بن شيبان: يا أبا العباس ما تقول في فتوى هؤلاء في قتل هذا الرجل - أي: الحلاج - قال: لعلهم نسوا قول الله: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨]»[٤].

وقال الواسطي: «قلتُ لابن سريج: ما تقول في الحلاج؟ قال: أمّا أنا فأراه حافظًا للقرآن عالمًا به، ماهرًا في الفقه، عالمًا بالحديث والأخبار والسنن، صائمًا الدهر، قائمًا الليل، يعظ ويبكي، ويتكلم بكلام لا أفهمه، فلا أحكم عليه بالكفر»[٥].

ويذكر ابن خلكان أيضًا «أنّ أبا العباس بن سريج كان إذا سُئل عنه - أي: الحلاج -

---

(١) ابن الصلاح: طبقات الفقهاء الشافعية ج١ ص١٥٦ (بتحقيق: محيي الدين علي نجيب، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٢م، دار البشائر الإسلامية - بيروت).

(٢) طبقات الفقهاء الشافعية ج١ ص١٥٦.

(٣) مقدمة «أنا ماريا» لسيرة الشيخ الكبير ص٢٩.

(٤) ماسينيون: آلام الحلاج ص٣٢٧ (ترجمة: الحسن مصطفى حلاج، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٤م، شركة قَدْمُس للنشر والتوزيع - سوريا).

(٥) علي بن أنجب الساعي: أخبار الحلاج ص٩٢.

يقول: هذا رجل خَفِيَ عني حاله، وما أقول فيه شيئًا»[1].

هكذا قَبِلَ ابن سريج الحلاج ووصفه بأحسن الصفات، وحين بدا كلام غير مفهوم من الحلاج تَوَقَّفَ في الحكم عليه، إلّا أنّه لم يحكم عليه بالكفر، ولعل ابن خفيف قد استفاد هذا الموقف من شيخه ابن سريج، خاصة إذا وضعنا في الاعتبار ما كان يتمتع به ابن سريج من شخصية فذة ومؤثرة فيمن حوله من أقران وتلاميذ، فهو كما قيل: «سيد طبقته بإطباق الفقهاء، وأجمعهم للمحاسن باجتماع العلماء، ثم هو الصدر الكبير، والشافعي الصغير، والإمام المطلق، والسبَّاق الذي لا يُلحق، وأول من فتح باب النظر وعَلَّمَ الناس طريق الجدل»[2].

رابعًا: مشايخه في علم الكلام:

لقد أجمعت المصادر على أنّ ابن خفيف قد رحل إلى الإمام الأشعري والتقاه، وأخذ عنه علم الكلام، والتقى بجماعة من أتباع الأشعري من الطبقة الأولى الذين أخذوا عن الأشعري مباشرة، وكذلك من الطبقة الثانية الذين أخذوا عن تلامذة الأشعري المباشرين[3].

فشيخه الأول والأوحد في علم الكلام هو الإمام الأشعري الذي أخذ عنه ابن خفيف مباشرة، فلم يكن له مشايخ آخرون في علم الكلام، كيف وقد ارتوى من النبع الأول، وأخذ عن مؤسس جماعة أهل السنة.

وممّا لا شك فيه أنّ رجوع الإمام الأشعري عن الاعتزال، ونصره للمذاهب السُّنية المروية عن رسول الله ﷺ، ودفاعه الحارّ عن السُّنة ومجابهته للمعتزلة وإفحامهم مناظرة

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص١٤٤.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٢٢.

(٣) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص١٧٧، وراجع: السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٦٨.

وتأليفًا، كان حدثًا مهمًا ترددتْ أصداؤه في فضاء الفكر الإسلامي في ذلك العصر الذي عاش فيه الأشعري، وعاش فيه ابن خفيف أيضًا، ممّا جعل الأشعري محط أنظار الطالبين، وقبلة قصد القاصدين، الراغبين في التزوّد من أصول الدين، والتعرّف على المذهب الحق المبين، بعدما ذاع صِيت الشيخ الأشعري مدافعًا عن السنة وقامعًا للمبتدعين.

ولذلك قصد ابن خفيف الإمام الأشعري وارتحل إليه طالبًا التعلّم منه والأخذ على يديه، فتجشّم السفر من شيراز إلى البصرة للقاء الشيخ، ذلك اللقاء الذي اهتم العلماء بسرد تفاصيله، واهتم ابن خفيف بذكره بحفاوة بالغة على أنّه من أهم أحداث حياته عامة وأهم إنجازاته العلمية خاصة.

وقد كان لاتحاد المشارب بين الشيخين الأشعري وابن خفيف أثرٌ كبير في القبول المتبادل الذي لقي كل واحد منهما به صاحبه، فالشيخان سُنّيّان، وهما صوفيان، وهما محدّثان، وهما فقيهان شافعيان، ثم هما بعد هذا اللقاء متكلّمان منافحان عن أصول أهل الإسلام والإيمان.

أما كونهما سنيين، فذلك من الأمور البدهية التي لا تحتاج إلى بيان، فالأشعري قد رجع عن الاعتزال إلى مذهب أهل السُّنة، وابن خفيف أيضًا كان سائرًا على السُّنة من أول أمره، وسيصبح بعد قليل - أي: بعد لقائه بالأشعري - واحدًا من أعيان تلامذته كما نص السبكي على ذلك[1].

وأما كونهما صوفيين، فهذا أمر لا شك فيه بالنسبة لابن خفيف الذي غلبتْ نسبته إلى علم التصوف كل نسبة إلى أي علم آخر رغم براعته في غير التصوف من العلوم، وأمّا بالنسبة للإمام الأشعري، فقد كان مِن علومه التي عُرفتْ عنه علم التصوف، بل نص غير واحد من المترجمين للإمام الأشعري، ونقل السبكي عن جماعة من المشايخ هذا النص،

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٦٨.

فيقول: «قال علماؤنا كان الشيخ - أي: الأشعري- صاحب فراسة ونظر بنور الله، وكان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سيدًا في التصوف واعتبار القلوب كما هو سيد في علم الكلام وأصناف العلوم»(١).

وممّا يستدل به على المشرب الصوفي عند الإمام الأشعري أنّ أخص تلاميذه وخادمه المقرّب كان صوفيًا من مشاهير صوفية عصره وهو بندار بن الحسين الشيرازي الصوفي(٢).

وممّا يتصل بتصوفهما أنّهما متشابهان أيضًا في الاجتهاد في العبادة، وفي الزهد والتقلّل من الدنيا، وقد ذكرنا ذلك عن ابن خفيف، فأمّا الإمام الأشعري فإنّه قد اشتهر بذلك أيضًا، حتى أفرد ابن عساكر في «التبيين» بابًا خاصًا لذلك جاء بعنوان: «باب ذكر ما عُرِفَ من أبي الحسن رَضِيَ اللهُ عَنْهُ من الاجتهاد في العبادة، ونُقِلَ عنه من التقلّل من الدنيا والزهادة»(٣).

وروي في هذا الباب عن بعض معاصري الأشعري قال: «كان الشيخ أبو الحسن الأشعري قريبًا من عشرين سنة يصلي الصبح بوضوء العتمة، وكان لا يحكي عن اجتهاده شيئًا إلى أحد»(٤).

وروي فيه أيضًا عن «أبي عمران موسى بن أحمد بن علي الفقيه، قال: سمعتُ أبي يقول: خدمتُ الإمام أبا الحسن بالبصرة سنين وعاشرته ببغداد إلى أن توفي رَحِمَهُ اللهُ، فلم أجد أورع منه ولا أغض طرفًا، ولم أرَ شيخًا أكثر حياءً منه في أمور الدنيا ولا أنشط منه في أمور الآخرة»(٥).

كذلك يذكر ابن عساكر زهد الشيخ الأشعري وتقلّله من الدنيا، فيروي عن بندار بن

---

(١) نفس المصدر ج٣ ص٣٥٠.

(٢) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص١٧٩.

(٣) نفس المصدر ص١٤١.

(٤) نفسه ص١٤١.

(٥) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص١٤١.

الحسين وهو خادم الأشعري، «قال كان أبو الحسن يأكل من غلة ضيعة، وقفها جده بلال بن أبي بردة بن أبي موسى الأشعري على عقبه، قال: وكانت نفقته في كل سنة سبعة عشر درهمًا»[1].

وقال السبكي: «وأمّا اجتهاد الشيخ الأشعري في العبادة والتَّألُّه فأمر غريب»[2].

وأمّا كونهما مُحدّثين، فقد مرَّ بيان ذلك آنفًا بالنسبة لابن خفيف، وأمّا الإمام الأشعري فقد عَنْوَنَ السبكي في «الطبقات» ما يدل على أنّ الشيخ الأشعري روى الأحاديث فقال: «ذِكْرُ شيء من الرواية عن الشيخ - أي: الأشعري - والدلالة على محله في الحديث والفقه»[3].

ومن الروايات التي تدل على رسوخ قدم الإمام الأشعري في علم الحديث ما رواه السبكي عن أبي منصور البغدادي قال: «سمعتُ عبد الله بن محمود بن طاهر الصوفي يقول: رأيتُ أبا الحسن الأشعري في مسجد البصرة، وقد أبْهَتَ المعتزلة في المناظرة، فقال له بعض الحاضرين: قد عرفنا تبحرك في علم الكلام، وإنّي سائلك عن مسألة ظاهرة في الفقه، فقال: سَلْ عما شئت، فقال: له ما تقول في الصلاة بغير فاتحة الكتاب؟ فقال: حدثنا زكريا بن يحيى الساجي حدثنا عبد الجبار حدثنا سفيان حدثني الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت عن النبي ﷺ قال: «لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب»[4]،

(١) نفس المصدر ص١٤٢.

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٥١.

(٣) نفس المصدر ج٣ ص٣٥٠.

(٤) الحديث أخرجه البخاري بسنده في الصحيح عن عبادة بن الصامت، كتاب «الأذان»، باب «وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يُجْهَر فيها وما يُخَافت»، ج١ ص١٥١ برقم ٧٥٦، ومسلم في الصحيح بسنده عنه، كتاب «الصلاة»، باب «وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يُحْسِن الفاتحة، ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها»، ج١ ص٢٩٥ برقم ٣٩٤.

وحدثنا زكريا حدثنا بندار حدثنا يحيى بن سعيد عن جعفر بن ميمون حدثني أبو عثمان عن أبي هريرة ﵁ قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالمدينة أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب[1]، قال: فَسَكَتَ السائل ولم يَقُلْ شيئًا»[2].

قال السبكي: «وروى أيضًا عن أبي خليفة الجمحي، وسهل بن نوح، ومحمد بن يعقوب المقبري، وعبد الرحمن بن خلف الضبي البصريين، وأكثر عنهم في تفسيره»[3].

وهذا يدلنا على أنّ الصوفية والمتكلمين مِنْ أهل السنة لم يحيدوا عن الحديث بل لازموه وبرعوا فيه.

وأمّا كونهما فقيهين شافعيين، فقد بيَّنا ذلك في ابن خفيف حيث أخذ الفقه الشافعي على أبرز فقهاء الشافعية في عصره، وهو القاضي أبو العباس بن سريج، وأمّا الإمام الأشعري فقد أخذ الفقه الشافعي أيضًا على جماعة من أعيان الفقهاء في عصره، وقد توهم البعض أنّ الشيخ الإمام الأشعري كان مالكيًا، فصحح السبكي هذا الوهم، يقول السبكي: «وقد زعم بعض الناس أنّ الشيخ كان مالكي المذهب وليس ذلك بصحيح، إنّما كان شافعيًا تَفَقَّهَ على أبي إسحاق المروزي، نص على ذلك الأستاذ أبو بكر بن فورك في طبقات المتكلمين، والأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني فيما نقله عنه الشيخ أبو محمد الجويني في

---

(١) أخرجه أحمد في المسند بهذا السند، مسند «أبي هريرة»، ج١٥ ص٣٢٤ برقم ٩٥٢٩ (بتحقيق: شعيب الأرنؤوط وعادل مرشد وآخرون، إشراف: د/ عبد الله بن عبد المحسن التركي، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة)، وكذا أخرجه أبو داود، باب «من ترك القراءة في صلاته»، ج٢ ص١١٣ برقم ٨٢٠ (بتحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، الطبعة الأولى سنة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، دار الرسالة العالمية)، وقال شعيب الأرنؤوط: «صحيح لغيره، وهذا إسناد ضعيف لضعف جعفر بن ميمون».

(٢) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٥٤.

(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٥٥.

شرح الرسالة، والمالكي هو القاضي أبو بكر بن الباقلاني شيخ الأشاعرة»(١).

وكذلك قرر ابن عساكر أنّ الإمام الأشعري كان شافعي المذهب، فبعد أن ذكر قصة السائل الذي سأل الإمام الأشعري حكم الصلاة بدون قراءة فاتحة الكتاب قال ابن عساكر: «وفي هذه الحكاية دلالة للذكي الألمعي أنّ أبا الحسن كان يذهب مذهب الشافعي»(٢).

وممّا يدل على منزلة الإمام الأشعري في علم الفقه أنّه كان مِنْ تلامذته مَنْ هم مِنْ مشاهير الفقهاء، قال ابن عساكر: «وممّن صحب الشيخ أبا الحسن ببغداد، واستفاد منه من أهل خراسان: الشيخ أبو علي زاهر بن أحمد السرخسي، وكذلك الفقيه أبو زيد المروزي، والفقيه أبو سهل الصعلوكي النيسابوري»(٣).

وهكذا اهتم متكلمو أهل السنة والصوفية منهم بعلم الفقه وظاهر الشريعة.

وبعد هذا الاتفاق بين الشيخين الأشعري وابن خفيف في العلوم السابقة فهما أيضًا متكلمان على مذهب أهل السنة، فأمّا الأشعري رحمه الله فهو مُقَدَّمُ قافلة أهل السُّنة وواضع قواعدهم ومؤسس مذهبهم، وأمّا ابن خفيف فقد لازم الأشعري، وتعلّم منه علم الكلام حتى أصبح من أخص تلاميذه، ومن مشاهير أصحابه.

ويروي ابن خفيف عن أول لقاء جمعه بالإمام الأشعري حين ارتحل إلى موطن الإمام الأشعري – البصرة – ليلقاه ويتعلّم منه، يقول الشيخ الكبير: «دخلتُ البصرة في أيام شبابي لأرى أبا الحسن الأشعري رحمة الله عليه، لمّا بلغني خبره، فرأيتُ شيخًا بهي

(١) نفس المصدر ج٣ ص٣٥٢.

(٢) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص١٢٤.

(٣) نفس المصدر ص١٢٨.

المنظر، فقلتُ له: أين منزل أبي الحسن الأشعري؟ فقال: وما الذي تريد منه؟ فقلتُ: أحب أن ألقاه، فقال: ابتكر غدًا إلى هذا الموضع، قال: فابتكرتُ، فلمّا رأيتُه تبعته، فدخل دار بعض وجوه البلد، فلمّا أبصروه أكرموا محله، وكان هناك جمع من العلماء ومجلس نظر، فأقعدوه في الصدر، فلمّا شرع في الكلام دخل هذا الشيخ فأخذ يرد عليه، ويناظره حتى أفحمه، فقضيتُ العجب من علمه وفصاحته، فقلتُ لبعض من كان عندي: مَنْ هذا الشيخ؟ فقال: أبو الحسن الأشعري، فلمّا قاموا تبعته، فالتفتَ إليّ وقال: يا فتى كيف رأيت الأشعري؟ فخدمتُه وقلتُ: يا سيدي كما هو في محله، ولكن مسألة، قال: قل يا بني، فقلتُ: مثلك في فضلك وعلو منزلتك كيف لم تُسأل ويُسأل غيرك؟ فقال: أنا لا أتكلم مع هؤلاء ابتداءً، ولكن إذا خاضوا في ذكر ما لا يجوز في دين الله رددنا عليهم بحكم ما فرض الله علينا من الرد على مخالفي الحق، وعلى هذه الجملة سيرة السلف، أصحاب الحديث المتكلمين منهم في الرد على المخالفين وأهل الشبه والزيغ»[1].

ولكن لماذا لم يُصرح الأشعري أنّه هو المقصود من سؤال ابن خفيف؟ ولماذا لم يكشف عن شخصيته من أول الأمر؟.

لقد كان الإمام الأشعري من الذكاء والنباهة بأعظم مكان، تدل على ذلك آثاره وأخباره، ومناظراته وسؤالاته وجواباته، وكان من هذا الذكاء تعامله في هذا الموقف مع هذا الغريب الذي قطع المسافات ليلتقي بإمام طبقت أخباره الآفاق، حتى طارت إلى شيراز، فسمع بها طالب علم رحل إلى هذا الشيخ المذكور والصدر المشهور، فأراد الأشعري أن يقع نظر هذا الطالب أول ما يقع على الشيخ وهو في كامل هيئته العلمية، وتلك الهيئة تكون أكمل ما تكون في مناظرة الخصوم والتغلُّب عليهم بالحق، وبالتالي يُصبح هذا الطالب ممتلئًا من التوقير والقبول لذلك الشيخ، وقد أشار السبكي إلى هذا

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٨٨، ٢٨٩.

فقال: «كان الشيخ - الأشعري - صاحب فراسة ونظر بنور الله، وكان ابن خفيف كما عُرِف حاله من أرباب الأحوال وسادة المشايخ، فلمّا أبصره الشيخ وفهم عنه ما يريد أحب ألّا يراه إلّا على أكمل أحواله من العلم وهو وقت المناظرة، فإنّ أول نظر يثبت في القلب ويرسخ، فأراد الشيخ تربية ابن خفيف، فإنّه إذا نظره في أكمل أحواله امتلأ قلبه بعظمته، فانقاد لِمَا يأتيه مِن قِبَله»(١).

وقد أثمر هذا الذكاء من الأشعري ثمرته المرجوة في التعامل مع ابن خفيف الذي أقبل على مذهبه، وصار من أعيان المذهب وأعلامه.

ويحكي الشيخ الكبير حكاية أخرى عن لقاء ثانٍ بالإمام الأشعري وتجاذبهما أطراف الحديث في مسألة علمية أُعجب الإمام الأشعري بكلام ابن خفيف فيها، ووصف كلامه بأنّه في غاية الجودة، ثم ذهب ابن خفيف مع الأشعري إلى مجلس علم ومناظرة، فسمع ابن خفيف كلام الأشعري الذي وصفه بأنّه كلام طويل لكنّه في غاية الإحكام، يقول ابن خفيف: «كنتُ وعمر بن شلويه راكبين سفينة في البصرة، وكنّا نتذاكر، فرأينا أبا الحسن الأشعري قد مرَّ بنا، ثم جاء في اليوم التالي وقال: مررتُ عليكما وكنتما تتذاكران، وفهمتُ ألفاظكما، ولكنّي لم أدرك لها معنىً، وأريد الآن أن تُكررا عليّ هذه الألفاظ، قال الشيخ - ابن خفيف -: فيم كنّا نتحدث؟ قال أبو الحسن: في سؤال إبراهيم عليه السلام: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، وفي سؤال موسى عليه السلام: ﴿أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأجاب الشيخ - ابن خفيف -: سؤال إبراهيم سؤال مَنْ هو في مقام الشوق والوجد، فلا شك أنّ سؤاله كان تعريضًا، وسؤال موسى كان تصريحًا، ألا ترى أنّ إبراهيم سأل بطريق الإشارة: ﴿أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَىٰ﴾، أي: يا إلهي ليس لدي شك في البعث والإحياء، وأنا مُقر بسلطانك، ولكنّي أريد أن أعرف كيفية الإحياء، ولمّا كان سؤال إبراهيم

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٥٠.

بطريق الإشارة، فقد أجاب الحق تعالى على سؤاله برفق، وقال له: ﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ [البقرة: ٢٦٠]، أي: أنّ هذه علامة على كيفية الإحياء، حتى تعلم أنّني قادر على كل شيء، وآخر الآية: ﴿وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ إشارة إلى هذه القدرة، وحينما استمع أبو الحسن إلى هذا الكلام اعترف بفضل الشيخ وقال: هذا كلام في غاية الجودة، فقال الشيخ: أريد أن أستمع إلى كلامك أيضًا، فقال أبو الحسن: غدًا.

قال الشيخ: وجاء اليوم التالي، فدق بابي، وأخذني إلى داره، وجاء تلاميذه وتحلّقوا حوله، قلتُ: سَلْهُم، قال: توجيه السؤال إليهم بدعة، قلتُ: لماذا تناقشهم وتعلّمهم؟ قال: إنّهم يسألون إنكارًا ويجادلون في الباطل، ولكن ما داموا قد سألوا فقد وَجَبَتْ عليّ إجابتهم، وحتى إذا لم يكن السؤال على جادة الشرع، قال الشيخ: وقال أبو الحسن كلامًا طويلًا ورأيتُه في غاية الإحكام»(١).

وقد تواترتْ في كتب التراجم حكاية اللقاء الأول بين الأشعري وابن خفيف، وقد روى هذه الرواية الإمام ضياء الدين الرازي أبو الإمام فخر الدين الرازي، وهي مقطوعة أدبية في غاية الحسن لا مانع من إيرادها هنا.

قال الإمام الجليل ضياء الدين الرازي أبو الإمام فخر الدين - رحمهما الله - في آخر كتابه «غاية المرام في علم الكلام» حُكِي عن الشيخ أبي عبد الله بن خفيف شيخ الشيرازيين وإمامهم في وقته أنّه قال: دعاني أرب، وحب أدب، ولوع ألب، وشوق غلب، وطلب يا له من طلب، أن أحرك نحو البصرة ركابي، في عنفوان شبابي، لكثرة ما بلغني، على لسان البدوي والحضري، من فضائل شيخنا أبي الحسن الأشعري، لأستعد بلقاء ذلك الوحيد، وأستفيد ممّا فتح الله تعالى عليه من ينابيع التوحيد، إذ حاز في ذلك الفن قصب السباق، وكان ممّن يشار إليه بالأصابع في الآفاق، وفاق الفضلاء من أبناء زمانه، واشتاق

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٧٢:١٧٤.

العلماء إلى استماع بيانه، وكنتُ يومئذ لفرط اللهج بالعلم واقتباسه، والطمع في تقمّص لباسه، أختلف إلى كل مَنْ جلَّ وقلَّ، وأستسقي الوابل والطل، وأتعلل بعسى ولعل، فأخذتُ إليه أهبة السير، وخفقتُ إليه خفوق الطير، حتى حللتُ ربوعها، وارتبعتُ ربيعها، فوجدتُها على ما تصفها الألسن، وتلذ الأعين، لطيفة المكان، طريفة للسكان، ترغب الغريب في الاستيطان، وتنسيه هوى الأوطان، فألفيتُ بها الجران، وألفيتُ أهلها الجيران، فلمّا أنختُ بمغناها الخصيب، فأصبتُ من مرعاها بنصيب، كنتُ أرود في مسارح لمحاقي، ومسابح غدواتي وروحاتي، أحدًا يشفي أوامي، ويرشدني إلى مرامي، حتى أدتني خاتمة المطاف، وهدتني فاتحة الألطاف، إلى شيخ بهي منظره، شهي مخبره، تعلوه حمرة، متحيز إلى زمرة، فلمحتُه ببصري، وأمعنتُ فيه نظري، فرحتُ به فرحة الحبيب بالحبيب، والعليل بالطبيب، لما وجدتُ منه ريح المحبوب، كما وجد من قميص يوسف يعقوب، على ما قال ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»[1].

فناجاني فكري بالإقدام إليه، وتقاضاني قلبي بالسلام عليه، فاهتززتُ لذلك اهتزاز المُحبين إذا التقيا بعد البَيْن، وحييتُه تحية محترز عن القدري، واستخبرتُه عن مغنى أبي الحسن الأشعري، فردّ عليّ السلام بأوفر الأقسام، وأجزل السهام، وأجابني بلسان ذلق، ووجه طلق، كهيئة المفيد، ما الذى منه تريد، فقلتُ: قد بلغني ذكراه، تُقْتُ أن ألقاه، لأحيا بمحياه، وأطيب برياه، وأستسعد بلقياه، وأستفيد نفائس أنفاسه جداه وجدواه، واحرّ قلباه وواشدة شوقاه، عسى الله أن يجمعني وإياه.

فلمّا رأى الشيخ أن شغف الحب زادي في سفري، وعتادي في حضري، وملك خلدي،

---

(١) أخرجه البخاري في الصحيح عن عائشة ﵂، كتاب «أحاديث الأنبياء»، باب «الأرواح جنود مجندة»، ج ٤ ص١٣٣ برقم ٣٣٣٦، ومسلم في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب «البر والصلة والآداب»، باب «الأرواح جنود مجندة»، ج ٤ ص٢٠٣١ برقم ٢٦٣٨.

واستنفد جلدي، وأنّ الشوق قد بلغ المدى، واللوع قد جاوز الحدا، قال: ابتكر إلى موضع قدمي هاتين غدًا، فبذلتُ القياد، وفارقتُ على الميعاد، وبِتُّ أساهر النجوم، وأساور الوجوم، وما برح الحب سمير ذكري، ونديم فكري، يستعر استعارًا، ويلتهب بين ضلوعي نارًا، إلى أن نضى الليل جلبابه، وسلب الصبح خضابه، فلما رأيتُ الليلة قد شابتْ ذوائبها، وذابتْ شوائبها، وذر قرن الغزالة، وَثَبْتُ وثبة الغزالة، وبرزتُ أنشد للشيخ البهي، وأتوسم الوجوه بالنظر الجلي، فألفيتُه في المقام الموعود متنكرًا، واقفًا لي منتظرًا، فدلفتُ إليه لأقضي حق السلام عليه، فلمّا رآني سبقني بالسلام، وحفي للأقدام، فقضيتُ الذمام، وقرنتُ ردّ جوابه بالاستلام، وقلتُ: حُيِّيتَ بالإكرام، وحَيِيتَ بين كرام.

ثم استصحبني وسار، فتبعتُه متابعة العامة أولي الأبصار، حتى انتهى إلى المقصد، ودخل دار بعض وجوه البلد، وفيها قد حضر جماعة للنظر، فلمّا رآه القيام، تسارعوا إلى القيام، واستقبلوه إلى الباب، وتلقوه بالترحاب، وبالغوا بالسلام، وما يليق به من الإكرام، ثم عظّموه، وإلى الصدر قدموه، وأحاطوا به إحاطة الهالة بالقمر، والأكمام بالثمر، ثم أخذ الخصام يتجاذبون في المناظرة أطراف الكلام، وكنتُ أنظر من بعيد، متكئًا على حد سعيد، حتى التقى الجمع بالجمع، وقرع النبع بالنبع، فبينما هم يرمون في عمايتهم، ويخبطون في غوايتهم، إذ دخل الشيخ دخول مَنْ فاز بنهزة الطالب، وفرحة الغالب، بلسان يفتق الشعور، ويفلق الصخور، وألفاظ كغمزات الألحاظ، والكرى بعد الاستيقاظ، أَرَقُّ من أديم الهواء، وأعذب من زلال الماء، ومعان كأنّها فك عان، وبيان كعتاب الكعاب، ووصل الأحباب، في أيام تفيد الصمّ بيانًا، وتعيد الشيب شبانًا، تهدى إلى الروح روح الوصال، وتَهُبُّ على النفوس هبوب الشمال، وكان إذا أنشا وشى، وإذا عَبَّرَ حبر، وإذا أوجز أعجز، وإذا أسهب أذهب، فلم يدع مشكلة إلا أزالها، ولا معضلة إلا أزاحها، ولا فسادًا إلا أصلحه، ولا عنادًا إلا زحزحه، حتى تبيّن الحى من اللي، والرشد من الغي، ورفل الحق في أذياله، واعتدل باعتداله، وأقبل عليه الخاصة والعامة بإقباله.

فلمّا فرغ من إنشاء دلالته، بعد جولانه في هيجاء البلاغة عن بسالته، حار الحاضرون في جوابه، وتعجبوا من فصل خطابه، وعاد الخصوم كأنّهم فراش النار، وخشاش الأبصار، وأوباش الأمصار، عليهم الدبرة، وعلى وجوههم الغبرة، قلتُ لبعض الحاضرين من المناظرين: مَنْ هذا الذى آثر اختلاب القلوب، ونظم على هذا الأسلوب، الذى لم ينسج على منواله، ولم تسمح قريحة بمثاله، أجابني وقال: هو الباز الأشهب، والمبارز الأشنب، والبحر الطامي، والطود السامي، والغيث الهامي، والليث الحامي، ناصر الحق، وناصح الخلق، قامع البدعة، ولسان الحكمة، وإمام الأمة، وقوام الملة، ذو الرأي الوضي، والرواء المرضي، ذو القلب الذكي، والنسب الزكي، السري ابن السري، والنجد الجري، والسند العبقري، أبو الحسن الأشعري، فسرحتُ طرفي في ميسمه، وأمعنتُ النظر في توسمه، متعجبًا مِن تلهّب جذوته، وتألّق جلوته، دعوتُ له بامتداد الأجل، وارتداد الوجل، فبينا أنا فيه إذ شمّر للانثناء، بعد حيازة الثناء، وشحذ للتحفّز غرار عزمته، وخرج يقتاد القلوب بأزمّته، فتبعتُه مقتفيًا كخدمه، ومنتهجًا مواطئ قدمه، فالتفتَ إليّ، وقال: يا فتى كيف وجدتَ أبا الحسن حين أفتى؟ فهرولتُ لالتزام قدّه، واستلام يده، وقلتُ:

ومسحل مثل حد السيف منصلت ❊ تزل عن غربه الألباب والفكر

طعنت بالحجة الغراء جيلهم ❊ ورمح غيرك منه العي والحصر

لا قام ضدك، ولا قعد جدك، ولا فض فوك، ولا لحقك مَنْ يقفوك، فو الذى سمك السماء، وعلّم آدم الأسماء، لقد أبديتَ اليد البيضاء، وسَكَّنْتَ الضوضاء، وكشفتَ الغماء، ولحنتَ الدهماء، وقطعتَ الأحشاء، وقمعتَ البدع والأهواء، بلسان عضب، وبيان عذب، آنس من الروض الممطور، والموشي المنشور، وأصفى من در الأمطار، وذر البحار، وجررتَ ذيل الفخار، على هامة الشعرى، وقديمًا قيل: إنّ من البيان لسحرًا، بيد أنّه قد بقي لى سؤال، لِمَا عراني مِن الإشكال، فقال: اذكر سؤالك، ولا تعرض عما بدا لك،

فقلتُ: رأيتُ الأمر لم يجر على النظام، لأنّك ما افتتحت في الكلام، ودأب المناظر ألّا يسأل غيرك ومثلك حاضر، قال: أجل لكني في الابتداء لا أذكر الدليل، ولا أشتغل بالتعليل؛ إذ فيه تَسَبُّبٌ إلى إلجاء الخصم في ذكر شبهه بطريق الاعتراض، وما أنا بالتسبب إلى المعصية راض، فأُمهِلُه حتى يذكر ضلالته، ويُفرد شبهته ومقالته، فحينئذ أَنُصُّ على الجواب، فأرجو بذلك من الله الثواب.

قال الراوي: فلمّا رأيتُ مخبره، بعد أن سمعتُ خبره، تيقنتُ أنّه قد جاوز الخبر الخبر، وأنّ مقالته تبر، وما دونه صفر، قد بلغ من الديانة أعلى النهاية، وأوفى من الأمانة، على كل غاية، وأنّه هو الذي أومأ إليه الكتاب والسنة، بحيازة هذه المنَّة، في نصر الحق، ونصح الخلق، وإعلاء الدين، والذبّ عن الإسلام والمسلمين، فشاذ لي من الاعتداد، بأوفر الأعداد، وأودع بياض الوداد سواد الفؤاد، فتعلقتُ بأهدابه، لخصائص آدابه، ونافستُ في مصافاته، لنفائس صفاته، ولبثتُ معه بُرْهة، أستفيد منه في كل يوم نزهة، وأدرأ عن نفسي للمعتزلة شبهة، ثم ألفيتُ مع علو درجته، وتفاقم مرتبته، كان يقوم بتثقيف أوده، من كسب يده، من اتخاذ تجارة للعقاقير معيشة، والاكتفاء بها عيشة، اتقاء الشبهات، وإبقاء على الشهوات، رضا بالكفاف وإيثارًا للعفاف[١].

وهذه الرواية الرائعة فيها شيء كثير من الفوائد، لكن أهم ما يلفت النظر فيها أمور:

أ) منها: شهرة الإمام أبي الحسن الأشعري في علم أصول الدين الذي حاز فيه قصب السبق، وكان ممّا يشار إليه بالأصابع في الآفاق.

ب) ومنها: أنّ الإمام الأشعري قد فاق في هذا العلم معاصريه حيث إنّه: «فاق الفضلاء من أبناء زمانه، واشتاق العلماء إلى استماع بيانه».

(١) انظر هذه الرواية في: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٩: ١٦٣.

ج) ومنها: حرص ابن خفيف على طلب العلم والرحلة إلى أصحابه في أي مكان حيث يخبر عن نفسه: «وكنت يومئذٍ لفرط اللهج بالعلم واقتباسه، والطمع في تقمص لباسه، أختلف إلى كل من جلَّ وقلَّ، وأستسقي الوابل والطل، وأتعلل بعسى ولعل».

د) كَتَبَ الله تعالى التوفيق والمحبة بين الشيخين من أول لقاء: فإنّ ابن خفيف لمّا رأى الإمام الأشعري رأى «شيخًا بهي منظره، شهي مخبره، تعلوه حمرة، متحيز إلى زمرة، فلمحتُه ببصري، وأمعنتُ فيه نظري، فرحتُ به فرحة الحبيب بالحبيب، والعليل بالطبيب، لما وجدت منه ريح المحبوب، كما وجد من قميص يوسف يعقوب، على ما قاله ﷺ: «الأرواح جنود مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»».

هـ) سجل ابن خفيف إعجابه الشديد بالإمام الأشعري: فقال عنه: «الباز الأشهب، والمبارز الأشنب، والبحر الطامي، والطود السامي، والغيث الهامي، والليث الحامي، ناصر الحق، وناصح الخلق، قامع البدعة، ولسان الحكمة، وإمام الأمة، وقوام الملة».

و) وأخيرًا: لازم ابن خفيف الإمام الأشعري ليرتوي من معينه، ويرتشف من رحيقه: كما قال: «فتعلقتُ بأهدابه، لخصائص آدابه، ونافستُ في مصافاته، لنفائس صفاته، ولبثتُ معه برهة، أستفيد منه في كل يوم نزهة، وأدرأ عن نفسي للمعتزلة شبهة».

ولكن ابن خفيف يذكر لنا شيئًا عن الأشعري لم نجده في أي مصدر، وهو أنّ الإمام الأشعري كان يحترف حرفة تجارة العقاقير، فقد انفرد ابن خفيف بذكر هذا، وإن صح فإنّه يكون سيرًا على سنن العلماء والمشايخ الذين كانوا يرون ضرورة احتراف حرفة يحصل منها المرء على ما يلزمه من الضروري لمعيشته، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنّ هذا وجه شبه آخر بين الإمام الأشعري وبين الشيخ الكبير ابن خفيف، فإنّ كلًا منهما كان له حرفة يكتسب منها قوته.

وبهذا أصبح ابن خفيف منسوبًا إلى الإمام الأشعري في علم الكلام، بل أصبح من مشاهير تلامذة الأشعري، ومن الطبقة الأولى من الأشاعرة.

يقول ابن عساكر: «باب ذكر جماعة من أعيان مشاهير أصحاب الأشعري؛ إذ كان فضل المقتدِي يدل على فضل المقتدَى به، وقد قسمتهم خمس طبقات وجدتُها على تصحيح قوله متفقات، فالطبقة الأولى: هم أصحابه الذين أخذوا عنه ومَنْ أدركه ممّن قال بقوله أو تعلم منه»[1].

ثم قال ابن عساكر بعد أن عدّ جماعة: «ومنهم: أبو عبد الله بن خفيف الشيرازي الصوفي رَحِمَهُ اللَّهُ»[2].

وذكر السبكي أيضًا أنّ من الآخذين عن الإمام الأشعري مباشرة «الأستاذ أبو عبد الله بن خفيف»[3].

ويقول السبكي في موضع آخر: «رحل ابن خفيف إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري، وأخذ عنه وهو من أعيان تلامذته»[4].

ولم تقتصر علاقات الشيخ الكبير ابن خفيف بالمدرسة الأشعرية بأخذه على يد مؤسسها رَحِمَهُ اللَّهُ، وإنما امتدت تلك العلاقات لتشمل أقرانه من الطبقة الأولى، ثم اتصل ابن خفيف بعلمين من أعلام الطبقة الثانية وهما: القاضي الباقلاني، والأستاذ أبو بكر بن فورك.

فأمّا عن علاقاته وصلاته بأقرانه من الطبقة الأولى، فقد كان له لقاءات ومناقشات مع

(١) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص١٧٧.
(٢) نفس المصدر ص١٩٠.
(٣) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٦٨.
(٤) نفس المصدر ج٣ ص١٥٠.

أبي الحسن الباهلي، وبندار بن الحسين في بعض المسائل، ومعلوم أنّ هذين العَلَمين هما من خواص خواص تلاميذ الأشعري، وقد قرر ذلك ابن عساكر والسبكي وغيرهما.

فأول تلميذ من الطبقة الأولى هو تلميذه عبد الله بن مجاهد، وثانيهما هو أبو الحسن الباهلي البصري رحمهما الله تعالى(١).

قال ابن عساكر: «وممّن تَخَرَّجَ به ممّن اختلف إليه واستفاد منه: المعروف بأبي الحسن الباهلي، وكان إماميًا في الأول رئيسًا مقدمًا، فانتقل عن مذهبهم بمناظرة جَرَتْ له مع الشيخ أبي الحسن الأشعري ﵁ ألزمه فيها الحجة حتى بان له الخطأ فيما كان عليه من مذاهب الإمامية، فتركها واختلف إليه ونشر علمه بالبصرة، واستفاد منه الخلق الكثيرون»(٢).

فهو الشخصية الثانية من خواص تلاميذ الأشعري، كما أشار إلى ذلك أيضًا السبكي حين قال عن تلاميذ الأشعري: «وأخصهم بالشيخ أربعة:

ابن مجاهد: وهو أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد ابن يعقوب بن مجاهد الطائي، شيخ القاضي أبي بكر الباقلاني، وكان مالكي المذهب.

وأبو الحسن الباهلي: العبد الصالح شيخ الأستاذ أبي إسحاق والأستاذ أبي بكر ابن فورك وشيخ القاضي أبي بكر أيضًا، إلّا أنّ القاضي أبا بكر أخص بابن مجاهد والأستاذان أخص بالباهلي.

والثالث: بندار خادمه.

---

(١) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص١٧٨.

(٢) نفس المصدر ص١٢٧، ١٢٨.

والرابع: أبو الحسن علي بن محمد بن مهدي الطبري»[١].

وقد تناقش ابن خفيف مع أبي الحسن الباهلي ووقع بينهما عتاب، ولا تمدنا المصادر بتفاصيل عن هذه المناقشة ولا بأسباب ذلك العتاب، وقد ذكر ذلك الباهلي نفسه، فيروي صاحب «سيرة الشيخ الكبير» يقول: «وسمعتُ من أبي الحسن الباهلي قال: ذات يوم جرى بيني وبين أبي عبد الله بن خفيف عتاب، فهتف بي هاتف في النوم: يا أبا الحسن: أتعاتب رجلًا من أهل الدين واليقين، فقمتُ من النوم»[٢].

وفيما يبدو أنّ أبا الحسن الباهلي كان له تقدير عظيم في أعين معاصريه وتلاميذه الذين كانوا يعتبرون أنفسهم بالنسبة له قطرة من بحر، وذلك لمكانته من المذهب الأشعري وذكائه النادر، يقول الذهبي عن الباهلي: «أخذ عن الأشعري علم النظر، وبرع وتقدم، وكان من أذكياء العالم مع الدين والتعبُّد»[٣].

وكان يحضر درسه أعلام المذهب في عصره، «قال ابن الباقلاني: كنتُ أنا والأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني والأستاذ ابن فورك معًا في درس أبي الحسن الباهلي، كان يدرس لنا في كل جمعة مرة»[٤].

وكان الأستاذ أبو إسحاق الأسفراييني يقول: «كنتُ في جنب الشيخ أبي الحسن الباهلي كقطرة في البحر، وسمعتُ الشيخ أبا الحسن الباهلي قال: كنتُ أنا في جنب الشيخ الأشعري كقطرة في جنب البحر»[٥]، رحمهم الله تعالى جميعًا.

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص٣٦٨ بتصرف.
(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٤٠.
(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٨ ص٣٤٤.
(٤) نفس المصدر ج٨ ص٣٤٤.
(٥) ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص١٧٨.

وأمّا الشخصية الثانية مِن الذين ناقشهم ابن خفيف من خواص تلاميذ الأشعري، تلميذه المُقَرَّب وخادمه الأمين بندار بن الحسين.

قال ابن عساكر: «ومنهم - أي: تلاميذ الأشعري- أبو الحسين بندار بن الحسين الشيرازي الصوفي خادم أبي الحسن رحمهما الله...كان عالمًا بالأصول، له اللسان المشهور في علم الحقيقة، كان الشبلي يكرمه ويقدمه، وبينه وبين محمد بن خفيف مفاوضات في مسائل، ردّ على محمد بن خفيف في مسألة الإيمان وغيرها حين ردّ محمد بن خفيف على أقاويل المشايخ، فصوَّب بندار أقاويل المشايخ وردّ عليه ما ردّ عليهم»(١).

ومع قلة التفاصيل عن تلك المناقشات إلّا أنّها تُشير إلى ما تمتّع به ابن خفيف من حسٍّ نقدي.

وَلَمَّا مَنَّ الله تعالى على ابن خفيف بطول العمر وامتداد الأجل أُتيح له أن يلتقي بالطبقة الثانية من المدرسة الأشعرية، وهم تلاميذ تلاميذ الأشعري، وقد التقى بعلمين من أعلام المذهب الأشعري في عصرهما، وهما: القاضي الباقلاني، والأستاذ أبو بكر ابن فورك.

أمّا عن التقائه بالقاضي الباقلاني: فهذا اللقاء له أهمية خاصة؛ إذ إنّ الباقلاني زار شيراز فوجد الشيخ الكبير يُدَرِّس للناس كتاب «اللمع» للإمام الأشعري.

ويروي صاحب «أزهار الرياض» هذه الرواية الطويلة، والذي يعنينا منها أنّ القاضي الباقلاني كان قد ذهب إلى شيراز لينافح عن مذهب أهل السنة في حضرة ملك البلاد «فناخسرو» الذي كان أَعَدَّ مجلسًا للمناظرة، لكن الباقلاني لمّا ذهب إلى شيراز وجد ابن خفيف في استقباله مع جماعة من أهل السُّنة والصوفية، يقول أبو العباس المقري

(١) نفس المصدر ص١٧٩.

التلمساني: «قال القاضي أبو بكر بن الطيب: فخرجتُ إلى شيراز، فلمّا دخلتُ المدينة استقبلني ابن الخفيف في جماعة من الصوفية وأهل السُّنة، فلمّا جلسنا في موضع كان ابن خفيف يُدارس فيه أصحابه «اللمع» للشيخ أبي الحسن الأشعري، قال له القاضي أبو بكر: تَمادَ على التدريس كما كنتَ، فقال له ابن خفيف: أصلحك الله إنّما أنا بمنزلة المُتَيَمِّم عند عدم الماء، فإذا وُجِدَ الماء فلا حاجة إلى التيمم، فقال له القاضي: جزاك الله خيرًا وما أنت بمتيمم بل لك وافر من هذا العلم، وأنت على الحق والله ينصرك»[1].

وتبدو أهمية هذا اللقاء من جانبين:

أولهما: أنّ ابن خفيف يَصْدُق عليه أنّه كان لسان المذهب الأشعري في بلاده ومسقط رأسه - شيراز - وهذا يدل على مكانته في المذهب كما أشرنا.

ثانيهما: أنّه كان يُدرس كتاب «اللمع» للإمام الأشعري، ولا شك أنّ ذلك كان بعد وفاة الإمام الأشعري، فيكون «اللمع» هو المُعَبِّر الأخير عن رأي الإمام الأشعري.

ولا يفوتنا هنا أن ننوّه بهذا الاحترام والتقدير المتبادلين بين الشيخ الكبير وبين الباقلاني، ولا شك أنّ الشيخ الكبير كان قد طعن في السن وله مكانته في بلاده بين تلامذته ومريديه، ومع ذلك يُبجل الباقلاني - الذي كان بلا شك أصغر منه سنًا - تبجيلًا كبيرًا بهذا الوصف أنّه بمنزلة المتيمم عند فقد الماء، وهذه عادة المشايخ دائمًا في تقدير الأقل منهم سِنًّا عسى أن يأخذوا بأيديهم خطوة إلى الأمام في طريق العلم.

وأمّا عن التقاء ابن خفيف بالأستاذ ابن فورك: فيدل على هذا قول ابن فورك: «قلت يومًا لأبي عبد الله بن خفيف: ما معنى الفناء والبقاء؟ قال: مجموع معناه إنّما يراد بذلك عندنا فناء الصفات المذمومة وبقاء الصفات المحمودة، بأن يرتفع الجهل ويحصل بدله

(١) شهاب الدين التلمساني: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ج٣ ص٨٠ (بتحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩م، طبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة).

العلم، والغفلة ويحصل بدلها الفطنة، ونحو ذلك»[١].

ومن خلال كلام ابن فورك آنف الذكر فإنّه يمكننا القول بأنّ اللقاء بينه وبين ابن خفيف لم يكن لقاءً عابرًا، بل لعلها لقاءات أو لعله عايشه فترة من الزمن، لاحظ قوله «قلت يومًا لأبي عبد الله بن خفيف»، فهذا ـ كما يظهر للمتأمل ـ قد يُفهم منه أنّه كانت له معه أيام أخرى غير هذا اليوم الذي جرى فيه هذا السؤال والجواب.

كما أنّه بالتأمل في القضية التي دار حولها الكلام بين ابن فورك وابن خفيف فإنّه يتأكّد لنا أن التصوف السُّني كان أحد المكونات الفكرية التي اتسمتْ بها المدرسة الأشعرية منذ بداياتها.

فالعالم من علماء هذه المدرسة كما أنّه قد سعى سعيًا حثيثًا لطلب علم الكلام والأصول والفقه والسن والآثار وغيرها من فروع علوم الشريعة، فهو كذلك حرص على أن يغترف من بحور الصوفية ويستضيء بأنوارهم.

وهكذا أخذ ابن خفيف الكلام على مذهب أهل السنة الأشاعرة على يد المؤسس نفسه ﵁، ثم اختلط بأعلام المذهب من طبقته الأولى، ثم الطبقة الثانية، والمطالع لكتاب «المعتقد الصغير»[٢] للشيخ الكبير يدرك مدى التطابق التام بين كلامه وكلام أهل السنة.

(١) ابن فورك: الإبانة عن طرق القاصدين والكشف عن مناهج السالكين ص٢٥٩ (بتحقيق: أحمد يلديرم وعبد الغفار أصلان، طبعة إستانبول سنة ٢٠١٤م).

(٢) تم نشره بتحقيقنا وصدرت طبعته الأولى سنة ٢٠٢٢م عن دار الإمام الرازي بالقاهرة.

المبحث الخامس
تلامذته

لقد كان ابن خفيف صاحب تأثير كبير في محيطه الذي عاش فيه بحيث غدا محل إقبال من معاصريه الذين أرادوا أن يتزوّدوا من علومه المختلفة.

وكما كان لابن خفيف مجموعات من المشايخ لا يُحْصَون عددًا، فإنّ هذا الأمر صادق أيضًا على تلاميذه ومريديه الذين بلغوا من الكثرة حدًّا كبيرًا.

ولعلنا نستطيع أن نعلل هذا الإقبال من المريدين والتلاميذ على الشيخ الكبير في أمور أهمها ثلاثة:

الأول: أنّ تصوف الشيخ الكبير كان موافقًا للكتاب والسنة أقوالًا وأفعالًا وأحوالًا، ومنضبطًا بقواعد الشريعة لا يخرج عنها قيد أنملة، وهذا جعله محل إجماع من المريدين الذين رأوا فيه أنموذجًا للتصوف الشرعي المقبول من الجميع.

الثاني: أنّ ابن خفيف قد وَفَّقَه الله تعالى فلقي من كل علم صفوة أعلامه ورواده الأوائل.

ففي التصوف: قد أخذ عن كبار المشايخ المعدودين والأئمة المذكورين، وقد مرَّ ذكرهم قريبًا، وحتى الذين لم يدركهم كالمحاسبي والجنيد والمكي أمر بضرورة تعلم علومهم والاقتداء بهم.

وفي الفقه: أخذ عن أشهر مشاهير فقهاء الشافعية الذي عده كثيرون مجدد الإسلام في عصره وهو ابن سريج.

وفي الحديث كذلك أخذ عن جماعة من المشايخ أصحاب الأقدام الراسخة في علم

الحديث.

وفي الكلام: أخذ عن مؤسس أهم وأكبر جماعة من أهل السُّنة وهم الأشعرية، فالتقى بالإمام الأشعري وصار من أعيان تلامذته الناشرين لمذهبه في شيراز.

وقد أصبح ابن خفيف من المعدودين في الطبقات الأولى كما في المدرسة الأشعرية، أو الطبقات المتقدمة وإن لم تكن الأولى كما في علم التصوف، أو المشهورين في هذا العلم أو ذاك وإن لم يكن من الأوائل والمتقدمين كما في الحديث والفقه.

وهذا يعني أنّ ابن خفيف كان حلقة وصل هامة في سلسلة كل علم من هذه العلوم تصل من خلاله علوم أوائلهم إلى متأخريهم.

فكانت صحبة الأكابر كل في تخصصه سببًا في إقبال التلاميذ على الشيخ الكبير.

الثالث: أنَّا إذا أضفنا إلى ذلك ما مَنَّ الله تعالى به على ابن خفيف من عمر مديد، وأجَل طويل قارب المائة أو زاد عليها، فأتاح له معاشرة ومعاصرة أجيال كثيرة، ولا شك أنّ هذه الأجيال وجدتْ في ابن خفيف بُغيتهم العلمية والصوفية، فأقبلوا عليه مريدين ومتعلمين.

وقد ذكرتْ مختلف كتب التراجم أعدادًا كبيرة لَقِيَتْ ابن خفيف أو عاصرته أو أخذت عنه.

وإذا كنّا قد قسّمنا مشايخ ابن خفيف إلى أقسام، فإنّه بوسعنا أن نقسم تلاميذه إلى قسمين اثنين هما:

تلاميذ ومريدون صحبوا الشيخ ولازموه وأخذوا عنه.

وتلاميذ التقوا بالشيخ بعض مرة فانتسبوا إليه.

۞ القسم الأول: التلاميذ والمريديون المباشرون للشيخ:

وفي هذا القسم نذكر الذين نُسبوا إلى ابن خفيف صحبة وخدمة وتعلّمًا وملازمة، ونجد أنّ أشهر من يندرج تحت هذا القسم من يلي:

١) الشيخ أبو أحمد الكبير: وقد كان من ملازمي الشيخ خادمًا له، ويتحدّث جنيد الشيرازي عن هذا المريد، فيقول: «اسمه الفضل بن محمد، خادم الشيخ وصاحبه، قال الديلمي: رأيتُه نحوًا من خمسة وعشرين سنة عليه جباب صوف غليظة بلا سراويل، وكان كثير العزلة حسن السيرة، لم يُرَ قط في خصومة ولا فضول، قد حُبِّب إليه الانفراد والخلوة، وكان يأوي بيتًا فوق سطح رباطه نحو خمسين سنة، في الشتاء والصيف يحتمل بردها وحرّها، ويراعي أوقات الصلوات ليلًا ونهارًا، ما سها عن وقت واحد، نهاره صائم وليله قائم، ويعود المرضى ويشيع الجنائز، ويقضي حقوق الإخوان، ولا يدخل على القضاة والسلاطين، وكان له أحاديث، ويكتب كتابة ردية، قال: وكنّا مع أبي عبد الله البيطار وأبي نصر الطوسي والحسن الجوالقي في بستان، فخرجنا إلى الطهارة وقت الظهيرة، فإذا أبو أحمد في الصحراء وحده، فقالت له الجماعة: أيها الشيخ: هذا وقت حارّ فلو ساعدتنا ودخلتَ أو ساعدناك، فقال: لا ولكن ارجعوا إلى ما كنتم فيه، ودعوني ففيه السلامة لي ولكم، فتركوه ومضى حتى غاب عن أعينهم، فأثّر في الجماعة ذلك، توفي سنة سبع وسبعين وثلاثمائة، ودُفِن خلف الشيخ الكبير بحظيرته المقدسة رَحِمَهُ اللهُ»[1].

ويذكر ابن عساكر شيئًا عن صحبة أبي أحمد الكبير للشيخ ابن خفيف، فيقول: «قال أبو أحمد الكبير: صحبتُ أبا عبد الله ستين سنة، عشرون لا أفارقه ليلي ولا نهاري، وأربعون سنة أصلي معه الصلوات الخمس، فما رأيتُه غضب إلا ثلاث مرات»[2].

(١) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٤٦، ٤٧، وراجع: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٦٨.

(٢) ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٢ ص٤١٨.

٢) **الشيخ أبو أحمد الصغير**: وهو أيضًا من مريدي الشيخ المقرّبين، واسمه الحسن بن علي الشيرازي، صحب الشيخ وخدمه خمسًا وثلاثين سنة «قال الديلمي: سمعتُ الشيخ الكبير رَحِمَهُ اللهُ يقول: كيف لا أحب أبا أحمد وكان يغطيني وأهلي بالثياب ثلاثين سنة، قال: مات وقد قارب السبعين، ما رأيتُه ولا سمعتُ قبله أنّه تغيّر عمّا كان عليه من الفقر، وثَبَتَ على ذلك حتى شاخ وضعف، وما أفرد قط لنفسه طعامًا ولا مكانًا، بل كان يأكل مع الفقراء، وينام حيث ينام الفقراء، وما فرش لنفسه إلا في مرض موته، وكان أميًّا لا يكتب، ويسقي الماء ويكنس الرباط كالصبي الصغير، وإذا دُعِيَ بالشيخ غضب، يخدم نهاره مع الصبيان ويقوم ليله كالرهبان، ما عرفتُ له طول عمره زلة ولا هفوة، لبس مرقعة واحدة مدة حياته، ونُزِعَتْ عنه في المغتسل، وأوصى عند موته بمرقعته ومنديله لصبيان الرباط، وأوصى بكساء كان له للكفن والحنوط والمؤن، توفي سنة خمس وثمانين وثلاثمائة، ودفن عند الشيخ أبي أحمد الكبير خلف الشيخ، وقبره متصل بقبرهما رحمة الله عليهم»[(١)].

ولكن فيما يبدو أنّ ابن خفيف كان يُفضل أبا أحمد الصغير على أبي أحمد الكبير؛ وذلك لكمال طاعة الشيخ أبي أحمد الصغير، وتمام متابعته لشيخه ابن خفيف، يدل على ذلك تلك الرواية التي رواها كثيرون في هذا الصدد، يقول الديلمي عن ابن خفيف: «روي أنّه كان عنده مريدان، أحدهما أحمد الكبير، والآخر أحمد الصغير، وكان الشيخ يُحسن معاملة أحمد الصغير، فغار الأصحاب من ذلك، ذلك أنّ أحمد الكبير قام بأعمال كثيرة وزاول رياضات، وعلم الشيخ بذلك فأراد أن يُبيِّنَ لهم أنّ أحمد الصغير أفضل، وكان هناك جَمَلٌ بارك على باب الرباط، قال الشيخ: يا أحمد الكبير، قال: لبيك، قال: احمل ذلك الجمل إلى سطح الرباط، فقال أحمد: يا شيخ كيف يمكن حمل الجمل إلى السطح؟

---

(١) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٤٧، ٤٨، وراجع: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٦٨، ٣٦٩.

فقال الشيخ: الآن فاذهب، ثم قال: يا أحمد الصغير، قال: لبيك، قال: احمل ذلك الجمل إلى سطح الرباط، فعقد منطقته في الحال وشمّر عن أكمامه وأسرع خارجًا، فوضع يده تحت الجمل واستجمع قوته، فلم يستطع الإمساك به، فقال الشيخ: لقد تمَّ الأمر يا أحمد وصار معلومًا، ثم قال للصحاب: إنّ أحمد الصغير قام بما في وسعه ونفّذ الأمر، ولم يعترض، ولم ينظر إلى أمري أهو ممكن أو غير ممكن، واشتغل أحمد الكبير بالحجة وجادل، ومن الممكن أن يطالع الباطن من الظاهر»[1].

والشيخ أحمد الصغير هذا هو الذي كان مسئولًا عن طعام الشيخ ابن خفيف، وقد أخذتْه بالشيخ شفقة فزاد له شيئًا قليلًا عن طعامه المعتاد فنهاه الشيخ عن ذلك، يقول الديلمي: «وقال أحمد الصغير: حدث أن كنتُ أحمل عشر زبيبات إلى الشيخ، وكان الشيخ يفطر عليها، فأخذتني به شفقة ذات ليلة، فأضفتُ إليها خمسًا، فغضب عليّ الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: أيّ شيء دفعك إلى هذا؟ وألقى جانبًا بتلك الحبات الخمس التي كنتُ قد زدتها، وأكل الحبات العشر كعادته»[2].

٣) **الشيخ عبد الرحيم**: هو أبو عمرو عبد الرحيم بن موسى الإصطخري، وهو من تلاميذ الشيخ الكبير، وكان سيدًا في التصوف، سافر الحجاز والعراق والشام، ولقي رويمًا وأشكاله، ولقي سهل بن عبد الله التستري[3].

ويقول الشيخ الكبير: «لما دخلتُ على رويم قال: ما خبر عبد الرحيم؟ فقلتُ: مات، قال: رحم الله ذاك الرجل، لقد صحبتُه وأقوامًا بجبل الكُكَام ما رأيتُ أصبر ولا أقوى

---

(١) فريد الدين العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٨، وراجع: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٦٧.

(٢) سيرة الشيخ الكبير ص١٠٢، وراجع: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٤.

(٣) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٥٠، ٥١.

منه»[1].

ويبدو أنّ الشيخ عبد الرحيم قد صحب الشيخ الكبير فترة طويلة؛ لأنّه روى عنه روايات كثيرة وأحوال مختلفة في أوقات متعددة.

فمن هذه الحكايات: كثرة تصدُّق الشيخ الكبير وإنفاقه: «يقول عبد الرحيم: كان من عادة الشيخ أن يدعوني يوم الجمعة، ويأمر لي بشيء ممّا رزقه الله، ثم يأمرني قائلًا: أنفقه على الدراويش، ويتوضأ ويذهب للصلاة، وكان من عادته أيضًا أن يهب ملابسه في أول العام للشيوخ، ولا يحتفظ لنفسه بأكثر من رداء واحد»[2].

ومن هذه الحكايات: إحسانه إلى الجيران وترفُّقه بهم: «قال عبد الرحيم: كان من عادة الشيخ حين يوضع الطعام أمامه ألا يمد يده إليه حتى يُكثر من السؤال عن الإخوان والجيران: هل أكلوا شيئًا أو لا؟ فإذا قيل له: قد أكلوا أكل وإلا آثرهم بطعامه»[3].

ومن هذه الحكايات: أنّ الشيخ الكبير عَلَّمَ مريده عبد الرحيم أن يشتغل بشيء من العلم: «قال عبد الرحيم: رآني الشيخ الكبير ذات يوم أكتب شيئًا، فقال: ماذا تكتب؟ قلتُ: كتاب كذا، قال: ينبغي عليك أن تشتغل بطلب العلم، وأن تقرأ شيئًا، وألا تغترّ بكلام الصوفية، فإني كنتُ أضع المحبرة في جيبي وأخفي الورق في حجرة سراويلي وكنتُ أذهب إلى درس الحديث، وأتقي الصوفية الظاهرين؛ لأنّهم كانوا يشتمونني حينما يعلمون أنّي ذاهب إلى درس الحديث، وبعد ذلك احتاجوا جميعًا إليّ، وكانوا يقصدونني في كل ما أشكل عليهم من حديث»[4].

---

(١) نفس المصدر ص٥٢.

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٠٥.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

(٤) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٠٧.

٤) **الشيخ أبو علي الحسين بن محمد بن أحمد الأكّار**: «صحب الشيخ الكبير، وسافر ولقي المشايخ، وسلم له الشيخ الكبير الكسب في عمل الأكّاريّة[1]، ويقول الشيخ فيه: تصوف الحسين في مسحاته، وتأدّب بصحبته الشيخ المرشد أبو إسحاق الكازروني، قال الشيخ أبو شجاع المقاريضي في مشيخته: دخل الأكّار كازرون فاجتمع عنده مشايخها، وكان فيهم الشيخ أبو إسحاق صبيًّا، فقالوا: هذا الصبي يقرأ القرآن فإن أذنتَ له قرأ، فقال لهم: نعم اقرأ، فقرأ الشيخ أبو إسحاق قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ ٱلْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمْ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، فتَوَاجَدَ الحسين، فلمّا فرغ طلبهم أن يُصْحِبوه إياه، فأجابوه، فجاء به إلى شيراز وأفاده سماع الأحاديث من مشايخ الوقت وأصحاب الشيخ الكبير، وسافر معه إلى العراق والحجاز، وببركته صار إلى ما صار، وتوفي سنة ثلاث وتسعون وثلاثمائة، ودُفن بباب مرقد الشيخ الكبير حذاء وجهه رحمة الله عليهم رحمة واسعة»[2].

٥) **المقاريضي، أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن**: «قد صحب الشيخ الكبير أبا عبد الله محمد بن خفيف من مبدأ حاله إلى منتهى كماله، وكان بالباهلية مجلس يتكلم فيه، وكان في الحديث والتصوف مشارًا إليه، توفي في سنة إحدى عشرة وأربعمائة، ودُفن في فضاء مسجد على طرف المقبرة الباهلية، ولزيارة قبره في قضاء الحوائج أثر عظيم جرّبه المشايخ وأخبروا عنه»[3].

٦) **ابن باكويه**: هو الإمام الصالح المُحدّث شيخ الصوفية أبو عبد الله محمد بن عبد

---

(١) الأكّار: الحرّاث والزّرّاع، والمؤاكرة: المزارعة على نصيب معلوم مما يُزْرَع في الأرض وهي المُخَابَرة. (راجع: ابن منظور: لسان العرب ج٤ ص٢٦، والفيروزآبادي: القاموس المحيط ص٣٤٤).

(٢) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٤٩، ٥٠، وراجع: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٣٠٨.

(٣) سيرة الشيخ الكبير ص٣٠٩، وراجع: شد الإزار ص٩٩.

الله بن عبيد الله بن باكويه الشيرازي، وُلد سنة نيف وأربعين وثلاثمائة، وطلب هذا الشأن، وارتحل فيه، وسمع محمد بن خفيف الشيرازي وغيره، وحدّث عنه: أبو القاسم القشيري، وعبد الواحد وُلد القشيري وغيرهما، له تصانيف وجموع، مات سنة ثمان وعشرين وأربعمائة[1].

٧) **الديلمي، أبو الحسن علي بن محمد:** عُرِفَ بأنّه كاتب سيرة الشيخ الكبير ابن خفيف، هذه السيرة التي حفظ لنا فيها الديلمي كثيرًا من التفاصيل المتعلقة بشيخه الذي أَثَّرَ في تصوفه العملي والنظري أيّما تأثير، ويكفي أن يطالع المرء كتابه «عطف الألف المألوف على اللام المعطوف» الذي سطره ليدوّن فيه نظريته عن المحبة ليقف على تلك الحقيقة.

ومن خلال صحبة الديلمي لابن خفيف التي استمرت حوالي تسع عشرة سنة حيث التقى به وتتلمذ عليه حوالي سنة ٣٥٣هـ أقول: من خلال هذه الصحبة أدرك الديلمي علو كعب الشيخ الكبير، ومدى تمكّنه وتأثيره في أهل عصره، ينقل لنا جنيد الشيرازي في «شد الإزار» نصًا من كتاب «المشيخة» للديلمي - وهو الكتاب المفقود - يصف فيه الديلمي ابن خفيف، فيقول: «قال الشيخ أبو الحسن الديلمي في مشيخته: هو شيخ الشيوخ وإمام أهل النحلة، ولولا أن مَنَّ الله علينا بطول عمره حتى أدركناه واستفدنا منه لكان معدودًا في الطبقة الثانية لمحله وسِنه وعلمه وحاله وحاجة أهل عصره إليه في رأيه وعقله»[2].

ويُوقِفُنا كتاب «عطف الألف» على أنّه بالإضافة للجانب الصوفي الذي تميزّ به الديلمي، فقد كان له اطلاع على كلام الحكماء والمتكلمين والفقهاء والأدباء والشعراء

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ج١٧ ص٥٤٤، والزركلي: الأعلام ج٦ ص٢٢٧.

(٢) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٣٨، ٣٩.

والأطباء، فقد كان ذا ثقافة متنوعة[1].

٨) أبو نصر السّرّاج الطوسي: هو أبو نصر السَّرَّاج، عبد الله بن علي الطوسي الزاهد، شيخ الصوفية، وصاحب كتاب «اللمع في التصوف»، روى عن جعفر الخلدي، وأبي بكر محمد بن داود الدقي، قال الذهبي: كان المنظور إليه في ناحيته في الفُتُوة ولسان القوم مع الاستظهار بعلم الشريعة، وقال السخاوي: كان على طريقة السُّنَّة، وتُوفي في رجب عام ٣٧٨هـ[2].

ويروي الطوسي كرامة شاهدها للشيخ الكبير، وهي سرعة استجابة دعائه فيقول: «خرجتُ مع الشيخ رحمة الله عليه من المسجد الجامع، وحينما وصلنا إلى حي «بال رود» لطمني ثَمِلٌ لطمة شديدة، فنظر إليّ الشيخ وقال: ما هذا؟ قلتُ: هذا الثمل لطمني، قال: قطع الله تعالى يده، وبعد يومين أو ثلاثة، كنتُ أمُرُّ أيضًا بـ«بال رود»، وكان الخلق قد تجمّعوا، وحين نظرتُ رأيتُ ذلك الرجل الذي لطمني وقد ضُرب بالسيف، وفُصلتْ يده عن ساعده، فجئتُ في الحال إلى الشيخ، وقلتُ له الأمر، فقال: أنت أرسلتَ إليه هذا البلاء»[3].

ويروي الطوسي حادثة وفاة ابن الشيخ الكبير فيقول: «تُوفي للشيخ رَحِمَهُ اللهُ ابنٌ كان اسمه

---

(١) المعلومات عن حياة الديلمي ومؤلفاته شحيحة جدًا، وقد استخلص العلامة المدقق الدكتور حسن الشافعي والدكتور «جوزيف نورمنت بل» بعض ما يخص حياة الديلمي وذلك من خلال كتابه «عطف الألف المألوف»، وبعض الشذرات المسطورة في مصادر أخرى. (راجع: الدراسة التي أُعدتْ عن الديلمي لتحقيق كتاب عطف الألف المألوف على اللام المعطوف ص١٠: ٢٤ (بتحقيق: الدكتور حسن الشافعي والدكتور «جوزيف نورمنت بل»، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت).

(٢) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٤١٣، والزركلي: الأعلام ج٤ ص١٠٤.

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٤٩.

عبد السلام، وحضر جنازته كل الأئمة والشيوخ، فلم يجسر أحد منهم أن يعزي الشيخ من فرط هيبته وسكونه ووقاره»(١).

٩) وربما كان من تلاميذه أبو عبد الرحمن السلمي: وهو محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدي السلمي النيسابوري، وُلد بنيسابور سنة ٣٢٥هـ وتوفي بها سنة ٤١٢هـ، قدم بغداد مرات وحَدَّث بها عن شيوخ خراسان، كان رأسًا في أخبار الصوفية وطبقاتهم وتفسيرهم، بلغتْ تصانيفه مئة أو أكثر، من أشهر مصنفاته كتاب «طبقات الصوفية»(٢).

وإنّما عددنا السلمي من تلامذة الشيخ الكبير حيث يُعد كتابه «طبقات الصوفية» من أقدم المراجع التي يُرجع إليها لمعرفة حياة ابن خفيف وتفاصيلها المختلفة، ويدل على ذلك أيضًا أنّه نقل كثيرًا من كلمات ابن خفيف وأقواله المشهورة عنه في التصوف ثم قال: «وكل هذه الحكايات أخبرنيه أبو عبد الله محمد بن خفيف رحمه الله إجازة لي بخطه»(٣).

هؤلاء هم أشهر من صحب الشيخ الكبير صحبة مباشرة، وإلّا فإنّ هناك آخرين في هذا القسم منسوبين إلى الشيخ الكبير، ولم نعثر لهم على ترجمة.

۞ القسم الثاني: الذين التقوا بالشيخ بعض مرة فنسبهم بعض الباحثين إلى الشيخ الكبير:

وأشهر نموذج على ذلك القسم هو إمام أهل السُّنة في عصره القاضي الباقلاني، ولم نجد من الباحثين من نَصَّ على أنّ الباقلاني من تلاميذ ابن خفيف ومريديه إلا المستشرقة «أنا ماريا شميل» التي قالت: «ولا يعد المتصوفة فحسب من مريدي ابن خفيف، بل هناك

(١) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٤٩، وراجع: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٠٩.

(٢) انظر: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج٣ ص٤٢، وابن الملقن: طبقات الأولياء ص٣١٣:٣١٥.

(٣) السلمي: طبقات الصوفية ص٣٤٨.

بعض الفقهاء تتلمذوا عليه، وأشهر نموذج على ذلك الشارح التقليدي لأفكار الأشعري، أي: الباقلاني»[1].

والواقع أنّها لم تعتمد في هذا الحكم على دليل تاريخي صريح في تلمذة الباقلاني على الشيخ الكبير، ولم تكن هناك صلات بين الباقلاني وابن خفيف، بل أرجو ألّا أكون مبالغًا حين أزعم أنّهما لم يلتقيا سوى مرة واحدة في تلك الزيارة التي دُعي فيها القاضي الباقلاني إلى شيراز لمناظرة بعض المخالفين بحضرة ملك تلك البلاد، والتقى هناك بابن خفيف الذي كان يُدرّس أصحابه كتاب «اللمع» للأشعري، وأظهر كل واحد من العالمين الكبيرين تبجيله الكبير للآخر، وقد مرَّ ذكر هذه الرواية منذ قليل[2].

(١) مقدمة «أنا ماريا شميل» لسيرة الشيخ الكبير ص٣٧.

(٢) راجع: شهاب الدين التلمساني: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض ج٣ ص٨٠.

المبحث السادس
مؤلفاته

لقد كان ابن خفيف صاحب قلم سيّال، أجمعتْ المصادر على أنّه غزير التأليف كثير التصنيف، وعدوا له مؤلفات كثيرة معظمها في التصوف، وكذلك مؤلفات في الفقه والحديث والعقيدة.

يقول أبو العباس النسوي: «صَنَّفَ شيخنا ابن خفيف من الكتب ما لم يصنفه أحد، وانتفع به جماعة صاروا أئمة يُقتدى بهم، وعمّر حتى نفع الله به البلدان»(١).

ويقول عنه العطار: «كان يُصنف كل أربعين يومًا تصنيفًا عن غوامض الحقائق، وله كثير من التصانيف النفيسة في علم الظاهر جميعها مقبولة مشهورة»(٢).

وتقول المستشرقة «أنا ماريا»: «كان الشيخ مؤلفًا غزير الإنتاج في ميدان التصوف والفقه، ألّف كتبًا كثيرة لم يؤلفها أحد قبله، وكانت موضع استفادة كل الفقهاء والأئمة»(٣).

وكان مع ذلك له عناية خاصة بالتأليف في علم الحديث، كما يقول جنيد الشيرازي عنه: «كان لا ينام كل ليلة حتى يكتب من صحاح الأحاديث عشرين حديثًا بعدما فرغ من ورده، وله مسند حديث»(٤).

وبناء على ذلك تذكر المصادر مجموعة من المؤلفات للشيخ الكبير ما بين كتب

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٨ ص٣٦٥.

(٢) العطار: تذكرة الأولياء ج١ ص٢١٣.

(٣) مقدمة «أنا ماريا شميل» لسيرة الشيخ الكبير ص٣٨.

(٤) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٤٢.

صغيرة وكبيرة وردود على بعض المسائل، يقول الديلمي: «كان أول مصنفات الشيخ كتاب «شرف الفقر»، وآخرها كتاب «جامع الإرشاد»، وبينهما صَنَّف:

- كتاب «الاستذكار».
- وكتاب «الفصول في الأصول».
- وكتاب «المنقطعين».
- وكتاب «الجوع وترك الشهوات».
- وكتاب «لبس المرقعات».
- وكتاب «الإعانة»[1].
- وكتاب «اختلاف الناس في الروح».
- وكتاب «المعراج».
- وكتاب «الرد على ابن سالم».

(١) هكذا: «الإعانة»، في المطبوع من كتاب «سيرة الشيخ الكبير»، وفي المطبوع من كتاب «شد الإزار» وردتْ هكذا: «الإغاثة»، ولعلها لا هذه ولا تلك وإنّما «الإغانة»، ويكون موضوع الكتاب هو شرح حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: «إنّه ليُغان على قلبي، وإنّي لأستغفر الله، في اليوم مائة مرة» (أخرجه مسلم في الصحيح عن الأغر المزني، كتاب «الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار»، باب «استحباب الاستغفار والاستكثار منه»، ج٤ ص٢٠٧٥ برقم٢٧٠٢)، سيّما وأنّ للصوفية كلامًا كثيرًا حول هذا الحديث، بل إنّنا نجد روزبهان البقلي المتأثر جدًا بابن خفيف قد أفرد هذه القضية بتأليف وسمّاه بهذه التسمية «الإغانة». (راجع: روزبهان البقلي: المصباح في مكاشفة بعث الأرواح ص٤، وص٤٦ (بتحقيق: د/ إبراهيم الكيالي، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، دار الكتب العلمية - بيروت)، وعرائس الحديث ص٣٢١ (بتحقيق: علي صدرايي، طبعة مركز أبحاث باقر العلوم - قم).

- وكتاب «الرد على ابن زينان».
- وكتاب «الاعتقاد».
- وكتاب «المنهج في الفقه».
- ومن كتبه الصغيرة:
- كتاب «الاقتصاد».
- وكتاب «اللوامع».
- وكتاب «المفردات».
- وكتاب «المشيخة».
- وكتاب «فضل التصوف».
- وكتاب «الفرق بين التقوى والتصوف».
- وكتاب «الاستدراج والاندراج».
- وكتاب «الجمع والتفرقة».
- وكتاب «بلوى الأنبياء».
- وكتاب «المحبة».
- وكتاب «الود والألفة».
- وكتاب «مسائل علي بن سهل».
- وكتاب «معرفة الزوال».

وكتبه المطوّلة تبلغ عدد خمس عشر كتابًا، وكذلك كتبه الصغيرة، أمّا المسائل المتفرقة التي سئل فيها فأجاب فلا حصر لها ولا عدد»[1].

وبالإضافة لهذه المؤلفات السابق ذكرها يذكر صاحب «شد الإزار» مؤلفات أخرى للشيخ الكبير وهي:

- كتاب «الاستذكار».
- وكتاب «أسامي المشايخ»[2].
- وكتاب «المعتقد الصغير».
- وكتاب «المعتقد الكبير»[3].

ويذكر ابن تيمية كتابًا لابن خفيف لم يُذكر في المصدرين السابقين يقول عنه: «وقال الإمام أبو عبد الله محمد بن خفيف في كتابه الذي سماه «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات»»[4].

وينص صاحب «كشف الظنون» وصاحب «هدية العارفين» و«إيضاح المكنون» على أنّ من كتب ابن خفيف: كتاب «الفضائل وجامع الدعوات والأذكار»[5].

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٥٧، ٢٥٨.

(٢) لعله هو كتاب «المشيخة» الذي ذكره الديلمي في سيرة الشيخ الكبير.

(٣) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٤٢، ٤٣.

(٤) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج٥ ص٧١ (بتحقيق: عبد الرحمن بن محمد قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف سنة ١٩٩٥م).

(٥) انظر: حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ج٢ ص١٤٤٧ (مكتبة المثنى - بغداد، سنة ١٩٤١م)، وإسماعيل بن محمد البغدادي: هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين ج٢ ص٥٠ (طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية إستانبول، سنة ١٩٥١م)، والبغدادي أيضًا: إيضاح=

كما يذكر صاحب «هدية العارفين» و«إيضاح المكنون» أنّ من كتب الشيخ الكبير أيضًا: كتاب «آداب المريدين»، وكتاب «السماع»، وديوان شعره[١].

ومع أهمية هذه المصنفات لأهمية مؤلفها ما زال معظمها قابعًا بين أضابير المخطوطات، ولمّا يخرج بعد إلى عالم المطبوعات، ولعل محاولتنا هذه تكون بداية لإخراج تراث الشيخ الكبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

=المكنون في الذيل على كشف الظنون ج٤ ص٤٦ (عنى بتصحيحه وطبعه على نسخة المؤلف: محمد شرف الدين بالتقايا، والمعلم رفعت بيلكه الكليسي، دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، بدون).

(١) انظر: إسماعيل بن محمد البغدادي: هدية العارفين ج٢ ص٤٩، ٥٠، وإيضاح المكنون ج٣ ص٤، وج٣ ص٤٨٥، وج٤ ص٤٦، وج٤ ص٣٠٣.

المبحث السابع
رحلاته

من السمات المميِّزة لطالب العلم في أيّ فرع من فروعه الرحلة لطلب هذا العلم، حتى أنّهم عدّوا من النقائص لطالب العلم عدم سفره وترحاله إلى الأساتذة والمشايخ لأخذ العلم عنهم، فيقول يحيى بن معين: «أربعة لا تُؤْنِس منهم رشدًا: حارس الدَّرْب، ومنادي القاضي، وابن المُحَدِّث، ورجل يكتب في بلده ولا يرحل في طلب الحديث»[1].

وكذلك في باقي العلوم الشرعية الأخرى، وما من عالم من العلماء إلّا وكان من مراحل حياته الأساسية الرحلة في طلب العلم.

وإذا كان هذا الأمر أساسيًا في العلوم الشرعية، فإنّه كذلك من أهم الأمور لدى الصوفية، حتى إنّ الصوفية قد تَسَمُّوا بأسماء خاصة تدل على كثرة سفرهم وسياحاتهم وهو اسم «الشكفتية»، و«السيّاحين»، و«الغرباء».

يقول الكلاباذي: «إنّهم قوم قد تركوا الدنيا، فخرجوا عن الأوطان، وهجروا الأخدان، وساحوا في البلاد، وأجاعوا الأكباد، وأعروا الأجساد، لم يأخذوا من الدنيا إلّا ما لا يجوز تركه من ستر عورة وسدّ جوعة، فلخروجهم عن الأوطان سموا «غرباء»، ولكثرة أسفارهم سموا «سيّاحين»، ومن سياحتهم في البراري وإيوائهم إلى الكهوف عند الضرورات سماهم بعض أهل الديار «شكفتية» والشكفت بلغتهم: الغار والكهف»[2].

ولذلك عَقَدَ القشيري بابًا كاملًا في «الرسالة» بعنوان «أحكامهم في السفر»[3]، استدل

---

(١) أبو عبد الله الحاكم النيسابوري: معرفة علوم الحديث ص٩ (بتحقيق: السيد معظم حسين، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧م، دار الكتب العلمية - بيروت).

(٢) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٢١ (دار الكتب العلمية - بيروت، بدون).

(٣) القشيري: الرسالة القشيرية ج٢ س٤٥٠.

فيه على السفر بالكتاب والسنة، مثل قول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [يونس: ٢٢]، وقول ابن عمر: «كان النبي ﷺ إذا استوى على بعيره خارجًا إلى سفر، كَبَّر ثلاثًا، ثم قال: سبحان الذي سَخَّر لنا هذا، وما كنا له مقرنين، وإنّا إلى ربنا لمنقلبون، اللهم إنّا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى، ومن العمل ما ترضى، اللهم هَوِّن علينا سفرنا هذا، واطْوِ عنا بُعْده، اللهم أنت الصاحب في السفر، والخليفة في الأهل، اللهم إنّي أعوذ بك من وعثاء السفر، وكآبة المنظر، وسوء المنقلب في المال والأهل، وإذا رجع قالهن، وزاد فيهن: آيبون تائبون عابدون، لربنا حامدون»[١].

ثم قال القشيري: «لمّا كان رأى كثير من هذه الطائفة - يقصد الصوفية - اختيار السفر أفردنا لذكر السفر في هذه الرسالة بابًا لكونه من أعظم شأنهم»[٢].

ويذكر القشيري قول مالك بن دينار: «أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام: اتخذ نعلين من حديد وعصا من حديد، ثم سِحْ في الأرض، واطلب الآثار والعبر، حتى تنخرق النعلان وتنكسر العصا»[٣].

ويشترط الهجويري في سفر الصوفية: «أن يسافر من أجل الله تعالى لا لمتابعة الهوى، وكما يسافر بالظاهر فإنّه يسافر أيضًا من أهوائه بالباطن، ويكون دائمًا على طهارة ولا يُضَيِّع أوراده، ويجب أن يكون مراده من هذا السفر إمّا حج أو غزو أو زيارة موضع، أو تحصيل فائدة، أو طلب علم أو رؤية شيخ من المشايخ، وألّا يكون مخطئًا في ذلك السفر»[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في الصحيح، كتاب «الحج»، باب «ما يقول إذا ركب إلى سفر الحج وغيره»، ج٢ ص٩٧٨ برقم ١٣٤٢.

(٢) القشيري: الرسالة القشيرية ج٢ ص٤٥٠.

(٣) نفس المصدر ج٢ ص٤٥٢.

(٤) الهجويري: كشف المحجوب ج٢ ص٥٩١.

ويذكر القشيري أنّ السفر عند الصوفية له غرض أسمى، وهو مفارقة المألوفات والعيش مع الله تعالى، فيقول: «واعلموا أنّ القوم استوفوا آداب الحضور من المجاهدات، ثم أرادوا أن يضيفوا إليها شيئًا، فأضافوا أحكام السفر إلى ذلك رياضة لنفوسهم، حتى أخرجوها عن المعلومات وحملوها على مفارقة المعارف، كي يعيشوا مع الله ﷻ بلا علاقة ولا واسطة، فلم يتركوا شيئًا من أورادهم في أسفارهم»[1].

ويتحدّث أستاذنا الدكتور عبد الله الشاذلي عن أهمية السياحة وعمومها لدى الصوفية، فيقول: «يبدو أنّ السياحة في البراري وبين المدن والقرى كانت سمة عامة اشترك فيها صوفية متجردون وغير متجردين، كما نفّذها علماء قطعوا آلاف الفراسخ سيرًا على أقدامهم، وكان لكل وجهة وإن اتحدت منافعهم التي حصلوا عليها في النهاية، فالصوفية ساحوا متأملين متفكرين، لم تحجب عيونهم عن النظر الاعتباري في الكون حجب، بل أطلقوها في جنباته تُبصر ما حولهم من آيات، وتصعد إلى ما فوقهم من دلالات، مَثُلَ الكون بكل ألوانه في جميع لحظاته أمام بصرهم المحدق، فلم تَفُتْهُم إشارة ولم تَنِدّ عنهم أمارة، أو تختفي عليهم علامة، لقد سكبتْ العوالم المتنوعة في قلوبهم دلائل اليقين، وضموا إلى علم اليقين شهود الأفعال في صافي الأحوال، ثم ارتقوا من العلم والشهود للأفعال إلى شهود المدبر، وذوق لطائف المُقدّر، ونفعهم في ذلك أنهم لم يسيحوا طالبين أصل اليقين بل زوائده، لقد آمنوا سلفًا، ثم خرجوا يبغون الترقي بتأمل فعل القادر ودلائله، تلاقت أفئدتهم على الطريق فصغا السمع وانفتحت العين وانجلت حُجُب العقل والقلب طلبًا لمزيد التحقيق، فألقى الكون على سواحلهم وبواطنهم صافي العقيق، وكشفتْ لهم خلواتهم عن رقائق التدقيق، تراهم بين آياته متأملين، وعلى صعيده ساجدين، وبين فضائه المترامي مناجين، شَقَّ أجواز الفضاء دعاؤهم، وفُتِحَتْ أبواب السماء لتضرعاتهم،

---

(١) القشيري: الرسالة ج٢ ص٤٥٣.

وسَبَّحَتْ الكائنات من حولهم بتسبيحاتهم، تعشّقوا الليل ليضيف خلوة إلى خلوة، فكان لهم من الرقائق والدقائق والشهود والحقائق ما كان، وبذا فاق الصوفية غيرهم، وتميزوا عما سواهم وظفروا بمبتغاهم»(١).

ومن هذه النقول يتبيَّن لنا أنّ السياحة والسفر عند الصوفية لا يُقصدان لذاتيهما، بل لهما أغراض دينية وشرعية محددة، أهمها:

- أن يكون ابتغاء مرضاة الله تعالى لا لمتابعة النفس أو الهوى.
- أن يكون لغرض شرعي كأداء حج أو غزو أو زيارة.
- أن يكون لطلب شيخ للتعلُّم والسلوك على يديه.
- رياضة النفس والانتصار عليها وتعويدها التخلّي عن مألوفاتها.
- الخروج عن الخلق والبقاء مع الخالق.
- ويُشترط مع كل ذلك ألّا يُضيّع الصوفي واجبًا من الواجبات أو وِرْدًا من الأوراد.

والواقع أنّ هذه الأغراض والشروط للسفر كانت حاضرة في ذهن ابن خفيف أثناء قيامه برحلاته المتعددة، فقد سافر لأداء فريضة الحج مرات، وسافر للغزو والجهاد، وسافر لرياضة نفسه ومجاهدتها، وسافر للقاء المشايخ، وسافر لطلب العلم.

وهذه هي أهم أغراض السياحة عند الصوفية، وقد باشرها ابن خفيف عمليًا في سياحاته وأسفاره، ومن ذلك ما يلي:

اتجاهه إلى السياحة مبكرًا: حتى إنّه ناهز البلوغ في أول أسفاره فـ«في شبابه خرج ابن خفيف للسياحة، وقد ذهب للحج عدة مرات لا نستطيع أن نجزم بأنّها كانت أربع مرات

(١) د/ عبد الله الشاذلي: التصوف الإسلامي في ميزان الكتاب والسنة جـ٥ ص١٣١، ١٣٢.

أو ست مرات، وفي المرة الأولى قد ناهز البلوغ»[1].

ويتحدّث ابن خفيف عن سفرته الأولى فيقول: «خرجتُ في سفرتي الأولى واحتلمتُ في المركب ولي ست عشرة سنة، ورجعتُ سريعًا لأجل والدتي، واشتغلتُ بالرياضات والمجاهدات، وكنتُ آوي إلى مسجد سليمان، وإلى كهف بالقرب منه»[2].

ويقول الديلمي: «كان الشيخ قدس الله روحه قد قام بعدة رحلات، وعانى كثيرًا من المشقات، وقد قال: راهقتُ البلوغ في رحلتي وكنتُ راكبًا سفينة»[3].

وقد استمر ابن خفيف على أسفاره من بدايته إلى نهايته حتى اشتهر ذلك عنه، فقال السبكي: «كانت له أسفار وبدايات، وأحوال عاليات ورياضات»[4]، وقال عنه أيضًا: «سافر مشرقًا ومغربًا»[5].

سفره للحج: سافر ابن خفيف للحج عدة مرات، اختلفوا في كونها أربعًا أو ستًّا، ومن تلك المرات ما يتحدّث عنه ابن خفيف قائلًا: «وعزمتُ على السفر إلى مكة، وأرسلتُ رسولًا إلى أمّي أقول لها: إنّني عزمتُ على السفر إلى الكعبة، فإذا كُنْتِ تريدين وداعي فتعالي وأحضري مرقعتي معك، فأتتْ أمّي وأحضرتْ مرقعتي»[6].

ويتحدّث ابن خفيف عن سفره للحج مرة أخرى فيقول: «وفي الرحلة الرابعة حين قصدتُ البادية بِنِيَّة الحج أخذتُ أمّي معي»[7].

وفي النص السابق ما يفيد أنّه حج أربع مرات، ولذلك يقول تلميذه أبو أحمد: «ما

---

(١) مقدمة «أنا ماريا شميل» لسيرة الشيخ الكبير ص٢٣.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٥٢ ص٤١٠.

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١١٥.

(٤) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٥٠.

(٥) نفس المصدر ج٣ ص١٥٠.

(٦) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١١٥.

(٧) نفس المصدر ص١١٦.

أعلمه يقينًا أنّ الشيخ أدى فريضة الحج أربع مرات»(١).

ولكن مريده عبد الرحيم قال: «أغلب ظني أنّه حج ست مرات»(٢)، وقد سُئل ابن خفيف عن عدد مرات سفره للحج فلم يحدد للسائل عددًا معينًا(٣).

ويتحدّث ابن خفيف عن مرة أخرى لم يحدد لها عددًا، ولكنّه وصفها بأنّها آخر مرة رحل فيها إلى مكة، فيقول: «أخذتُ أمّي معي في آخر رحلة قمتُ بها إلى مكة، وكانت عن طريق البحر، وحينما وصلتُ إلى مكة، قصدتُ أبا عمرو، ولمّا وصلتُ إليه قضينا ساعة طيبة، وجرتْ محادثة طويلة بيني وبينه، ثم سألني: أتملك شيئًا من الدنيا؟ قلتُ: يا مولاي حينما يجري الحديث عن مناقب الأولياء، وتذكر مفاخرهم ومآثرهم، يكون ذكر الدنيا من الهواجس التي تسبب الفساد، قال: ربما جعلتَ ما تملك باسم أمّك، قلتُ: يا مولاي حينما يجري ذكر رجال الله لا يليق ذكر النساء»(٤).

سفره للغزو والجهاد: لم يكن الصوفية أصحاب عبادات خاصة بهم فقط، بل كان لهم أيضًا مشاركات فعّالة في مصالح المسلمين والجهاد معهم لنشر الدعوة والدفاع عن الدين، وقد اشترك ابن خفيف في صفوف المجاهدين في فتنة القرامطة، يقول الديلمي: «كان الشيخ قدس الله روحه يروي ذات يوم واقعة القرامطة التي حَدَثَتْ في القادسية، قال: كنتُ بين المشاة في أول القافلة، فقد كان من عادة المشاة أن يسيروا أمام القافلة، وكنتُ مع رفيق أَسَرَه القرامطة وأودعوه أهل القادسية، حتى هُزم عسكر ابن أبي السلاح، وعرفني أهل القادسية، فأكرموني كثيرًا وأحسنوا إليّ، فَتَحَيَّنْتُ فرصة وخرجتُ في وقت كانوا مشغولين

---

(١) نفسه ص١١٧.

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١١٧.

(٣) نفس المصدر ص١١٧.

(٤) نفسه ص١٤١.

فيه»[1].

كثرة التردد على البادية: يقول الديلمي: «روى الشيخ رحمة الله عليه: قصدتُ البادية ذات مرة بقدم عارية، وحينما وصلتُ إلى مكة كانت أقدامي قد جُرِحَتْ، ومن شدة الألم نِمْتُ ساعة»[2].

ويحكي الشيخ عن مشاق واجهته في سياحته في البادية فيقول: «تهتُ في بضعة أيام في البادية وأصابني من العطش والنصب والجوع ما أسقط ثمانية من أسناني، وبعد ذلك وصلتُ إلى «فيد»[3] ومكثتُ هناك بضعة أيام حتى شفاني الله تعالى بفضله وكرمه ورَدَّ لي قواي ثم خرجتُ»[4].

ويحكي الذهبي هذه الرواية فيروي أنّ ابن خفيف قال: «تُهْتُ في البادية وجُعْتُ حتى سقطتْ لي ثمانية أسنان، وانتثر شعري، ثم وقعتُ إلى «فيد» وأقمتُ بها، حتى تماثلتُ وحَجَجْتُ، ثم مضيتُ إلى بيت المقدس، ودخلتُ الشام»[5].

ويحكي عن دخوله البادية مرة فيقول: «ولما نزلتُ البادية كان معي حبل ودلو، فشعرتُ بالعطش ورأيتُ بئرًا، وكان ظبي يشرب منه»[6].

كثرة أسفاره لطلب لقاء المشايخ والعلماء والصالحين: كان هذا من أهم أغراض ابن خفيف في أسفاره المتعددة حيث كان إذا سمع عن شيخ رحل إليه بقصد التعلّم منه.

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٢٠.

(٢) نفس المصدر ص١٤٤.

(٣) فَيْدُ: بليدة في نصف طريق مكة من الكوفة عامرة يودع الحاجّ فيها أزوادهم وما يثقل من أمتعتهم عند أهلها. (راجع: ياقوت الحموي: معجم البلدان ج٤ ص٢٨٢).

(٤) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١١٦، ١١٧.

(٥) الذهبي: تاريخ الإسلام ج٨ ص٢٦٥.

(٦) العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٥.

وكان أهم مَنْ سافر ابن خفيف للقائه هو أستاذه المباشر الصوفي الكبير أبو محمد بن رويم، يقول ابن خفيف: «كان أول شيخ لقيته بالعراق هو أبو محمد بن رويم»(١).

ومن ذلك ما يرويه فريد الدين العطار أنّ ابن خفيف سمع أنّ في مصر شيخًا وشابًا داوما على المراقبة فرحل إليهما وتعلَّم منهما، يقول العطار: «قال - ابن خفيف -: سمعتُ مرة أنّ في مصر شيخًا وشابًا قد داوما على المراقبة، فذهبتُ إلى هناك، فرأيتُ رجلين اتجها إلى القبلة، ألقيتُ السلام عليهما ثلاث مرات، ولم يُجيبا، فقلتُ: بالله عليكما، رُدَّا السلام، فرفع الشاب رأسه، وقال: يا ابن خفيف! الدنيا نذر قليل، وقد بقي القليل من القليل، فخذ الكثير من هذا القليل، يا ابن خفيف! لعلك فارغ، فأتيتَ للسلام علينا، قال هذا وخفض رأسه، وكنتُ جائعًا وعطشانًا فنسيتُ الجوع، وقد استوليا عليّ كلية، فوقفتُ وصليتُ معهما صلاة الظهر وصلاة العصر، وقلتُ له: عظني، قال: يا ابن خفيف نحن أهل مصائب ولا نعظ، وينبغي لأهل المصائب رجل يعظهم، قضيتُ هناك ثلاثة أيام، ونحن لا نأكل شيئًا ولا ننام، فقلتُ في نفسي: بأيِّ قَسَمٍ أقسم عليك حتى تعظني؟ فرفع الشاب رأسه وقال: اصحب مَنْ تُذكِّرك رؤيته بالله تعالى، ويجعل هيبته في قلبك، وينصحك بلسان الفعل لا القول»(٢).

ومن ذلك ما يقوله ابن خفيف: «خرجتُ من مصر أريد الرملة للقاء أبي علي الروذباري»(٣).

ومن ذلك ما يرويه ابن خفيف قائلًا: «كنتُ مدة أسيح على وجه الأرض للالتقاء بالبدلاء، فسئمتُ من السياحة والسفر، فرجعتُ إلى بلد إصطخر فارس، فدخلتُ دويرة

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٥٢.
(٢) العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٥، ٢١٦.
(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٧٢.

الصوفية، فرأيتُ جماعة من المشايخ، وبين أيديهم مأكول، وهم تسعة نفر منهم الحسن بن أبي سعد وأبو الأزهر بن حيان وجماعته، فوقفتُ ساعة فتوضأتُ، فلمّا فرغتُ وَسَّعوا لي فقعدتُ معهم، وتناولتُ ممّا كانوا يأكلون، وتفرّقنا، فرقدتُ رقدة، فرأيتُ النبي ﷺ في المنام يقول لي: يا ابن خفيف مَنْ كنت تطلبهم وترجو مجالستهم هم هؤلاء في هذا البلد، وأنت منهم، فطالبتني نفسي أن أخبر القوم بما رأيتُ، فعلاني منهم وقار وهيبة، ولم ألبث ساعة من النهار حتى قابلني الشيخ الحسن بن أبي سعد وقال لي: يا أبا عبد الله أخبرهم بما رأيتَ في المنام، فأخبرتهم فتفرّقوا في البلدان حين فشا الخبر، رضي الله عنهم وعن سائر الصالحين آمين»[1].

ومن أشهر ما يروي ابن خفيف في ذلك رحلته للقاء الشيخ الأشعري رضي الله عنه، فيقول: «دخلتُ البصرة في أيام شبابي لأرى أبا الحسن الأشعري لما بلغني من خبره، فرأيتُ شيخًا بهي المنظر»[2].

ومن ذلك أيضًا رحلته للقاء الحلاج، يقول ابن خفيف: «خرجتُ من شيراز قاصدًا زيارة أبي المغيث الحسين بن منصور الحلاج كي أسمع من مستحسناته وغرائب كلماته، فدخلتُ بغداد فسمعتُ أنّه في السجن»[3].

كذلك زار بلادًا كثيرة ومتعددة، ومن أهمها:

زيارته إلى المدينة: يقول ابن خفيف: «حينما ذهبتُ إلى المدينة أصابتني مشاق لا نهاية لها، فذهبتُ لزيارة المصطفى صلى الله عليه وعلى آله، وسقطتُ أمام الروضة الشريفة، قلتُ: يا رسول الله إنّي جائع، وحينما قلتُ هذا ندمتُ في الحال، وفي ذلك اليوم

---

(١) نفس المصدر ص٢٧٤، ٢٧٥.

(٢) نفسه ص٢٨٨، وراجع: ابن عساكر: تبيين كذب المفتري ص٩٥.

(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٨٠، ٢٨١.

جيء لي بأطعمة من عدة أماكن، فلم أقبلها من شدة ندمي على ذلك الكلام»[1].

كذلك سافر إلى الشام: يقول ابن خفيف: «وصلتُ ذات مرة إلى مدينة من مدن الشام، وكنتُ أقضي الليلة في المسجد»[2].

كذلك سافر إلى واسط: يقول ابن خفيف: «ذهبتُ في زمهرير الشتاء إلى واسط، وكان الكرى قد أخذ مني كل مأخذ، وحين دخل الليل ذهبتُ إلى دكان خباز ونمتُ، وفي اليوم التالي حين فرغتُ من الصلاة والأوراد المعتادة ذهبتُ ناحية الشاطئ وجلستُ، فرأيتُ شيخًا عليه سمات الخير، فسلمتُ عليه»[3].

كذلك سافر الشيخ الكبير إلى البصرة[4] والكوفة[5].

وكذلك سافر إلى بلاد الروم: يقول ابن خفيف: «كنتُ في بلاد الروم في إحدى السنوات وذهبتُ إلى الصحراء»[6].

وهكذا تعددتْ أسفار ابن خفيف وسياحاته إلى البلدان والأقطار المختلفة، كذلك قصد بزيارته المشايخ والعلماء، فحقق ابن خفيف بذلك سمة من أهم سمات الصوفية وهي السياحة والأسفار لأغراض شرعية وغايات دينية.

(١) نفس المصدر ص١٤٨.
(٢) نفسه ص١١٧.
(٣) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٦٦.
(٤) نفس المصدر ص١٧٢.
(٥) نفسه ص١٧٤.
(٦) تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٦.

المبحث الثامن
وفاته وثناء العلماء عليه

۞ أولًا: وفاته:

بعد هذا العمر المديد في المجاهدة والعلم والطاعة لقي الشيخ الكبير ربه في الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة من الهجرة.

وهذا محل إجماع بين مترجمي ابن خفيف حتى قال ابن عساكر: «وذكروا كلهم أنّه مات ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة»[(١)].

وابن السبكي قد وافق الإجماع في سنة الوفاة إلّا أنّه ذكر أنّه مات يوم الثالث من رمضان وليس الثالث والعشرين[(٢)]، ثم يقول ابن السبكي: «وازدحم الخلق على جنازته وكان أمرًا عظيمًا، وصُلِّيَ عليه نحوًا من مائة مرة، وقيل: إنّه عاش مائة سنة وأربع سنين، وقيل: مائة إلّا خمس سنين ولعله الأصح»[(٣)].

ولنترك لمريده المُقَرَّب عبد الرحيم الحديث عن وفاة الشيخ الكبير رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال عبد الرحيم: حين مرض الشيخ كان ينام في الشمس، وكان في كل لحظة يغيب عن وعيه من شدة الحرارة، ولكنّه لم يكن يغفل شيئًا من أوراده قط، وقَبْلَ وفاته بعشر سنوات، كنتُ أعد خمسة عشرًا رغيفًا بنصف منٍّ[(٤)] من الدقيق، ولم يكن الشيخ يأكل منها أكثر من

---

(١) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٥٢ ص٤٢٠.

(٢) السبكي: طبقات الشافعي الكبرى ج٣ ص١٥٥.

(٣) نفس المصدر ج٣ ص١٥٥.

(٤) المَنّ: كيل أو ميزان قَدْرُه رطلان، والجمع أمنان. (راجع: الجوهري: الصحاح ج٦ ص٢٢٠٧، وابن منظور: لسان العرب ج١٣ ص٤١٩).

رغيف واحد، وحَدَثَ أن ترك بعضه في بعض الأوقات.

وحين مرض قال الأطباء: لا مرض عنده وعلاجه الغذاء، وجاهدنا معه كثيرًا أن يشرب جرعة باردة، ولم يفعل، ومن هيبته لم نجرؤ على قول شيء له، وجمع أبو الفتح المريدين، وقال لهم: تشفّعوا لديه حتى يأكل شيئًا، فذهبوا مُلِحِّين، فقال لهم: بحق الصحبة دعوني في حالي ولا تضايقوني، فأنا أريد أن أكون جائعًا حين أصل إلى الله تعالى، فقالوا: يقول أبو الفتح من شفقته عليك، فقاطعهم قائلًا: أبو الفتح لا يعلم ما فيه خيري، وأنا أتجهز هذه الساعة لرؤية الله تعالى، وبعد هذه الحادثة عاش سنة، ولم يكن يأكل في اليوم أكثر من زنة عشرة دراهم من الطعام.

قال الشيخ: طلبت من الله تعالى ألّا يكون عندي شيء حينما أصله، وألّا يكون معي شيء ينبغي أن يأخذه مخلوق، وألّا يكون على جسدي لحم قط.

قال عبد الرحيم: ولمّا مات الشيخ كانت هذه الخصال الثلاثة فيه، وحين مات كان قد مرَّ سبعة عشر يومًا لم يذهب إلى جوفه طعام، وكانت رائحة الطيب تنبعث من فمه وعبق ما حوله بالعطور، وقلتُ لرفاقي: ما الأمر؟! وكانوا هم أيضًا في دهشة.

قال الشيخ: إذا سمعتم حي على الصلاة، ولم تجدوني في الصف الأول من المسجد فاطلبوني في المقابر.

قال عبد الرحيم: حينما وَدَّعَ الشيخ الدنيا كان قد مرَّ عليه عام وأربعة شهور لم يمدد ساقيه، وحينما كان الشيخ في النزع كنتُ مع بعض المريدين إلى جوار فراشه، وكان يقول لنا: قولوا: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله حقًا وصدقًا، وظلّ يقول هذا حتى لفظ أنفاسه.

وكان قد أوصى أن يُصَلِّي عليه أبو بكر العلاف، فإن كان غائبًا فأبو علي الفقيه الشافعي، فإن كان غائبًا فأبو علي الإمام.

وحين مات غُسِّل في الحال، وصلى عليه أبو بكر العلاف، وأحكموا الخشبة التي أرقدوا فيها الشيخ بأوتاد حديدية، وجلس حسن بدويه - الذي كان رئيسًا للقصّابين وكان يخدم المشايخ كثيرًا كما كان رجلًا شديد البأس- على رأس نعش الشيخ، حتى يمنع الناس عن النعش خشية أن يمد أحدهم يده إلى كفن الشيخ.

كما أحاط أصدقاء حسن بدويه من القصّابين ذوي البأس بالنعش، وكانوا يذودون الناس عنه، وتناوب الخلق السَّيْرَ في الجنازة، حتى لا تَحْدُث فتنة واضطراب، وحول جماعة القصّابين وقف جمع الفرسان من أجل دفع العامة، وحملوا نعش الشيخ إلى المُصَلَّى ووضعوه فيه.

وتقدّم أبو بكر العلاف في البداية فصلى عليه كما أوصى، ثم أبو علي الخلوقي، ثم أبو إسحاق الذي كان نقيبًا للعلويين، ثم أبو علي إمام المسجد الجامع، وكل منهم صلى عليه في خلق كثير.

ثم أخذ الناس يتقدمون جماعة جماعة، وكل منها يؤمها إمام فيصلون عليه، حتى صلوا عليه مائة مرة، وحضر جنازته اليهود والنصارى والمجوس، وكل صلى عليه صلاة دينه، وتَيَسَّرَ كل هذا في ساعتين من النهار، فتعجب الناس وقالوا: كنّا نظن أن لا يتيسر طوال اليوم.

وقال محمد الحصري: رأيتُ الشيخ في النوم فسألته: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، ولكل من صلى عليّ، إلّا أهل الكتاب والمبتدعة.

وقد تُوفي الشيخ في الثالث والعشرين من رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة، وكان له من العمر خمس ومائة من السنين، ويقول أبو القاسم الصفار: كان له أربع عشرة ومائة سنة من العمر، وسُئل: كيف علمتَ هذا؟ قال: لقد رأيتُ مولده وحسبتُ عليه، أمّا القول الآخر: إنّه سمعه من أمّه حين كانت حية ثم حسبوا عليه حين مات الشيخ، نوّر الله قبره

وبرّد مضجعه ورضي عنه»[1].

ويذكر فريد الدين العطار هذه الرواية عندما قاربتْ ابن خفيف الوفاة فيقول: «يُروى أنه لمّا قارب الوفاة قال للخادم: لقد كنتُ عبدًا عاصيًا هاربًا، فضع غلًّا في رقبتي وقيدًا في قدمي ووجهني نحو القبلة وأجلسني لعله يقبلني، وبعد الوفاة همَّ الخادم بتنفيذ الوصية فهتف به هاتف: احذر أيها الجاهل ولا تفعل، أتريد أن تذلّ من أعززناه»[2].

ثانيًا: مكانته وثناء العلماء عليه:

لقد كان ابن خفيف ضمن هؤلاء الصوفية الكبار الذين حصل الاتفاق من جميع الطوائف على إمامتهم وعلو مقامهم ورسوخ أقدامهم في العلوم التي تصدّوا لها سيّما علم التصوف، والذي يُعَدُّ ميدان تخصص ابن خفيف الأول.

على أنّ هذا الاتفاق لم يكن من مؤرخي وكتّاب الطبقات والمترجمين فقط، بل نعجب حينما نجد هذا الاتفاق قد دخل فيه من اشتهروا بعداوتهم للصوفية، أو على الأقل عدم قبولهم، مثل ابن تيمية وابن القيم والذهبي وابن كثير وأضرابهم الذين ينتسب إليهم السلفية المعاصرون ويعتبرونهم - دون غيرهم - مشايخ الإسلام وأئمة الدين.

ولا مانع هنا من أن نذكر بعضًا من الشهادات التقديرية من الصنفين، والتي تجتمع في النهاية على الإقرار بمكانة ومنزلة الشيخ الكبير.

ونبدأ بأقدم المصادر المُتَرْجِمة لابن خفيف وهو السلمي في «طبقات الصوفية» حيث يقول عنه: «أبو عبد الله محمد بن خفيف، شيخ المشايخ في وقته حالًا وعلمًا وخُلقًا، وأسند الحديث»[3].

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٦١:٢٦٤، وراجع: ابن عساكر: تاريخ مدينة دمشق ج٥٢ ص٤١٩، ٤٢٠.

(٢) العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢٢١.

(٣) السلمي: طبقات الصوفية ص٣٤٥.

ويأتي بعده القشيري ليقرر أنّ ابن خفيف «هو شيخ الشيوخ وواحد وقته»(١).

ويقول الهجويري: «ومنهم – أي الصوفية – مالك وقته في التصوف، والخالي طبعه من التكلّف والتصرّف، أبو عبد الله محمد بن خفيف رضي الله عنه، كان إمام زمانه في مختلف العلوم، وذا شأن عظيم في المجاهدات، وبيان شافٍ في الحقائق، وعهد مهيأ وواضح في التصانيف، وقام بأسفار طيبة على التجريد»(٢).

ويقول عنه جنيد الشيرازي: «هو خاتم الصوفية من السلف، ومرجع الصوفية من الخلف، وهو شيخ الشيوخ، وإمام أهل النحلة...وهو مقبول الأوائل متبوع الأواخر»(٣).

وقال عنه ابن العماد: «محمد بن خفيف أبو عبد الله الشيرازي: شيخ إقليم فارس، وصاحب الأحوال والمقامات»(٤).

ويقول عنه فريد الدين العطار: «هو مقرب الأحدية، ومقدس الصمدية، هو ربيب الحضرة ومختار الله، هو المحقق اللطيف، قطب الوقت، أبو عبد الله محمد ابن خفيف رحمه الله، كان شيخ مشايخ عهده، أوحد زمانه، وكان قدوة في علوم الظاهر والباطن، ورجع إليه أهل الطريقة في ذلك الوقت، وحظي ببصيرة عظيمة وذكاء حاد واحترام وفير، وفضائله لا تحصى ولا يمكن ذكرها، كان مجتهدًا في الطريقة، وله فيها مذهب خاص، وتدين له جماعة من الصوفية بالولاء»(٥).

ويقول عنه ابن السبكي: «شيخ المشايخ، وذو القدم الراسخ في العلم والدين، كان سيدًا جليلًا وإماما حفيلًا، يستمطر الغيث بدعائه، ويؤوب المُصِّر بكلامه، مِن أعلم

(١) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص١٤٠.

(٢) الهجويري: كشف المحجوب ج١ ص٣٧٠.

(٣) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٣٨.

(٤) ابن العماد: شذرات الذهب ج٤ ص٣٨٦.

(٥) العطار: تذكرة الأولياء ج٢ ص٢١٣.

المشايخ بعلوم الظاهر، وممّن اتفقوا على عظيم تمسكه بالكتاب والسنة، وكانت له أسفار وبدايات وأحوال عاليات ورياضات، لقى من النسّاك شيوخًا، ومن السلّاك طوائف رسخ قدمهم في الطريق رسوخًا، وصحب من أرباب الأحوال أحبارًا وأخيارًا، وشرب من منهل الطريق كاسات كبارًا، وسافر مشرقًا ومغربًا، وصابر النفس حتى انقادت له فأصبح مبنى الثناء عليها معربًا، صبر على الطاعة لا يعصيه فيه قلبه، واستمرار على المراقبة شهيده عليه ربه، وجنب لا يدرى القرار، ونفس لا تعرف المأوى إلا البيداء ولا المسكن إلا القفار»[1].

وينقل جنيد الشيرازي في «شد الإزار» هذه الشهادات لبعض معاصري ابن خفيف فيقول: «قال عبد الله بن الحسين حين وصف عنده الشيخ: وما عسى رأيتم أنتم من مكانه، والله لقد رأيتُ أبا عبد الله في ابتداء أمره وقد تصوّف منذ سنين يقصده الشيوخ بأسرهم، ففيهم مَنْ كان نعله معلقًا بأصبعه يمشي إليه حافيًا، وكان يقول هو ويسمعون، وقال جعفر الخلدي وقد طالع بعض مصنّفات الشيخ: علمه دقيق، وإشاراته لطيفة، ورمزه مفهوم، قد خالطه علوم الظواهر، وقد قيّد كلامه بنصوص الآيات ومشاهير الأخبار وسيبلغ مراده على ما تبين لي من علمه، وقال أبو عبد الله الشوّاء فيه: كلامه جواهر العلم، وعلومه ممزوجة بالحكمة، وروي أنّ الشيخ أحمد بن يحيى كان جالسًا مع أصحابه يدارسهم، فَعَبَرَ به الشيخ، فقال أحمد: إنّ هذا الأمر لا يُختم إلا بأبي عبد الله، وروي عن الشيخ جعفر الحذّاء أنّه مرَّ به يومًا فنظر إليه وقال: يذهب التصوف من فارس مع هذا الغلام، وقال أبو الحسن أحمد بن محمد بن حكيم الحكيمي القاضي فيه: إنّ أبا عبد الله رجلٌ مُوَفَّق في أمره، محبوب من بين أصحابه، إذا قُرِن بالأوائل ضاهاهم، وإذا نُظِر في علومه وازاهم، فهو محسود في جميع أموره، وقال أبو بكر الإسماعيلي الجرجاني فيه: ذاك شيخ يبلغني عنه حسن سَمْتٍ، قد سلك منهج الشيوخ واحتذى حذوهم، واستطرق طريقهم، له حكم

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ج٣ ص١٤٩، ١٥٠.

قد سطرها في دواوينه وألَّفها في كتبه، يُفرح بمثله ويُفتخر بعلمه، وقال الحافظ أبو نعيم عند ذكره: كان شيخ الوقت علمًا وحالًا، وقال الشيخ أبو عبد الرحمن السلمي في كتابه المسمى بـ«تاريخ الصوفية»: هو اليوم شيخ المشايخ وتاريخ الزمان، لم يبقَ للقوم أقدم منه سنًا ولا أتم حالًا ووقتًا، وهو من أعلم المشايخ بعلوم الظاهر، متمسكًا بعلوم الشريعة من الكتاب والسُّنة، وهو فقيه على مذهب الشافعي، وفي «المرقاة الأرفعية في طبقات الشافعية» لشيخنا الفيروزآبادي: هو شيخ المشايخ والسيد الذي يُرجى الرحمة بذكره»[1].

ويقول عنه السمعاني: «أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، سيد من سادات أهل فارس في التصوف وعلم الإشارات والمعرفة، وكان إمامًا مرضيًّا صاحب كرامات، وأحواله وحكاياته مشهورة مستورة»[2].

ويقول عنه ابن بطوطة: «الشيخ أبو عبد الله بن خفيف، كبير القدر في الأولياء، شهير الذكر»[3].

هذه شهادات وكلمات قليلة من المترجمين والمؤرخين تدل على مكانة ابن خفيف ومنزلته.

وكذلك من شهادات التقدير التي ذكرها الفريق المشهور عنه هجومه على الصوفية نذكر ما يلي:

يذكر ابن تيمية ابن خفيف في مواضع كثيرة من كتبه:

فمرة يذكره ابن تيمية بأنّه من شيوخ الدين الناقلين عن السلف فيقول: «وكذلك شيوخ

(١) جنيد الشيرازي: شد الإزار ص٣٩: ٤١.

(٢) السمعاني: الأنساب ج٨ ص٢٢١.

(٣) ابن بطوطة: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار ج١ ص٢٢٣ (بتحقيق: الشيخ محمد عبد المنعم العريان، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار إحياء العلوم - بيروت).

أهل الدين، مثل الفضيل بن عياض، وبشر الحافي، وأحمد بن أبي الحواري، وسهل بن عبد الله التستري، وعمرو بن عثمان المكي، والحارث المحاسبي، ومحمد بن خفيف الشيرازي، وغير هؤلاء»[1].

ومرة يجعله من الشيوخ المشهود لهم بالتَّبَرُّأ من المذاهب الباطلة فيقول: «وشيوخ التصوف المشهورون مِن أبرأ الناس مِن هذا المذهب، وأبعدهم عنه، وأعظمهم نكيرًا عليه وعلى أهله، وللشيوخ المشهورين بالخير، كالفضيل بن عياض، وأبي سليمان الداراني، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وعمر بن عثمان المكي، وأبي عثمان النيسابوري، وأبي عبد الله بن خفيف الشيرازي، ويحيى بن معاذ الرازي، وأمثالهم من الكلام في إثبات الصفات والذمّ للجهمية والحلولية ما لا يتسع هذا الموضع لعشره»[2].

ومرة ثالثة يذكره من ضمن الشيوخ الأكابر الذين هم على مذهب السُّنة والحديث، فيقول: «والشيوخ الأكابر الذين ذكرهم أبو عبد الرحمن السلمي في طبقات الصوفية، وأبو القاسم القشيري في الرسالة كانوا على مذهب أهل السُّنة والجماعة ومذهب أهل الحديث، كالفضيل بن عياض، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وعمرو بن عثمان المكي، وأبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، وغيرهم، وكلامهم موجود في السُّنة وصنّفوا فيها الكتب»[3].

ومرة رابعة يذكره ابن تيمية بلفظ «الإمام» ويقتبس من كتبه كلامًا، فيقول: «وقال الإمام أبو عبد محمد الله بن خفيف في كتابه الذي سماه «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء

---

(١) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ج٦ ص٣٦٦ (بتحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية سنة ١٩٩١م، جامعة الإمام - السعودية).

(٢) ابن تيمية: درء تعارض العقل والنقل ج٥ ص٤، ٥.

(٣) ابن تيمية: الصفدية ج١ ص٣٦٧ (بتحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٦هـ مكتبة ابن تيمية - القاهرة).

والصفات»، فقال في آخر خطبته»[1]، ونقل كلامًا كثيرًا لابن خفيف في مسألة الصفات وغيرها.

ويذكره مرة خامسة مع جماعة من الصوفية ويترضّى عنهم، فيقول: «وإنّ شيوخ الصوفية الكبار كالفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، وعمرو بن عثمان الشبلي، والجنيد بن محمد، وسهل بن عبد الله التستري، وأبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي، ونحوهم رضي الله عنهم»[2].

وجاء بعد ابن تيمية تلميذه ابن القيم، فذكر الشيخ الكبير ابن خفيف بضع مرات في كتبه مستشهدًا بأقواله، فيقول: «قول أبي عبد الله محمد بن خفيف إمام الصوفية في وقته رحمه الله»[3].

ويذكر ابن القيم أقوال ابن خفيف مع غيره من سادات الصوفية تحت عنوان: «أقوال الزهاد والصوفية أهل الاتباع وسلفهم»[4].

ويقول ابن كثير: «محمد بن خفيف أبو عبد الله الشيرازي أحد مشاهير الصوفية»[5].

والواقع أنّ هذه النظرة من أئمة الاتجاه السلفي إلى هؤلاء الأعلام الكبار نظرة صحيحة؛ لأنّ هؤلاء الأعلام بالفعل ممثلون لمدرسة التصوف «التي تميزتْ بالمعرفة الكاملة الصادقة النابعة من الكتاب والسُّنة، لم تتفرّق بها السُّبل، ولم تجنح بهم بها الأشواق والأذواق، فلم تعترف أبدًا بالسبحات الفلسفية، والشطحات المترنّحة، والكلمات

---

(١) ابن تيمية: الفتوى الحموية الكبرى ص٤٠٣ (بتحقيق: حمد بن عبد المحسن التويجري، الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٤م، دار الصميعي - الرياض)، وراجع: ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج٥ ص٧١.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى ج١٢ ص٣٥٣.

(٣) ابن القيم: اجتماع الجيوش الإسلامية ص١٧٦ (الطبعة الأولى سنة ١٩٨٤م، دار الكتب العلمية - بيروت).

(٤) نفس المصدر ص١٦٩.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج١١ ص٣٤٠.

الغامضة التي تسربتْ إلى الأفق الصوفي، وحاولتْ أن تنتسب إليه، وأن تتستر بأشواقه وأذواقه»[1].

وإنّا نهمس في آذان إخواننا من السلفية المعاصرين أن يرجعوا إلى كلام مشايخهم في الحديث عن الصوفية حديثًا مُنْصِفًا؛ ليعرفوا أيّ فريق يستحق الهجوم، وأيّ فريق يستحق التقدير، بدلًا من موجات الهجوم الجاهلة التي لا مبرر ولا سند لها.

(١) مقدمة اللمع لأبي نصر السراج الطوسي ص٩ (بتحقيق: الإمام الأكبر د/ عبد الحليم محمود، مكتبة الثقافة الدينية، سنة ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م).

الفصل الثاني
التعريف بكتاب «الاقتصاد» لابن خفيف

ويشتمل على خمسة مباحث:-

- المبحث الأول: مضمون الكتاب وقضاياه الأساسية.
- المبحث الثاني: منهج ابن خفيف في الكتاب.
- المبحث الثالث: دراسة مسائل الكتاب.
- المبحث الرابع: تحقيق نسبة الكتاب لمؤلفه، ومبررات إعادة التحقيق، ومنهج التحقيق.
- المبحث الخامس: وصف النسخ الخطية، ونماذج منها.

المبحث الأول
مضمون الكتاب وقضاياه الأساسية

باعتبار أنّ هذا الكتاب هو منهج للسالكين للمريدين، خاصة في مراحل البدايات، فقد جاء مضمونه مركزًا على عدة أوامر وتكليفات لا بد أن يلتزمها المريد بالتنفيذ والامتثال الكامل، وكذلك عدة نواهٍ وتحذيرات يجب على المريد تجنبها والانتهاء عنها تمامًا، وهذه النواهي تمثل جانب التخلية، وتلك الأوامر تمثل جانب التحلية.

وبين التخلية ونواهيها وبين التحلية وأوامرها ومقتضاها يدور هذا الكتاب برمته.

❁ **أولًا: التخلية**: وإنّما بدأنا بها جريًا على المنهج الصوفي المعروف أنّ التخلية قبل التحلية.

والتخلية كما هو معلوم: معنى يدور حول تطهير النفس من رذائلها، وصفاتها المذمومة؛ حتى تصير قابلة للصفات المحمودة، ومستعدة لإشراق نور الله تعالى عليها.

فالتخلية تشبه تمامًا حرث الأرض وتمهيدها وتنقيتها من شوائبها الضارة، حتى تكون مؤهلة لاستقبال البذرة الطيبة لتخرج ثمراتها بإذن ربها.

وقد اهتم الشيخ الكبير في كتاب «الاقتصاد» بمسألة التخلية اهتمامًا بالغًا، فأحاط سلوك المريد بسياج من التحذيرات الشديدة التي إن راعاها واحتاط لها وكان منها على حذر تطهرتْ نفسه وزكتْ، واستعدتْ لقبول التحلية بعد ذلك.

وقد عقد الشيخ الكبير ما يزيد على خمسة عشر فصلًا في بيان العقبات والتحذير من الآفات التي قد تعترض المريد أثناء سيره، وأهم تلك الآفات والعقبات ما يلي:

❁ **آفة الرياء**: والرياء نقيض الإخلاص، وهو مراعاة الخلق وطلب رضاهم، وهي آفة

قادحة في الإخلاص؛ لذلك حذّر منها ابن خفيف في الفصل الثاني والعشرين.

❁ **آفة الاغترار بالشهرة ومحبة ثناء الناس:** وفيها يُحَذِّر ابن خفيف المريد من الانشغال بالخلق ونسيان الخالق، بل يجب عليه أن يُخرج الخلق من قلبه بالكلية ويلزم الإخلاص والصدق مع ربه، وقد تناول ابن خفيف هذه الآفة في الفصل السابع والعشرين.

❁ **آفة التَّصَنُّع والتَّكَلُّف طلبًا للذكر الحسن عند الخلق:** وهذا موضوع الفصل الثاني والثلاثين.

❁ **آفة ادّعاء التوكل في أمور معيشته:** حيث يُحذّر ابن خفيف المريد من الادعاء وعدم الصدق في أموره كلها، ومنها كسبه ومعيشته، وهذا موضوع الفصل السادس والثلاثين.

❁ **آفة مخالطة الأدعياء:** حيث يُبيِّن ابن خفيف للمريد أوصاف هؤلاء الأدعياء بالتفصيل، ثم يحذّر المريد من الركون إليهم؛ لأنّهم يقطعون عليه طريقه ويفتنونه في دينه، ويجعل هذا موضوع الفصل السابع والثلاثين.

❁ **آفة الفتور والقعود عن الأحوال السَّنِيَّة:** ويبيّن ابن خفيف هذه الآفة موضحًا أنّها قد تعرض للعامل في أي عمل وكذلك للصوفي، لكن ينبغي على الصوفي أن يحذر من عدم الاعتراف بتقصيره، وعدم رغبته في التوبة منه، أو يظهر أنّه ما زال سائرًا على صفاته السابقة وعهده الأول، ويجعل ابن خفيف تلك الآفة موضوعًا للفصل الحادي والأربعين.

❁ **آفة التَّصَدُّر وطلب الرئاسة:** يحذّر الشيخ الكبير المريد من الوقوع في هذه الآفة؛ لأنّها تؤدي بالمريد إلى عواقب وخيمة من الانشغال بالناس وترك الانشغال بالله تعالى، كذلك قد تَجُرُّه إلى الوقوع في العلماء والخوض في المشايخ تحقيقًا لرغبته في التصدّر والرئاسة، وهذا موضوع الفصل الثاني والأربعين.

❁ **آفة مخالطة أهل المراء والجدل وأهل الأهواء والبدع:** يتناول ابن خفيف هاتين

الآفتين في فصلين متتاليين، هما الفصل الخامس والأربعون والفصل السادس والأربعون، فيحذّر المريد أولًا من مجالسة أهل المراء والجدال وألا يَغْتَرّ بفصيح كلامهم وبليغ عباراتهم، وفي الفصل الذي يليه يحذّره تحذيرًا شديدًا من مخالطة أهل الأهواء والبدع، ويسميّهم كسابقيهم «الموسوسين».

هذه هي أهم الآفات التي حذّر ابن خفيف المريدَ منها صيانه لنفسه وحفاظًا على طريقه وحيطة لدينه.

وابن خفيف يريد أن يؤكد أنّ المريد إذا وُفِّقَ للحذر من تلك الآفات، وخَلَّصَ نفسه من شوائبها، وطَهَّرَ قلبه من أدرانها، فإنّه بذلك يكون قد مهّد أرض قلبه وتربة نفسه لأن تهطل عليها أمطار التحلية بالصفات الحسنة والأحوال المَرْضِيَّة، فإذا نزلتْ عليها اهتزتْ ورَبَتْ وأنبتتْ من كل زوج بهيج.

وبعد هذه التخلية تأتي التحلية التي هي موضوع النقطة التالية.

❁ **ثانيًا: التحلية**: والمقصود بالتحلية - كما هو معلوم - التحلي بالصفات المحمودة، والتخلق بالأخلاق الفاضلة، والاتصاف بالأحوال الكاملة؛ لأنّ المريد بعد أن تَطَهَّرَ من الرذائل وتخلى عنها، وجب عليه أن يَتَّصِفَ، بالفضائل ويتحلى بها.

وكما اهتم الشيخ الكبير بجانب التخلية، وحذّر المريد من الآفات التي تمنعه من الوصول إلى مبتغاه والترقي في طريق الله تعالى، كذلك اهتم اهتمامًا بالغًا بجانب التحلية وبَيَّنَ للمريد عددًا من الأوصاف والأعمال والأحوال والواجبات التي يجب أن يلتزم بها، وكان من أهم هذه الواجبات ما يلي:

١- وجوب طلب الشيخ والأخذ على يديه: ويعقد لهذا الفصل الأول من فصول كتاب «الاقتصاد» مبيّنًا أنّه يجب على المريد أن يقصد إلى شيخ حكيم عارف مؤتمن على

دينه، معروف بالنصح لأمته، قد اجتاز طريق الصوفية فعليًا، فيلجأ إليه المريد ويطيعه طاعة تامة ليأخذ بيديه خطوة بعد خطوة، ومرحلة إثر مرحلة في الطريق الصوفي.

٢- وجوب التوبة: ويتناولها ابن خفيف في فصلين، ففي الفصل الخامس يوجب ابن خفيف على المريد معرفة التوبة من المخالفات التي لا يخلو منها العباد بعد دخولهم في الإيمان، وتعَدّ هذه التوبة توبة العوام.

ثم يتناولها مرة أخرى في الفصل السابع؛ ليبين حقيقة التوبة وكيفيتها، وهي باختصار: ترتيب الموافقات بمفارقة ترتيب المخالفات، أي: استبدال المخالفات السابقة بموافقات شرعية.

٣- وجوب المعرفة: الأمور التي يجب على المريد معرفتها كثيرة ومتنوعة، ولذلك اهتم ابن خفيف بالمعرفة وتناولها في عديد من فصول الكتاب بلغت أربعة فصول.

ففي الفصل الثاني: يوجب على المريد معرفة الإيمان وما يلزمه من صحة الاعتقاد.

وفي الفصل الثالث: يوجب على المريد معرفة أنّ الأعمال من الإيمان وأنّ الأعمال تشمل الفرض والنفل.

وفي الفصل الرابع: يوجب على المريد معرفة أسماء أصول الدين المذكورة في حديث جبريل عليه السلام الذي وضّح فيه الإسلام والإيمان والإحسان.

وفي الفصل السادس: يوجب على المريد معرفة ما قد يُخرج المؤمن من الإيمان بعد الدخول فيه.

٤- وجوب تَعَلُّم العلم النافع: ويجعل ابن خفيف الحديث عن العلم في فصلين متتالين، هما الفصل الحادي عشر والفصل الثاني عشر، وفيهما يوجب على المريد تَعَلُّم العلم النافع له في طريقه المفيد له في تَرَقِّيه أثناء السير والسلوك.

وذكر ابن خفيف نوعين من العلم ينفعان المريد في بداية أمره، وهما علم الزهد وعلم الورع، ثم حذّر ابن خفيف المريد تحذيرًا شديدًا من تعلّم العلم الذي لا ينفعه في طريقه؛ لأنّ ذلك قد يجره إلى الفتور والانقطاع.

٥- وجوب معرفة النفس وكيفية سياستها: اهتم الشيخ الكبير بمسألة النفس اهتمامًا كبيرًا فعقد لها مجموعة من الفصول هي الفصل الثامن، والتاسع، والخامس والعشرون، والثالث والأربعون.

ففي الفصل الثامن يوجب الشيخ الكبير على المريد أن يعرف نفسه، وأن يقف على حقيقتها وأوصافها، ويتيقن من عداوتها، فلا يغفل عن مراقبتها وحراستها.

وفي الفصل التاسع يوجب ابن خفيف على المريد أن يُرَوِّض نفسه ويسوسها بطول الاجتهاد وكثرة الأوراد كالصوم والتقلّل من الزينة في اللباس والطعام ومداومة الذكر والاستغفار بالليل والنهار.

وفي الفصل الخامس والعشرين يوجب ابن خفيف على المريد إذا جمحتْ نفسه أن يكبح جماحها وأن يقهرها، وذلك بمنعها من الفضول في كل شيء كالطعام والشراب والملبس والكلام، وذلك طريق نافع في تزكيتها.

وفي الفصل الثالث والأربعين يوجب ابن خفيف على المريد أن يزيد في العناية بنفسه وسياستها وترويضها حتى ولو وصل في الطريق إلى أعلى درجة، وحتى لو وصل في المعرفة إلى أقصى غاية، فإنّه مهما عَلَتْ درجته وتناهت مكانته، يحتاج إلى سياسة نفسه، وتزكيتها، وعدم إهمالها وتدسيتها.

٦- وجوب اتصاف المريد بأعلى الصفات وأجلّ المقامات: يوجب ابن خفيف على المريد أن يجتهد في اكتساب معالي الأمور وترك سفاسفها، وأن يَجِدَّ في طلب الأحوال

العالية والمقامات السامية، فيجعل الحديث عن ذلك في أربعة فصول، هي: الفصل الرابع والعشرون، والثلاثون، والرابع والثلاثون، والرابع والأربعون.

ففي الفصل الرابع والعشرون يوجب ابن خفيف على المريد إذا خُيِّر بين أمرين أن يختار أصعبهما على النفس؛ لأنّ فيه الحق وفي خلافه الباطل، ويضرب عدة أمثلة على ذلك.

وفي الفصل الثلاثين يذكر ابن خفيف مقامًا عاليًا من مقامات السالكين، وهو مقام الصبر فيوجب على المريد إن ابتُلي بأنواع المِحَن واختُبر بأصناف البلايا مهما بلغتْ شدتها - حتى ولو صُبَّتْ عليه صبًا - أن يتحلى بالصبر الجميل.

وفي الفصل الرابع والثلاثين يوجب ابن خفيف على المريد أن يتصف بمقام شريف آخر، هو مقام الصدق، فيلزمه المريد ظاهرًا وباطنًا، وَلْيَحْذَرْ حذرًا شديدًا من ادعاء أمر من الأمور وهو ليس بصادق فيه، فإنّ ذلك يجره إلى باب من أبواب النفاق.

وفي الفصل الرابع والأربعين يوجب ابن خفيف على المريد أن يتخذ حرفة يكتسب منها قوته الضروري، ولا شك أنّ في ذلك رفعة للمريد عن ذلّ المسألة والانشغال بالخلق أعطوه أو منعوه.

٧- **وجوب التحرّي عن الصحبة الصالحة**: ويتناول ابن خفيف تلك القضية الهامة في فصلين، هما: الفصل العاشر، والفصل الثامن والثلاثون.

ففي الفصل العاشر يوجب ابن خفيف على المريد أن يقتدي بأهل العزائم سواء في صحبتهم أو في طلب سيرهم، والتشبّه بأحوالهم في صدقهم ومعاملتهم لربهم.

وفي الفصل الثامن والثلاثين يوجب ابن خفيف على المريد مجالسة أهل الصلاح والصدق والرسوخ في الطريق، مبيّنًا صفاتهم التي لا بد وأن يتشبّه بها المريد فعلًا وتطبيقًا.

٨- **وجوب الحرص الشديد على الوقت واستعماله فيما ينفع دينًا ودنيا:** ويهتم ابن خفيف بتلك المسألة فيبيّنها في ثلاثة فصول، هي: الفصل الثالث والعشرون، والفصل التاسع والثلاثون، والفصل الأربعون.

ففي الفصل التاسع والثلاثين يبين ابن خفيف للمريد جملة من الأعمال الدينية والدنيوية النافعة التي ينبغي أن يشغل بها المريد وقته من طلوع الشمس إلى غروبها.

وفي الفصلين الثالث والعشرين والأربعين يبين ابن خفيف أنّ أهم الأوقات بالاهتمام وأولاها بالرعاية والعناية التامة هو وقت الليل، فيوجب على المريد أن يهتم بأوقات الليل كلها من أوله إلى آخره طلبًا لمرضاة الله تعالى، وذلك من علامات المريد الصادق، وأمّا إهمال أوقات الليل، فعلامة على عدم صدق المريد، ثم يبيّن أنّ أهم أوقات الليل هو وقت السحر، حيث نزول الله ﷻ يغفر للمستغفرين، ويجيب حاجات السائلين.

٩- **وجوب معرفة الإخلاص واستعماله وتطبيقه تطبيقًا تامًا:** الإخلاص هو أهم قضية من قضايا هذا الكتاب، فهي أكبرها كمًا وهي أكثرها تفصيلًا وشرحًا، بحيث إذا اخترنا قضية واحدة تعبّر عن مضمون هذا الكتاب كله كانت تلك القضية هي الإخلاص، فهو مركز الكتاب الذي عليه يدور ومحوره الذي عليه يرتكز.

وقد اهتم الشيخ الكبير ببيان تلك القضية فذكرها في ثمانية فصول كاملة هي الفصل الثالث عشر، الرابع عشر، الخامس عشر، السادس عشر، السابع عشر، الثامن عشر، العشرون، والحادي والعشرون.

ففي الفصل الرابع عشر: يبيّن ابن خفيف أنّ الإخلاص واجب في جميع أعمال العبد واعتقاداته، وهو أوجب ما يكون في التوحيد، أي: اعتقاد العبد إفراد الله تعالى بكمال ما أخبر به عن نفسه من أوصاف وأسماء ممّا جاءت به الأدلة الشرعية في الكتاب والسنة.

وفي الفصل الخامس عشر: يتناول ابن خفيف كيفية تحقيق الإخلاص في العبادات،

ومعناه هنا: تصفية الأعمال من ذكر الخلق ورؤيتهم، فلا يتحقق الإخلاص في العبادة إلا بإزالة المخلوقين وإسقاط المربوبين.

وفي الفصل السادس عشر: يبين ابن خفيف للمريد طريقًا من طرق تعلم الإخلاص وهو تفقد حال المشايخ والاقتداء بأحوالهم والانتفاع بأعمالهم.

وفي الفصل السابع عشر: يبين ابن خفيف نماذج من استعمال الإخلاص، في العادات حتى تصير عبادات، فيضرب مثالًا بالطعام.

وفي الفصل الثامن عشر: يضرب للإخلاص مثالًا باستعماله في الضروريات التي لا بد منها فتصير عبادات، وهذا المثال هو الإخلاص في استعمال اللباس.

وفي الفصل الفصل العشرين، والحادي والعشرين: يتناول ابن خفيف قضية الإخلاص في طلب العلم، وتعلّمه ثم في إظهار العلم ونشره، فيكون طلبه للعلم في أول أمره، ابتغاء وجه الله تعالى؛ وطلبًا لتصحيح عبادته وسائر أحواله مع ربه.

وإذا أراد نشر العلم، فإنّه يكون لله خالصًا أيضًا، لا لطلب الدنيا وأغراضها.

وبهذا يتم جانب التحلية، وهو مع جانب التخلية يمثلان مضمون الكتاب وفحواه.

المبحث الثاني
منهج ابن خفيف في الكتاب

إنّ المنهج في معناه العام يعني: الطريقة التي يسير عليها الباحث في تخصص ما، ليصل إلى نتائج ما في ذلك التخصص، ويكون لهذه الطريقة معالم محددة.

ومن خلال قراءتنا لكتاب «الاقتصاد» للشيخ الكبير استطعنا أن نقف على بعض النقاط التي يمكن اعتبارها معالم منهج ابن خفيف في كتابه، وأهم تلك المعالم ما يلي:

١- **الاختصار المفيد:** لقد شَرَطَ ابن خفيف على نفسه في بداية كتابه أن تأتي مسائله وقضاياه مختصرة لينتفع به من أَلَّفَ له هذا الكتاب في الأساس، وهو: المريد في مرحلة البداية.

يقول ابن خفيف: «هذا كتاب اختصرته للمُبْتَدِئ من المريدين ممّا لا بُدَّ لهم من معرفة جُمَل علوم المتصوِّفة، وأخرجته على الاختصار دون الإكثار، لِيَقِفُوا على أصل المذهب، ويجعلوا ذلك ذريعة منهم إلى البحث عن فنون ما صنّفوا وكشفوا من لطيف إشاراتهم وسَنِي عباراتهم»[(١)].

ونعلم من هذا النص أنّ الشيخ الكبير أراد أن يضع قواعد مختصرة لجملة من علوم الصوفية يأخذ بها المريد في حال بدايته؛ لأنّ هذا هو المناسب لحاله، ولكن الشيخ الكبير لا يريد للمريد أن يقتصر عليها، بل يريد أن يكون هذا المختصر نقطة البداية له؛ لينطلق منها إلى البحث عن علوم الصوفية وأحوالهم وأقوالهم في مصنفات أخرى.

والواقع أنّ ابن خفيف قد وَفَّى بهذا الشرط تمامًا، فقد جاء كتابه مختصرًا مفيدًا، ولم

(١) راجع النص المحقق ص٢٨٢.

يكن الاختصار مخلًا بل جمع كل ما يحتاجه المريد وكل ما يلزم المبتدئ من علوم الصوفية بعبارة مختصرة.

وبنظرة عابرة في كتاب «الاقتصاد» نرى أنّ كل قضية تناولها الشيخ الكبير قد أوضحها فعلًا وذكر معظم ما تحويه بلفظ مختصر، وإن كنا قد وجدنا نفس القضية في كتب أخرى لعلماء آخرين قد ذُكرت بإسهاب وتطويل.

والواقع أنّنا نرجّح أنّ ابن خفيف قد اتخذ منهج الاختصار سمة لمصنفاته، ويدعونا إلى هذا التّرجيح أنّ الكتب التي عثرنا عليها لابن خفيف ذات حجم صغير سواء ما تم طباعته منها[1]، أو الذي لا يزال مخطوطًا، وسواء ما كُتب منها باللغة العربية أو بالفارسية[2]، فكلها تنحو نحو الاختصار.

وقد وفقنا الله تعالى إلى تحقيق ونشر كتاب ابن خفيف في العقيدة، وهو «المعتقد الصغير»، أو «رسالة المعتقد»، ولاحظنا هناك تلك الملاحظة، فقد جاء كتابه صغير الحجم، لكنّه عظيم الفائدة؛ حيث جمع كل أصول الدين على مذهب أهل السنة بلفظ ملخص وعبارة مختصرة.

وكتابنا الذي بين أيدينا الآن - «الاقتصاد» - قد حوى كل موضوعات التصوف النافعة للمريد في بدايته باختصار - غير مخلّ -، فخير الكلام ما قلّ ودلّ.

٢- الإلزام والتقرير وليس التهاون أو التخيير: ونعني بهذا الملمح أو المَعْلَم المنهجي عند ابن خفيف في كتاب «الاقتصاد» أنّ هذه الجُمَل من القواعد التي ضَمَّنَها في كتابه يلزم المريد أن يأخذ بها، ويُشدد عليه ابن خفيف أن يعمل بها، وليس هناك مجال للتهاون فيها،

(١) كالمعتقد الصغير الذي تم نشره بتحقيقنا وصدرت طبعته الأولى سنة ٢٠٢٢م عن دار الإمام الرازي بالقاهرة.

(٢) نعكف الآن على تحقيق ما بين أيدينا من تراث ابن خفيف وعلى ترجمة ما كان منه باللغة الفارسية، ونسأل الله تعالى أن يمدنا بمدده وتوفيقه.

أو اختيار بعضها وترك بعضها إن أراد السلوك الحقيقي والوصول إلى الله تعالى، ولذلك رأينا ابن خفيف يقرر هذه القواعد على المريد بصيغة الإلزام والأمر والتقرير، سواء منها ما كان في جانب الأوامر، أو ما كان في جانب النواهي:

ففي جانب الواجبات والمأمورات يسوقها بلفظ «ويلزم المريد» أو «وعلى المريد» أن يفعل كذا.

وفي جانب المنهيات كان يسوقها بلفظ «وليحذر المريد» من كذا، ولم يشذ فصل واحد من فصول الكتاب عن هاتين الصيغتين.

والحقيقة أنّنا نستطيع أن نلتمس تعليلًا لهذا الأمر من ناحيتين:

الأولى: خاصة بابن خفيف: فابن خفيف من كبار الصوفية، وهو معدود من مشايخ زمانه، حتى غلب على شهرته أنّه «الشيخ الكبير»، وهو بهذا الاعتبار قد مرّ بالتجربة الصوفية، وسبر أغوار الطريق من بدايته إلى نهايته، فصار عالمًا بعقباته خبيرًا بدروبه ومنحنياته، فعندما يوجب على المريد واجبًا أو ينهاه عن نهي فهو عالم بمدى فائدته للمريد، فكأنّه يريد أن يفعل المريد الأمر أو يتجنب النهي بدون تردد لأنّ ذلك ينفعه في سلوكه وطريقه؛ لذلك قرره عليه وألزمه به.

الناحية الثانية: خاصة بالصوفية عمومًا: وأعني بها: أنّ من مبادئ الصوفية الأساسية التسليم للشيخ في أوامره ونواهيه، فعندما يجد المريد الشيخ بشروطه الشرعية التي حددها الصوفية ينبغي عليه أن يُسَلِّمَ له تسليمًا تامًا، ويكون هذا من علامات فلاحه حتى قال ابن خفيف: «كل من اقتدى بشيخه وصل إلى المقصود، وكل من وزن أحواله وأعماله بميزان شيخه بلغ المراد»[1].

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٠٢.

بل يشترط الكمشخانوي على المريد أن يسلم لشيخه ويوافقه ولا يخالفه، فيذكر أنّ من واجب المريد نحو شيخه خمسة أشياء: «اتباع الأمر وإن ظهر له خلافه، واجتناب النهي وإن كان فيه حتفه، وحفظ حرمته حاضرًا أو غائبًا حيًا أو ميتًا، والقيام بحقوقه بحسب الإمكان بلا تقصير، وعزل عقله وعمله ورياسته إلا ما يوافق ذلك من شيخه»[1].

وبهذا نفهم لماذا أتى ابن خفيف بصيغتين تفيدان الإلزام والتقرير؟

٣- التقدير الكامل للدليل الشرعي والاستشهاد به في كل قضية: إنّ من أهم معالم منهج ابن خفيف في كتاب «الاقتصاد» تقديره الكبير وتعظيمه الكامل للأدلة الشرعية من القرآن والسنة، فلم يَخْلُ فصل من فصول الكتاب من ذِكْر دليل أو أكثر من القرآن والسنة، وبنظرة عابرة في ثنايا الكتاب نجده قد ازدان بأنوار آيات القرآن الكريم واستضاء بأضواء أحاديث النبي ﷺ حيث تجاوزت استشهادات ابن خفيف بالآيات القرآنية خمسة وعشرين موضعًا، وبلغت احتجاجاته بالأحاديث النبوية واحدًا وستين موضعًا.

وأحيانًا يذكر الآية أو الحديث بمعناه، وأحيانًا يذكر تفسيرًا موجزًا لبعض الآيات مبيّنًا صلتها بالفكرة التي يسوقها ويريد من المريد أن يستجيب لها أمرًا أو نهيًا.

وفي هذا دلالة على أنّ التصوف السُّني هو في أساسه قائم على دعائم القرآن والسنة لا ينفك عنهما بحال من الأحوال.

٤- الجمع بين النظرية والتطبيق العملي: بمعنى أنّ ما مِن قضية ذُكِرَتْ في كتاب «الاقتصاد» إلّا وذُكِرَتْ مقرونة بكيفية تطبيقها، فيذكرها الشيخ الكبير في صورة قاعدة نظرية أولًا، ثم يردفها بكيفية تطبيقها في نقاط محددة.

ويمكن رصد هذا الجانب التطبيقي عند ابن خفيف من ناحيتين:

---

(١) الكمشخانوي: جامع الأصول في الأولياء ص٢٧، المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة، طبعة سنة ٢٠١٥م.

الأولى: تطبيقاته الشخصية للتعليمات الصوفية: بمعنى أنّ ابن خفيف لم يكن من هؤلاء المُنَظِّرين أو الفلاسفة الذين يهتمون بإرساء القواعد النظرية فقط لقضية ما، بل كل قضية أثارها ابن خفيف قد طبقها هو بالفعل أولًا في تصوفه، ثم نصح بها غيره من المريدين المبتدئين، فجاء منهجه النظري صورة لحياته الصوفية، ونستطيع أن نذكر لذلك أمثلة محددة:

- **طلب الشيخ للسلوك على يديه:** هذا أول واجب أوجبه ابن خفيف على المريد في بدايته، وهو أن يقصد إلى شيخ من أهل زمانه توافرت فيه شروط المشيخة ليسلك على يديه، وليكون له ناصحًا ومرشدًا أمينًا، يقول ابن خفيف: «فأوّل ما عليه في ابتداء إرادته أن يقصد إلى حكيم من أهل زمانه، مؤتمن على دينه، معروف بالنصح لِأُمَّته، عارف بطرق أهل إرادته، قد قطع طريق أهل نحلته، قد نازل الأحوال على حقيقته، عارف بطلب سُنَن نبيِّه ﷺ، فيُسَلِّم نفسه لِخدمته...»[1].

هذا هو الواجب النظري الذي يريده ابن خفيف، فهل طبقه ابن خفيف في حياته؟

الإجابة: نعم، بل اعتنى بأمر المشيخة اعتناءً كبيرًا، حيث - كما سبق في ترجمته - قصد إلى شيوخ عديدين وأساتذة كثيرين أخذ العلوم المختلفة على أيديهم، فكان له جملة من المشايخ في التصوف، وكان له مشايخ في الحديث، وكان له مشايخ في الفقه، وكان له مشايخ في علم الكلام، قصد إليهم وأخذ عن كل منهم ما عنده من العلم.

- **ترويض النفس بكثرة الأوراد:** لقد وضع ابن خفيف مبدأً للمريد الذي يريد أن يسوس نفسه ويروّضها، وهو أن يُكثر من الاجتهاد في العبادة، ويُكثر من الأوراد والأذكار فقال: «ثمّ على المريد بعد المعرفة بسوء أخلاقها - (النفس) - الجدّ والتّشمير في منازلة

(١) راجع النص المحقق ص٢٨٣، ٢٨٤.

الأفعال وكثرة الأوراد...»[1].

هذا أمر نظري، فهل طبقه ابن خفيف؟

الإجابة: نعم، وأمثلة اجتهاده في العبادة كثيرة، منها ما يذكره ابن خفيف من أنّ شيخه أبا عبد الله الأزرقاني دعاه ذات يوم إلى المشاركة في صلاة النوافل، قال ابن خفيف: «وإلى أن حانت صلاة العصر ربما صليتُ ألف ركعة»[2].

وفي مرة أخرى قال عن نفسه: «ربما كنت في ابتداء أمري أقرأ القرآن كله في ركعة واحدة، وربما كنت أصلي من الغداة إلى العصر ألف ركعة»[3].

وهناك أمثلة أخرى عن كسر شهوة نفسه في الطعام الضروري والملبس أيضًا.

- اتخاذ حرفة: أَمَرَ ابن خفيف المريدَ أن يتخذ حرفة يكتسب منها القوت الضروري الذي يحفظه من مذلة المسألة، فقال: «وليحذر المريد الصّادق أن لا يترك المكاسب والحرفة، وطلب ما يعود عليه من مصالح معاشه، والأخذ من الوجه الّذي ذكرتُ في أوّل المسألة، احتياطًا لدينه ونزاهة لمذهبه»[4].

هذا أحد الأوامر النظرية، فهل طبقه ابن خفيف؟

الإجابة: نعم، وقد اطلعنا أثناء ترجمة ابن خفيف على أنّه احترف عدة حرف يكسب منها قوته، مثل: صناعة الفلكات، وصناعة المغازل، والقصارة، وصناعة الأحقاق، والنسخ.

(١) راجع النص المحقق ص٣٠٥.
(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٢.
(٣) نفس المصدر ص٩٣.
(٤) راجع النص المحقق ص٤٠١.

- أمره بلزوم منهج أهل الحديث: لقد أمر ابن خفيف المريد إذا التبس عليه أمر الفِرَق ألّا يجالس أهل الأهواء والبدع بل عليه أن يلزم منهج أهل الحديث فقال: «...وعليك بمنهج أصحاب الحديث والأخذ من فقهائهم، والتعلّق بآثارهم، والبحث والطّلب عن مذاهبهم، والكشف عن صحّة رواياتهم، والنزول في أحوالهم»(١).

هذا واجب نظري أوجبه ابن خفيف على المريد، فهل طبقه هو؟

الإجابة: نعم، حيث كان علم الحديث هو أول علم توجه الشيخ الكبير إلى طلبه بعد دخول طريق التصوف، فيقول: «خطر لي ذات يوم أن أشتغل فترة بدراسة الحديث، وأن أحصل على طرف من علم الأخبار والسنن، وفي ذلك العصر كان هناك اثنان مشهوران بعلم الحديث ونقل الأخبار، أحدهما: عبد الله بن أحمد الشارداني، والآخر: عبد الله بن جعفر الأزرقاني...ثم أخذت أذهب إلى مجلسهما كل يوم أستملي الحديث من فيهيهما، وأقتبس من الفوائد الأخرى»(٢).

وقد تبحّر الشيخ الكبير في علم الحديث حتى جلس للإملاء.

وهكذا لم يكتفِ ابن خفيف بوضع القواعد النظرية للمريدين بل طبقها هو أولًا حتى صار من مميزات تصوفه الجمع بين النظرية والتطبيق الفعلي منه هو أولًا.

الناحية الثانية: وصفه طرقًا تطبيقية محددة للمريد: لم يكتفِ ابن خفيف بأمر المريد بالتعليمات التي يريد منه تنفيذها أو المنهيات التي يريد منه اجتنابها بل كان يرسم له طريقًا محددًا يمكنه السير الفعلي فيه حتى يصل إلى تطبيق الفكرة الصوفية تطبيقًا تامًا، ومن ذلك ما يلي:

---

(١) راجع النص المحقق ص٤٠٩.

(٢) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٢.

- يأمر ابن خفيف المريدَ أن ينتصر على نفسه بسياستها ومنعها من شهواتها: فيضع لذلك خطة عملية تطبيقية يمكن للمريد التزامها، فيوضح له نقاطًا محددة منها:

- استدامة الصوم، فيجعل بدل الشبع جوعًا.

- قيام الليل، فيجعل بدل النوم سهرًا، ويكثر البكاء في الأسحار.

- أن يمنعها من الانشغال بفاخر الثياب.

- أن يلزمها ترك الشهوات، فيجعل بدل الرفاهيات كثرة المجاهدات.

- يطالبها بكثرة الصلوات ولزوم الجماعات.

وهذه النقاط كما هو واضح نقاط عملية محددة يمكن للمريد تطبيقها.

- يأمر ابن خفيف المريدَ بملازمة الإخلاص: فيصف له طريقًا عمليًا يستطيع من خلاله تنفيذ الإخلاص:

فيعلمه كيفية الإخلاص في التوحيد، بأن يعلم أنّ الله تعالى واحد فرد، له من الكمال ما أخبر عن نفسه من الأسماء والصفات ممّا جاء في القرآن والسنة، ثم يبيّن ابن خفيف جملة من صفات الباري ﷻ، وإذا التزم المريد بهذا حصّل غايته وهي الإخلاص في التوحيد.

ونفس الأمر في العبادات، يذكر ابن خفيف تفاصيل تعلم المريد كيفية الإخلاص في العبادة.

ثم يصف له كيفية اكتساب الإخلاص عمومًا وهو اكتسابه من حال المشايخ المخلصين.

- يأمر ابن خفيف المريدَ بأن يتصف بأسنى المقامات وأعلى الأحوال: فيضع له نقاطًا

محددة ينبغي عليه أن يلتزمها، حتى يتسنّى له الحصول على تلك الدرجات الرفيعة:

- فيأمره بأن يزهد في الدنيا، وأن يرضى بالقليل منها، حتى يتخلص من مذمة الشَّرَه والتكالب عليها.

- ويأمره بإيثار إخوانه على نفسه، حتى يتحقق بصفة الكرم.

- ويأمره بالتقلّل من كل شيء من متاع الدنيا، حتى يريح نفسه من طلبها والنزول إلى درجة المذلة لأهلها.

وهكذا يربط ابن خفيف كل أمر نظري بنقاط محددة يسهل على المريد أن يطبقها فعليًا.

٥- سهولة اللغة المستخدمة في تقرير القواعد الصوفية: ونعني بهذه الخصيصة المنهجية أنّ ابن خفيف قد اختار الألفاظ السهلة، والعبارات الواضحة، والتراكيب القريبة في التعبير عن الواجبات أو المنهيات التي يريد من الصوفي في بدايته التزامها فعلًا أو تركًا.

فابن خفيف لم يستعمل في كتابه هذا المصطلحات الصوفية الصعبة، أو التعبيرات الموغلة في المجاز أو الكناية أو غيرها ممّا شاع في كتب الصوفية.

ولعل ذلك راجع لسببين:

أولهما: حفظه للقرآن الكريم ورسوخ قدمه وتبحره في علم الحديث الشريف، وهذا أمران كافيان في أن يستقيم لسانه وينضبط لفظه بما يتوافق معهما، وهما ميسوران للذكر.

ثانيهما: أنّ هذا الكتاب مُوَجَّه في أساسه إلى فئة معينة، وهم المريدون في حال بدايتهم، وهؤلاء بالطبع لا يناسبهم إلا اللفظ السهل، والعبارة الواضحة المفهومة؛ لذلك جاءت ألفاظ الكتاب وعباراته كلها في غاية السهولة والفهم، بعيدة عن التعقيد والغرابة.

وبحق: لو أنّ قارئًا قرأ هذا الكتاب، وليس عنده علم أنّه لواحد من أكابر الصوفية

لاعتقد أنه كتاب في التربية الإسلامية أو الزهد والرقائق، وذلك بسبب ما اكتنفه من سهولة ووضوح من أوله إلى آخره.

المبحث الثالث
دراسة مسائل الكتاب

مقدمة الكتاب: افتتح الشيخ الكبير كتاب «الاقتصاد» بمقدمة صدَّرها بحمد الله تعالى الذي لا يعرف حق حمده إلا هو، وهو سبحانه ذو الصفات والأسماء التي تَعَرَّف بها إلى خلقه، وهو كذلك الذي حبَّبَ خلقه إليه بما أولاهم من نعمه، ولذلك دعا عباده إلى توحيده توحيدًا خالصًا عن شوائب الأضداد والأنداد، وهذا الحمد السابق حمد عام لكل المسلمين.

ثم ذكر الشيخ الكبير حمدًا لله تعالى خاصًا بموضوع الكتاب، فإذا كان الكتاب للحديث عن طائفة خاصة اختصهم الله ﷻ بالسلوك إليه فإن الشيخ الكبير يحمد الله حمدًا خاصًا بهذا.

فهو سبحانه المستحق للحمد؛ لأنه اختص هذه الطائفة بهدايته وشرح صدورهم لقبول ما كلفهم به من أوامر ونواهٍ، ثم مَنَّ عليهم حين حبَّبَ إليهم الإيمان الذي كلَّفهم به ودعاهم إليه، ثم لطف بهم حين سَهَّل لهم السبيل إلى طلب مرضاته، ومن لطفه كذلك أنه نبَّههم إلى أسباب عقابه ومخالفته، ثم أعانهم على كل ذلك بتوفيقه وتسديده، وإن وقعت منهم زلة فقد تَكَرَّم عليهم وتلطف بهم حين سترهم وحجب العباد عن رؤية زلاتهم.

ولا شك أنَّ هذا الجزء من المقدمة يفيض بالمعتقد الصحيح للمسلمين عمومًا والصوفية خصوصًا من التسليم لله تعالى الذي يتصرف في ملكه كيف يشاء، فيضل من يشاء ويهدي من يشاء، ويُوَفِّق من يشاء ويخذل من يشاء، لا يُسئل عن شيء من أفعاله والخلق جميعًا يُسئلون.

وهذه المعاني السابقة نجد الشيخ الكبير يذكر أشباهًا لها في كتاب آخر له وهو

«المعتقد الصغير»، حيث يبدأه بحمد الله الذي يهدي من شاء إلى سبيله، ومَنَّ على عباده بالشرائع المشتملة على الأمر والنهي والزجر والتحذير، ولذلك فهو المستحق للحمد في الظاهر والباطن والأول والآخر[1].

ثم ثنَّى الشيخ الكبير - بعد الحمد - بالصلاة على آدم عليه السلام الذي فطره الله تعالى بقدرته، وكوَّنه من قبضته وأسجد له ملائكته.

ومن الملاحظ هنا أنّ الشيخ الكبير بدأ بالصلاة على آدم عليه السلام، وهذا أمر لم نجده فيما بين أيدينا من كتب حيث يبدأ كل مصنف بالحمد والثناء على الله تعالى ثم الصلاة على سيدنا محمد ﷺ.

ثم ذكر الشيخ الكبير الصلاة على رسول الله ﷺ وعلى آله وأصحابه من المهاجرين والأنصار والأمة في جميع الأمصار.

سبب تأليف الكتاب: يذكر الشيخ الكبير سبب تأليف هذا الكتاب وهو أنّه أراد أن يضع منهاجًا مختصرًا للمبتدئين من مريدي السلوك في طريق الله ﷻ، ويجمع في هذا المختصر جملة من علوم القوم التي لا بد للمريد في بداياته أن يلم بها ليتعرّف من خلالها على أصل مذهب التصوف وقواعده الأساسية، وليكون ذلك داعيًا ودافعًا له إلى البحث والاستزادة من طلب علوم القوم في مؤلفاتهم وما تحويه من إشاراتهم وعباراتهم، وشَرَطَ الشيخ الكبير أن يكون كتابه على سبيل الاختصار، مستمدًّا التوفيق من الله وحده الذي هو أهله.

(١) راجع: ابن خفيف: المعتقد الصغير ص٢٥٨.

الفصل الأول

في وجوب القصد إلى شيخ حكيم للسلوك على يديه

إنّ لهذا الأمر - أعني طلب الشيخ والتأدّب على يديه - أهمية خاصة عند الصوفية؛ ذلك أنّ التصوف ليس من العلوم التي يمكن الاكتفاء فيها بالجانب النظري، بل هو تجربة عملية لا بد من تَعَلُّمها وتَلَقُّنها على يد شيخ مرَّ بالتجربة، وعرف عقبات الطريق وكيفية التَغَلُّب عليها وكيفية الترقي في الطريق مقامًا بعد مقام وحالًا بعد حال.

وبالطبع فالصوفية قد التمسوا لهذا المبدأ عندهم أصلًا شرعيًا مثل قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان:١٥]، ومثل قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، قيل: ليقتدي الأدنى بالأعلى ويتبع المريد درجة المراد ليصل إليه[١].

ولذلك رأينا الصوفية يشترطون شروطًا شديدة لمن يستحق أن يكون شيخًا يُقْتَدَى به في هذا الطريق:

منها: أن يكون عالمًا بالخواطر، والتواضع للمريدين بالتَنَزُّل إلى درجتهم والرفق بهم وبسطهم، فيتدرج المريد ببركته إلى الانتفاع.

ومنها: أن يعاتب المريد على كل هفوة، فإن صفح عنه فهو إمام غاش لرعيته.

ومنها: أن يحفظ على المريد أوقاته.

ومنها: ألا يخرج على أصحابه إلا في أكمل صورة[٢].

---

(١) راجع: أبو الحسن السيرجاني: كتاب البياض والسواد من خصائص حِكم العباد في نعت المريد والمراد ص١٠٠ (بتحقيق: بلال الأرفه لي وندى صعب، شركة القدس للطباعة، بدون تاريخ).

(٢) راجع تفاصيل أخرى حول هذه الشروط: محمد بن محمد المرصفي: داعي الفلاح إلى سبل النجاح=

فإذا تحققتْ هذه الشروط وغيرها في الشيخ كان جديرًا بالاقتداء به.

بل يرى الصوفية أنّ عمل المريد لا يُغني عنه شيئًا إلا إذا اقتدى بشيخ معتبر، «قال أبو عمرو الزجاجي: لو أنّ رجلًا بلغ أعلى المراتب والمقامات حتى يُكشف له عن الغيب ولا يكون له أستاذ لا يجيء منه شيء... وقال أبو يزيد: لو بلغ المريد ما بلغ لا بدّ له من شيخ يرجع إليه»[1].

ويرى الصوفية أنّه إذا بلغ المريد مبلغًا دون الاقتداء بشيخ فهو في محل الغرور، ويؤكدون أنّ «مَنْ لم يؤدبه شيخ ناصح ولم يرضه مشاهدته لا يفلح حقيقةً، فإن ظهرت عليه آثار الفلاح فيكون في محل الغرور»[2].

وقد جعل الصوفية طلب الشيخ من أوائل ما يجب على المريد، فيقول أبو عثمان المغربي: «أول هذا الأمر سداد الدين، ثم سداد المذهب، ثم أكل الحلال، ثم التأدّب بإمام»[3].

بل يُحَذِّر سيد الطائفة الجنيد من خطورة عدم اتخاذ شيخ؛ لأنّ ذلك قد يهوي بالمريد إلى مهاوي الشيطان فيقول: «مَنْ لم يكن له أستاذ فالشيطان أستاذه»[4].

وبناء على هذه الأهمية القصوى لمنزلة الشيخ عند الصوفية وجدنا ابن خفيف يُصَدِّر الواجبات التي يلزم المريد فعلها بهذا الأمر وهو القصد إلى شيخ للسلوك على يديه.

ويجمع ابن خفيف في عبارات مختصرة معظم الشروط التي ذكرها الصوفية في الشيخ

=ص١١٠ (تعليق: د/ عصام الكيالي، الطبعة الثانية سنة ٢٠١٣م، دار الكتب العلمية).

(١) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص١٠١.

(٢) نفس المصدر ص١٠١.

(٣) نفسه ص١٠٠.

(٤) نفسه ص١٠١.

ليكون أهلًا لارتقاء رتبة المشيخة، وهذه الشروط كما فهمناها من كلام ابن خفيف هي:

- أن يكون مؤتمنًا على دينه.
- أن يكون معروفًا بالنصح لأمته.
- أن يكون عارفًا بالطريق الصوفي.
- أن يكون قد اجتاز مراحل الطريق الصوفي عمليًا.
- أن يكون قد قطع عقبات الطريق ونازل أحواله حقيقة.
- أن يكون عارفًا بطلب سنن النبي ﷺ.

فهذه الشروط قد وافق فيها ابن خفيف جموع الصوفية، وهي شروط شرعية في أساسها، ثم هي بعد ذلك شروط تُؤَهِّل مَنْ اتصف بها إلى نقل تجربته الروحية إلى غيره.

وقد رأينا ابن خفيف قد التزم بمسألة طلب الشيخ نظريًا وعمليًا:

فأمّا نظريًا: فقد نبّه إلى ضرورة طلب الشيخ - كما رأينا هنا - بل جعلها من أوائل واجبات المريد.

وفي بعض مقالات ابن خفيف يقول: «كل مَنْ اقتدى بشيخه وصل إلى المقصود، وكل مَنْ وزن أحواله وأعماله بميزان شيخه بلغ المراد»[1].

وأمّا عمليًا: فقد رأينا الشيخ الكبير يطلب المشايخ ويقصدهم ويرجو بركتهم ويستفيد من صحبتهم في كل فن وفي كل علم[2].

وقد ذكرنا عند ترجمة الشيخ الكبير جملة من المشايخ الذين أخذ عنهم في التصوف

---

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص١٠٢.

(٢) راجع: ترجمة الشيخ الكبير في ص٥٦.

وفي غيره، وكانت طاعته التامة وتسليمه لهم مضرب الأمثال.

ولكنّنا لاحظنا هنا أنّ ابن خفيف يُطْلِق على الشيخ لفظ «الحكيم»، والواقع أنّ الشيخ المُرَبِّي المؤدّب لغيره يُطلق عليه كثير من الأسماء الدالة على فضله وعلو منزلته، ومنها الحكيم أو الشيخ أو المرشد إلى آخر هذه الألقاب الدالة على شرف هذه الرتبة، يقول الشيخ المرصفي: «إذ المشيخة على الحقيقة رتبة شريفة، ومنزلة رفيعة منيفة، المتصف بها حقًا يُسمى شيخًا ومرشدًا ومربيًا وقدوة وقارئًا وأستاذًا ومعلمًا ومفيدًا، وليس لها حد ينتهي إليه ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤]»(١).

وبناء على ذلك فما من شك في أنّ مقصود ابن خفيف بلفظ «الحكيم» هنا هو الشيخ.

ثم ينبّه ابن خفيف على أنّ المريد إذا عرف الشيخ فينبغي عليه أن يُسَلِّم نفسه بخدمته ويعتقد ترك مخالفته.

وهذا أمر له أهمية كبيرة وهي الطاعة التامة من المريد لشيخه، وقد نبّه الصوفية على ذلك كثيرًا فقالوا: «من آداب المريد مع شيخه: أن يسلم نفسه إليه، ولا يبقى له معه إرادة أصلًا، ويكون كالطفل مع والديه، ويكون اعتقاده فيه صحيحًا، ويجب عليه أن يحترمه ويوقره بأنواع التعظيم والاحترام ويطيعه في جميع ما يأمره من غير أن يسأله عن علة ذلك، ولا يعترض عليه ظاهرًا ولا باطنًا»(٢).

ويُشدد أبو النجيب السهروردي على المريد إن عرف شيخه أن «يُسَلِّم نفسه لخدمته ويعتقد ترك مخالفته، ويكون الصدق حالته»(٣).

---

(١) المرصفي: داعي الفلاح إلى سبل النجاح ص١١٠.

(٢) المصدر السابق ص١١٠.

(٣) أبو النجيب السهروردي: آداب المريدين ص٢٨ (بتحقيق: د/ عصام الكيالي، الطبعة الثانية سنة ٢٠١٣م، دار الكتب العلمية).

ويُحَذِّرأبو العباس المرسي المريد من ترك اتخاذ شيخ فيقول: «كل من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع، ويكشف عن قلبه القناع، فهو في هذا الشأن لقيط لا أب له، دعيّ لا نسب له، إن يكن له نور فالغالب عليه غلبة الحال ووقوفه مع ما يرد عليه، لم ترضه سياسة التأديب، ولم يقعده زمام التربية والتدريب»[١].

وإذا رجعنا إلى ترجمة ابن خفيف السابقة وجدناه يُنَفِّذ هذا عمليًا حين كان يُسَلِّم لمشايخه تسليمًا تامًا ويطيعهم طاعة كاملة.

ثم يذكر ابن خفيف بعد ذلك أنه يجب على الشيخ أن يُعَرِّف المريد كيفية الرجوع إلى الله تعالى، ويُعَلِّمه التوبة ويُعَرِّفه حقيقة التوحيد، وتحقيق العبودية، وباقي أمور الدين، وقد استدل ابن خفيف لكل هذا بأدلة شرعية من الكتاب والسنة.

الفصل الثاني

في وجوب معرفة الإيمان وما يلزمه من صحة الاعتقاد

يوجب ابن خفيف على المريد أن يعرف حقيقة الإيمان وما يلزمه من صحة الاعتقاد؛ وذلك خوفًا عليه من أن يقع في البدع.

ويوجب على المريد أن يعتقد أنّ الإيمان ينقسم إلى: موهبة، واكتساب، فالموهبة التي يَمُنُّ الله تعالى بها على العبد دون بذل مجهود منه، والمكتسب ما للعبد جهد ودخل فيه.

وقد وجدنا ابن خفيف يُقرر هذا في مواضع أخرى من كتبه، وفيما نُقِل عنه من

---

(١) المرصفي: داعي الفلاح ص١١١.

مقالات، فيقول مثلًا فيما نقله عنه السيرجاني: «الإيمان: موهبة يتولّد منه أفعال العبد»[1].

ويقول أيضًا فيما نقله عنه السلمي: «الإيمان: تصديق القلوب بما أعلمه الحق من الغيوب، ومواهب الإيمان بوادي أنواره والملبس لأسراره، وظاهر الإيمان النطق بألوهيته على تعظيم أحديته، وأفعال الإيمان التزام عبوديته والانقياد لقوله»[2].

ففي النصين السابقين يشير ابن خفيف إلى أنّ الإيمان أصله موهبة.

وأوضح نص للشيخ الكبير يدل على أنّ من الإيمان موهبة وكسبًا هو ما ذكره في كتاب «المعتقد الصغير» حين قال باختصار: «وأصل الإيمان موهبة وشرائطه مكتسبة»[3].

وهذا النص من الشيخ الكبير هو في حقيقته تقرير لمذهب أهل السنة في مسألة الهداية والتوفيق من أنّ الله تعالى يشرح صدور من أراد للإيمان ويتولى توفيقهم ويُعينهم عليه ويُسهل لهم السبل إليه كل ذلك هداية منه تعالى وتوفيقًا لهم، ويستدل أهل السنة على ذلك بأدلة كثيرة منها قول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥][4].

وهذا بخلاف المعتزلة الذين قرروا أنّ الله تعالى أعطى العباد القدرة على اختيار الإيمان أو الكفر، وبالتالي لو اختاروا أيّهما فإنّه يكون حدث من جهتهم وحصل بدواعيهم

(١) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص٧٢.

(٢) السلمي: طبقات الصوفية ص٣٤٧، وراجع: القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٢٣.

(٣) ابن خفيف: المعتقد الصغير ص٣١٠.

(٤) راجع: الماتريدي: تأويلات أهل السنة ج٤ ص٢٥٤ (بتحقيق: د/ مجدي باسلوم، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥، دار الكتب العلمية - بيروت)، والباقلاني: تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل ص٣٧٧ (بتحقيق: الشيخ عماد الدين حيدر، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مؤسسة الكتب الثقافية)، والجرجاني: شرح المواقف ج٨ ص١٨٨ (طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، بدون).

وقصودهم، ومن هنا يُنسب إليهم، ولا يجوز أن يوصف بأنّه من الله تعالى إلا على سبيل المجاز[1].

وعلى هذا فالشيخ الكبير باعتباره لسانًا من ألسنة أهل السنة يقرر هنا أنّ أصل الإيمان هو اصطفاء من الله تعالى واختيار منه سبحانه، ثم إنّ شرائط الإيمان من التصديق بما يجب له سبحانه وما يجوز وما يستحيل عليه وكذا ما يتعلق بالأنبياء والغيبيات والإقرار بذلك والعمل بمقتضاه هي أفعال للعبد تُنال بالكسب.

وممّا يذكر للشيخ الكبير هنا أنّه أصَّل هذه المسألة المهمة تأصيلًا شرعيًا حين استدل عليها بآيات القرآن وفَسَّرها بما يفيد مقصوده وكذلك الحديث المشهور في هذا الخصوص وهو «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله»[2].

ويحسن بنا أن نذكر بعض ما ذُكِر من كلام الصوفية في هذا الصدد:

«قال بعض الكبار: لا يعرفه إلا مَنْ تَعَرَّفَ إليه، ولا يوحده إلا مَنْ تَوَحَّد له، ولا يؤمن به إلا مَنْ لطف به، ولا يصفه إلا مَنْ تجلَّى لسره، ولا يخلص له إلا مَنْ جذبه إليه، ولا يصلح له إلا مَنْ اصطنعه لنفسه... وقال الجنيد: المعرفة معرفتان: معرفة تَعَرُّف، ومعرفة تعريف، معنى التعرف: أن يعرفهم الله ﷻ نفسه ويعرفهم الأشياء به، كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ۝٧٦﴾ [الأنعام: ٧٦]، ومعنى التعريف: أن يريهم آثار قدرته في الآفاق والأنفس، ثم يحدث فيهم لطفًا تدلهم الأشياء أن لها صانعًا، وهذه معرفة عامة

---

(١) راجع: القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ص٧٧٨ (بتحقيق: د/ عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، بدون)، والزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ج٤ ص١٩٤ (الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٧هـ دار الكتاب العربي – بيروت).

(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٢٨٩.

المؤمنين، والأولى معرفة الخواص، وكلٌّ لم يعرفه في الحقيقة إلا به»[1].

الفصل الثالث

في وجوب معرفة أن الأعمال من الإيمان

يتحدث الشيخ الكبير هنا عن علاقة الأعمال بمفهوم الإيمان فيقرر في وضوح وصراحة أنّ الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللسان وعمل بالجوارح، ويستدل لرأيه بدليلين، أحدهما من القرآن والثاني من السنة، وهذان الدليلان يفيدان أنّ نصيب الجوارح هو العمل، وهذا العمل من الإيمان، والأعمال تشمل الفرض والنفل.

والواقع أنّ هذا الأمر قرره ابن خفيف في كتاب «المعتقد الصغير» حين قال: «والإيمان قول وعمل ونية»[2]، وهذا تصريح منه بأنّ العمل من الإيمان.

بيد أنّ هناك مذاهب أخرى في المسألة:

- فالجهمية يرون أنّ الإيمان هو المعرفة بالقلب فقط[3].
- والكرامية يرون أنّ الإيمان هو الإقرار باللسان فقط دون القلب[4].
- وأمّا الأشاعرة فيرون أن الإيمان هو التصديق بالقلب[5].

---

(١) الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف ص٦٤.

(٢) ابن خفيف: المعتقد الصغير ص٣٠٣.

(٣) راجع: الأشعري: مقالات الإسلاميين ج١ ص١١٤ (الطبعة الأولى سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، المكتبة العصرية - بيروت)، والبغدادي: الفرق بين الفرق ص١٩٩.

(٤) راجع: الشهرستاني: الملل والنحل ج١ ص١١٣، والبغدادي: الفرق بين الفرق ص٢١١.

(٥) راجع: الأشعري: اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع ص١٢٢ (صححه وقدم له: د/ حمودة غرابة، المكتبة الأزهرية للتراث، سنة ١٩٩٣م)، والباقلاني: تمهيد الأوائل ص٣٨٩، والجويني: الإرشاد إلى قواطع=

- وبينما اتفق رأي الإمام الماتريدي مع الأشاعرة فيما ذهبوا إليه من أنّ الإيمان هو التصديق بالقلب، فإنّ جمهور الماتريدية تمسكوا بأنّ الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان(١).

- والمعتزلة يرون أنّ الإيمان يشمل أداء الطاعات كلها من عمل القلب واللسان والجوارح(٢)، والخوارج قالوا بمثل ما قال به المعتزلة(٣).

ولا شك أنّ ما ذهب إليه الشيخ الكبير هنا يوافق موافقة تامة ما أجمع عليه الصوفية في حقيقة الإيمان، وأنّ العمل من الإيمان.

يقول بندار بن الحسين: «الإيمان هو التصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأركان»(٤).

وقال أبو الحسن البوشنجي: «الإيمان: إتيان ما أُمِر به فرضًا ونفلًا، والانتهاء عما نُهِي عنه تحريمًا وأدبًا، فحظ القلب المعرفة، وحظ الألسن الإقرار له بالربوبية، وحظ الجوارح

=الأدلة في أصول الاعتقاد ص٢٩٧ (بتحقيق: د/ محمد موسى وعلي عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٥٠م).

(١) راجع: الماتريدي: كتاب التوحيد ص٤٧١ (بتحقيق: د/ فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية، بدون)، والبزدوي: أصول الدين ص١٥١ (بتحقيق: هانز بيتر لنس، المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣)، وملا علي القاري: منح الروض الأزهر ص٢٥٢ (الطبعة الأولى سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، دار البشائر الإسلامية - بيروت).

(٢) راجع: القاضي عبد الجبار: شرح الأصول الخمسة ص٦٩٧، والزمخشري: المنهاج في أصول الدين ص١٧ (بتحقيق: عباس عيسى، مكتبة مركز بدر العلمي والثقافي - صنعاء، بدون).

(٣) راجع: الأشعري: مقالات الإسلاميين ج١ ص٨٤، والبغدادي: الفرق بين الفرق ص٥٥.

(٤) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص٧٢.

الخضوع له بالفردنية»(١).

وقال الكلاباذي: «الإيمان عند الجمهور منهم - أي الصوفية - قول وعمل ونية»(٢).

الفصل الرابع
في وجوب معرفة أسماء أصول الدين

لا يزال الشيخ الكبير جاهدًا في إرساء القواعد والأسس التي ينبغي للمريد معرفتها، فيذكر في هذا الفصل أنّ من واجبات المبتدئ في السلوك أن يعرف أسماء أصول الدين، ويرى ابن خفيف أنّ هذه الأصول هي المذكورة في الحديث الشريف الصحيح المشهور الذي سأل جبريل عليه السلام فيه النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان والإحسان، أي أنّ أصول الدين التي يجب على المريد المبتدئ أن يتعلمها هي:

- الإسلام الذي هو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت.

- والأصل الثاني هو الإيمان الذي هو الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، والبعث بعد الموت، والقدر خيره وشره.

- والأصل الثالث هو الإحسان الذي هو أن يعبد المسلم الله تعالى كأنه يراه.

فهذه هي أصول الدين ومهماته الرئيسة كما نَصَّ على ذلك النبي ﷺ حين قال في نهاية الحديث: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»(٣).

---

(١) نفس المصدر والصفحة.

(٢) الكلاباذي: التعرف ص٧٩.

(٣) الحديث صحيح متفق عليه أخرجه البخاري في كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة وبيان النبي ﷺ له ج١ ص٣٣ حديث رقم ٥٠، وأخرجه أيضا في=

الفصل الخامس

في وجوب التوبة من المخالفات

للتوبة عند الصوفية أهمية خاصة، حيث جعلها كثيرون منهم أول مقامات السلوك إلى الله ﷻ، فيذكر الخركوشي أنّ «التوبة أول مقامات المريدين المنقطعين إلى الله ﷻ، وهي على مائة مقام»[1].

ويجعلها سهل بن عبد الله أول ما يُؤمر به المريد المبتدئ، فيقول: «أول ما يؤمر به المبتدئ التوبة، وهي الندامة والإقلاع والتحول من الحركات المذمومة إلى الحركات المحمودة، ولا تصح التوبة للعبد حتى يلزم نفسه الصمت، ولا يصح الصمت حتى يلزم الخلوة، ولا يلزم الخلوة إلا بأكل الحلال، ولا يصح أكل الحلال إلا بأداء حق الله تعالى، ولا يصح أداء حق الله تعالى إلا بحفظ الجوارح، ولا يصح شيء - ممّا ذكرنا - حتى يستعين بالله تعالى على ذلك كله»[2].

والواضح من النص السابق أنّ التوبة كانت هي البداية، ثم تَرَتَّب عليها كثير من المقامات، ويُصَدِّق هذا قول أحمد بن أبي الحواري: «لا يكون العبد تائبًا حتى يندم بالقلب، ويستغفر باللسان، ويَرُدّ المظالم فيما بينه وبين الناس، ويجتهد في العبادة، ثم يتشعب له من التوبة الاجتهاد والزهد، ثم يتشعب له من الزهد الصدق، ثم يتشعب له من

=كتاب التفسير، باب: (إن الله عنده علم الساعة) ج٣ ص٢٧٥ حديث رقم ٤٧٧٧، وأخرجه مسلم في كتاب الإيمان. باب بيان الإيمان. والإسلام، والإحسان. ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله سبحانه وتعالى وبيان الدليل على التبري ممن لا يؤمن بالقدر وإغلاظ القول في حقه ج١ ص٣٩، ٤٠، أحاديث أرقام ٥، ٦، ٨ بسنده عن أبي هريرة مطولًا، وفيه معنى حديث البخاري.

(١) الخركوشي: تهذيب الأسرار ص٩٥ (بتحقيق بسام بارود، طبعة المجمع الثقافي - أبو ظبي، سنة ١٩٩٩م).

(٢) نفس المصدر ص٩٦.

الصدق التوكل، ثم يتشعب له من التوكل الاستقامة، ثم يتشعب له من الاستقامة المعرفة، ثم يتشعب له من المعرفة الذكر، ثم يتشعب له من الذكر الحلاوة والتلذذ، ثم بعد التلذذ الأنس، ثم بعد الأنس الحياء، ثم بعد الحياء خوف الاستدراج، ثم بعد خوف الاستدراج الخوف من الحياء، وفي هذه الأحوال لا يفارق خوف تحويل هذه الأحوال قلبه دون لقائه»[1].

فقد بدأ المقامات بالتوبة، ثم تدرجت حتى وصلت إلى أسنى الدرجات، فكانت التوبة هي البداية.

والشيخ الكبير يدرك أهمية مقام التوبة ومنزلته بين مقامات التصوف، فيذكرها في فصلين هذا أولهما.

وفي هذا الفصل يوجب ابن خفيف على المريد معرفة التوبة من المخالفات التي لا يخلو منها العباد بعد دخولهم في الإيمان.

ويستشهد الشيخ الكبير على هذا الوجوب بآيات من القرآن التي تأمر المؤمنين بالتوبة لما يترتب عليها من الفلاح.

ثم يشير الشيخ الكبير إلى أنّ التوبة تختلف باختلاف التائبين، بمعنى أنّه إذا كانت التوبة هي الرجوع، والرجوع ضد الذهاب؛ فإنّ ذهاب الخلق عن الله تعالى متعدد ومختلف، وكل ذاهب عن الله له توبة تخصه على حسب حاله.

فإذا كان ذهاب العبد عن الله بالشرك، فيلزمه التوبة والرجوع إلى الله بالإيمان والتوحيد والتصديق.

وإذا كان ذهابه وإعراضه بالجحود، فيلزمه التوبة والرجوع إلى الله بالإقرار

(١) نفسه ص٩٨.

والتصديق.

وإذا كان إعراضه عن الله بالمعاصي، فيلزمه التوبة والرجوع إلى الله بالعمل الصالح والطاعات، وهكذا.

وهذه التوبة هنا هي توبة العوام، وهناك توبة أخرى سيتعرض لها ابن خفيف في الفصل بعد القادم.

الفصل السادس

في وجوب معرفة الإيمان من الدخول فيه والخروج منه

هذا الفصل له صلة بالفصل السابق عليه وبالفصل اللاحق له، فهو يتحدث عن أحكام الداخلين في الإيمان وكيفية خروجهم منه بعد وقوع اسم الإيمان عليهم.

فالكفر يُخرج صاحبه من أصل الإيمان، ولا تكون توبته إلا بالدخول في الإيمان، وهذا هو المقصود من قول الله تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [مريم: ٦٠].

والمنافق والعاصي لا يخرجان من أصل الإيمان كالكافر والمشرك، ولكنّهما يخرجان من كمال الإيمان؛ لأنّ المنافق لم يشهد الإخلاص بالرعاية فنقص إيمانه فتكون توبته بلزوم الإخلاص، وهذا هو المقصود من قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٤٦].

والعاصي لم يتحلى بالصلاح فنقص إيمانه فتكون توبته بمراعاة الطاعة التامة والصلاح في أعماله، وهذا هو المقصود بقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩، والنّور: ٥].

فكل من خرج من أصل الإيمان أو من تمامه يلزمه معرفة ذلك ويلزمه الرجوع بنوع

من التوبة خاص به.

الفصل السابع

في وجوب معرفة حقيقة التوبة وكيفيتها

بعد ما أشار الشيخ الكبير في الفصل قبل السابق إلى وجوب التوبة من المخالفات، عاد في هذا الفصل ليحدثنا عن حقيقة التوبة وكيفيتها، وحديث الشيخ الكبير هنا متفق تمامًا مع كلام الصوفية عن التوبة من قبله ومن بعده.

فأما حقيقة التوبة: فهي في أمور أشار إليها الشيخ الكبير كما يلي:

- الندم على قبيح المخالفات من السر والإجهار، وهو بذلك يشير إلى أنّ التوبة لا بد أن تكون للظاهر والباطن.

- صحة العقد على ترك المخالفات، وهذا هو العزم الأكيد على ألّا يعود إلى المعاصي.

- حلّ عقدة الإصرار ودوام الاستغفار.

- ردّ المظالم على العباد الذين لهم عنده ظُلامة من مال أو غيره، أو أن يستحلّ من صاحبه وأن يستغفر له.

ولا يكتفي الشيخ الكبير بهذه القواعد النظرية، بل يضرب أمثلة تطبيقية وهو ما نستطيع أن نسميه:

كيفية التوبة: يضع ابن خفيف لهذه الكيفية عنوانًا رئيسًا وهو ما ذكره بقوله: «ترتيب الموافقات بمفارقة ترتيب المخالفات»، أي أنّ التوبة لا تتحقق إلا إذا استبدل المخالفات السابقة بموافقات شرعية تمحو هذه المخالفات، ولعل هذا ما قصده عمرو بن عثمان

المكي حين قال: «التوبة: أن تبدل نفسك بأفعالها في المعاصي بضدها من الطاعات»[1].

بمعنى أن يُقبل العبد على الطاعة كما كان قبل التوبة مقبلًا على المعصية، وفي هذا المعنى يروي الكلاباذي عن الدقاق أنّه قال: «التوبة: أن تكون لله وجهًا بلا قفا كما كنت له قفا بلا وجه»[2].

فكيفية التوبة إذن لا تكون ولا تتحقق إلا بتبديل الأحوال السيئة الرَدِيَّة إلى أحوال حسنة مرضية، ويضرب ابن خفيف مثالًا لكيفية التوبة واستبدال الأحوال فيقول: «فأوّل ذلك ما ضَيَّع من عبادة الله تعالى، مثل الصّلاة المُضَيَّعة بترك صحّة الرّكوع والسّجود والطّمأنينة والاعتدال، مع الجهل بأحكام الطّهارات، ووضع الوضوء مواضعه مع الغفلة بالنّيّة»[3].

وهذا النموذج اختاره ابن خفيف لأنه أهم ركن من أركان الدين - أعني الصلاة - فيجب أن يُحتذى ويُطبق في باقي الواجبات والأركان.

وعلى كل حال فهذا يدل على قيمة التوبة وأهميتها بالنسبة للمريد، فهي بحق «أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين»[4].

وهي كذلك «إذا صَحَتْ صَحَتْ المقامات أجمع، وإذا فَسَدَتْ فَسَدَتْ المقامات أجمع»[5].

(١) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص٨٩.
(٢) الكلاباذي: التعرف ص٩٣.
(٣) راجع نص كتاب الاقتصاد في قسم التحقيق ص٢٩٩، ٣٠٠.
(٤) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٢٠٧.
(٥) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص٨٩.

وما ذكره ابن خفيف في كلامه المختصر عن التوبة هو ما أجمع عليه الصوفية، ولننقل نصًا واحدًا يؤيد هذا.

«سُئل محمد بن علي الكتاني عن معنى الاستغفار فقال: الاستغفار هو التوبة، والتوبة اسم واقع على معانٍ ستة: أولها: الندم على ما مضى، والثاني: العزم على ترك الرجوع إلى الذنب، والثالث: أداء كل فريضة ضَيَّعْتَها فيما بينك وبين ربك، والرابع: أداء المظالم إلى المخلوقين، والخامس: إذابة كل جسم ولحم نبت من الحرام، والسادس: إذاقة البدن ألم الطاعة كما ذاق حلاوة المعصية»[1].

الفصل الثامن

في وجوب معرفة أحكام النفس وكيفية سياستها

يعتبر الصوفية أنّ أعدى أعداء الإنسان نفسه التي بين جنبيه، وأنّ هذه النفس تُمثل عقبة كئودًا تعيقه في طريق سيره إلى الله ﷻ، ولذلك يهتمون ببيان أحكامها، ومعرفة أوصافها، وكيفية سياستها ومعاملتها، فإذا غلبها الإنسان أفلح وفاز، وإذا غلبته نفسه خاب وخسر.

والشيخ الكبير يعقد هذا الفصل لهذا الغرض، فيوجب على المريد بعد التحقق من التوبة أن يعرف نفسه، وأن يقف على حقيقتها وأوصافها وأخلاقها المختلفة، فَيَتَيَقَّن من عداوتها، ويَحْذَر من مطاوعتها كل الحذر، ويجاهدها بالرياضة، ويقمعها بالمجاهدة، فيمنعها من شهواتها، ولا يغفل أبدًا عن حراستها ومراقبتها، لأنّ الله تعالى أعلمنا أنّها أمّارة بالسوء.

وهذا الواجب الذي أوجبه الشيخ الكبير على المريد في بداية سلوكه هو ما اتفق عليه

(١) الخركوشي: تهذيب الأسرار ص٩٥.

الصوفية كلهم، فقد اتفق الصوفية على بيان حقيقة النفس وأنّها «حرون، جموح، خداعة، روّاغة، فاحذرها، وراعها بسياسة العلم، وسُقها بتهديد الخوف، يَتِمّ لك ما تريد»[1].

واتفقوا كذلك على أنّه «ما تحقق سير السائرين ورحيلهم إلى المحبوب إلا بمحاربة النفوس ومجاهدتها وقتلها»[2].

يقول ابن عجيبة: «فكل مَنْ مَلَكَ نفسه فقد مَلَكَ الوجود بأسره، فلولا مجاهدة النفوس ومحاربتها في هذه الميادين ما تَحَقَّقَ سير السائرين، إذ لا يتحقق السائر من القاعد إلا بمخالفة الهوي وخرق العوائد، فمن خرق عوائد نفسه حتى استوى عنده العز والذل والفقر والغنى وغير ذلك من مكروهات النفوس فقد تحقق سيره ووصوله، ومن لم يقدر على تغيير شعرة من نفسه فلا سير له ولا وصول»[3].

وإذا كانت النفس عدوًا للإنسان فيجب محاربتها وكسرها، يقول أبو بكر الواسطي: «أعدى عدوّ الله نفسك، فينبغي أن تمحقها وتقصمها عن مشاركة الحق، فتكون قد عاديت عدوّ الله»[4].

ولا تتحقق الإصابة في طريق الله تعالى إلا بمخالفة النفس، يقول يحيى بن معاذ: «علامة الإصابة مخالفة النفس، وعلامة مخالفة النفس ترك شهوتها، قيل له: وما سبب الذنب؟ قال: شهوة النفس»[5].

---

(١) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٩٠ بتصرف يسير.

(٢) ابن عجيبة الحسني: إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص٥١٠ (بتحقيق محمد حسب الله، الطبعة الثانية سنة ٢٠١١م، دار المعارف).

(٣) المصدر السابق ص٥١٢.

(٤) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص١٨٥.

(٥) الخركوشي: تهذيب الأسرار ص١٧٥.

وقد لاحظنا في كلام ابن خفيف وغيره من الصوفية في معاملتهم مع النفس أنّهم يستعملون ألفاظًا تدل على الشدة والقسوة أحيانًا، مثل: محاربة النفس، وقتل النفس، وكسر النفس، وقمع النفس، وأحيانًا أخرى يستعملون ألفاظًا تدل على المهادنة معها، مثل: التَّلَطُّف والسياسة.

وهذا يدل على انشغالهم بمسألة النفس واستيعابهم لها، ومحاولتهم معالجتها بكافة الوسائل، وابن خفيف هنا يوجب على المريد العمل على ملاطفتها، فما معنى الملاطفة هنا؟

الواقع أنّ الشيخ الكبير قرر أنّ للنفس أخلاقًا وحشية وأوصافًا جموحية، وإذا كانت تلك طبيعة النفس في أخلاقها وأوصافها فيكون من المناسب للمريد المبتدئ - خصوصًا - أن يعالجها خطوة بعد خطوة، وأن يسوسها درجة بعد درجة حتى يظفر بالنصر عليها، وإلى هذا المعنى يشير ابن عجيبة حين يقول: «وكيفية مجاهدتها والحيلة في أخذها أن تدخل معها شيئًا فشيئًا، فتُعَلِّمها الصمت وَحْدَه، ثم العزلة، ثم تُقَدِّمها للخراب شيئًا فشيئًا، ثم تقدمها للقليل، فإذا استأنستْ به زدتها شيئًا آخر وهكذا، «فأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل»»[1].

ولكن الملاطفة والمهادنة والسياسة ليست الطريقة الوحيدة عند ابن خفيف في معاملة النفس، بل يطالب بالشدة معها أحيانًا أخرى، فيوجب على المريد أن يعتقد العداوة لنفسه، ثم يلزمها القمع بالرياضة والكسر بالمجاهدة والمبالغة في منعها من شهواتها.

وهذا ما يذهب إليه ابن قدامة المقدسي أيضًا حين يقول: «واعلم أنّ أعدى عدوٍ لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خُلِقَتْ أمّارة بالسوء، ميّالة إلى الشر، وقد أُمِرْتَ بتقويمها

---

(١) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص٥١١.

وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن ألزمتها التوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها»[1].

الفصل التاسع

في وجوب ترويض النفس بطول الاجتهاد وكثرة الأوراد

هذا الفصل يعد تطبيقًا وتفصيلًا لِمَا أجمله الشيخ الكبير في الفصل السابق، فهناك تَحَدَّثَ عن وجوب سياسة النفس إمّا بالملاطفة واللين، وإمّا بالشدة والقسوة والقهر.

وهنا يضرب أمثلة عملية ونماذج تطبيقية يستعين بها المريد على إصلاح نفسه وتهذيبها، فيلزمه أن يَجِدَّ ويُشَمِّرَ في الأفعال والأوراد.

ومن أمثلة الاجتهاد الذي يُرَوِّض النفس: استدامة الصوم، فإن قلة المطعم والمشرب يُهذب النفس ويُصلحها ويدعوها إلى أبواب الحكمة.

والصوفية جميعًا مجمعون على هذه الطريقة من طرق تهذيب النفس.

فقد ذكر أبو حفص السهروردي أنّ جمعًا «من مشايخ الصوفية كانوا يديمون الصوم في السفر والحضر على الدوام حتى لحقوا بالله تعالى...فإذا رأي المريد صلاح قلبه في دوام الصوم فليصم دائمًا ويدع للإفطار جانبًا، فهو عون حسن له على ما يريد»[2].

والصوفية يحرصون على الجوع فترات طويلة حتى رويت عنهم روايات عجيبة في

(١) ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين ص٣٧٧ (قدم له: محمد دهمان، طبعة مكتبة دار البيان – دمشق، سنة ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م).

(٢) أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٣٤٨.

ذلك[1].

ويذكر أبو النجيب السهروردي أنّ من آداب المريدين «عدم الانشغال بالرزق وادخاره، وعدم الإكثار من ذكر الطعام؛ فإنّ ذلك من الشَّرَه، وأن يقصد عند تناول الطعام سدّ الجوعة، ويعطي النفس حقها دون حظها، فإن النبي ﷺ قال: «إن لنفسك عليك حقًّا فإن منعتها حقها ظلمتها»[2]، وقيل لبعض المشايخ: كيف يتناول القوم الطعام؟ فقال: تناول العليل للدواء يرتجي به الشفاء»[3].

ولكن لماذا حرص الصوفية على التَقَلُّل من الطعام إلى هذا الحد؟

الواقع أنّ الصوفية يربطون بين الجوع والعلم والحكمة، وفي المقابل يربطون بين الشبع والجهل، فالجوع وسيلة لإشراق الحكمة في قلب الصوفي، والشبع بالعكس منه، يقول سهل بن عبد الله: «لما خلق الله تعالى الدنيا جعل في الشبع المعصية والجهل، وجعل في الجوع العلم والحكمة»[4].

ولذلك جعل القشيري الجوع من صفات القوم الأساسية فقال: «وكان الجوع من صفات القوم، وهو أحد أركان المجاهدة، فإنّ أرباب السلوك تدرجوا إلى اعتياد الجوع والإمساك عن الأكل، ووجدوا ينابيع الحكمة في الجوع، وكثرتْ الحكايات عنهم في ذلك»[5].

ويستدلون في هذا بقول مشهور للقمان حين قاله لابنه وهو يعظه: «يا بني، إذا امتلأتْ

---

(١) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص١٥٣.

(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٣٢.

(٣) أبو النجيب السهروردي: آداب المريدين ص٥٠.

(٤) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٢٧١.

(٥) المصدر السابق ج١ ص٢٧٠.

المعدة نامتْ الفكرة، وخرستْ الحكمة، وقعدتْ الأعضاء عن العبادة»[1].

فإذا كان الصوفية طلاب الاجتهاد في العبادة، ومبتغي الحكمة، وطلاب الآخرة، فلا جرم حرصوا على التقلل من الأكل لدرجة الجوع الذي هو وسيلة ذلك.

وقد سار ابن خفيف على نفس طريقة القوم وطَبّقَ هذا الأمر، وقد ذكرنا في ترجمته[2] ما يدل على حرصه الشديد على التقلل التام من الطعام.

ومن صور الاجتهاد التي يروّض بها المريد نفسه: منعها من التَمَتُّع بلبس الفاخر من الثياب، بل يلبس الخشن الذي لا يؤدي إلى الفخر والتباهي.

فالثياب من حاجات النفس وضروراتها لدفع الحر والبرد، كما أنّ الطعام من حاجات النفس لدفع الجوع، وكما أنّ النفس غير قانعة بقدر الحاجة من الطعام بل تطلب الزيادات والشهوات، فهكذا في اللباس تَتَفَنَّن فيه، ولها فيه أهوية متنوعة، ومآرب مختلفة، فالصوفي يَرُدُّ نفسه في الثياب إلى متابعة صريح العلم[3].

ويذكر أبو النجيب السهروردي أنّ من آداب المريدين في اللباس أن يكونوا مع الوقت يلبسون ما يجدون من غير تكلف ولا اختيار، ويقتصرون على ما يؤدون به الفرض من ستر العورة وما يدفع الحر والقر، ويتبرمون بكثرة اللباس ويواسون بالفضل، ومع هذا التقلّل والتزهّد في الثياب إلا أنّ الصوفية ينبهون على ضرورة النظافة والتجمّل وإن كان

(١) الأقفهسي: آداب الأكل ص٢٥ (بتحقيق د/ عبد الغفار البنداري ومحمد زغلول، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية - بيروت).

(٢) راجع ترجمة ابن خفيف في ص٣٤.

(٣) راجع: أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٣٦٣.

الثياب خلقًا باليًا[١].

ويتضح من هذا أنّ من وسائل ترويض النفس منعها من ناعم الثياب وإلزامها بالخشن، وقد كانت تلك سنة الصوفية جميعًا حتى نُسِبوا إلى ظاهر ثيابهم الخشن عمومًا، والصوف منه خصوصًا.

والواقع أنّ ابن خفيف حين قرر تلك الوسيلة لسياسة النفس لم يكن تقريره نظريًا وحسب، بل التزم به عمليًا فكان يميل في ثيابه إلى التقلل الشديد، وكما ذكرنا عنه في التعريف به أنّه كان يتردد على المزابل حتى جمع بعض الخرق وغسلها وخاط منها قميصًا واشترى رداءً بثلاثة دراهم كان يلبسه فوقه عند لقاء الناس، حتى أنّه آثر على نفسه بعض فقراء الصوفية بهذا الرداء الفوقاني.

ومن **وسائل ترويض النفس**: إلزامها كثرة العبادة، وخاصة الصلاة خصوصًا في الجماعات والأوقات الفاضلة كقيام الليل وقت الأسحار، وهذا ما يقرره ابن خفيف بقوله: إنّه يجب على المريد أن يطالب نفسه «بدوام الصلوات، وأن يستديم الجماعات، وأن يُقل المجالسات، مع مراعاة الخلوات، وكثرة البكاء في الأسحار»[٢].

وغني عن البيان أنّ العبادة هي وسيلة الوصول إلى المعبود ﷻ، ولا يتحقق وصول ولا مقام ولا حال إلا بالعبادة، وهذا ما يؤكد عليه ابن خفيف صراحة في «المعتقد الصغير» حين يقول: «والوصول إلى الحق من غير طريق العبادة محال»[٣].

فمن سار في طريق العبادة والطاعة وَفَّقَهُ الله تعالى للترقي والوصول، ومن قعد عنهما فهو مُدَّعٍ من جملة المغرورين الذين بَيَّنَ الغزالي حالهم بقوله: «وظهر لبعضهم أنّ هذا

---

(١) أبو النجيب السهروردي: آداب المريدين ص٤٨.

(٢) راجع نص كتاب الاقتصاد في قسم التحقيق ص٣٠٦.

(٣) ابن خفيف: المعتقد الصغير ص٣٣٤.

التعب كله لله، وأنّ الله تعالى مستغنٍ عن عبادة العباد، لا ينقصه عصيان عاصٍ، ولا تزيده عبادة متعبد، فعادوا إلى الشهوات وسلكوا مسلك الإباحة، وطووا بساط الشرع والأحكام، وزعموا أنّ ذلك من صفاء توحيدهم، حيث اعتقدوا أنّ الله مستغنٍ عن عبادة العباد»(1).

وكذلك روى السلمي عن أبي الحسين الوراق أنّه قال: «لا يصل العبد إلى الله إلا بالله، وبموافقة حبيبه ﷺ في شرائعه، ومن جعل الطريق إلى الوصول في غير الاقتداء يضل من حيث يظن أنّه مهتدٍ»(2).

وقد كان لابن خفيف عناية خاصة واهتمام شديد بأمر الصلاة فرضها ونفلها، حيث حرص على صلاة الفرض في المسجد والقيام بها حق القيام والاستعداد لها، ثم له اعتناء بالنافلة حتى نُقِلَ عنه أنّه صلى بين الظهر والعصر ألف ركعة(3).

وقد ذكر ابن خفيف وسائل أخرى لقهر النفس وترويضها، مثل مداومة الذكر والاستغفار في كل الأوقات، ومثل الحذر الشديد من الفتور والملالة في العبادة، وهو بهذا ينبّه المريد إلى ضرورة سياسة نفسه بكل وسيلة ممكنة.

الفصل العاشر

وجوب الاقتداء بأهل العزائم وترك مجالسة أهل الرُّخَص

يوجب ابن خفيف على المريد الصادق أن يطلب معالي الأمور، وذلك لا يتحقق إلا بطلب سير وأخلاق وأحوال الصادقين في معاملتهم لربهم، ويخص ابن خفيف طائفة معينة بوجوب الاقتداء بها وهم صدر هذه الأمة الذين خرجوا على السلامة، ثم يحذر المريد

(1) أبو حامد الغزالي: الإحياء ج3 ص230، وراجع: الطوسي: اللمع ص531.

(2) السلمي: طبقات الصوفية ص230.

(3) راجع ترجمة ابن خفيف في ص37.

من مجالسة أهل الرُّخَص والمتساهلين والمتأولين، فإنّ في ذلك فتنة تمنعه من مواصلة السير والسلوك إلى الله تعالى.

والشيخ الكبير لا يقول هذا نظريًا فقط، بل طبّقه في حياته وبداياته تطبيقًا عمليًا كما سبق وأشرنا في التعريف به.

وهي في الحقيقة سُنَّة صوفية أصيلة، فإذا كانت الرُّخَص جائزة شرعًا، ويجوز للمسلمين الأخذ بها، فإنّ ذلك في حق عوام المؤمنين، أمّا خواصهم - والصوفية منهم - فإنّهم يتسامون بهممهم فوق الرُّخَص ولا يأخذون إلا بالعزائم، وفي هذا يقول صاحب «عوارف المعارف»: «وللعزيمة أقوام يركبونها ويراعونها، لا يرون النزول إلى الرُّخَص خوفًا من فوت فضيلة الزهد في الدنيا»[1].

ولذلك يأمر الصوفية المريد أن يفتح على نفسه أبواب الاجتهاد بمختلف أنواعها حتى يتحقق بصفات الزاهدين ويلحق بدرجات الصالحين.

وفي هذا يقول إبراهيم بن أدهم: «لن ينال الرجل درجة الصالحين حتى يجوز ست عقبات:

أولها: أن يغلق باب النعمة ويفتح باب الشدة.

والثاني: أن يغلق باب العز ويفتح باب الذل.

والثالث: أن يغلق باب الراحة ويفتح باب الجهد.

والرابع: أن يغلق باب النوم ويفتح باب السهر.

والخامس: أن يغلق باب الغنى ويفتح باب الفقر.

(١) أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٣٦٨.

والسادس: أن يغلق باب الأمل ويفتح باب الاستعداد للموت»[1].

كما يقول أبو علي الدقاق: «من زيّن ظاهره بالمجاهدة حسّن الله سرائره بالمشاهدة، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ﴾ [العنكبوت: ٦٩]»[2].

وبالرغم من أنّ الرخصة جائزة شرعًا إلا أنّ الصوفية يضعون لها آدابًا وشروطًا، ويُحَذِّرون المريد من الركون إليها والاستكثار منها؛ لأنّ ذلك يُسقط من منزلته، وربما يدعوه إلى الدنيّ من الأمور.

فيعقد الشيخ زروق فصلًا خاصًا بعنوان: «في الرخصة والشهوة والشبهة والتأويل وحال المريد في ذلك ومعاملته فيه»[3].

ويذكر فيه جواز الرخصة وأدلتها، ثم يذكر ما كرهه القوم في الرخص بقوله: «وإنّما الرخصة المذمومة عند القوم الرخصة المكروهة، كترك معتاد الفضائل والاسترسال في العاديات، أو التوسع في المباحات، أو الرجوع في المندوبات»[4].

وبالرغم من جواز هذه الرخص لكل المسلمين إلا أنّ من أدب المريد «إيثار الأَوْلَى في كل شيء، دينًا ومروءة، فإنّ المريد إذا فارق الأَوْلَى وقع في دناءة أو زلة أو عيب أو علة، فكان مذمومًا عند الله، ممقوتًا عند أبناء الدنيا، قريبًا من كل آفة، بعيدًا من السلامة»[5].

ويعقد أبو النجيب السهروردي فصلًا خاصًا بذلك أيضًا بعنوان: «في ذكر آدابهم في

---

(١) القشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٢١٧.

(٢) نفس المصدر ج١ ص٢١٦.

(٣) زروق الفاسي: عدة المريد الصادق ص٢١٥ (بتحقيق الصادق الغرياني، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، دار ابن حزم).

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) نفسه ص٢١٦.

الرُّخَص» يبيح فيه الرخصة للصوفي عند الضرورة ولكن بشرط عدم البقاء فيها؛ لأنّ عاقبتها على المريد وخيمة، فيقول: «والرخصة منهل يرد عليه المبتدئ من المريدين، ويتحيَّر فيه المتوسط من السالكين، ويستريح إليه الفائز من العارفين، ولا يستوطن فيه المتحققون، لأنه وادٍ متسع كثير الآفات إلا على نية الرحيل اضطرارًا، فالمُرْتِع في جانب الحمى يوشك أن يواقع الحمى،؛ لأنّ حمى الله اتقاء محارمه، وكل مَنْ انحط عن درجة الحقيقة وقع على طريق الرخصة، ومن سقط منها وقع في الضلالة والجهل»[(١)].

ولكن كيف يصل المريد إلى هذه الدرجة من الخروج من الرخصة واستعمال العزيمة؟

هنا يرسم الشيخ الكبير طريقًا واضحًا للوصول إلى تلك الدرجة، وهو بكل بساطة مطالعة سير الصادقين من السالكين أهل الهمم العالية وصدق المعاملة لرب العالمين، وترك أهل التأويل من المتساهلين من طلاب الدنيا.

فإنّه «لا ينبغي للمبتدئ أن يعرف أحدًا من أرباب الدنيا فإن معرفته لهم سُمٌّ قاتل»[(٢)].

الفصل الحادي عشر

في وجوب الحذر من علم يُقعده عن زيادة الأحوال ويدعوه إلى الرُّخص

ما زال ابن خفيف يحذر المريد تحذيرًا شديدًا من التساهل والتسامح في ركوب الرخص وترك العزائم، وإذا كان في الفصل السابق قد ذكر سببًا من أسباب الجنوح إلى الرخص وهو مصاحبة أبناء الدنيا، وذكر علاجه وهو مطالعة سير الصالحين وأخصهم صدر هذه الأمة، فإنّه في هذا الفصل يذكر سببًا آخر قد يورد المريد موارد التساهل والأخذ

(١) أبو النجيب السهروردي: آداب المريدين ص٧١.

(٢) أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٥١٠.

بالرخص وهو العلم الذي لا ينفعه في زيادة أحواله والترقي في مقاماته، ثم يذكر أنّ العلم لا بد أن يُطلب لوجه شرعي لا لمجرد هوى النفس، وهو هنا يستدل بقوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الحديد: ٢٧].

فهم هنا قد اختاروا الرهبانية لكن ليس طلبًا لرضوان الله وإنّما بدعة ابتدعوها ما شرعها الله لهم، لذلك لم يُحمدوا عليها بل استحقوا الذم والوصف بالفسق.

وابن خفيف هنا يحذر أيضًا من أن يجره العلم الذي لا ينفعه إلى الوقوع في الفتور عن العبادة، وتلك فتنة كبيرة وبلية عظيمة يُعَبِّرُ عنها ابن خفيف بقوله: «وذلك أنّ بلاء المريد وفتنته ظهور الفترة والرجوع إلى أحكام الرُّخصة»[(١)].

الفصل الثاني عشر

في وجوب تَعَلُّم العلم وأَجَلُّ أنواعه علم الزهد والورع

بعد أن حذّر الشيخ الكبير في الفصل السابق من العلم الذي لا يزيد المريد في الأفعال ولا يُرَقِّيه في الأحوال، أراد في هذا الفصل أن يوجِّه نظر المريد إلى العلم النافع الذي ينفعه في طريقه ويفيده في سيره وسلوكه.

فالعلم كله نافع، ولكن ابن خفيف يوجب على المريد أن يتعلم العلم الذي يؤديه إلى معرفة الزهد والورع اللذين يؤديان به إلى إصلاح مطعمه وملبسه، وهو أمر لا يصح شيء إلا به.

وهنا يُقَدِّم ابن خفيف العلم على العمل وهو مُحق في ذلك؛ إذ «العلم روح والعمل

---

(١) راجع نص كتاب الاقتصاد في قسم التحقيق ص٣١٣.

جسد، والعلم أصل والعمل فرع، والعلم حاكم والعمل محكوم عليه»[1].

وهذا العلم لا بد أن يؤدي بالمريد إلى الزهد، و«الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين، وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه...وقد جرت العادة بتخصيص اسم الزاهد بمن ترك الدنيا، ومن زهد في كل شئ سوى الله تعالى فهو الزاهد الكامل»[2].

ثم ينبغي أن يُرَقِّيه العلم من الزهد إلى الورع، والورع من الأصول الأساسية في طريق الصوفية حتى قيل: «أصل الطاعة الورع، وأصل الورع التقى، وأصل التقى محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس الخوف والرجاء، وأصل الخوف والرجاء معرفة الوعد والوعيد، والوعد والوعيد ذكر تعظيم الثواب وشديد العقاب، وأصل ذلك العبر والفكر»[3].

ويضرب ابن خفيف مثالاً عمليًا في الزهد والورع وهو في قضية الأكل واللباس، حيث ينبغي على المريد أن يستعمل الزهد والورع في مطعمه وملبسه حتى يتحرى الحلال الخالص فيهما، فإذا فعل ذلك صَحَّتْ عبادته وسلوكه ومعاملته، وبدون تحري الحلال فيهما لا يقبل منه شيء.

وهذا المعنى هو نفس ما نبَّه عليه الجنيد حين قال: «بصفاء المطعم والملبس والمسكن يصلح كل شيء»[4].

ويؤكد الشيخ الكبير أنّ تَحَرِّي المريد الحلال في هذين الأمرين بالذات يوجب له

(١) أبو النجيب السهروردي: آداب المريدين ص٢٤.

(٢) ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين ص٣٢٤.

(٣) ابن فورك: الإبانة عن طرق القاصدين ص٥٠.

(٤) السراج الطوسي: اللمع ص٢٤٤، الخركوشي: تهذيب الأسرار ص٢٥٠.

الزيادة في أحواله وأن المسامحة فيهما يوجب له النقص.

وبالطبع هذا أمر شرعي صرف، لذلك استدل عليه ابن خفيف بالأحاديث المشهورة هنا مثل: «أيُّها الناس، إنّ الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإنّ الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ۝٥١﴾ [المؤمنون: ٥١]، وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ﴾ [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء، يا رب، يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّيَ بالحرام، فأنّى يستجاب لذلك؟»(١).

وإذا رجعنا إلى سيرة الشيخ الكبير وأحواله وجدناه قد طبق ذلك عمليًا وحرص عليه أشد الحرص إن في المأكل وإن في الملبس.

الفصل الثالث عشر

في وجوب معرفة علم الإخلاص الذي عليه مدار قبول القربات

لقد اهتم الشيخ الكبير بقضية الإخلاص اهتمامًا كبيرًا كمًّا وكيفًا:

ففي الكم: شغلت تلك القضية مساحة واسعة من الكتاب الذي بين أيدينا حيث تناولها ابن خفيف في ثمانية فصول كاملة.

وفي الكيف: تناولها بتفاصيل كثيرة أكثر من غيرها من قضايا الكتاب مستدلًا وشارحًا وذاكرًا لأمثلة كثيرة.

وفي هذا الفصل يوجب الشيخ الكبير على المريد أن يتعلم الإخلاص مُبَيِّنًا أنّ الأفعال السابقة والتي يُطَالَب بها المريد في بداية أمره لا تتم له إلا بالإخلاص؛ إذ لا يقبل الله من

---

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣١٨.

عبده قربة إلا إذا قارنها الإخلاص.

ويُعَرِّف ابن خفيف الإخلاص هنا بأنّه: «إفراد المقاصد وتصفية الأعمال عن رؤية الخلق»[1].

وهذا التعريف من ابن خفيف هو ما عليه الصوفية حيث يقول الحارث المحاسبي: «علامة الإخلاص خروج الخلق عن القلب في معاملة الحق، وقصد القلب بالعمل لله تعالى وحده لا شريك له، والنظر في ثواب الله، لا يريد بذلك محمدة ولا كراهة ذمّ، وقال: إنّما سُمِّيَ الإخلاص إخلاصًا لأنّه خلص من الآفات»[2].

وهذا ما يذكره يوسف بن أسباط من علامات الإخلاص والتي هي «إخراج الخلق من معاملة الحق، والتَّفَرُّد بعمل الخالق دون النظر إلى الخلائق، وزيادة الإيمان على اختلاف وكثرة الذكر، مع قلة النسيان، وإيثار طاعة الرحمن ﷻ على طاعة غيره، واستشعار الخوف، والخشية في الطاعات، وصفاء الذكر على أنّه مطلوب بفعله من بين البشر، وطول السير في المجاهدات»[3].

وسُئِل الجنيد عن الإخلاص فقال: «إخراج الخلق عن معاملة الحق، والنفس أول الخلق»[4].

ويقول أبو طالب المكي: «الإخلاص عند المخلصين: إخراج الخلق من معاملة الحق وأول الخلق النفس، والإخلاص عند المحبين: أن لا يعملوا عملًا لأجل النفس، وإلا دخل عليها مطالعة العوض أو الميل إلى حظ النفس، والإخلاص عند الموحدين:

(١) راجع النص المحقق ص٣٢٠.

(٢) ابن فورك: الإبانة عن طرق القاصدين ص١٠٢.

(٣) الخركوشي: تهذيب الأسرار ص١٨٢.

(٤) نفس المصدر ص١٨٣.

خروج الخلق من النظر إليهم في الأفعال، وعدم السكون والاستراحة إليهم في الأحوال»[1].

فالإخلاص إذن أن يتوجّه العبد بعمله إلى ربه وحده ولا يكون لأحد من الخلق في قلبه حضور حتى ولو كانت نفسه، وبذلك يكون الإخلاص هو روح الأعمال أو على حد تعبير ابن عجيبة وهو يشرح قول ابن عطاء الله: «الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها»[2]، يقول: «الأعمال كلها أشباح وأجساد، وأرواحها وجود الإخلاص فيها، فكما لا قيام للأشباح إلا بالأرواح وإلا كانت ميتة ساقطة، كذلك لا قيام للأعمال البدنية والقلبية إلا بوجود الإخلاص فيها، وإلا كانت صورًا قائمة وأشباحًا خاوية لا عبرة بها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝﴾ [الزمر: ٢]»[3].

ويبدو من كلام المشايخ - رحمهم الله - أنّ الإخلاص ليس على درجة واحدة بل على درجات ثلاث، هذه الدرجة التي ذكرها ابن خفيف هي أولها، وهي المناسبة لحال المريد المبتدئ، وهناك درجتان أخريان.

يوضح هذا ابن عجيبة بقوله: «والإخلاص على ثلاث درجات:

درجة العوام، والخواص، وخواص الخواص:

فإخلاص العوام: هو إخراج الخلق من معاملة الحق، مع طلب الحظوظ الدنيوية والأخروية، كحفظ البدن والمال وسعة الرزق والقصور والحور.

---

(١) أبو طالب المكي: قوت القلوب ج٢ ص١١٩، بتصرف يسير.

(٢) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص٤٩.

(٣) نفس المصدر والصفحة.

وإخلاص الخواص: طلب الحظوظ الأخروية دون الدنيوية.

وإخلاص خواص الخواص: إخراج الحظوظ بالكلية، فعبادتهم تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية، أو محبة وشوقاً إلى رؤيته كما قال ابن الفارض:

ليس سؤلي من الجنان نعيما... غير أني أحبها لأراكا»[1].

وإذا كان الإخلاص بهذه الأهمية الكبيرة، فكيف يصل إليه المريد؟

هنا يجيب الشيخ الكبير، وكعادته يرسم للمريد طريقًا واضحًا يصل به إلى مبتغاه، وطريق الإخلاص كما يرسمه الشيخ الكبير هو أن يتحقق المريد بشيئين: بمعرفة الخالق وبمعرفة المخلوق.

فمعرفة الخالق: بمعنى أن يَتَيَقَّنَ المريد بأنّ الخالق هو الذي بيده مقاليد كل شيء، فهو الضارّ النافع، وهو المعطي المانع، ولا يقدر على ذلك غيره، فيتوجّه بالعمل والقصد إليه.

وأمّا معرفة المخلوق: بمعنى أن يتيقّن المريد من أنّ الخلق جميعًا لا يملكون لأنفسهم شيئًا من الضر والنفع فضلًا عن أن يملكوه لغيرهم.

ويستشهد ابن خفيف هنا بالنصوص الشرعية المشهورة مثل قوله تعالى: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢].

ومثل حديث ابن عباس رضي الله عنهما المشهور: «يا غلام إنّي أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أنّ الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو

(١) نفسه ص٥٠.

اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف»[1].

الفصل الرابع عشر
في وجوب معرفة أنّ الإخلاص فرضٌ خاصة في التوحيد

هذا هو ثاني الفصول الثمانية التي عقدها ابن خفيف لمعالجة قضية الإخلاص، وبعد أن عرّفه في الفصل السابق، وذكر لنا الدرجة التي تخصُّ المريد المبتدئ عَقَدَ هذا الفصل ليؤكد على أنّ الإخلاص فرض واجب على العبد في جميع ما يَتَعَبَّدُ به لربه، وأوّل شيء يجب على المريد معرفة فرضية الإخلاص فيه هو التوحيد، ويستدل هنا بالحديث الذي نَصَّ فيه النبي ﷺ على الإخلاص في التوحيد وهو قوله صلوات ربي وسلامه عليه: «من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة»[2]، وأحاديث أخرى تؤيد هذا المعنى.

ويشرح ابن خفيف كيفية الإخلاص في التوحيد فيرى أنّه يتحقّق إذا اعتقد المريد إفراد الله تعالى بكمال ما أخبر به عن نفسه من أوصاف وأسماء وصفات ممّا جاءت به الأدلة الشرعية في الكتاب والسنة، فهو سبحانه صاحب العظمة والكبرياء، الحي القيوم الذي لا يموت، ولا يُشبه أحدًا من خلقه ولا يشبهه أحد من خلقه، «ليس كمثله شي وهو السميع البصير».

والواقع أنّ الشيخ الكبير يهتم بمسألة تحقيق الإخلاص في التوحيد اهتمامًا بالغًا ويجعلها أول واجبات العبد وعلامة فلاحه ودليل سعادته، وليس هذا الاهتمام هنا فقط بل في كتبه الأخرى، ففي «المعتقد الصغير» يفتتح كتابه بعد المقدمة بقوله: «فإنّ العاقل

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٢٢.
(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٢٣.

من صَحَّحَ اعتقاده عدة للقاء ربه، وأخلص نيته في تزكية أعماله، وأحسن عبادة ربه ذخرًا لمعاده، وعلم أنّه لم يُخلق عبثًا ولم يُترك سدًى، فيجتهد في توثيق عُرى دينه وتصفية عمله وتصحيح عبادته، فبه يتم ويصفو ويزيد وينمو، والله الموفق لسبل الرشاد ولما يحب ويرضى»[1].

ثم يُفَصِّل القول - كما فعل هنا - فيقول: «فأول ما يحتاج إليه العبد اعتقاد التوحيد؛ ليتم به سائر الأعمال، فيعتقد أنّ الله واحد لا من حيث العدد ولا كالآحاد، وأنّه شيء لا كالأشياء، وأنّه لا شبه له من خلقه ولا ضدّ له في ملكه ولا ندّ له في صنعه، ولا هو جسم ولا عرض ولا جوهر، وليس بمحلّ للحوادث ولا الحوادث محلّ له، ولا حالّ في الأشياء ولا الأشياء حالّة فيه، ولا يتجلّى في شيء ولا استتر بالحوادث...»[2].

فهو مهتم بتصحيح التوحيد وتحقيق الإخلاص لأنّه أساس الدين كله، وهذا التوحيد الذي ذكره الشيخ الكبير هو ما أجمع عليه الصوفية وشددوا على ضرورة اعتقاده، فالكلاباذي يذكر هذا الإجماع من الصوفة فيقول: «اجتمعت الصوفية على أنّ الله واحد أحد، فرد صمد قديم، عالم قادر، حي سميع بصير، عزيز عظيم جليل كبير، جواد رؤوف متكبر جبار، باقٍ أول، إله سيد، مالك رب رحمن رحيم، مريد حكيم، متكلم، خالق زراق، موصوف بكل ما وصف به نفسه من صفاته، مسمّى بكل ما سمّى به نفسه، لم يزل قديمًا بأسمائه وصفاته، غير مشبه للخلق بوجه من الوجوه، لا تشبه ذاته الذوات ولا صفته الصفات، لا يجري عليه شئ من سمات المخلوقين الدالة على حدثهم، لم يزل سابقًا متقدمًا للمحدثات، موجودًا قبل كل شئ لا قديم غيره ولا إله سواه، ليس بجسم ولا شبح

---

(١) ابن خفيف: المعتقد الصغير ص٢٦٠.

(٢) المصدر السابق ص٢٦١:٢٧٣.

ولا صورة ولا شخص ولا جوهر ولا عرض»[1].

ويقول أبو النجيب السهروردي في نفس هذا المعنى: «أجمعوا - أي الصوفية - على أنّ الله تعالى واحد لا شريك له، ولا ضد له، ولا شبيه له، ولا ند له، موصوف بما وصف به نفسه، مسمى بما سمى به نفسه، ليس بجسم ولا بجوهر ولا بعرض...»[2].

إذن: هناك إجماع متفق عليه بين الصوفية على أهمية التوحيد وتحقيق الإخلاص فيه كما ذكر ابن خفيف.

الفصل الخامس عشر

في وجوب تحقيق الإخلاص في العبودية

هذا هو الفصل الثالث الذي يتحدّث فيه ابن خفيف عن قضية الإخلاص، ففي الفصل السابق تحدّث عن الإخلاص في أصل الأصول وهو التوحيد، وهنا يتحدث عن الإخلاص في الفروع وهي العبادة، ويُعَرِّف ابن خفيف الإخلاص في العبادة بأنّه: تصفية الأعمال عن اذِّكار الخلق ورؤيتهم وصحة القصد فيما طالبك الحق به وندبك إليه فرضًا ونفلًا بإزالة المخلوقين وإسقاط المربوبين.

وقد تقدم في أول الكلام عن الإخلاص ذكر معنى هذا الكلام عند الشيخ الكبير وعند غيره من الصوفية.

ويستدل ابن خفيف هنا بقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [الكهف: ١١٠].

---

(١) الكلاباذي: التعرف ص٣٣، ٣٤.

(٢) أبو النجيب السهروردي: آداب المريدين ص٩ وما بعدها.

الفصل السادس عشر

في وجوب تَعَلُّم علم الإخلاص من أحوال المشايخ

هذا فصل رابع من الفصول التي جعلها ابن خفيف للحديث عن الإخلاص، وفي هذا الفصل ينصح الشيخ الكبير المريدَ أن يتعلّم الإخلاص مِنْ تَفَقُّد حال المشايخ، وأن ينتفع بالشيخ في أحواله وأقواله وأفعاله، فإنّ حال الشيخ يسري إلى المريد.

ولذلك يوجب الصوفية على المريد أن يسلك على يد شيخ، وفي هذا يقول ابن عطاء الله السكندري: «وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق، سالك للطريق، تارك لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فَلْيَمْتَثِلْ ما أمر، وَلْيَنْتَهِ عمّا نهى عنه وزجر»[1].

ويقول ابن عطاء الله أيضًا في سريان أحوال الشيخ إلى المريد: «ليس شيخك مَنْ سمعتَ منه، وإنّما شيخك من أخذتَ عنه، وليس شيخك من واجهتك عبارته، وإنما شيخك الذي سَرَتْ فيك إشارته، وليس شيخك من دعاك إلى الباب، وإنّما شيخك الذي رفع بينك وبينه الحجاب، وليس شيخك من واجهك مقاله، إنّما شيخك الذي نهض بك حاله، شيخك هو الذي أخرجك من سجن الهوى، ودخل بك على المولى، شيخك هو الذي ما زال يجلو مرآة قلبك، حتى تجلّت فيها أنوار ربك، أنهضك إلى الله فنهضتَ إليه، وسار بك حتى وصلتَ إليه، وما زال محاذياً لك حتى ألقاك بين يديه، فزج بك في نور الحضرة وقال: ها أنت وربك»[2].

---

(١) ابن عطاء الله السكندري: مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح ص٣٠ بتصرف يسير (مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، طبعة سنة ١٣٣٢هـ).

(٢) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص٥١٥.

ويتحدث الشيخ زرّوق الفاسي عن أهمية لقاء المشايخ وبركة صحبتهم فيقول: «فكان الأدنى منهم إذا لقي الأعلى استفاد برؤيته أحوالًا، لأنَّ مَنْ تَحَقَّقَ بحالة لم يخلُ خاطره منها، والأحوال مُوَرِّثة، فلذلك قال ابن العريف رَحِمَهُ اللَّهُ: «كيف يفلح مَنْ لم يخالط مُفْلِحًا»، وكان الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم ينتفعون برؤيته ﷺ حتى قال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «والله ما نفضنا التراب عن أيدينا من دفه ﷺ حتى وجدنا النقص في قلوبنا»، وكانت الصحبة عندهم لِتَعَلُّم الآداب، وأخذ العلم بوجه يعرف أحدهم بالتزام الوجه الذي يأخذ منه ويواليه موالاة مَنْ يرى فضله عليه، ويشكر إحسانه إليه، من غير زائد على ذلك، وأصلهم في ذلك قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ [لقمان: ١٥]»[١].

ويوصي ابن عجيبة بصحبة من ينفعك حاله فيقول: «فإذا طلبتَ الصحبة فاصحب العارفين الذين ينهضك حالهم ويَدُلُّك على الله مقالهم، وأنشدوا في ذلك:

فشمِّر ولُذْ بالأولياء فإنّهم ❁ لهم من كتاب الحق تلك الوقائع
هم الذخر للملهوف والكنز والرجا ❁ ومنهم ينال الصَّبُّ ما هو طامع
بهم يهتدي للعين من ضَلَّ في العمى ❁ بهم يُجذب العشاق والرَّبْع شاسع
هم القصد والمطلوب والسُّؤْل والمنى ❁ واسمهم للصبر في الحب شافع
هم الناس فالزم إنْ عرفتَ جنابهم ❁ ففيهم لِضُرِّ العالمين منافع»[٢].

الفصل السابع عشر

في كيفية استعمال الإخلاص في العادات حتى تصير عبادات

بعد أن بيَّن الشيخ الكبير حقيقة الإخلاص وكيفية تعلمه في الفصول السابقة أراد هنا

---

(١) زروق الفاسي: عدة المريد الصادق ص٥١، ٥٢.

(٢) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص٣١٥، بتصرف يسير.

أن يضرب لنا أمثلة عملية تطبيقية لأمور قد يُظن أنّ الإخلاص لا يدخلها لكونها من ضرورات الناس وعاداتهم، كالأكل مثلًا، فيبيّن الشيخ الكبير أنّ استعمال الإخلاص في الأكل يحوله إلى عبادة.

ولكن كيف ذلك؟

هنا يرسم ابن خفيف طريقًا واضحًا سهلًا ميسورًا للمريد هكذا:

- على المريد أن يعطي نفسه من الأكل حقها لا حظَّها، لقوله ﷺ: «إن لنفسك عليك حقًا»[1].

- أن يمنعها عن الشَّرَه في طلب المأكل والتكالب عليه.

- أن يتحرى الحلال في مأكله ويخلِّصه من الحرام والشبهات.

- أن يلتزم التقسيم الوارد في السنة في قوله ﷺ: «ما ملأ آدميّ وعاءً شرًا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[2].

- أن ينوي في كل أكله نية صالحة ومقصدًا شرعيًا.

- إذا وُسِّع عليه في الرزق فلا ينبغي أن يتوسع في أنواع الأغذية بل يبقى على التقلّل.

- أن يقيم نفسه على منهاج النبوة وحال النبي ﷺ الذي كان يربط على بطنه الحجر والحجرين.

- بهذه الخطوات العملية يحقق المريد ما يصبو إليه من الإخلاص في المأكل، وبذلك يصبح الأكل عبادة عند المريد بعد أن كان عادة عند عوام المسلمين.

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٣٢.

(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٣٢.

الفصل الثامن عشر

في كيفية استعمال الإخلاص في اللباس أيضًا

ما زال الشيخ الكبير يضرب أمثلة عملية لكيفية استعمال الإخلاص في الأمور الضرورية التي يُظن أنّها عادات وليس لها مدخل في العبادات، فيؤكد الشيخ الكبير على أنّ الملبس أيضًا يدخله الإخلاص، ويجب على المريد أن يتعلم كيفية الإخلاص في الملبس، فيجب على المريد أن يحرص على ما يلي:

- أن يترك التجمُّل ويميل إلى البذاذة.

- أن يقتصر على ما يؤدي به الفرض ويدفع عن نفسه الحرّ والقرّ.

- ألا يكون في ثيابه ترفُّع على الفقراء، كذلك لا يؤديه إلى أن يزدريه الأغنياء.

- أن يَحْذَر أن تكون ثيابه ثياب شهرة، لقوله ﷺ: «من لبِسَ ثوبَ شُهْرَة أَلْبَسَهُ الله يوم القيامة ثوبـًا مثله ثم تَلَهَّبُ فيه النّار»[١].

- أن يكون صادقًا في زهده في ثيابه، بمعنى أنّه في ظاهره يلبس ثيابًا خشنة، فكذلك ينبغي أن تكون نفسه ساكنة قانعة بهذا الثياب، لا متطلعة إلى ما هو أعلى منه، فإنّ ذلك يقدح في صدقه وإخلاصه.

وهذه الآداب السابقة كلها آداب نبوية ثابتة بالأحاديث الشريفة، وما أحسن فعل ابن خفيف هنا حين يقرر كل أدب بدليله الشرعي من الكتاب والسنة.

فإذا التزم المريد بهذه الآداب تحقق له الإخلاص في ثيابه ويصير اللباس عبادة بفضل

---

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٣٥.

الإخلاص بعد أن كان مجرد ضرورة أو عادة.

الفصل التاسع عشر

في وجوب معرفة تحذير الشرع من أوصاف الفقير المختال

يحذر الشيخ الكبير تحذيرًا شديدًا من آفة أو عقبة قد تعترض طريق المريد فتقدح في إخلاصه وتُدْخله بابًا من أبواب مَقْتِ الله تعالى له، وهذه الآفة هي رؤية نفسه أفضل أقرانه، فيؤدي به إلى التَّكَبُّر والاختيال عليهم.

وقد ورد في القرآن الكريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝﴾ [النساء: ٣٦]، وهو المعجب بنفسه، المتكبر على الخلق، الفخور على الناس، الذي يرى نفسه خيرًا منهم، فهو في نفسه كبير لكنّه عند الله حقير وعند الناس بغيض(١).

والشيخ الكبير هنا يذكر بعض العلامات التي إذا ظهرت على المريد توجب عليه الحذر؛ لأنّ تلك هي علامات الفقير المختال، ومن هذه العلامات:

- التَّكَبُّر على أقرانه والتَّرَفُّع على نظرائه.

- نظره إلى نفسه بعين الكمال حتى يظنّ أنّه ليس هناك مَنْ هو أفضل منه.

- عدم معرفة مقادير الناس مِن حوله، فلا يَعْتَدّ بعالم لبيب، ولا بحكيم أديب، ولا بناسك خبير.

- ازدراء الناس من حوله واستحقارهم، والنظر إليهم بعين النقص بعد أن نظر إلى نفسه بعين الكمال.

---

(١) راجع: ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج٢ ص٣٠١ (بتحقق: سامي سلامة، الطبعة الثانية سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار طيبة للنشر والتوزيع).

وهذه العلامات تؤديه إلى معاملة الناس بطريقة غير شرعية، فدائمًا يَتَمَلَّكُه الغضب منهم والحقد عليهم والبغضاء لهم والنظر إليهم بعين الشَّيْن والتقصير.

وهذا يؤدي به إلى الهلاك دنيا وأخرى، ولذلك ينبّه الشيخ الكبير بأنّ المريد إذا وقع في ذلك فإنّه يوشك أن يدخل في قوله ﷺ: «والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشّيخ الزّاني، والفقير المختال، والغنيّ الظّلوم»[1].

الفصل العشرون

في وجوب الإخلاص في طلب العلم

هذا هو الفصل السابع من الفصول التي خصّصها الشيخ الكبير لمعالجة قضية الإخلاص، وهو هنا يركز على أنّ المريد ينبغي عليه أن يتعلم الإخلاص في طلب العلم.

وكعادة الشيخ الكبير يوضح كيفية استعمال الإخلاص في نقاط محددة ليهتدي بها المريد، فالإخلاص في طلب العلم يتحقق بالتالي:

- أن يكون المريد في طلبه للعلم طالبًا للنجاة، قاصدًا لما يعود عليه نفعه.

- أن يتعلم من العلوم ما هو محتاج إليه فعلًا، لتصحيح عبادته لربه.

- أن يحذر من تَعَلُّم العلم للأمور الدنيوية كمماراة العلماء، أو مجاراة السفهاء، أو اكتساب شهرة عند الناس.

- وابن خفيف هنا يستدل بقول النبي ﷺ: «من طلب العلم ليماري به السّفهاء، أو ليباهي به العلماء، أو ليصرف وجوه النّاس إليه، فهو في النّار»[2].

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٣٧.

(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٤١.

- أن يترك العلم الذي لا ينفعه في تَعَلُّم الحلال والحرام وأحكام ملبسه ومأكله وصلاته وصيامه؛ فإنّ ذلك دخول له فيما لا يعنيه، وقد قال النبي ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»(١).

الفصل الحادي والعشرون

في وجوب الإخلاص في نشر العلم وإظهاره

هذا ختام الفصول الثمانية التي تناول فيها ابن خفيف مسألة الإخلاص، وهو هنا يوجب على المريد بعد أن يُحقق الإخلاص في طلب العلم أن يحقق الإخلاص في نشر العلم وإظهاره، ولا يترك ابن خفيف هذا الكلام بدون تفصيل، بل يُفَصِّل القول في كيفيته ويضع للمريد معالم محددة يجب أن يحتذيها، ومنها:

- أن يَحْذَر مِن أن يكون نشره للعلم لطلب الدنيا وأغراضها، مثل طلب الجاه والرفعة عند الخلق وتحقيق المنزلة عندهم؛ فإنّ ذلك طلب للدنيا بأمر ديني، وقد أخبر النبي ﷺ أنّ مَنْ فعل ذلك فليس له نصيب في الآخرة، فقال: «مَنْ عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخرة للدنيا، لم يكن له في الآخرة نصيب»(٢).

ويؤكد الشيخ الكبير على هذا التحذير فيذكر أنّ الذي يفعل ذلك فهو مثل فريق من أهل الكتاب الذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هو من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا فويل لهم ممّا كتبت أيديهم وويل لهم ممّا يكسبون(٣).

---

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٤٢.

(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٤٣.

(٣) قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ ۝﴾ [البقرة: ٧٩].

- وأنّ المريد إذا طلب الدنيا بإظهار العلم والحكمة دخل في كونه صاحب علم لا ينفع، وهذا مما استعاذ منه النبي ﷺ حين قال: «وأعوذ بك من علم لا ينفع»[1].

وأنّه بذلك ينفع غيره ويضر نفسه، وقد شبّهه النبي ﷺ بهذا التشبيه البليغ حين قال: «مَثَل العالم الّذي يُعَلِّم النّاس الخير وينسى نفسه كمثل السّراج يُضيء للنّاس ويحرق نفسه»[2].

- كذلك من علامات الإخلاص في نشر العلم ألّا يريد به المراء والجدال.

- كذلك من علامات الإخلاص في إظهار العلم ألّا يتخذه مهنة وحرفة.

- كذلك ينبغي أن ينشر العلم بقصد النصح لعباد الله من دون طمع فيهم.

- وأن يَحْذَر حذرًا شديدًا من الإعجاب بنفسه؛ لئلا يؤديه إلى الترفّع على الخلق.

- ولْيَحْذَر أخيرًا من أن يتعلم ولا يعمل ويكون همّه مراءاة الناس، فإنّ النبي ﷺ أخبر أنّ من أول من تُسعَّر بهم النار القارئ المرائي.

وبهذه الخطوات يتحقق للمريد الإخلاص في نشر العلم.

الفصل الثاني والعشرون

في وجوب الحذر من مراءاة الخلق وترك مراعاة الخالق

هذا الفصل له صلة وثيقة بالحديث عن الإخلاص، وكأنّي بالشيخ الكبير بعد أن بيّن الإخلاص وحقيقته وكيفية تحصيله بطرق مختلفة أراد هنا أن يبيّن نقيض الإخلاص وهو

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص ٣٤٤.

(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص ٣٤٤.

الرياء ومَغَبَّته وخطورته.

فبيّن أنّ الرياء هو تعظيم الخلق وترك تعظيم الخالق ﷻ، ومهابة الناس وترك مهابة الله تعالى، فالمرائي إذا فَعَلَ فَعَلَ للخلق لا لله، وإذا تَرَكَ تَرَكَ للخلق لا لله، فهو أبدًا ساعٍ في طلب مرضاة الناس، وهذا هو أصل الرياء.

«سئل الحارث المحاسبي عن أصل الرياء فقال: أصل الرياء مِنْ حب الدنيا، قيل: اكشف عن هذا وأوضح الحجة فيه، قال: نعم، لمّا أَحَبَّ الدنيا أَحَبَّ البقاء فيها، فأراد الجاه عند أهلها، وأَحَبَّ أن يُحَسِّن مذهبه عند الخلق ليتوسّع بمراده فيها، قيل له: فما معنى الرياء؟ قال: حب المحمدة على الفعل الحَسَن، فقيل له: وما علامة المرائي؟ قال: ثلاث خصال: ينشط في الملاء، ويكسل في الخلاء، ويحب أن يحمده الناس في جميع أموره»[1].

وهذا بالطبع منافٍ تمامًا للإخلاص الذي عَبَّر عنه أبو علي الدقاق بقوله: «الإخلاص إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرّب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنّعٍ لمخلوق، أو اكتساب محمدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب به إلى الله تعالى»[2].

هذا هو الإخلاص وذلك هو الرياء، فالمخلص ساعٍ أبدًا في طلب رضوان الله تعالى وقربه غير ملتفتٍ إلى الناس، والمرائي ساعٍ أبدًا في طلب مرضاة الناس غير ملتفتٍ إلى حق الله في عمله.

---

(١) ابن فورك: الإبانة عن طرق القاصدين ص١٠٦.

(٢) القشيري: الرسالة القشيرية ج٢ ص٣٥٩.

الفصل الثالث والعشرون

في ضرورة مراعاة أفضل الأوقات وهو الليل لطلب مرضاة الله

لقيام الليل عند الصوفية شأن كبير وخطر عظيم، فأكبر مُتعهم في الدنيا هو الخلوة بالله ﷻ في جوف الليل يرجون نفحاته ويستقبلون بركاته، يبوحون له بالأسرار فتشرق على قلوبهم الحكمة والأنوار، لذلك كان لهم بالليل وأوقاته وتقسيمه اهتمام بالغ.

وهم في ذلك يَصْدُرون عن تعاليم الشرع الذي رغَّب في قيام الليل وبيَّن ما يترتب عليه من جزاء كبير.

قال الله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

وقال النبي ﷺ: «يا أيها الناس، أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصَلُّوا والناس نيام تدخلوا الجنة بسلام»(١).

وقال الحسن البصري: «لم أجد من العبادة شيئاً أشدّ من الصلاة في جوف الليل، فقيل له: ما بال المُتَهَجِّدين أحسن الناس وجوهاً؟ فقال: لأنّهم خلوا بالرحمن فألبسهم من نوره»(٢).

«وقال أبو سليمان الداراني: أهل الليل في ليلهم أشد لذة من أهل اللهو في لهوهم، وقال بعضهم: ليس في الدنيا شيء يشبه نعيم أهل الجنة إلا ما يجده أهل التَّمَلُّق في قلوبهم

---

(١) أخرجه الترمذي في السنن عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه، أبواب «صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ»، ج٤ ص٢٣٣ برقم٢٤٨٥، وقال: هذا حديث صحيح.

(٢) ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين ص٦٧.

بالليل من حلاوة المناجاة، فحلاوة المناجاة ثواب عاجل لأهل الليل»[1].

وينبّه الصوفية المريدَ إذا أراد إصلاح أوقاته كلها فعليه بقيام الليل، يقول أبو حفص السهروردي: «فالصادق المريد إذا خلا ليله بمناجاة ربه انتشرت أنوار ليله على جميع أجزاء نهاره، ويصير نهاره في حماية ليله؛ وذلك لامتلاء قلبه بالأنوار، فتكون حركاته وتصاريفه بالنهار تصدر من منبع الأنوار المجتمعة من الليل، ويصير قالبه في قبة من قباب الحق مُسدّدًا حركاته، مُوقّرة سكناته»[2].

والشيخ الكبير هنا يأمر المريد الصادق أن يهتم بقيام الليل ويراعي أوقاته مراعاة تامة لطلب مسرّة الله ﷻ، ويكون هذا من علامات صدق المريد، وأمّا إهماله الليل وقيامه فهو علامة ادعاء غير صادق.

ويستدل ابن خفيف هنا بما ورد من أنّ الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: « كذب من ادّعى محبّتي، فإذا جَنّه اللّيل نام عني»[3].

ويقسم ابن خفيف الناس في الليل إلى ثلاثة أقسام:

نائمون لله، ونائمون بالله، ونائمون عن الله، فيأمر المريد أن يكون من أحد القسمين الأولين، ويحذره تحذيرًا شديدًا أن يكون من القسم الثالث.

فالنائمون لله هم الذين قصدوا بنومهم من أول الليل التقوّي على قيام آخر الليل.

والنائمون بالله فهم الذين أيقظهم من نومهم لمعرفتهم بمن لا تأخذه سنة ولا نوم، وهم الممدوحون بقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ

---

(١) أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص ٣٧٠.

(٢) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٣) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٤٨.

رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وبقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٤].

وأمّا النائم عن الله فهو الذي قصد إلى النوم واختار طيب الرقاد ونسى ذكر الله تعالى في نومه، ولا يحب وُرُود النهار ولا يشبع من نومه، فهذا الذي إذا أصبح قد بال الشيطان في أذنه فيقوم من نومه تعس النفس كسلان.

وهذه كلها معان بل وألفاظ أحاديث صحيحة وردتْ في هذا المقام.

إذن: من واجبات المريد مراعاة قيام الليل والاهتمام به.

الفصل الرابع والعشرون

في ضرورة اتصاف المريد بأسنى الأحوال وأعلى المقامات

لقد سبق وأشار الشيخ الكبير في عدة مواضع سابقة إلى ضرورة أن يجاهد المريد نفسه فيأخذ بالعزائم ويترك الرخص، وكذلك يجتهد في أن يقهر نفسه بركوب معالي الأمور وترك سفاسفها، وفي هذا الفصل يعود الشيخ الكبير للتأكيد على تلك الفكرة لكن بشيء من البسط وضرب الأمثلة.

فيوجب على المريد أن يَتَّصِفَ بالجدّ في طلب الأحوال العالية والمقامات السامية، فإذا خُيِّر بين أمرين اختار أصعبهما على نفسه، ففيه الحق وفي خلافه الباطل.

وهذا المعنى يؤكده ابن عجيبة وهو يشرح قول ابن عطاء الله السكندري: «إذا التبس عليك أمران فانظر أثقلهما على النفس فاتبعه فإنه لا يثقل عليها إلا ما كان حقًا»، فيقول: «هذا ميزان صحيح في حق السائرين المشتغلين بالجهاد الأكبر، قال تعالى: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، فكل ما يثقل على نفس المريد وتنفر منه فهو حق، فالواجب على المريد اتباعه،

وكل ما يَخِفُّ عليها فهو باطل وفيه حظّها، فالواجب عليه اجتنابه»[1].

وابن خفيف هنا يضرب أمثلة عملية مثل:

- وجوب استعمال الصدق في كل أحواله.

- وكذلك يستعمل مقام الحرية باستدامة العبودية لله تعالى، وذلك في مقابلة رغبته في الأمور الدنيوية.

- وأن يستعمل مقام الزهد، فيسقط عن نفسه المذلة لخلق.

- وأن يتصف بالقناعة، فيتخلى عن الاستزادة من الدنيا.

- وأن يتحرى اليسير الذي يبلغه، ويتخلى عن الشَّرَه.

- وأن يستعمل مقام الإيثار؛ لِيَتَّصِفَ بصفات الكرم.

- وأن يتخلى عن التكالب على الدنيا، وذلك بكثرة المجاهدة.

وجماع ذلك كله التقلل من كل شيء والاستغناء عنه، وعدم طلب شيء إلا أيسر اليسير منه خاصة الطعام الذي لا بد أن يسير فيه على نهج الشرع، حيث قال النبي ﷺ: «بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»[2].

الفصل الخامس والعشرون

في وجوب كبح جماح النفس عن طلب الفضول في أمور الدنيا

ما زال ابن خفيف يوصي المريد الصادق بطلب معالي الأمور، وهنا في هذا الفصل يأمره بشيء مهم، وهو أن يقاوم نفسه ويجاهدها ويكبح جماحها حتى تتخلى عن الفضول في الأمور الدنيوية، وأنّ ذلك هو سبيل نجاحها وفلاحها:

---

(١) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص٤٢٠.

(٢) سيأتي تخريجه في النص الحقق ص٣٥٢.

- فيستعمل التقلل في المطعم والمشرب والملبس.
- وألّا ينقاد وراء أهوائها وأمانيها بطاعتها في التسويف.
- كذلك يمنع نفسه من فضول الكلام والسؤال فيما لا ينفعه.
- ثم ليعلم علم اليقين أنّه فاز مَنْ فاز وبقي ذكره؛ لأنّه انتصر على نفسه وزكّاها، وخاب مَنْ خاب؛ لأنّه أقبل على الدنيا وغَلَبَتْهُ نفسه على مخالطة أبنائها فتَوَسَّع فيها حتى هلك.

الفصل السادس والعشرون

في ضرورة معرفة أوصاف الفرق المختلفة والتجافي عن الهالكين والتَّشَبُّث بالناجين

إنّ لصحبة الناس ومعشارتهم أثرًا كبيرًا في نفس الإنسان وسلوكه سلبًا وإيجابًا، فمصاحبة الصالحين تُثمر في نفس صاحبها أحوالًا سامية وأمورًا عالية، ومصاحبة أهل السوء بعكس ذلك.

ولذلك كان الصوفية حريصين على بيان مسألة الصحبة بكل تفاصيلها، وأرادوا من وراء ذلك توجيه نظر المريد والسالك إلى صحبة الأخيار وترك صحبة الأشرار.

«وقد رغب جمع من السلف في الصحبة والأخوة في الله، ورأوا أنّ الله تعالى مَنَّ على أهل الإيمان حيث جعلهم إخوانا، فقال ﷻ: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ۝ وَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡۚ لَوۡ أَنفَقۡتَ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مَّآ أَلَّفۡتَ بَيۡنَ قُلُوبِهِمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيۡنَهُمۡۚ﴾ [الأنفال: ٦٢، ٦٣]... وفائدة الصحبة أنّها تفتح مسام الباطن، ويكتسب الإنسان بها علم الحوادث والعوارض»[1].

---

(١) أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٤٢٢.

ولكنّ الصوفية ينبّهون على أنّه لا يصلح للصحبة كل أحد، بل لا بد من شروط معينة، يقول ابن قدامة المقدسي: «واعلم أنّه لا يصلح للصحبة كل أحد، ولا بد أن يتميّز المصحوب بصفات وخصال يُرْغَبُ بسببها في صحبته، وتشترط تلك الخصال بحسب الفوائد المطلوبة من الصحبة، وهي إمّا دنيوية كالانتفاع بالمال والجاه، أو بمجرد الاستئناس بالمشاهدة والمحاورة، وليس ذلك غرضنا، وإمّا دينية، وتجتمع فيها أغراض مختلفة، منها الاستفادة بالعلم والعمل، ومنها الاستفادة من المال للاكتفاء به عن تضييع الأوقات في طلب القوت، ومنها الاستعانة في المهمات، فتكون عُدة في المصائب وقوة في الأحوال، ومنها انتظار الشفاعة في الآخرة، كما قال بعض السلف: استكثروا من الإخوان فإنّ لكل مؤمن شفاعة»[1].

وبالجملة، فالشروط التي ينبغي أن تتوفر في المصحوب هي «أن يكون عاقلًا، حسن الخلق، غير فاسق ولا مبتدع، ولا حريص على الدنيا»[2].

ويشدد الصوفية على ضرورة النظر التام والتَّفَقُّد الكامل لمن تختاره للصحبة، فإذا وافق الشرع في أحواله كانت صحبته خيرًا وبركة، وإذا خالف الشرع وجب تركه؛ لما يترتب على صحبته من ضرر بالغ، يقول أبو حفص السهروردي: «فَلْيَتَفَقَّد الإنسان نفسه عند الميل إلى صحبة شخص، وينظر ما الذي يميل به إلى صحبته، ويَزِن أحوال من يميل إليه بميزان الشرع، فإن رأي أحواله مسدّدة فَلْيُبَشِّر نفسه بحسن الحال، فقد جعل الله تعالى مرآته مجلوة يلوح له في مرآة أخيه جمال حسن الحال، وإن رأي أفعاله غير مسدّدة فيرجع إلى نفسه باللائمة والاتهام، فقد لاح له في مرآة أخيه سوء حاله، فبالجدير أن يفرّ منه كفراره

(١) ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين ص٩٩.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

من الأسد، فإنّهما إذا اصطحبا ازدادا ظلمة واعوجاجًا»[1].

فالشرع إذن هو المقياس في مسألة الصحبة عند الصوفية؛ لأنّ الصاحب إذا كان سائرًا على سنة الشرع وآدابه فإنّه يؤثر في صاحبه إيجابًا، وهذا ما يريده الصوفية.

وهذا ما يُبيّنه ابن عجيبة وهو يشرح قول ابن عطاء الله السكندري: «لا تصحب من لا يُنهضك حاله، ولا يدلك على الله مقاله»[2]، فيقول: «الذي يُنهضك حاله هو الذي إذا رأيته ذكرتَ الله، فقد كنتَ في حال الغفلة فلمّا رأيته نَهَضَ حالك إلى اليقظة، أو كنتَ في حال الرغبة فلمّا رأيتَه نهض حالك إلى الزهد، أو كنتَ في حال الاشتغال بالمعصية فلما رأيتَه نهض حالك إلى التوبة، أو كنتَ في حال الجهل بمولاك فنهضتَ إلى معرفة من تولاك وهكذا»[3].

ويشدد الصوفية كذلك على وجوب الحذر الشديد من صحبة الأشرار فيقولون: إنّ على المريد «أن يجتنب صحبة الأشرار، فقد قيل: مصاحبة الأشرار خطر، ومَنْ صاحبهم فقد بالغ في الضرر، وإنّما مثله مثل راكب بحر إن سلم ببدنه من التلف لم يسلم بقلبه مِن الحذر، وقيل: مِن أكمل السعادة والرشاد صيانة الحر نفسه من الأوغاد، وقيل: مَنْ يصحب صاحب سوء لم يسلم، ومَنْ يدخل مدخل سوء يتهم، وقيل: كل واحد يُعرف بقرنائه، ويُنسب إلى خلطائه»[4].

وما أحسن ما قاله سيدنا عمر رضي الله عنه في هذا المقام: «عليك بإخوان الصدق تعش في أكنافهم، فإنّهم زينة في الرخاء وعدة في البلاء، وضَعْ أمر أخيك على أحسنه حتى يجيئك

---

(١) أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٤٢٠.

(٢) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص١٢٨.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) أبو النجيب السهروردي: آداب المريدين ص٤٤.

ما يقليك منه، واعتزال عدوك، واحذر صديقك إلا الأمين، ولا أمين إلا مَنْ يخشى الله، ولا تصحب الفاجر فتتعلّم مِن فجوره، ولا تُطْلِعه على سِرِّك، واستشر في أمرك الذين يخشون الله تعالى»(١).

وابن خفيف في هذا الفصل يسير على هذه السنة الصوفية الشرعية في وجوب معرفة أحوال مَنْ يخالطه، فإذا تحققتْ فيه أوصاف معينة تُعينه في طريقه إلى الله وجبتْ الصحبة وحقّتْ، وإن كان بخلاف ذلك وجبتْ مفارقته.

ولكن ابن خفيف يضع لنا ميزانًا ومقياسًا معتبرًا هنا، وهو مقياس حب الدنيا والرغبة فيها، فإذا رأى المريد صاحبه مقبلًا على دار الغرور، متجافيًا عن دار الخلود، فلا خير في صحبته، بل تجب مفارقته، وإذا كان مقبلًا على الآخرة، زاهدًا في الدنيا، فذلك هو الصاحب الذي يجب على المريد أن يتشبث بصحبته، يقول ابن خفيف: «فيكون العلم بأهل الدّار ومَنْ فيها مطيّته، والزّهد والورع سجيّته، والقناعة والتّقلّل حليته، وطلب الزلفى والرّغبة في الله إرادته، وطلب العافية وترك التّعرض للبلاء نهمته، وقصر الآمال والخروج مِن الدّنيا أرومته، والاكتفاء بالله والاستعانة به حقيقته، وترك مداخلة أبناء الدّنيا والطالبين لها صناعته، وعند استعمال ما وصفتُ لك همّته، وإسقاط الفضول مِن القول ومصاحبة الطّالبين لبسته، وبذلك طاب عيشه، وسمحت نفسه، واستجابت أطواره، وزَكَتْ أفعاله، وخَفّتْ مؤنته»(٢).

الفصل السابع والعشرون

في وجوب الحذر من الاغترار بالشهرة وثناء الناس

يحذر الشيخ الكبير تحذيرًا بالغًا من آفة قد تعترض طريق المريد أثناء سيره، وهي أن

(١) ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين ص٩٩، ١٠٠.
(٢) راجع النص المحقق ص٣٥٥، ٣٥٦.

يغترّ بالشهرة إذا ذاع صيته وانتشر ذِكْره وأثنى الناس عليه، وهنا يوجب ابن خفيف على المريد أن يقف لنفسه بالمرصاد، وأن يسارع في علاج هذه الآفة، وكعادة ابن خفيف يوضح العلاج في نقاط محددة:

- فعلى المريد أن يرجع إلى الله فورًا، ويذكر نعمته عليه حين وفَّقَه إلى هذه المقامات التي مدحه الناس عليها.

- وعليه أن يُخرج الخليقة من قلبه، ويُلزم نفسه بالصدق والإخلاص مع ربه.

- وعليه أن يبغض الدنيا الدنيّة، فإنّ الشهرة من صفات أبنائها.

- وعليه ألا يجنح إلى التأويلات التي تُوقِعُه في آفة العُجب أو الكبر أو حب الشهرة.

- ويبين الشيخ الكبير أخيرًا الطريقة المُنجِّية من هذه الآفة المهلكة، وهي الالتجاء إلى الله أولًا وآخرًا، فيقول: إنّ على المريد «كثرة اللّياذ، وإظهار الفقر والاعتذار، والتَّنَصُّل بالأسحار، مع دوام الاستغفار، وأن يستعيذ بالله من شرّ نفسه، وأن يسأل الله أن لا يردّه إليها طرفة عين فيكون من الهالكين، وأن يستعين بالله في إخماده وإقماعه، وأن يُكثر الافتقار وطرح الكنف عند العزيز الغفّار»(١).

والحقيقة إنّ التواضع والخمول يورثان المريد ثمرات لا نهاية لها، كما أنّ حب الشهرة والذكر بين الناس يعيقانه عن سيره، ويقعدانه عن سلوكه.

وفي هذا يقول ابن عجيبة: «استر نفسك أيها المريد وادفنها في أرض الخمول حتى تستأنس به وتستحليه ويكون عندها أحلى من العسل، ويصير الظهور عندها أمرّ من الحنظل، فإذا دَفَنْتَها في أرض الخمول وامتدتْ عروقها فيه فحينئذ تجني ثمرتها ويتم لك

(١) راجع النص المحقق ص٣٥٧، ٣٥٨.

نتاجها، وهو سر الإخلاص والتحقق بمقام خواص الخواص، وأمّا إذا لم تدفنها في أرض الخمول وتَرَكْتَها على ظهر الشهرة تجول ماتتْ شجرتها أو أسقطتْ ثمرتها، فإذا جنى العارفون ما غرسوه من جنات معارفهم من العلوم وما دفنوه من كنوز الحكم ومخازن الفهوم بَقِيتَ أنت فقيرًا سائلًا أو سارقًا صائلًا»[1].

وقال بعض العارفين: «كلما دفنتَ نفسك أرضًا أرضًا سما قلبك سماءً سماءً»[2].

عش خامل الذكر بين الناس وارض به ❁ فذاك أسلم للدنيا وللدين
من عاشر الناس لم تسلم ديانته ❁ ولم يزل بين تحريك وتسكين[3]

الفصل الثامن والعشرون

في وجوب اليقين بأنّه لا يُترك سدًى بل عليه رقيب وحسيب

هذه آفة أخرى قد تعترض المريد في سيره وسلوكه، وهي أن يدعي أنّه على حال أو مقام وهو ليس كذلك، فيطالبه ابن خفيف بضرورة اليقين أنّه سيطالب بصدق دعواه والوفاء بحاله لا بمجرد الدعوى، ويستدل ابن خفيف هنا بقول الله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦].

ولكن ماذا يفعل المريد حتى يتأكد من صدق حاله؟ هنا يجيب ابن خفيف موضحًا ما يجب على المريد فيقول: «فعليك أيّها المريد أن تراعي صدق الحال، وأن تتلبّس بثياب الأكياس، وتلزم الحال، وتعمل لما بعد الموت، وتحفظ وتعلم ما أوصله الحقّ إلى

(١) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص٥٢.
(٢) نفس المصدر ص٥٢.
(٣) نفسه ص٥٣.

مُحبّيه، وتهتف بصوت الرعاية وإلزام المجاهدة على نفسك، فتدعوها إلى الله تعالى»[١].

ثم يُحذّر ابن خفيف المريد تحذيرًا شديدًا من خطر داهم قد يُفسد عليه حاله ويشوش عليه نفسه، وهو مدح الناس له وثناؤهم عليه، فليكن المريد أعلم بنفسه من غيره وألّا يغترّ بهذا، يقول ابن خفيف: «ويَحْذَر أن لا يقف مع المادحين له، وأن لا يغترّ بالمُثنين عليه، وأن لا يُعرض عن معرفة نفسه بقول المُجاملين»[٢].

الفصل التاسع والعشرون

في وجوب الثبات على الوفاء بعهد الله والتسليم لحكمه وإن تغيّرتْ معاملة الخلق

هذه آفة أخرى قد تَعْرِضُ للمريد، ولكنّها عكس الآفة السابقة، فإذا كانت الآفة التي تناولها ابن خفيف في الفصل السابق وحذّر المريد منها هي انشغاله بثناء الناس عليه ومدحهم ومجاملتهم له، وهذا يُحدث في النفس أثرًا سيئًا، فإنّ هذه الآفة التي يتناولها ابن خفيف في هذا الفصل بالعكس منها، فإنّها تدور حول إعراض الناس عنه وتجاهلهم له وتجافيهم عنه وعدم ذكره ولا الثناء عليه، وهذه الآفة أيضًا تُحدث في النفس أثرًا سيئًا كسابقتها.

وهنا ينصح ابن خفيف المريد بترك الانشغال بالخلق مهما كان موقفهم، والانشغال بالحق وحده.

يقول ابن خفيف: «وفي هذه الأحوال المراد منه حالان: أحدهما: الإقبال على شأنه وترك الالتفات إلى خلقه، والثاني: مطالعة أحكامه فيما يجري على عبده من صدق

---

(١) راجع النص المحقق ص٣٦٠.

(٢) راجع النص المحقق ص٣٦٠.

اختياره»[1].

ثم يزيد ابن خفيف في نصح المريد ألّا ينشغل بالخلق مطلقًا ولا يذكرهم ولا ينجر إلى التنقيص منهم بغيبة أو نميمة، فإنّ ذلك كله إعراض عن الله تعالى وانشغال بما سواه، وهذا يؤخره كثيرًا في طريق الإقبال على الله ﷻ.

الفصل الثلاثون

في وجوب الصبر على ما ينزل به من قضاء الله لأنّ ذلك سنة الأنبياء والأولياء

هذا الفصل مترتب على الفصلين السابقين؛ لأنّ المريد هناك قد انخلع من رؤية الناس بالكلية، وحفظ قلبه عن الانشغال بهم تمامًا، فنجى بنفسه من ملاحظة الخلق سواء بالمدح والذكر أو بالذمّ والتجاهل، وهذا أمر يحتاج إلى صبر وجلد، فكيف بالمريد إذا زِيد في بلائه ونزل به ما يكره من قضاء الله؟ هذا ما يعالجه الشيخ الكبير في هذا الفصل.

فيؤكد على أنّ سنة الله تعالى في أحبابه وأوليائه هي أن يمتحنهم بصنوف البلاء، ويبتليهم بأنواع المحن لينظر هل يكونون من أهل الصبر والوفاء، أم يكونون من أهل الشكوى والتبرُّم بالقضاء؟

ولنترك ابن خفيف يصف للمريد ما قد ينزل به من قضاء الله وسبب ذلك ونتيجته.

يقول ابن ابن خفيف واصفًا ما قد ينزل بالمريد من البلاء: «قصده الحقّ في إيلام نفسه، وأرسل عليه البلاء صبًّا، وجرَّعه مرارة الموت صِرْفًا، وصبَّ عليه عجائب الأمراض وفنون الأسقام، ومنع الخلق عن عيادته، وحجبهم عن عوائده، وتحقَّق عليه إحكام الفقر مع ضيق الصّدر، وجفاه الحميم في حالته، وأعرض الصديق عنه في مرضه، وضاق عليه أسباب مرافقه، وحُجبت القلوب عن ذكره، وأنسى الخليقة ذكره وحاله، وأسقط الرحمة

(١) راجع النص المحقق ص٣٦١.

له عن قلوب عباده، ورُمي بالجفاء في مواصلته، وطُولِب في درج ذلك كلّه بترك الشّكوى ومنع الأنين إليه في بلواه حتّى كاد أن يتحكّم فيه بلواه»[1].

فهذه أنواع مِن المِحَن وصنوف من البلاء لا بد أن يستعد لها المريد، ورغم شدتها ورغم صعوبتها إلا أنّ المريد مطالَب بالصبر عليها.

ويصف ابن خفيف السبيل التي تعين المريد على الصبر إذا نزلتْ بساحته هذه المحن، وهذه السبيل كما يصفها ابن خفيف باختصار هي:

- على المريد أن يصبر ويَتَنَصَّل من نفسه ويستغيث بخالقه دون خلقه.

- أن يتفكر جيدًا أنّ ذلك البلاء هو مِنْ فعل الله، وأنّ الصبر عليه طريق لمحبته.

- وعلى المريد أن يتذكر دائمًا أنّ البلاء هو سنة الله في أحبابه من الأنبياء والأولياء.

- أنّ الذي قدّر عليه البلاء هو وحده القادر على رفعه وكشف ما به من ضرّ.

وما أعظم هذه الأدوية لذاك الداء، إنها بحق طريقة عملية رائعة لمن أراد أن يفوز بجزاء الصابرين وأجرهم، فإنّ الصابرين هم الوحيدون من خلق الله الذين يوفون أجرهم بغير حساب.

والصوفية دائمًا ما يصفون الصبر ويوضحونه للمريد حتى يتأهب ويستعد لِمَا قد يكره من قضاء الله تعالى.

يقول يوسف بن أسباط: «الصبر عشرة أشياء: حبس النفس، واستحكام الدرس، والمداومة على طلب الأنس، ونفي الجزع، وإسقاط الفزع، والمحافظة على الطاعات، والاستقصاء في الواجبات، والصدق في المعاملات، وطول القيام في المجاهدات،

---

(١) راجع النص المحقق ص٣٦٣، ٣٦٤.

وإصلاح ما كان بالأمس من الجنايات»[1].

ويذكر سهل ابن عبد الله الصبر وأنواعه وجزاء الصابرين على كل نوع فيقول: «الصبر على أربعة أوجه: صبر على المصائب، وصبر على الفرائض، وصبر على أذى الناس، وصبر على الفقر، فأمّا الفرائض فمتى صبرتَ عليها رأيتَ حسن المعونة من الله ﷻ، وأمّا المصائب فمتى صبرتَ عليها ثبتَ لك الأجر، ومتى ما صبرتَ على أذى الناس وجب لك حب الناس، ومتى ما صبرتَ على الفقر وجب لك حب الله ﷻ»[2].

ومن أدب المريد الصابر ألّا يُظهر الشكوى حين تنزل البلوى بل يُظهر نفسه وكأنّه معافى، «سئل المرتعش: ما الصبر؟ فقال: ألا تُشهر البلاء، وأنشأ يقول:

صبرتُ ولم أَطْلِع سواك على صبري ❁ وأخفيتُ ما بي منك عن موضع الصبر

مخافة أن يشكو ضميري من صبابتي ❁ إلى دمعتي سرًا فتجري ولا أدري

لعل الليالي أن يعدن بما مضتْ ❁ فيا رُبَّ ذي عسر يئول إلى يسر[3]

ويقول رويم عن طبيعة الصبر وعاقبته: «قِفْ على البساط، وإياك الانبساط، واصبر على ضرب السياط، حتى تجوز الصراط»[4].

الفصل الحادي والثلاثون

في وجوب الحذر من الشهرة بل يبقى على حال التواضع وخفض الجناح

يتناول ابن خفيف في هذا الفصل قضية هامة وهي: ما موقف المريد إذا قدّر الله تعالى

(١) الخركوشي: تهذيب الأسرار ص١٢٧.

(٢) نفس المصدر ص١٢٧.

(٣) نفس المصدر ص١٢٦.

(٤) نفسه ص١٢٧.

له الشهرة وألقى القبول له في قلوب الخلق واستحسنوا حاله وقبلوا مقاله؟

هنا يدرك ابن خفيف أنّ المريد في بداية أحواله لا يَتَمَكَّن التَّمَكُّن التام من التَّغَلُّب على مثل هذه الحالة، فيسارع إلى تدارك المريد بالتوجيهات اللازمة التي تحفظ عليه حاله، فيأمره إجمالًا بالوفاء بما بينه وبين الله من أحوال قديمة، وألّا يغتر بثناء الناس ولا اشتهاره بينهم، ويلزم التواضع سيما للضعفاء.

وكعادته يصف علاجًا محددًا يستطيع المريد الأخذ به لمداواة دائه، وهو:

- على المريد أن يراعي أحواله القديمة وأوقاته العامرة وما كان بينه وبين الله من صدق وإخلاص.

- عليه أن يكسر شهوة الكبر التي عرضتْ له وذلك بالتواضع، وكيفية التواضع هنا أن يخفض جناحه ويكون لَيِّن الجانب للضعيف، وأن يُكرم اليتيم، وأن يَتَفَقَّد الجار، وأن يصون الأرامل، وأن يقضي حوائج الناس، وألّا يتبرّم بهم ولا يضيق صدره منهم.

وبالطبع هذه الأمور قد ورد في الشرع أنّها نافعة في مداواة داء الكبر ومعالجة ما يجده الإنسان في نفسه من حب الترقّع على الخلق أو التكبّر عليهم، فابن خفيف إذن هنا يصف علاجًا شرعيًا صرفًا لهذه الحالة التي ربما تعرض للمريد في ابتداء حاله.

الفصل الثاني والثلاثون

في وجوب الحذر من التَّصَنُّع والتَّكَلُّف طلبًا للجاه والرفعة

ما زال ابن خفيف يواصل نصحه للمريد في معالجة آفة الشهرة والكبر، فبعد أن نصحه بهذه النصائح العملية في الفصل السابق يحذره هنا من أن تكون أحواله وأفعاله السابقة من التواضع للضعفاء ولين الجانب وخفض الجناح للفقراء غير مخلصة لله تعالى أو دخلها

رياء أو سمعة، فيخرج من باب الإخلاص إلى باب الرياء وهو لا يدري.

فإنّ النفس الإنسانية لها أخلاق رديّة لا يأمن صاحبها من عواقبها إن لم يقف لها بالمرصاد.

فليحذر المريد من أن يكشف أحواله التي بينه وبين الله تعالى التي كانت قائمة على الصدق والإخلاص، يريد بها الرياء والسمعة أو طلب المنزلة عند الخلق، وهذا أمر قد يَدِقُّ فهمه وتصعب مداواته.

الفصل الثالث والثلاثون

في وجوب الحذر من مخالطة أبناء الدنيا سيما الأغنياء منهم

يحذر ابن خفيف في هذا الفصل المريدَ إذا تحقق بالأحوال العالية والمقامات السامية أن يخالط أبناء الدنيا من الأغنياء؛ فإنّ ذلك يؤثر بالسلب في أحواله ومقاماته.

ويأمر الشيخ الكبير المريد بأن ينعزل عنهم قدر طاقته فلا يجالسهم ولا يحادثهم ولا يحضر على موائدهم، وأن يتحمّل الشدة والبلاء ولا يظهر الحاجة إليهم.

الفصل الرابع والثلاثون

في وجوب الصدق في ذمّ الدنيا ظاهرًا وباطنًا

بعد أن حذّر ابن خفيف المريد من مخالطة أبناء الدنيا في الفصل السابق، أراد في هذا الفصل أن يشدد على المريد بأن يكون ذمّه للدنيا صادقًا قولًا وفعلًا ظاهرًا وباطنًا، ويحذره من دعوى ذمّ الدنيا في الظاهر لكنّه في الباطن يميل إليها وإلى أهلها ويستحلّ قربهم ويرغب فيما لديهم.

وابن خفيف يحذر المريد من هذا؛ لأنّ ذلك يجره إلى باب من أبوب النفاق، فإنّه في

تلك الحالة يقول ما لا يفعل ويفعل ما لا يقول، وهذا يؤديه إلى بغض الله تعالى ومقته، هذا بالنسبه لله ﷻ، وأمّا بالنسبة للناس فإنّهم ينظرون إلى فعل المريد فيحكمون على أهل نحلته جميعًا بأنّهم كذلك، فيكون المريد - والحالة كذلك - سببًا للانتقاص من الصوفية، وذريعة للعيب عليهم والنيل منهم.

وينبّه الشيخ الكبير في النهاية على أنّ وجود مثل هؤلاء الأدعياء لا يقدح في الطريق كله، ولا ينبغي أن يؤدي إلى رفضه؛ لأنّه على حد قول الشيخ الكبير: «إذْ لم يزل في الفِرَق صالح وطالح، وهذا ممّا لا تَعْرَى منه المذاهب»[1].

الفصل الخامس والثلاثون

في وجوب الحذر من إظهار صفات ليست فيه

ما زال ابن خفيف حريصًا على تنقية طريق التصوف من الأدعياء الذين قد يسيئون إليه، فينبّه المريد أنّه ربما تحدث له فترة أو تكاسل عن حاله الأول، وهنا يأمر ابن خفيف المريد بوجوب الصدق والإخلاص مع نفسه، فإذا كان في حال فترة وتوانٍ وجب عليه الاعتراف ومحاولة الرجوع إلى الجادة والاجتهاد مرة أخرى، وألّا يظهر خلاف حاله خوفًا من سقوط جاهه ومنزلته عند الناس.

فعليه إظهار الاعتراف بالتقصير واللجوء إلى الله تعالى بالاستغفار وطلب الرجوع إلى أحواله الأولى.

وهنا يشير ابن خفيف إلى لفظ وارد في حديث شريف في هذا الشأن، يقول ابن خفيف:

---

(١) راجع النص المحقق ص٣٧٣.

«وألا يَتَشَبَّع بما ليس فيه»[1].

وهذا اللفظ وارد في حديث سيدنا رسول الله ﷺ: «المُتَشَبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثَوْبَي زور»[2]، وقد قال شرّاح هذا الحديث: إنّ معناه هو «الّذي يلبس ثياب أهل الزّهد والعبادة والورع ومقصوده أن يظهر للنّاس أنّه مُتَّصف بتلك الصّفة، ويُظهر من التّخشّع والزّهد أكثر ممّا في قلبه، فهذه ثياب زور ورياء»[3].

وهذا الحديث بهذا المعنى يوافق مقصود ابن خفيف، ومن ناحية أخرى يُظهر لنا مدى حرص مشايخ الصوفية على الصدق والإخلاص، وأنّهم يقفون بكل حزم في وجه الأدعياء والمسيئين، حتى يكون الطريق خالصًا نقيًّا من شوائب الدعوى والرياء.

الفصل السادس والثلاثون

في وجوب الحذر من ادعاء التوكل في أمور معيشته وترك الكسب الحلال

هذه دعوى أخرى قد يدعيها بعض المريدين، وهي ادعاء التوكل في مأكله ومعيشته، بمعنى ألّا يكون هناك سبب ظاهر معروف يكتسب منه عيشه، ويدّعي أن مأكله من الغيب.

وهنا ينبّه ابن خفيف بل ويحذّر المريد أنّه لا يُقبل شيء من أعماله وطاعاته إلا إذا بالغ في التحرّي في مأكله ومشربه، بل أوجب عليه بعد القيام بفروضه وأركانه أن يجتهد في تحصيل معيشته من سبب حلال، وألّا يتساهل في مصدر ذلك، وأن يقتصد في ذلك اقتصادًا، بحيث يُحَصِّل من طعامه ما يسد جوعه، ومن مسكنه ما يقيه القرّ والحرّ، بل بالغ

---

(١) راجع النص المحقق ص٣٧٤.

(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٧٤.

(٣) النووي: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج ج١٤ ص١١٠، ١١١ (الطبعة الثانية سنة ١٣٩٢هـ دار إحياء التراث العربي - بيروت).

ابن خفيف في التشديد على المريد في هذا فجعل النظر في المأكول أحد أركان التوكل وصحة الاعتماد على الله تعالى.

ويقرر ابن خفيف هذه القاعدة التي ينبغي أن يلزمها المريد فيقول: «فأمّا طلب الحلال فهو من أصول الدين الّذي حثّ العلم على ذلك، وهو أجَلُّ عمدة الإسلام كما قال ﷺ: «طلب الحلال فريضة بعد فريضة الإسلام»[1]، فقارن ﷺ فرضه بفرض التّوحيد والشّرائع المبنيّة على الإسلام، وهذه الحالة تلزم العارف في تناهيه والسّائر في مباديه والمريد في أحواله، وخاصّة أهل النّسك من المريدين»[2].

والسعي في كسب الحلال سُنَّة صوفية مُتَّبَعَة أرسى قواعدها أبو سليمان الداراني حين قال: «ليس العبادة عندنا أن تصفّ قدميك وغيرك يقوت لك، ولكن ابدأ برغيفيك فأحرزهما ثم تَعَبَّد»[3].

وإذا كان ابن خفيف يؤكد على هذه القاعدة النظرية فإنّه قد طبّقها في حياته تطبيقًا عمليًا فرأيناه يحترف عدة حرف، مثل صناعة الفلكات ونحت المغازل والقصارة وصناعة الأحقاق وصناعة النسخ، وهذا كما أسلفنا منهج إسلامي أصيل التزمه ابن خفيف نظريًا وعمليًا، ثم أوصى به المريد الذي مِن أهم مهماته كسب القوت الضروري بحيث يعفّ نفسه عن مسألة الناس.

الفصل السابع والثلاثون

في وجوب الحذر من مخالطة الأدعياء الذين ليس لهم قدم صدق في الطريق

لقد نبّه ابن خفيف في فصل سابق أنّ كل علم وكل طريق فيه الصادقون وفيه الأدعياء،

---

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٧٨.

(٢) راجع النص المحقق ص٣٧٨.

(٣) أبو نعيم: حلية الأولياء ج٩ ص٢٩٤.

وذلك حين قال: «إذ لم يزل في الفِرَق صالح وطالح، وهذا ممّا لا تَعْرَى منه المذاهب»[1].

وهذه الإشارة السريعة هناك يُفَصِّلُها الشيخ الكبير هنا فيبيّن للمريد كثيرًا من صفات الأدعياء حتى يكون منهم على حذر شديد.

فمن صفات هؤلاء الأدعياء التي اهتم ابن خفيف ببيانها للمريد:

- أنّهم جوّالون في البلدان وليسوا موقنين في الدين ولا يهمهم أمر الشرائع والفرائض.

- أنّهم يهتمون بالمظهر دون الحقيقة، فيلبسون لبس الصديقين ويستعيرون إشارات المحقّقين ويتزيّنون بِزِيِّ الفاضلين.

- أنّهم يشتغلون بالألفاظ المزخرفة المستخرجة من علوم الجمع والتفريق.

- أنّهم لا يهتمون بالكسب الحلال ولا احتراف صنعة، بل يميلون إلى الرقص واللعب ويتخذون ذلك ذريعة إلى طلب حطام الدنيا.

- وهؤلاء المدّعون خطر كبير على المريدين حيث يصفهم ابن خفيف بأنّهم «القُطّاع على المريدين، وفتنة على أهل الدّين»[2].

والواقع أنّ الشيخ الكبير لم يكن بدعًا من الصوفية في هذا التحذير، بل هو مبدأ عام عند الصوفية، حيث اهتم المحققون منهم بتبيان أوصاف المدعين وأوصاف الصادقين، والتحذير من المُدّعين، والأمر بلزوم أهل الصدق والوفاء.

يفسر أبو تراب النخشبي قول الله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ [النساء:٣١]، فيقول: «أَمَرَ الله تعالى باجتناب الكبائر، وهي الدعاوى الفاسدة والإشارات

(١) راجع النص المحقق ص٣٧٣.

(٢) راجع النص المحقق ص٣٨٠.

الباطلة»[١].

ويفسر أبو عثمان المغربي قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ ٱلشَّيَـٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَـٰدِلُوكُمْ﴾ [الأنعام:١٢١]، بقوله: «يعني يلقون إلى ألسنة المدّعين ما يقطعون به الطريق على المريدين»[٢].

ويفسر النوري قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ [الزمر:٦٠]، بقوله: «هم الذين ادّعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا فيها صادقين»[٣].

وينبّه الصوفية على أنّ المريد مهما بلغ من العلم أو الأحوال الظاهرة فإنّ ذلك لا ينفعه حتى يكون مصحوبًا بالصدق، فيقول أبو بكر الزقاق: «لو أنّ أحدًا تَعَلَّمَ علم العلماء، وفهم حِكَمَ الحكماء، وعرف سِحْرَ كل ساحر، لا يستطيع أن يستر عورته إلا بلباس الصدق فيما بينه وبين الله تعالى»[٤].

فالصوفي الصادق صاحب عمل وحال ومقام متلبس بالصدق، وأمّا المدعي فهو صاحب أقوال وعبارات خالية عن الصدق، وفي هذا يقول ذو النون: «كَلَّتْ ألسن المتحققين عن الدعاوى ونَطَقَتْ ألسن المدعين بالدعاوى»[٥]، وقال بعضهم: «مَنْ تَطَرَّقَ إلى العظائم مِن الدعاوى نُزِعَ منه أنوار حقائق صدق المعاني»[٦].

وكما أنّ الدعاوى الكاذبة تمنع إشراق النور في القلب فإنّ الصدق على العكس تمامًا،

---

(١) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص١٩٣.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) الخركوشي: تهذيب الأسرار ص١٨٦.
(٤) نفس المصدر ص١٨٨.
(٥) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص١٩٥.
(٦) نفس المصدر والصفحة.

«سُئل المحاسبي: مِن أين مخرج الصدق؟ فقال: مِن المعرفة بأنّ الله يسمع ويرى، وأنّ يعلم أنّه لا يصدق إلا لمن يعلم أنّه يراه ويسمعه، وهو القادر على عقوبته ومثوبته، ويعلم أنه لا ينجيه منه إلا الصدق له، يزداد العبد في أعمال البرّ، قال الله تعالى: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۝٢١﴾ [محمد: ٢١]، فإذا وُفِّقَ الصدق في القلب لمعرفته بقرب المشاهدة وحرمة المراقبة انسطع لذلك نور انتشر في سائر جسده، فأخذ كل جارحة بقسطه»[1].

فواجب على المريد أن يَتَمَثَّل هذه التوجيهات من الحذر الشديد من الأدعياء الذين سيؤثرون على سلوكه تأثيرًا سلبيًا بالغًا، فلن ينجيه في طريقه إلا الصدق.

وأنشد الواسطي يقول:

وإذا الأمور تراوحت	فالصدق أكرمها نتاجًا
الصدق يعقد فوق رأ	س حليفه بالصدق تاجًا
والصدق يقدح زِنده	في كل ناحية سراجًا[2]

الفصل الثامن والثلاثون

في وجوب مجالسة أهل الصلاح والصدق والرسوخ في طريق الله

هذا الفصل يعد علاجًا للفصل السابق، فالشيخ الكبير هناك يحذر من مخالطة الأدعياء والمتسبين بلا صدق ولا تحقيق، وكأن سائلًا يسأل: إذا تخلّى المريد عن مجالسة هؤلاء فمَنْ يُجالس؟

هنا يجيب ابن خفيف بقوله: «عليك بأحوال أسلافك والنُّجباء المعروفين من أهل

(١) ابن فورك: الإبانة عن طرق القاصدين ص٥٥.

(٢) الخركوشي: تهذيب الأسرار ص١٨٧.

نحلتك، وعليك بالبحث عن أوصافهم، وطلب صحّة أحوالهم، فإنّ المُتَمَسِّك بأوصافهم فائز مسرور، والرّاغب عنه هالك مغرور، والنّصح واجب، وإيّاك وإيّاهم، فلا يُنْسِيَنَّك الشّيطان فتكون من الغاوين»[1].

ولكن ما أوصاف تلك الطائفة التي يجب لزوم مجالستها؟

يذكر ابن خفيف بعض أوصاف تلك الطائفة التي يوجب على المريد مجالستهم ومخالطتهم، ومنها:

- أن يكونوا مشغولين بإصلاح شأنهم، مراعين لأوقاتهم فيما يقربهم من الله ﷻ.
- أن تكون همتهم بتصفية مطعمهم وملبسهم وطلبه من الحلال الخالص.
- ألّا يشوب مجالسهم المخالفات الشرعية التي تتولّد منها البلايا.
- فإذا وجد هذه الطائفة التي بهذه الأوصاف فليلزمهم وينتفع بهم.

ثم يوجب ابن خفيف عليه التزام بعض الآداب ومنها:

- ألّا يكون مغتابًا ولا نمّامًا ولا لعّانًا ولا طعّانًا.
- أن يحفظ نفسه من النظر إلى زلّات الخلق وذكر مساوئهم ومحبة عثراتهم.
- أن يكون داعيًا للأئمة بالصلاح وللمؤمنين بالفلاح.

الفصل التاسع والثلاثون

في وجوب شغل الأوقات بعمل نافع دينًا ودنيا

للوقت عند الصوفية قيمة وأي قيمة، فالوقت هو العمر فمن ضَيَّعَ وقته فيما لا ينفع

(١) راجع النص المحقق ص٣٨٠.

فقد ضاع عمره فيما لا ينفع، وهو أعزّ شيء عند الصوفية، فلذلك يوجبون عمارة الوقت بما ينفعهم دينًا ودنيا.

يقول ابن قدامة المقدسي: «اعلم أنه إذا حَصَلَتْ المعرفة لله سبحانه والتصديق بوعده، والعلم بقصر العمر، وجب ترك التقصير في هذا العمر القصير، والنفس متى وَقَفَتْ على فن واحد حصل لها ملل، فمن التلطّف نقلها من فن إلى فن، وقد قال الله تعالى: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ۝﴾ [الإنسان: ٢٥، ٢٦]، فهذا ونحوه ممّا ذُكِر من الآيات في ذلك يدل على أنّ الطريق إلى الله تعالى مراقبة الأوقات وعمارتها بالأوراد على الدوام، وقال الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ۝﴾ [الفرقان: ٦٢]، أي يخلف أحدهما الآخر ليتدارك في أحدهما ما فات في الآخر»[1].

ويقول ابن عجيبة: «عمر المؤمن هو رأس ماله فيه ربحه وخسرانه، فمَنْ شدّ يده عليه كان مِن الفائزين، ومَنْ ضيّعه في البطالة والتقصير كان مِن الخاسرين، فما فات منه في غير طاعة به لا عوض له؛ إذ ما ذهب لا يرجع أبدًا، وما حصل لك منه لا قيمة له تفي بقدره...؛ ولأجل هذا المعنى اشتدتْ محافظة السلف الصالح على الأوقات، وبذلوا مجهودهم في اغتنام الساعات، ولم يقنعوا من أنفسهم إلا بالجد والتشمير، ولم يسمحوا لها في الراحة والبطالة بقليل ولا كثير، وفي الحديث عن رسول الله ﷺ: «لا تأتي على العبد ساعة لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة»[2]»[3].

---

(١) ابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين ص٥٦، ٥٧.

(٢) أخرج أبو داود في سننه ج٧ ص٢٢١ برقم٤٨٥٥ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من قوم يقومون من مجلس لا يذكرون الله فيه إلا قاموا عن مثل جيفة حمار، وكان لهم حسرة»، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح.

(٣) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص٤٤٧.

ويقول أبو عثمان المغربي: «أفضل الأعمال عمارة الأوقات بالموافقات»[١].

ويقول الواسطي: «أفضل الطاعات حفظ الأوقات، وهو ألا يطالع العبد غير حده، ولا يوافق غير ربه، ولا يقارن غير وقته»[٢].

ونظرًا لهذه الأهمية البالغة لقيمة الوقت عند الصوفية عَقَدَ الشيخ الكبير هذا الفصل؛ ليضع فيه معايير نافعة للمريد في كيفية الانتفاع بوقته انتفاعًا دينيًا أولًا، فإن فرغ منه انتفع دنيويًا انتفاعًا يعود عليه ويُقَوِّي عزمه في سلوكه وطريقه.

فيذكر ابن خفيف جملة من الأعمال التي ينبغي أن يشغل بها المريد وقته من طلوع الشمس إلى غروبها:

- فيسعى في طلب العلم النافع.
- الجلوس مع الصحبة الصالحة التي تُذَكِّرُه بالله تعالى.
- أن يكون ساعيًا في طلب قوته وهو من أجلّ السعي.
- أن يكون منشغلًا فيما أوجبه على نفسه من أذكار وأوراد.
- أن يكون مُعِينًا للضعفاء بعلم أو بحال.
- أن يعطي نفسه حظها من النوم؛ ليستعين به على قيام الليل.
- أن يكون مشاركًا في الأمور العامة، كحضور الجنائز، وعيادة المرضى، وسد حاجات المحتاجين، يبتغي بكل ذلك ما يقربه من الله ﷻ.

ولم يكن هذا المنهج من ابن خفيف نظريًا فحسب، بل طبقه عمليًا حين ذكر أنّه في طفولته قَسَّمَ وقته فيما ينفعه دينًا ودنيا، يقول ابن خفيف: «كنتُ قد نظمتُ أوقاتي في زمان الطفولة من الصباح إلى المساء، ومن المساء إلى الصباح، بحيث لم أكن أضيع لحظة

---

(١) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص١٤٤.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

واحدة، ففي بداية النهار حينما يُشرق الصباح كنتُ أقوم بصلاة الفرض، وأشتغل بقراءة القرآن وذلك حتى ترتفع الشمس في السماء، ثم أصلي الضحى وأعمل بصناعة الأحقاق، ولم أكن أعرف من الحرف ما يزيد عنها، وأقوم بهذا الأمر حتى صلاة الظهر، فأقوم بفرضها وسننها، وأقوم ببعض النوافل حتى صلاة العصر، فأقوم بها فرضًا وسنة، وحينما أنتهي من صلاة العصر أذهب إلى سماع الحديث حتى المغرب، وحينما أفرغ من فرض المغرب أتلو أورادي حتى صلاة العشاء، وحينما أنتهي منها لا أترك أورادي، ثم أذهب إلى منزلي وأفطر، وأقوم بعد ذلك بكتابة الأحاديث الأربعين للرسول ﷺ، ثم أنام ساعة من الليل، وأستيقظ بعد ذلك فأصلي حتى الصباح»[1].

الفصل الأربعون

في وجوب مراعاة الليل وقسمته من أوله إلى آخره في الطاعات

لأوقات الليل عند المسلم عمومًا وعند الصوفي خصوصًا قيمة كبيرة[2]، فهو وقت المناجاة، وهو موضع التذلل والخشوع بين يدي الله تعالى، وهو محل خلوة المقبل على الله المريد لمرضاته.

ومن هنا لا يُعد مريدًا حقيقيًا ولا صوفيًا صادقًا مَنْ أهمل الليل وقصّر في أوقاته، وهنا يضع ابن خفيف معالم واضحة لكيفية استفادة المريد من الليل والانتفاع بأوقاته:

- فيبيّن لنا أهمية الليل وأوقاته فيقول: «واللّيل مطيّة الأبرار وملجأ الأخيار وأهل الضرّ والافتقار وأهل التعرّض والنّوال»[3].

(١) الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٩٣.

(٢) راجع في الحديث عن الليل وأهميته عند الصوفية: أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٣٧٢:٣٨٣.

(٣) راجع النص المحقق ص٣٨٨.

- ثم يبين فضيلة قيام الليل مستشهدًا بالحديث النبوي الشريف: «عليكم بقيام اللّيل، فإنّه دأب الصالحين قبلكم، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للدّاء عن الجسد»[1].

- ويحذّر ابن خفيف تحذيرًا شديدًا من تضييع وقت الليل في النوم مستحضرًا الحديث النبوي الشريف الوارد في هذا الشأن، حيث ذُكِرَ عند النّبيّ ﷺ رجل، فقيل: ما زال نائمًا حتّى أصبح، ما قام إلى الصّلاة، فقال ﷺ: «بال الشّيطان في أذنه»[2].

- ويأمر المريد أن يراعي الوقت بين المغرب والعشاء، وأن يُعَمِّرَه بالصلاة؛ فإنّها صلاة الأوّابين.

- ويجب على المريد كذلك أن يكون له ورد من القرآن في الليل في أوله أو آخره.

- ثم أهم مهمات المريد في الليل هو شهود وقت السحر قبل طلوع الفجر، ليدرك أفضل المغانم حين ينزل الرب ﷻ إلى السماء الدنيا لِيَمُنَّ على خلقه بقضاء حوائجهم، وإجابة دعواتهم، وغفران ذنوبهم.

الفصل الحادي والأربعون

في الواجب على المريد إذا اعترته فترة أو انقطاع عن أحواله السابقة

يعالج ابن خفيف في هذا الفصل عقبة قد تعترض طريق المريد أثناء سيره وسلوكه، وتلك العقبة هي الفترة، أي الفتور والتكاسل عن أحواله السنية ومقاماته العالية التي كان عليها.

فيبيّن ابن خفيف في البداية أنّ ذلك أمر طبيعي قد يعرض لأي سالك في أي طريق،

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٨٦.

(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٨٦.

وتلك العقبة قد تعترض العامل في أي عمل، وهنا يستشهد بحديث سيدنا رسول الله ﷺ: «إنّ لكلّ عَمَلٍ شِرَّة، ولكلّ شِرَّة فَتْرَة»(١).

إلى هذا الحد يبدو الأمر طبيعيًا ولا شيء فيه، لكنّ الآفة تكمن في أنّ المريد إذا اعترته هذه الفترة فربما لا يريد الاعتراف بها أو الإقرار بتقصيره عن حالته الأُولى، بل يحب أن يُذكر بالخير والأحوال العالية دائمًا، حتى ولو لم تكن فيه في أوان الفتور والرجوع والانقطاع، وهنا يتدخل الشيخ الكبير محاولًا وصف العلاج المناسب لتلك الحالة.

فيوجب على المريد أن يعامل الله تعالى لا أن يعامل الخلق، بمعنى أن يُظهر الصدق والإخلاص في أحواله فيعترف بتقصيره ويُقر بانقطاعه.

ويُحذّره تحذيرًا شديدًا من أن يُراعي نظر الخلق حين يدعي أنّه على نفس أحواله السابقة من الاجتهاد في الطاعة، فإنّ ذلك يصرفه عن حال الصدق والإخلاص.

ويضرب ابن خفيف أمثلة عملية لذلك، فإنّ المريد إذا كان مشهورًا بالصوم فيما سبق ثم اعترته فترة عنه فإنّه يكون مُفطرًا في حقيقة الأمر، لكنّه قد يتظاهر بالصوم ثم يأكل في مناطق نائية وبعيدة عن نظر الناس.

إنّ ابن خفيف يُحذّر من هذا المثال وأشباهه لِمَا يترتب عليه من عواقب وخيمة يُجْمِلُها في قوله: «فيفارق الإخلاص من جميع الجهات الّتي كان يستعمل، ويذهب عنه الصّدق الّذي كان قد تَسَرْبَلَ به مع الحقّ، فتكون أوقاته المعمورة بالعبادة والتّقرُّب إليه وقلّة المبالاة بالخلق تصير مراعاتهم نصبًا في قلبك»(٢)، أي إنّ انشغاله بالخلق ومحبته اطلاعهم عليه وهو في أكمل الأحوال سيشغل قلبه بهم، وبذلك ينصرف عن الإخلاص

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٨٩.

(٢) راجع النص المحقق ص٣٩٠، ٣٩١.

والصدق الواجبين عليه في معاملته للرب ﷻ.

إنّ اعتراف المريد هنا بحاله من التقصير ربما يورثه ندمًا يدفعه إلى أن يبدأ من جديد؛ ليعود إلى أحواله السابقة، أمّا عدم اعترافه وانشغاله بالخلق فإنّ ذلك سيؤثر عليه سلبًا لا محالة.

الفصل الثاني والأربعون

في وجوب الحذر من التصدُّر وطلب الرئاسة قبل أوانها لما يترتب على ذلك من آفات

إنّ النفس الإنسانية ميّالة إلى الشهرة، توّاقة إلى حب الظهور، وهذا أمر عام، لكنّ الصوفية يرفضون هذا الأمر تمامًا ويَقِفُون لطالبه بالمرصاد؛ لأنّ مبنى أمر الصوفية على الخمول لا الشهرة، وعلى محبة انغمار الذِكْر لا اشتهاره.

وفي هذا الفصل يُحذّر الشيخ الكبير من الوقوع في هذه العقبة؛ لأنّها تؤدي إلى آفات، وينتج عنها انقطاعه عن الله تعالى، ويبيّن ابن خفيف عديدًا من الآفات التي تترتب على محبة المريد للشهرة وطلبه للرئاسة قبل أوانها، وأهم هذه الآفات:

- انشغال قلبه بالناس لمحبته إقبالهم عليه، وهذا يُحدث له سرورًا بهم، فإذا انصرفوا عنه انشغل بهم أيضًا وحدث له غمّ قد يؤديه إلى بغضهم والوقيعة في هم، ففي كلتا الحالتين ينصرف قلبه عن الله تعالى.

- ومنها: أنه قد يتكلّف لهم في الأفعال والأقوال، فيُظهر لهم ما ليس في قلبه أصلًا، وهذا يخرج به عن باب الإخلاص ويُدخله في باب التصنّع والرياء.

- ومنها: أنّه ربما يقع في أعراض العلماء والمشايخ والحكماء، فإنّه لأجل أن يُظهر

نفسه بمظهر لائق من العلم – وهو ليس كذلك – سيندفع إلى التنقيص من العلماء رغبة في إسقاطهم من أعين الحاضرين؛ ليرفع نفسه عندهم، وفي هذا خروج عن باب احترام العلماء وتوقير المشايخ.

– ومنها: أنّه ربما ادعى من الأحوال والمقامات ما ليس عنده فيصف نفسه بأوصاف أهل الحقائق وهو خلو منها، وهذا خروج عن باب الصدق ودخول في باب الدعاوى المذمومة.

– ومنها: دعواه الانتساب لأهل الحقائق وطول خدمته لهم، ليحقق بذلك منزلة عند حاضريه، وهذه دعاوى فاسدة تخرج به عن الحق والصدق.

– ومنها: استكباره عن العلم واستنكافه عن طلبه، وذلك خشية أن يظن به طلابه أنّه ليس مُقَدَّمًا في العلوم ولا أستاذًا فيها.

– ومنها: تقليد المشايخ في مظهرهم ومحاكاتهم في لباسهم دون التشبّه بهم حقيقة في أفعالهم وأحوالهم.

– ومنها: أنّ محبته للرئاسة والتصدّر ستؤدي به إلى الهجوم على العلماء والاعتراض عليهم لإثبات رفعته وتقدمه.

– ومنها: بل هي أخطرها، أنّه سيضيع أوقاته كلها في ليله ونهاره في الاهتمام بمجلسه وانشغاله بمن يحضره وتملّقه للعامة حتى يقبلوا عليه، وفي كل هذا تضييع للصدق والإخلاص، ولذلك يحذر ابن خفيف من كل ما سبق فيقول: «فليحذر تلك كلّها، ويكون منها على خطر»[1].

---

(١) راجع النص المحقق ص٣٩٧.

الفصل الثالث والأربعون

في وجوب الاعتناء بالنفس وعدم الغفلة عن سياستها حتى ولو تناهى في المعرفة

لقد تناول ابن خفيف مسألة النفس في فصل سابق، وقرر أنّها موطن الشرور، وأنّ لها أخلاقًا وحشية وأوصافًا جموحية، وبالتالي أوجب على المريد سياسة نفسه بكل وسيلة، إمّا بالملاطفة والموادعة والمهادنة، وإمّا بالشدة والقمع والقوة.

وهنا يزيد ابن خفيف الأمر وضوحًا، فيعود إلى تحذير المريد من إهمال نفسه، ويوجب عليه العناية الفائقة بسياستها حتى ولو تناهتْ درجته في المعرفة، وتكاملتْ منزلته في الطريق، فإنّه مهما بلغ لن يبلغ معشار منزلة رسول الله ﷺ، الذي كان رغم هذه المنزلة التي لا تدانيها منزلة أحد من الخلق إلّا أنّه كان مراعيًا لنفسه، مستعيذًا بالله تعالى من شرها، قائلًا: «أعوذ بك من شرّ نفسي»[1].

ويذكر الشيخ الكبير وصفًا للنفس هنا لم يذكره فيما سبق، وهو أنّ النفس تطالب صاحبها بأن تكون ضدًّا لله تبارك تعالى في دعواه، وندًا له في أوصافه، ثم ضرب أمثلة على ذلك، وأهمها:

- أنّ الله تعالى طالب عباده بالمدح والثناء عليه، والنفس تطالب بذلك أيضًا.

- وطالب الله تعالى عباده بأن يكون هو المذكور في الأنام عند الخاص والعام، والنفس تطالب بذلك أيضًا.

- وطالب الله عباده بألّا يخالفوا أمره وأن يقوموا بالوفاء بعهده، وطالبت النفس بذلك أيضًا.

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٣٩٨.

- وطالب الله عباده بأن يكون هو المُنَزَّه عن السوء، والنفس تطالب بذلك أيضًا.

- وطالب الله عباده بأن يكون هو الموصوف بالجود والكرم، والنفس تطالب بذلك أيضًا.

وهكذا ترغب النفس أن تكون ضدًا لله وندًا له جل في علاه، فإن تركها صاحبها ومطالبتها وجموحها فإنّها ستورده الموارد وتُدخله المهالك، وإن وقف لها بالمرصاد وزكّاها فإنّه سيكون من الناجين المفلحين.

الفصل الرابع والأربعون

في وجوب اتخاذ المريد حرفة يكتسب منها معاشه صيانة لنفسه عن ذل المسألة

لمسألة احتراف حرفة واتخاذ مهنة يكتسب منها المريد ما يكفيه لضروريات حياته أهمية خاصة عند الصوفية، فهم يُلزمون المريد بها سيما في بداياته، ويظل مُلْزَمًا بها حتى يصل إلى حال يصح معها التوكل والتجرد التام بالفناء عن الأسباب والبقاء مع المسبِّب.

وابن خفيف له بهذا الأمر عناية خاصة نظريًا وعمليًا.

فأمّا عمليًا: فقد ظهر لنا أثناء ترجمته أنّه احترف عديدًا من الحرف كصناعة الفلكات ونحت المغازل والقصارة وصناعة الأحقاق والنسخ.

وأما نظريًا: فمن خلال توجيهاته للمريد أن يشتغل بالكسب لنيل المعاش الضروري، حيث يجعل الاحتراف والكسب من علامات المريد الصادق، فيقول: «وليحذر المريد الصّادق أن لا يترك المكاسب والحرفة وطلب ما يعود عليه من مصالح معاشه»[1].

وهو هنا يستشهد بحديث النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله،

(١) راجع النص المحقق ص٤٠١

فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلًا، فيسأله أعطاه أو منعه»(١).

ولكن لماذا يوجب ابن خفيف هذا الأمر على المريد، ويجعله من علامات صدقه؟

والإجابة على ذلك هي أنّ ابن خفيف يريد للمريد أن تُحفظ كرامته عن ذل المسألة؛ ليظهر أنّ التصوف لا يقوم على التواكل وسؤال الناس، هذا من جانب، ومن جانب آخر يريد ابن خفيف أن يحفظ قلب المريد عن الانشغال بالطمع والطلب الذي ربما يصرفه عن طريقه ويشغله عن سلوكه.

ويبين هذا أبو الحسن السيرجاني فيما نقله عن ابن خفيف فيقول: «قال أبو عبد الله بن خفيف: إنّ النفس لا تهدأ إلا بحالين: إمّا كفاية سماوية وإمّا كفاية أرضية، وإنّها متى خَلَتْ منهما لا تقوم إلا بالطمع والطلب»(٢).

ويستشهد ابن خفيف كذلك بأحوال كبار الصوفية الذين اجتهدوا في الكسب بشروطه الشرعية، وأهمها تصفية الكسب تمامًا وجعله من الحلال الخالص.

الفصل الخامس والأربعون

في وجوب ترك مجالسة أهل المراء والجدال الذي لا ينبني عليه علم

يصف ابن خفيف المريد الصادق بأنّه الذي لا يجالس النُّظَّار والموسوسين بالجدال من أهل زمانه، وذلك لتحذير الشرع منهم.

ويذكر ابن خفيف سبب تشديده في هذا التحذير بأنّه يعود على المريد بآفات خطيرة، مثل: وجود الشحناء بينهم، وإغراء بعضهم ببعض ممّا يؤدي إلى فسادهم جميعًا،

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٤٠٢.

(٢) السيرجاني: كتاب البياض والسواد ص١١٨.

واتجاههم إلى العداوة والبغضاء حبًّا في التَّغَلُّب وطلبًا للرياسة.

ويحذر ابن خفيف المريد كذلك من أن يغتر بهؤلاء المجادلين أو يُخدع بمناظراتهم وفصيح مقالاتهم، فإنّهم ما يفعلون ذلك للدين بل طلبًا للدنيا، ويستشهد ابن خفيف على حالهم تلك بقول النبي ﷺ: «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السّفهاء أو يصرف به وجوه النّاس إليه أدخله الله النّار»[١].

الفصل السادس والأربعون

في وجوب الحذر من مخالطة أهل الأهواء والبدع

يُعَدُّ هذا الفصل تكملة للفصل السابق وإضافة إليه؛ لأنّه في الفصل السابق حَذَّرَ المريد من مخالطة أهل المراء والجدال وسماهم الموسوسين، وهنا يحذّره أيضًا من مخالطة أهل البدع والضلال، وسماهم أيضًا الموسوسين.

ويبيّن ابن خفيف للمريدين أنّ هذا التحذير صادر عن رسول الله ﷺ لكل أمته حين قال: «أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان، يقول الحقّ ويعمل بالجَوْر»[٢]، وقال ﷺ: «يكون في آخر الزمان حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من قول خير البريّة، يمرقون من الإسلام كما يمرق السّهم من الرَّمِيَّة»[٣].

ولكن إذا كان ابن خفيف يُحذّر المريد من مخالطة الموسوسين من المجادلين والمبتدعين، وهذا يمثل جانب التخلية، فَمَنْ يلزم المريد؟ ومَنْ يصحب المريد ليحقق جانب التحلية؟

---

(١) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٤٠٧.
(٢) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٤٠٨.
(٣) سيأتي تخريجه في النص المحقق ص٤٠٨.

هنا يجيب ابن خفيف بكل صراحة ووضوح بأنّ أولى الناس بالصحبة هم أهل الحديث من المخلصين والعلماء العاملين، فيقول: «وعليك بمنهج أصحاب الحديث والأخذ من فقهائهم، والتعلُّق بآثارهم، والبحث والطّلب عن مذاهبهم، والكشف عن صحّة روايتهم، والنزول في أحوالهم»[1].

وقد سبق في ترجمة ابن خفيف أنّه كان له اعتناء خاص بعلم الحديث:

- فهو أول علم تعلّمه بعد دخوله في التصوف.

- وقد تعلّمه على مشاهير محدثي عصره، وأشهرهم عبد الله بن أحمد الشارداني، وعبد الله بن جعفر الأزرقاني.

- وقد اجتهد في علم الحديث اجتهادًا تامًّا حتى طلب منه أن يجلس لإملاء الحديث فجلس مرة واحدة بعد إلحاح طلابه وأملى بعض الأحاديث فعلًا، لكنّه انصرف عن ذلك بعد فترة[2].

(١) راجع النص المحقق ص٤٠٩.

(٢) راجع ترجمة ابن خفيف في ص٩٥.

المبحث الرابع
تحقيق نسبة الكتاب لمؤلفه
ومبررات إعادة التحقيق ومنهج التحقيق

أولاً: تحقيق نسبة الكتاب لمؤلفه:

تُعَدُّ نسبة كتاب «الاقتصاد» للشيخ الكبير ابن خفيف من الأمور التي لا يخالجنا فيها شك، والشواهد التي تجعلنا نحكم هذا الحكم بيانها كما يلي:

١) نَصَّ على أنّ كتاب «الاقتصاد» من مؤلفات الشيخ الكبير كلٌّ من: الديلمي[1]، وجنيد الشيرازي[2]، وإسماعيل البغدادي[3].

٢) نَصَّتْ النسخ الخطية الثلاث التي بين أيدينا لكتاب «الاقتصاد» على نسبته لابن خفيف:

- أما عن نسخة «برنستون»، فقد كان النصّ على هذه النسبة في صفحة عنوان الكتاب، حيث جاء العنوان هكذا: «كتاب الاقتصاد»، وأسفل منه: «ممّا ألّفه الشيخ الإمام العلّامة قدوة أرباب الحقيقة أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازيّ المعروف بالشيخ الكبير قدّس الله تعالى روحه ورضي عنه».

- وأمّا نسخة «برتو باشا»، فهي وإن لم يُذكر اسم مؤلّف الكتاب تحت العنوان إلا أنّنا نجد النصّ على نسبة الكتاب لابن خفيف وذلك بعد مقدمة الكتاب، حيث جاء بعدها: «قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ اللَّهُ هذا كتاب اختصرته للمبتدي من

(١) راجع: الديلمي: سيرة الشيخ الكبير ص٢٥٧.

(٢) راجع: جنيد الشيرازي شد الإزار ص٤٢.

(٣) راجع: إسماعيل البغدادي: هدية العارفين ج٢ ص٥٠، وإيضاح المكنون ج٤ ص٢٧٠.

المريدين»، ونجد في غير مرة في بداية بعض فصول الكتاب أو في ثنايا الكلام: «قال الشيخ أبو عبد الله».

• وأمّا نسخة «جمعة الماجد» المُصَوَّرة عن نسخة «كتبخانة آية الله مرعشي»، فهي وإن لم يوجد فيها صفحة لعنوان الكتاب واسم المؤلِّف إلا أنّ النصّ على نسبة الكتاب لابن خفيف واضح فيها بصورة لا مجال فيها للشك؛ إذ في بداية هذه النسخة رواية لهذا الكتاب بسلسة من الأسانيد المختلفة التي تنتهي إلى الشيخ الكبير ابن خفيف، كما أنّنا نجد النصّ على نسبة الكتاب للشيخ الكبير بعد مقدمة الكتاب، حيث جاء بعدها: «قال أبو عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ ٱللَّهُ هذا كتاب اختصرته للمبتدي من المريدين»، وبعدها بقليل: «قال أبو عبد الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ».

٣) المقارنات التي أجريناها بين مواضع من هذا الكتاب وبين بعض مؤلّفات ابن خفيف الأخرى، فقد أجرينا مقارنات بين هذا الكتاب وبين:

• كتابه «المعتقد الصغير»(١).

• وكتابه «فضل التصوف على المذاهب»(٢).

• و«وصيته للمريدين»(٣).

• والنصوص التي نقلها ابن تيمية في «الفتوى الحموية الكبرى» من كتاب نسبه لابن خفيف بعنوان «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات».

---

(١) الذي قمنا بتحقيقه وطبعته دار الرازي للنشر والتوزيع.

(٢) الذي عمل على نشره وإخراجه: فاطمه علاقه، بالتعاون مع كاظم برگ نيسى، ط معارف، دورة بانزدهم، شمارة ١ و٢، فروردين – آبان ١٣٧٧.

(٣) يعمل المحققان حاليًا على تحقيق هذه الوصية، نسأل الله تعالى التيسير.

وقد اتّضح من هذه المقارنات الاتفاق في الفكرة، بل وفي الألفاظ أحيانًا، الأمر الذي يُعَضِّد نسبة الكتاب لابن خفيف.

عنوان الكتاب:

سوف نعتمد بإذن الله تعالى العنوان الموسوم بـ«كتاب الاقتصاد» عنوانًا للكتاب الذي نحن بصدد تحقيقه؛ وذلك للاتفاق على هذا العنوان لدى كلٍّ من الديلميّ وابن الجنيد الشيرازيّ وإسماعيل البغداديّ، وهم الذين نصّوا على نسبة هذا الكتاب للشيخ الكبير.

كما أنّ نسخة «برنستون» عَنْوَنَتْ بهذا العنوان أيضًا لهذا الكتاب، ونسخة «برتو باشا» وإن كانت قد عنونت لهذا الكتاب بعنوان: «الرسالة المسماة بالاقتصاد» وذلك في غلاف المجموع الذي احتوى هذا الكتاب وغيره، إلا أنها نصّت في ختامها على العنوان الذي اخترناه.

أما نسخة «كتبخانة آية الله مرعشي» فقد خَلَتْ من النصّ على عنوان الكتاب، ومن الغريب أنّنا نجد صورة هذه النسخة في مركز «جمعة الماجد» محفوظة في محرك البحث الخاص بالمركز تحت عنوان «آداب المريدين»!!

فهل «كتاب الاقتصاد» هو هو «آداب المريدين» الذي نسبه إسماعيل البغداديّ في «هدية العارفين»[1] و«إيضاح المكنون»[2] لابن خفيف، ربما، ولكن هذه الاحتمالية ليست قوية، لسببين، وهما:

- أنّ إسماعيل البغدادي وإن كان قد نسب في «هدية العارفين» و«إيضاح المكنون» لابن خفيف كتابًا تحت عنوان «آداب المريدين»، لكنّه في نفس الوقت نسب له كتاب

---

(١) ج٢ ص٤٩.
(٢) ج٣ ص٤.

«الاقتصاد»[1]، بما يعني غالبًا أنّ هذا الكتاب غير ذاك، واحتمالية كونهما كتابًا واحدًا له عنوانان احتمالية ضعيفة جدًا، وإلا لوجدنا ولو مجرد إشارة لهذا الأمر عند الناصّين على كتبه أو حتى في نسختي «برنستون» و«برتو باشا».

- أضف إلى هذا أنّ «جواد بشرى»[2] في ورقته البحثية[3] التي اهتم فيها بباقي تراث ابن خفيف والإشارة إلى نسخة «كتبخانة آية الله مرعشي» من كتاب «الاقتصاد» - والتي ذكر أنّه اطّلع عليها في مصدرها - لم يُشِرْ من قريب أو بعيد إلى أنّ هذا الكتاب الذي بين أيدينا محفوظ في مصدره تحت عنوان «آداب المريدين».

فلا ندري حقيقة من أين عرف المُعِدُّ لفهرس المخطوطات في مركز «جمعة الماجد» أنّ هذا الكتاب الذي نحن بصدد تحقيقه يحمل عنوان «آداب المريدين»؟!

لعلّه لمّا لم يجد صفحة عنوان لهذه النسخة اجتهد في وضع اسم لها يحفظها تحته، فوجد أنّ ابن خفيف يقول في كتابه هذا: «هذا كتاب اختصرته للمبتدئ من المريدين ممّا لابد لهم من معرفة جمل علوم المتصوّفة»، فرجّح أن يكون هذا الكتاب هو كتاب «آداب المريدين»، ولو صحّ هذا الاحتمال فيكون هذا المُفهرس لم يَطّلع على النسختين الأخريين لكتاب «الاقتصاد» اللّتين يُنَصّ فيهما على عنوان الكتاب.

ومهما يكن من أمر فإنّنا قد اعتمدنا العنوان الموسوم بـ«كتاب الاقتصاد» عنوانًا للكتاب الذي نحن بصدد تحقيقه، فهو أمر مؤكّد ولا شكّ فيه، وقد سبق ذكر الأسباب التي تدعونا لذلك الحكم.

---

(١) راجع: إسماعيل البغدادي: هدية العارفين ج٢ ص٥٠، وإيضاح المكنون ج٤ ص٢٧٠.

(٢) أستاذ مساعد بقسم اللغة الفارسية وآدابها بجامعة طهران/ j.bashary@ut.ac.ir

(٣) راجع: جواد بشري: آثار برجاى مانده از ابن خفيف ودست نويسى از بخش ابتدايى «كتاب الاقتصاد»، ط آينة ميراث، شمارة.

ثانيًا: مبرّرات إعادة التحقيق:

لمّا كنّا بصدد تحقيق كتاب «المعتقد الصغير» للشيخ الكبير ابن خفيف، كان قد وقع تحت أيدينا ثلاث نسخ مخطوطة من كتابه «الاقتصاد»، فاستعنّا بالله تعالى وشرعنا في تحقيقه أيضًا، وأثناء العمل على تحقيقه وبعد أن قرأنا نصّ الكتاب وشرعنا في كتابته وتسجيل مقارناتنا بين النسخ ساقت الأقدار إلينا رسالة الدكتوراه للمستشرق الألماني الأستاذ «فلوريان صبيروي» (Florian, Sobieroj)، والتي أعدّها لدراسة شخصية ابن خفيف مع تحقيق لنصّ كتابه «الاقتصاد»(١).

وقد سارعنا متلهفين إلى مطالعة نصّ كتاب «الاقتصاد» كما أخرجه الأستاذ «صبيروي»، فشكرنا للرجل جهده، حيث اهتدى لهذا السفر العظيم وعمل على إخراجه للنور، لكن مع هذا لم تفتر عزيمتنا فيما بدأنا فيه من تحقيق هذا الكتاب، بل على العكس زاد نشاطنا، ورأينا ضرورة إعادة تحقيق هذا الكتاب، وذلك لعدة أسباب، بيانها كما يلي:

١) اعتمد الأستاذ «صبيروي» في تحقيقه لنصّ كتاب «الاقتصاد» على نسختين خطّيّتين فقط، وهما نسخة «برنستون» ونسخة «برتو باشا»، بينما يعتمد تحقيقنا على ثلاث نسخ خطّيّة، وهي: النسختان سابقتا الذكر إضافة لنسخة مركز «جمعة الماجد» المصوَّرة عن نسخة «كتبخانة آية الله مرعشي بقم»، وهذه النسخة الثالثة التي لم يهتدِ إليها الأستاذ «صبيروي» رغم كونها غير مكتملة إلا أنّ لها قيمة علمية كبيرة، وهي النصّ فيها على رواية كتاب «الاقتصاد» بعدة أسانيد(٢) تنتهي إلى الشيخ الكبير ابن خفيف، إضافة لاختلافها في بعض الألفاظ عن النسختين الأخريين على ما سيظهر في هامش النصّ المُحقّق بإذن الله

---

(١) Sobieroj، Florian: Ibn-Ḥafīf aš-Šīrāzī und seine Schrift zur Novizenerziehung (Kitāb al-iqtiṣād). Doctoral dissertation، Albert-Ludwigs- Universität zu Freiburg, ١٩٩٢. To be published in the series Beiruter texte und Studien of the Deutsche Morgenländische Gesellschaft.

(٢) سنذكر هذه الأسانيد أثناء وصف هذه النسخة الخطية بإذن الله تعالى.

تعالى.

١) جاء تحقيق الأستاذ «صبيروي» لنصّ كتاب «الاقتصاد» مشوبًا ببعض الأخطاء، ومنها:

• فاته بعض المقارانات بين المخطوطتين اللتين اعتمد عليهما، مثل: «آلائه» «آلاته»، و«شاء» «يشاء»، و«صدر» «صدور».

• قرأ بعض الكلمات قراءة غير صحيحة، مثل: «أصحاب» والتي قرأها «صحاب»، و«فنبه» والتي قرأها «فينبه»، و«طالبهم» والتي قرأها «طلبهم».

• سقوط بعض الكلمات والحروف من قراءته للنصّ، مثل: «إنّ» في قول ابن خفيف: «إنّ أول ما تدعوهم»، و«إلى الطاعة» في قول ابن خفيف: «فطالبهم بالرجوع عن المعاصي إلى الطاعة»، و«واو العطف» في قول ابن خفيف: «وطلبًا لترك المساءلة».

• فاته النصّ على بعض التصويبات التي صُوِّبَتْ في هامش النسختين اللتين اعتمد عليهما، مثل: «خلّص» والتي صوبت في الهامش «خصّ»، و«حتى» والتي صوبت في الهامش «حين»، و«اسبعاد» والتي صوبت في الهامش «استعباد».

• لم يصحح بعض الكلمات على ما استقرت عليه العربية الحديثة، مثل: «الصلوة» والتي تكتب حاليًا «الصلاة»، و«القيمة» والتي تكتب حاليًا «القيامة».

• وجود بعض الأخطاء الكتابية في إخراجه للكتاب، مثل: «إكتساب» والصواب «اكتساب»، «المسائلة» والصواب «المساءلة»، و«إعلم» والصواب «اعلم».

وهذه مجرد أمثلة للأخطاء التي لاحظناها على قراءة الأستاذ «صبيروي» وكتابته للنصّ المحقّق، وسيجد القارئ ما لاحظناه من أخطاء مسجلًا في هامش التحقيق.

٢) لم يترجم الأستاذ «صبيروي» للأعلام، ولم يُعَرِّف بمعظم المصطلحات، وأغفل تخريج بعض الأحاديث والآثار والأقوال الموجودة في نصّ الكتاب، ثمّ إنّ تخريجه للأحاديث النبويّة الشريفة لم يلتزم فيه بضوابط التخريج، حيث إنّك قد تجد الحديث في البخاريّ ومسلم وأبو داود مثلًا، فيُخَرِّجه من أبي داود ولا يأتي على ذكر للبخاريّ أو مسلم، كما أنّه لم يحكم على الأحاديث التي ليست في البخاريّ ومسلم.

٣) لم يحدد الأستاذ «صبيروي» بداية الأحاديث الشريفة والآثار والأقوال المنقولة ونهايتها بعلامتي تنصيص على ما هو معهود في الكتابة الحديثة، أو حتى بيان نهاية الحديث أو الأثر أو القول بعلامة «ا.هـ»، بل نَصُّ الأحاديث والآثار والأقوال في تحقيقه متصل بكلام ابن خفيف.

٤) خلا تحقيق الأستاذ «صبيروي» لكتاب «الاقتصاد» للشيخ الكبير من التعليقات والإيضاحات حول بعض القضايا الصوفيّة، ولم يُشِرْ إلى بعض المصادر التي تناولت القضايا الصوفيّة التي حواها الكتاب.

من أجل هذا رأينا إعادة تحقيق الكتاب تحقيقًا علميًا متلافين هذا القصور الذي احتواه تحقيق الأستاذ «صبيروي»، لكنّنا مع هذا نسجل شكرنا له مرة أخرى على إخراجه لهذا الكتاب، ولا نَتَأَبَّى أبدًا على الاعتراف بأنّنا استفدنا منه كثيرًا في قراءة بعض مواضع الكتاب التي صعبت علينا، خاصّة تلك التي خَلَتْ منها نسختي «برتو باشا» و«كتبخانة آية الله مرعشي»، وكانت في نسخة «برنستون» غير واضحة[1].

(١) سوف نقوم بتحديد بداية هذه الجزئية ونهايتها أثناء وصف النسخ المخطوطة، وكذا في هامش التحقيق.

ثالثًا: منهج التحقيق:

اتبعنا في تحقيق النص المنهج الآتي:

١) بعد حصولنا على النسخ الخطية الثلاث التي اعتمدنا عليها في التحقيق قمنا بقراءتها قراءة متأنّية، هادفين من ذلك إخراج نصّ المُؤَلِّف سليمًا، وتصحيح ما قد يوجد فيه من خطأ أو تصحيف أو سقط، وذلك بالمقابلة بين هذه النسخ والإشارة إلى ذلك في الهامش، وسوف نرمز في الهامش:

- لنسخة «برنستون» بالحرف (أ).
- ولنسخة «برتو باشا» بالحرف (ب).
- ولنسخة «مركز جمعة الماجد» المصورة عن «كتبخانة آية الله مرعشي» بالحرف (ج).

كما أنّا سنقوم بالمقارنة بين قراءة الأستاذ «صبيروي» للنصّ المحقّق وبين قراءتنا له، وما نقف عليه من فروق جوهرية في القراءة سوف نسجله في الهامش، وسنشير لنسخته بقولنا: عند (صبيروي).

٢) التزمنا في كتابة النصّ المحقّق بقواعد الإملاء الحديثة، وصحّحنا ما وجدناه من أخطاء إملائية وكذا اختلال النقط الحاصل في بعض الكلمات المنقوطة.

٣) أثبتنا أيّ زيادة وردت ولو في نسخة واحدة من النسخ الثلاث طالما أنّها لا تضرّ بالسياق، مع الإشارة إلى ذلك في الهامش، أمّا إذا وجدنا الزيادة لا داعي لها وربما تضرّ بالسياق فإنّنا نكتفي بالإشارة إليها في الهامش دون أن نثبت هذه الزيادة في النصّ المحقّق.

٤) عند الاختلاف في كلمة ما فإنّنا نعتمد ما توافقت عليه نسختان دون الثالثة، ولا نعتمد ما تفردت به نسخة عن الأخريين إلا إذا رأينا الصواب فيه واضحًا.

٥) لا نتدخل في النصّ المحقق إلا في أضيق الحدود، وذلك إذا كان التصحيف أو

التحريف ظاهرًا بصورة لا لبس فيها.

٤) قسّمنا النصّ إلى فقرات بحسب مقتضيات المعنى، كما حرصنا على استخدام علامات الترقيم التي استقرّ عليها الأمر في العربية المعاصرة من النقط والفواصل وما إلى ذلك.

٥) أثبتنا الآيات القرآنية التي وردت في النصّ المحقّق مُشَكَّلَة بالرسم العثماني وجعلناها بين علامتين هكذا: ﴿ ﴾، وعزوناها إلى سورتها وبيّنا رقمها بين معكوفين في صلب الكتاب.

٦) خرّجنا الأحاديث النبوية الشريفة الواردة في النصّ، وحكمنا عليها إذا وردت في غير الصحيحين أو أحدهما، كما خرّجنا الآثار والأقوال من مصادرها الأصيلة.

٧) ترجمنا للأعلام الوارد ذكرهم في الكتاب، وعمدنا إلى أن تكون الترجمة موجزة مع الإحالة إلى المراجع الأصيلة.

٨) قمنا بمقارنة ما ورد في النصّ بما وقفنا عليه من تراث ابن خفيف، سواء كان هذا التراث:

• من كتبه التي وصلت إلينا، وهي: «المعتقد الصغير»، و«فضل التصوف على المذاهب»، و«وصيته للمريدين».

• أو ممّا نقله البعض من كتبه المفقودة، أعني ما نقله ابن تيمية من الكتاب الذي نسبه لابن خفيف وهو «اعتقاد التوحيد بإثبات الأسماء والصفات».

• أو من أقوال ابن خفيف التي نقلها المترجمون كابن عساكر وابن السبكي، وكذا الصوفية كالسلمي وأبي نعيم والقشيري.

٩) قمنا بتعريف أغلب المصطلحات الواردة في النصّ، وكذا علّقنا على القضايا الصوفيّة التي تناولها ابن خفيف في كتابه هذا، مع الإحالة على المصادر والمراجع المختلفة التي عالجتها.

١٠) ومن أهم ما قمنا به أثناء التحقيق أنّنا اجتهدنا اجتهادًا تامًا في وضع عناوين مناسبة لفحوى كل فصل؛ لأنّ الشيخ الكبير لم يضع هذه العناوين، بل كان يفصل بين كل موضوع والذي يليه بقوله «فصل»، ثم يذكر مضمونه من دون عنوان، فرأينا أنّه مِن المناسب وضع عناوين تدل على مضمون كل فصل، وذلك تيسيرًا على القارئ في أن يستدل على الموضوع الذي يريده من الكتاب، وقد جعلنا هذه العناوين بين معقوفتين هكذا: [ ].

المبحث الخامس
وصف النسخ الخطية التي اعتمد عليها التحقيق ونماذج منها

أولًا: وصف النسخ الخطية التي اعتمد عليها التحقيق:

اعتمدنا في تحقيق كتاب «الاقتصاد» للشيخ الكبير ابن خفيف الشيرازي على ثلاث نسخ خطّيّة، وهي:

النسخة الأولى: نسخة «برنستون»، مجموعة «يهودا»، تحت رقم (٢٦٥٤)، ورمز الحفظ (٤٥٩)، وهي ما رمزنا لها في التحقيق بالرمز (أ).

وتقع هذه النسخة في (١٤) لوحةً غير اللوحة التي دُوِّن عليها عنوان الكتاب، حيث دُوِّن العنوان في أعلى الجانب الأيسر من هذه اللوحة، وقد جاء العنوان هكذا: «كتاب الاقتصاد»، وتحته اسم المؤلِّف هكذا: «ممّا ألّفه الشيخ الإمام العلّامة قدوة أرباب الحقيقة أبو عبد الله محمد بن خفيف الشيرازيّ المعروف بالشيخ الكبير قدّس الله تعالى روحه ورضي عنه».

وبدأ الكتاب من اللوحة التي تلت لوحة العنوان، وجاءت البداية في هذه النسخة هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم. ربِّ يسر وأعن. الحمد لله الذي حمد نفسه بالثناء على نفسه، المتعرّف إلى خلقه بأسمائه وصفاته، المتحببّ إلى خلقه بجميل ما أنعم عليهم من آلائه ونعمائه، والداعي لهم إلى خلع الأضداد والأنداد في توحيده...».

وخُتِمَتْ هذه النسخة في السطر رقم (٥) من اللوحة رقم (١٤/ ب)، وجاءت الخاتمة هكذا: «قد بلغني أنّ المعتضد أراد أن يرى بشر بن الحارث الحافيّ، فقيل لبشر ذلك، فقال: قل له: والله الذي لا إله إلا هو لئن بلغني أنّك ذكرتني لذلك ثانيًا لأخرجنّ من جوارك

ببغداد، فبلغ ذلك المعتضد فقال: قولوا له: لا أذكرك، أو كما قال، وبالله التوفيق، تمّ كتاب الاقتصاد ممّا ألفه الشيخ الإمام العلامة، قدوة أرباب الحقيقة، المعروف بالشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن خفيف قدس الله روحه ورضي عنه، والحمد لله رب العالمين، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلَّى الله على سيدنا محمد وآله وسلّم تسليمًا، بيد الكاتب لنفسه نجيب بن إمام الدين الإيجيّ - غفر لهما - بالجامع العتيق بشيراز آخر أولى جمادي ثماني عشرة وثمانمائة».

وقد كُتِبَ في هامش صفحة الخاتمة في هذه النسخة: «كلام المؤلف رضي الله عنه: يحتاج المريد إلى أربعة أشياء، دابّة فارهة، ودار واسعة، وثوب حسن، وسراج مضيء، وأمّا الدابّة الفارهة فهي الصبر، والدار الواسعة هي العلم، والثوب الحسن هو الحياء، والسراج المضيء هو العقل.ا.هـ عاش مائة وخمس سنين، وقيل أربعة عشر، وتوفي ليلة الثالث والعشرين من رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة».

وعدد الأسطر في كل لوحة من لوحات هذه النسخة (٢٤) سطرًا، بمتوسط (١٦) كلمة في السطر، وقد كتبت المخطوطة بخطّ النسخ بمداد أسود.

والحروف التي من شأنها أن تكون منقوطة في هذا النسخة نجد بعضها منقوطًا وبعضها غير منقوط، وأحيانًا نجد عليها بعض حركات التشكيل، والخطّ واضح في غالب اللوحات يسهل قراءته، وفي بعضها آثار المداد مما يُصَّعِب قراءتها، وصفحات هذه النسخة رُبِطَتْ في الغالب بطريقة «التعقيبة».

وهذه المخطوطة قد راجعها الناسخ حيث دَوَّنَ بخطّه بعض السقط على الهامش مع علامة السقط بالمتن، وأحيانًا في الحاشية يذكر معاني بعض الكلمات.

أما عن ناسخ هذه المخطوطة وتاريخ نسخها ومكان النسخ فكما هو واضح من

خاتمتها التي نقلتها سابقًا أن ناسخها هو نجيب بن إمام الدين الإيجيّ، وتاريخ النسخ هو آخر جمادى الأولى سنة ٨١٨ من الهجرة النبوية الشريفة، ومكان النسخ هو الجامع العتيق بشيراز.

النسخة الثانية: نسخة «برتو باشا»، وهي تقع ضمن مجموع رقم (٦٥٢) لوحة (٨أ - ٢٦ ب)، وهي ما رمزنا لها في التحقيق بالحرف (ب).

وقد تلا غلاف هذا المجموع لوحة دُوِّنَ على الورقة اليمنى منها بمداد أسود بخط فارسي أسماء المصنفات التي احتوى عليها هذا المجموع وهي خمسة مصنفات، مع إعطائها رقم ترتيبها في المجموع، وقد دُوِّنَتْ أسماء المصنفات هذه تحت عنوان مكتوب بمداد أحمر بخط فارسيّ: «هذه الرسائل بهذا الترتيب في هذا المجلد»، وثاني هذه المصنفات الذي يأخذ رقم (٢) هو «الرسالة المسماة بالاقتصاد»، وهي الكتاب الذي نحن بصدد تحقيقه.

وفي الصفحة اليسرى من هذه اللوحة التي تلت غلاف المجموع مكتوب عدة بيانات بخط فارسيّ بمداد أسود، فيتوسطها رقم (٦٥٢) وهو رقم المجموع، وأسفل منه مدوّن كلمتي: «عدد أوراق» تحتهما رقم (١٣٢)، وتحته إلى اليسار كُتِب اسمان على هذا النحو: «من عبد الله حسن وكفا إلى بكر بن مصطفى عنهما عفا»، وفي منتصف أعلى هذه الصفحة دُوِّنَ رقمان مفصولًا بينهما بخط، وغير واضح المقصود منهما، وأسفل هذين الرقمين من جهة اليمين مكتوب: «استصحبه الفقير السيد محمد عطاء الله غفر له» وعليها ختم حديث باللون الأزرق غير واضح إلا أنّه مكتوب فيه كلمات باللاتينية، ويتوسطه هلال ونجمة داخله، ومن جهة هذه الصفحة اليسري وتحت الرقمين اللذين هما في أعلى الصفحة مكتوب جملة: «من كتب العبد المفتقر إلى الله الغني محمد بن رجب عفى عنهما»، وتحتها بخط مائل: «استصحبه العبد الفقير إليه تعالى عثمان بن مصطفى الشهير بقاضي

زاده»، وفي منتصف أسفل هذه الصفحة كتبت اسم المكتبة ورقم الحفظ باللغة الإنكليزية في جدول مصمّم لذلك.

وعدد الأسطر في كل لوحة من لوحات المجموع (١٣) سطرًا، بمتوسط (١٠) كلمات في السطر، وقد كُتِبَتْ المخطوطة بخط فارسي بمداد أسود، ويستخدم الناسخ المداد الأحمر أحيانًا في بداية الفصول، وأحيانًا في بداية الفقرات.

والكلمات في هذا المجموع منقوطة، وأحيانًا نجد عليها بعض حركات التشكيل، وقد حُدِّدَتْ مساحة الكتابة في كل لوحة بإطار لا تخرج الكتابة عنه، وصفحات المجموع رُبِطَتْ في الغالب بطريقة «التعقيبة».

وهذه المخطوطة قد راجعها الناسخ حيث دَوَّنَ بخطه بعض السقط على الهامش مع علامة السقط بالمتن وإمضاء «صح» تحت التصويب بالهامش.

وتقع «الرسالة المسماة بالاقتصاد» التي تخصّنا من هذا المجموع في (١٩) لوحة، حيث بدأت من اللوحة رقم (٨/ أ) التي بدأت من السطر الثالث بما يلي: «بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي حمد نفسه بالثناء على نفسه، المتعرّف إلى خلقه بأسمائه وصفاته، المتحببّ إلى خلقه بجميل ما أنعم عليهم من آلائه ونعمائه، والداعي لهم إلى خلع الأضداد والأنداد في توحيده...».

وخُتِمَتْ «الرسالة المسماة بالاقتصاد» في هذا المجموع في اللوحة رقم (٢٦/ ب) السطر رقم (٩)، وقد جاء في الخاتمة: «قد بلغني أنّ المعتضد أراد أن يرى بشر بن الحارث الحافيّ، فقيل لبشر ذلك، فقال: قل له: والله الذي لا إله إلا هو لئن بلغني أنك ذكرتني ثانيًا لأخرجنّ من جوارك ببغداد، فبلغ ذلك المعتضد فقال: قولوا له: لا أذكرك، أو كما قال، وبالله التوفيق، وبه الحول والقوة، تمّ كتاب الاقتصاد بحمد الله وحسن توفيقه في العشر

الوسطى من شهر شعبان المعظّم سنة ألف من الهجرة النبويّة».

وكما هو ظاهر فقد اشتملت هذه الخاتمة على تاريخ نسخ هذه النسخة من «كتاب الاقتصاد».

وممّا ينبغي الإشارة إليه ونحن بصدد وصف نسخة «برتو باشا» من «كتاب الاقتصاد» أنّنا إذا ما قارناها بنسخة «برنستون» فإنّنا نكشف أنّ هناك نقصًا فيها بما يعادل (٧) لوحات من نسخة «برنستون»، حيث تداخل الكلام فيها على نحوٍ أدّى إلى حدوث هذه النقص، وسنشير إلى ذلك أثناء تحقيق النصّ والتعليق عليه.

النسخة الثالثة: نسخة «مركز جمعة الماجد» وهي المحفوظة برقم (٢٣٠٢٧٨)، وهذه النسخة مُصَوَّرَة عن نسخة أصلية محفوظة في «كتبخانة آية الله مرعشي بقم» برقم (٥/ ٦٧)، وهي ما رمزنا لها في التحقيق بالرمز (ج).

وتقع هذه النسخة في (١٠) لوحات فقط، وبمقارنتها بنسخة «برنستون» - وهي النسخة الكاملة على ما سبق ذكره - يتضح أنّ نسخة «مركز جمعة الماجد» اشتملت على خمس لوحات إلا قليلًا من نسخة «برنستون»، وذلك من بداية الكتاب وحتى قول ابن خفيف: «فيزيله عن الإخلاص ويأوي بإرادته إلى المخلوقين، وبالله التوفيق»، وهو الموضع الذي يقع في السطر (١١) من اللوحة (٥/ ب) من نسخة «برنستون».

أمّا باقي كتاب «الاقتصاد» فهو ناقص في هذه النسخة، وقد نصّ على هذا أيضًا «جواد بشرى»، وبيّن أنّ النسخة الأصلية، أعني نسخة «كتبخانة آية الله مرعشي» التي اطلع هو عليها تنتهي عند هذا الموضع الذي ذكرناه[١].

ويظهر أنّ هذه النسخة كانت كاملة ثم عرض لها عارض أدّى لفقد ما نقص منها،

---

(١) راجع: جواد بشرى: آثار برجاى مانده از ابن خفيف ودست نويسى از بخش ابتدايى «كتاب الاقتصاد» ص٤٧.

وإنّما قلنا ذلك لعدة أسباب، ومن خلالها نتعرف أيضًا على وصف المخطوطة، وهذه الأسباب هي:

١) أنّ هذه النسخة اعتمد الناسخ فيها طريقة التعقيبة، ثمّ إنّ آخر هذه النسخة يقع في اللوحة رقم (١٠/ أ) وهو قوله: «ويأوي بإرادته إلى المخلوقين، وبالله»، وقد وجدنا التعقيبة هكذا: «التوفيق»، وهي ما لم نجدها في بداية (ب) من اللوحة رقم (١٠) بل وجدنا أوّل كلمة في هذه الصفحة هي: «والنفسا».

٢) اللوحة (١٠/ أ) متوافقة مع اللوحات التسع السابقة من حيث أنّ عدد الأسطر في كلّ لوحة (١٨) سطرًا بمتوسط (١١) كلمة في السطر والكلمات فيها غير مُشَكَّلَة، بينما نجد اللوحة (١٠/ب) عدد الأسطر فيها (١٣) سطرًا بمتوسط (٩) كلمات في السطر والكلمات فيها مُشَكَّلَة.

٣) الكلام في اللوحة (١٠/ ب) يتواصل بما هو غير موجود في نسختي «برنستون» و«برتو باشا» من «كتاب الاقتصاد»، وهو كلام لا علاقة له بالمرة بسياق الكلام الذي قبله.

ويمكن القول بأنّ الكلام الذي هو في اللوحة رقم (١٠/ ب) من نسخة «كتبخانة آية الله مرعشي» هو جزء من كتاب لعالم شيعي حيث إنّه من ضمن الكلام في هذه الصفحة: «ونبوة نبينا محمد صلى الله عليه وآله، وإمامة الأئمة عليهم السلام».

ولمّا كانت نسخة «كتبخانة آية الله مرعشي» من كتاب «الاقتصاد» موجودة ضمن مجموع رسائل في الفقه والكلام والأدب بناء على ما ذكره «جواد بشرى» في وصفه لهذه النسخة[1]، فإنّنا نميل إلى أنّها قد فُقِد جزء منها وجزء من الكتاب الذي يليها والذي رجحنا كونه لعالم شيعي، فبدا الأمر على النحو الذي سبق ذكره.

---

(١) يتكرر هذا الختم في أعلى اللوحة (٩/ أ)، وكذا في أسفل اللوحة (١٠/ ب).

هذا، ولا توجد صفحة عنوان في هذه النسخة، وقد سبق بيان أنّها محفوظة في «مركز جمعة الماجد» تحت عنوان «آداب المريدين»، وهو الأمر الذي كان محلّ استغراب منّا.

وقد كُتِبَتْ هذه النسخة بخطّ نسخي منقوط، وتبدأ بصفحة يعلوها ختم وقف هذه النسخة مكتوب فيه: «وقف كتابخانه عمومى آيت الله مرعشى نجفى «قم»»[1]، وتحته مساحة سطر فارغة يليها البسملة، ويلي البسملة ما تمتاز به هذه النسخة على النسختين الأخرين - رغم كونها ناقصة - وهو اشتمالها على سلسة رواة لكتاب «الاقتصاد» بالسند وصولًا إلى الشيخ الكبير ابن خفيف.

فبعد البسملة نجد مباشرة:

أخبرنا الشيخ الإمام الفقيه شهاب الدين أبو الفضل محمد بن يوسف بن عليّ الغزنويّ الحنفيّ[2] رضي الله عنه، قال: أخبرنا الشيخ أبو بكر المبارك بن كامل بن أبي غالب الخفّاف[3]

(١) راجع: جواد بشري: آثار برجاى مانده از ابن خفيف ودست نويسى از بخش ابتدايى «كتاب الاقتصاد» ص٤٧.

(٢) هو محمد بن يوسف بن عليّ بن محمد أبو الفضل الغزنوي ثم البغدادي الإمام، كان من أكابر المحدّثين والرواة المسندين والقرّاء المذكورين والفقهاء المدرّسين، أصله من «غزنة» وهي أوّل بلاد الهند، ومولده ببغداد سنة ٥٢٢هـ روى عن جماعة منهم الحافظ أبو سعد البغدادي وأبو الفضل بن ناصر، وروى عنه الشيخ رشيد الدين العطّار الحافظ وذكره في معجم شيوخه، وتفقّه على عبد الغفور بن لقمان الكردري، وسمع بالإسكندرية من أبي طاهر السلفي، وحدّث بجامع عبد الرازق بالقاهرة، وتوفي بها بعد أن كفّ بصره سنة ٥٩٩هـ. (راجع: عبد القادر القرشي: الجواهر المضية في طبقات الحنفية ج٢ ص١٤٧، ١٤٨ (طبعة مير محمد كتب خانه - كراتشي، بدون)، وأبو الحسنات اللكنوي: الفوائد البهية في تراجم الحنفية ص٢٠٤ (عنى بتصحيحه: محمد بدر الدين النعساني، الطبعة الأولى سنة ١٣٢٤هـ طبع بمطبعة دار السعادة بجوار محافظة مصر).

(٣) هو المبارك بن كامل بن أبي غالب البغدادي، ويعرف أبوه بالخفّاف، أبو بكر المفيد، ولد سنة ٤٦٥هـ قرأ القرآن بالقراءات، وسمع أبا القاسم بن بيان، وأبا عليّ بن نبهان، وأبا الغنائم النرسي، وخلقًا كثيرًا، وما=

إجازة، قال: أخبرنا الشيخ أبو محمد يحيى بن عليّ الطرّاح[1] بقراءتي[2] عليه، قال: أخبرنا القاضي أبو المظفّر هنّاد بن إبراهيم النسفيّ[3][4] إجازة، قال: أخبرنا أبو القسم[5] عليّ بن محمد بن الحسن الصوفي[6]، قال: أخبرنا أبو عبدالله محمد بن خفيف رَحِمَهُ اللَّهُ.

=زال يسمع العالي والنازل ويتبع الأشياخ في الزوايا، وينقل السماعات، فلو قيل أنه سمع من ثلاثة آلاف شيخ لما رُدَّ القائل، وجالس الحفّاظ وكتب بخطه الكثير وانتهت إليه معرفة المشايخ ومقدار ما سمعوا والإجازات لكثرة دربته في ذلك، وتوفي سنة ٥٤٣هـ ودفن بالشونيزية. (راجع: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج١٨ ص٧٠، والذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٢٩٩، ٣٠٠).

(١) هو يحيى بن عليّ بن محمد بن علي الطرّاح، أبو محمد المدير، ولد بنهر القلائين في سنة ٤٥٩هـ ونشأ بها ثم انتقل إلى الجانب الشرقي، سمع أبا الحسين بن المهتدي وأبا جعفر بن المسلمة وأبا محمد الصريفيني وغيرهم، وكان سماعه صحيحًا، وكان له سمت المشايخ ووقارهم وسكونهم مشغولًا بما يعنيه، وكان كثير الرغبة في الخير وزيارة القبور، وكان مديرًا لقاضي القضاة أبي القاسم الزينبي، وتوفي سنة ٥٣٦هـ ودفن بالشونيزية. (راجع: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج١٨ ص٢٤، ٢٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء ج٢٠ ص٧٧، ٧٨).

(٢) في الأصل: بقراتي.

(٣) في الأصل: السيفي.

(٤) هو هنّاد بن إبراهيم بن محمد بن نصر، أبو المظفّر النسفي، ولد سنة ٣٨٤هـ ورحل إلى العراق وسكن قرية من سواد عكبرا، وولي قضاء حربى، وكان يقدم إلى بغداد في الأحايين، سمع من أبي الحسين بن بشران وأبي عمر بن عبد الواحد الهاشمي، وأبي عبد الرحمن السلمي وأبي عبد الله الغنجار وغيرهم، وروى عنه الخطيب البغدادي وأشار إلى تضعيفه، توفي سنة ٤٦٥هـ. (راجع: الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ج١٦ ص١٤٩، وابن قطلوبغا: تاج التراجم ص٣١٤ (بتحقيق: محمد خير رمضان، الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، دار القلم - دمشق).

(٥) هكذا في الأصل، ونرجّح أنّها تصحيف لـ«الحسن».

(٦) نرجّح أنّ المقصود هنا هو أبو الحسن عليّ بن محمد الديلمي، تلميذ ابن خفيف وكاتب سيرته والذي أسلفنا الحديث عنه أثناء الكلام على تلامذة ابن خفيف؛ إذ ليس من بين من وقفنا عليهم من تلامذة ابن خفيف الذين سمعوا منه من تَسَمَّى بعليّ بن محمد سوى أبي الحسن الديلمي كاتب السيرة، ونرجّح أنّ=

قال الشيخ المبارك بن كامل[(١)]: وأخبرنا به الشريف أبو الكرم المبارك بن جعفر بن مسلم الهاشميّ[(٢)] بقراءتي[(٣)] عليه في جمادى[(٤)] الأولى[(٥)] سنة خمس عشر وخمسمائة، قال: أخبرنا أبو محمد التميميّ[(٦)] إجازة، عن السلميّ[(٧)]، عن أبي عبد الله بن خفيف.

قال الشيخ أبو بكر[(٨)]: وأخبرنا الشيخ أبو الحسن علي بن أحمد بن الحسن الموحّد[(٩)]

=ما ورد في كنيته ههنا من أنّه «أبو القسم» هو تصحيف لـ«أبو الحسن»، ويؤكد هذا أنّ الناسخ قد وضع عليها علامة التصويب، لكن يبدو أنّه قد نسي تصويبها، أو أنّه وضعها كدلالة على عدم تأكده من الكلمة.

(١) سبقت ترجمته في الطريق الأوّل من طرق رواية الكتاب.

(٢) تَفَقَّه على أبي القاسم يوسف بن محمد الزنجاني، وجالس أبا الحسن ابن الزاغوني، وسمع الحديث من أبي محمد رزق الله التميمي، وطرّاد الزينبي، وغيرهما، وكان صالحًا خيّرًا، قال أبو الفرج ابن الجوزي: هو أوّل من لقنني القرآن وأنا طفل، وتوفي سنة ٥١٨هـ. (راجع: ابن الجوزي: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم ج١٧ ص٢٢٧، والذهبي: تاريخ الإسلام ج١١ ص٢٩٩).

(٣) في الأصل: بقراتي.

(٤) في الأصل: جمادي.

(٥) في الأصل: الأولي.

(٦) هو رزق الله بن عبد الوهّاب بن عبد العزيز بن الحارث بن أسد، الإمام أبو محمد بن أبي الفرج التميمي البغدادي، رئيس الحنابلة ببغداد، ولد سنة ٤٠٠هـ وقيل: سنة ٤٠١هـ قال السمعاني: هو فقيه الحنابلة وإمامهم، وعمّر حتى صار يُقصد من كل جانب، وكان مجلسه جمّ الفوائد، وكان يجلس في حلقة أبيه بجامع المنصور للوعظ والفتوى، وكان فصيح اللسان، قرأ القرآن على أبي الحسن الحمامي، وسمع منه ومن أبيه، وأبي الحسين أحمد بن محمد بن المتيّم، وغيرهم، وأبي عمر بن مهدي، روى عنه خلق كثير منهم أبو الفتح ابن البطي وأبو طاهر السلفي، توفي سنة ٤٨٨هـ. (راجع: ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة ج٢ ص٢٥٠، ٢٥١ (بتحقيق: محمد الفقي، دار المعرفة - بيروت، بدون)، والذهبي: تاريخ الإسلام ج١٠ ص٥٩٥:٥٩٨).

(٧) هو أبو عبد الرحمن السلمي صاحب «طبقات الصوفية» والذي سبق أن عددناه من بين تلامذة الشيخ الكبير.

(٨) أبو بكر المبارك بن كامل الذي سبق ذكره في الطريقين الأوّلين من طرق رواية الكتاب.

(٩) هو عليّ بن أحمد بن الحسن، الموحّد أبو الحسن ابن البقشلام الوكيل، من أعيان البغداديين ومتميزيهم، وله معروف كثير، ولد سنة ٤٤٣هـ وسمع أبا يعلى ابن الفراء، وهنّاد بن إبراهيم النسفي، وأبا جعفر ابن=

بقرائتي[1] عليه، قال: أخبرنا هنّاد بن إبراهيم النسفيّ[2][3] إجازة، قال: أخبرنا عليّ بن محمد الصوفي[4]، قال: أبو عبد الله بن خفيف - رحمة الله عليه -.

ثم يبدأ نصّ الكتاب بقوله: «الحمد لله الذي حمد نفسه بالثناء على نفسه، المتعرِّف إلى خلقه بأسمائه وصفاته...».

وهكذا اشتملت هذه النسخة من كتاب «الاقتصاد» على رواية الشيخ أبي بكر المبارك بن كامل بن أبي غالب الخفّاف لهذا الكتاب من ثلاث طرق، ورواه عنه شهاب الدين أبو الفضل محمد بن يوسف بن عليّ الغزنويّ الحنفيّ، وعنه شخص آخر لم نقف على اسمه، وربما لو كان للنسخة صفحة عنوان، أو لو كانت مكتملة لعرفنا اسم هذا الراوي عن أبي الفضل الغزنويّ.

ومن خلال النظر في الأجزاء الأخرى للمجموع المحفوظ في «كتبخانة آية الله مرعشي» والذي احتوى نسخة كتاب «الاقتصاد» وغيره فقد استنبط «جواد بشرى» أنّ هذه النسخة المخطوطة كُتِبَتْ في القرن العاشر الهجري في جبل «عامل»[5] على يد علماء

=المسلمة، وغيرهم، وروى عنه أبو المعمّر الأنصاري. وأبو القاسم ابن عساكر، وأبو الفرج ابن الجوزي، وغيرهم، سُئِل ابن عساكر عن عليّ الموحّد فأثنى عليه ووثّقه، توفي سنة ٥٣٠هـ. (راجع: ابن النجار: ذيل تاريخ بغداد «ضمن تاريخ بغداد وذيوله ج١٨ ص٢٣٠، والذهبي: تاريخ الإسلام ج١١ ص٥٠٦).

(١) في الأصل: بقراتي.

(٢) في الأصل: السيفي.

(٣) هو أبو الحسن عليّ بن محمد الديلمي تلميذ ابن خفيف وكاتب سيرته والذي كان حلقة في سلسلة الطريق الأوّل من طرق رواية الكتاب.

(٤) سبقت ترجمته في الطريق الأوّل من طرق رواية الكتاب.

(٥) تطلق منطقة «جبل عامل» على المنطقة الواقعة في الجنوب اللبناني، وتحديدًا بين صفد جنوبًا ونهر الأولي شمالًا وغور الحولة وما حاذاه إلى أرض البقاع شرقًا والبحر المتوسط غربًا، سُمِّيَتْ بذلك لأنّ بني عاملة=

إماميّين[1].

ونحن وإن لم نطالع الرسائل والكتب الأخرى - غير كتاب «الاقتصاد» - والتي احتواها هذا المجموع الذي اطّلع عليه «جواد بشرى» ومن خلال مطالعته تلك استنبط هذا الحكم، إلا أنّنا يمكننا أن نطمئن إلى استنباطه هذا بمجرد مطالعتنا لنسخة «كتاب الاقتصاد» المصورة عن نسخة «كتبخانة آية الله مرعشي»؛ وذلك لأنّ هذه النسخة تختلف في معظم صيغ الصلاة على نبينا محمد ﷺ عن نسختي «برنستون» و«برتو باشا»، حيث إنّها فيهما على صيغة «صلى الله عليه وسلم»، بينما هي في النسخة المصورة عن نسخة «كتبخانة آية الله مرعشي» على صيغة «صلى الله عليه وآله».

وغير خفيّ على اللبيب أنّ هذا الأمر يعضّد الاستنباط سابق الذكر والذي استنبطه «جواد بشرى».

هذا، ويمكن القول بأنّ هذه النسخة المكتوبة في جبل «عامل» قد نُقلت بطريق مباشر أو غير مباشر من نسخة أخرى كانت في القرن السادس أو السابع الهجري، وإنّما قلنا ذلك؛ لأنّ أبا الفضل محمد بن يوسف بن عليّ الغزنويّ الذي روى كتاب «الاقتصاد» عن المبارك بن كامل وهو من ثلاث طرق مختلفة، أقول: لأنّ أبا الفضل الغزنوي ولد سنة ٥٢٢هـ وتوفي سنة ٥٩٩هـ، وقد روى عنه كتاب «الاقتصاد» كاتب أو مملي الكتاب بهذه الأسانيد والذي لم نقف على اسمه، وبالطبع سيكون هذا الكاتب أو المملي روى الكتاب

=بن سبأ من عرب اليمن نزلوه عند تفرقهم بسيل العرم، وتُعَدُّ هذه المنطقة من مناطق التمركز الشيعي الإمامي. (راجع: القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ج٤ ص٨٩ (دار الكتب العلمية - بيروت، بدون)، ومحمد كرد علي: خطط الشام ج٦ ص٢٤٧ (الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، مكتبة النوري - دمشق).

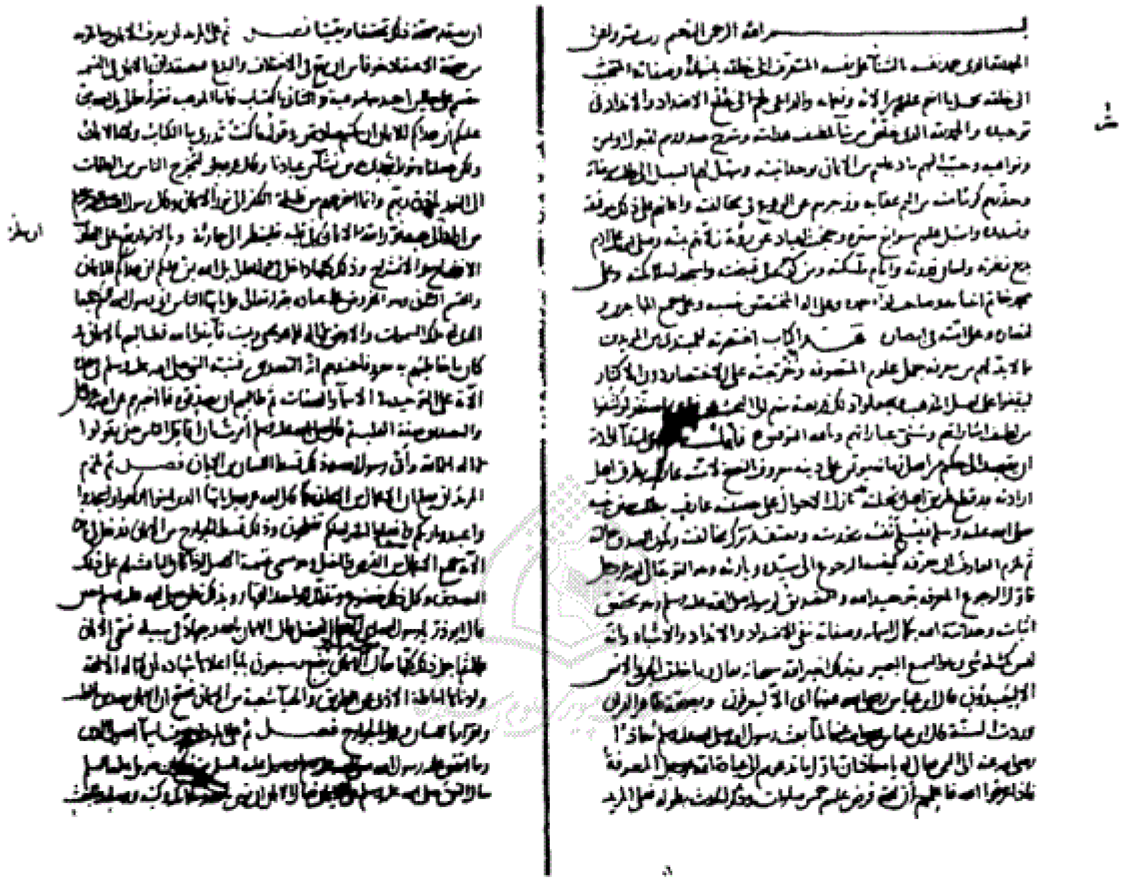
(١) راجع: جواد بشرى: آثار برجاى مانده از ابن خفيف ودست نويسى از بخش ابتدايى «كتاب الاقتصاد» ص٤٧.

عن شيخه أبي الفضل في حياة هذا الشيخ والتي كانت في القرن السادس الهجري.

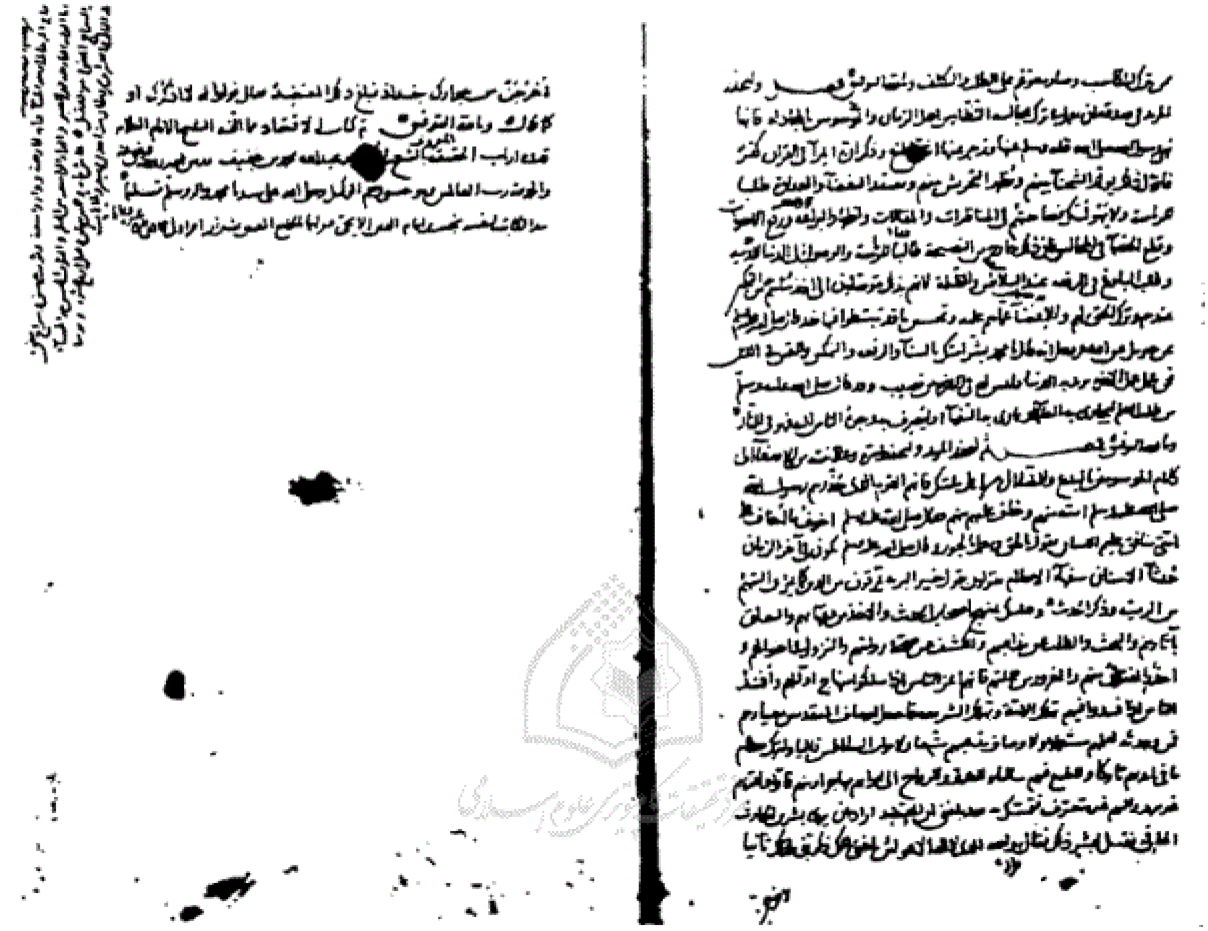
وهذا الراوي لكتاب «الاقتصاد» عن أبي الفضل إمّا أن يكون قد كتب أو أملى نسخته من الكتاب في حياة أبي الفضل أو بعد مماته، وإنّما قلنا في حياته أو بعد مماته؛ لأنّ هذا الراوي عن أبي الفضل لو كان أعقب اسم شيخه أبي الفضل بالترحّم عليه لفهمنا قولًا واحدًا أنّه كتب أو أملى هذه النسخة من كتاب «الاقتصاد» بعد وفاة أبي الفضل، وذلك جريًا على ما هو معتاد من أنّ الترحم على الشخص يكون بعد مماته، وإنّما ما صنعه أنّه أعقب اسم شيخه أبي الفضل بالترضّي عليه، بما يفتح المجال لكون كتابته لهذه النسخة من كتاب «الاقتصاد» قد تكون في حياة أبي الفضل أو بعد مماته، فالترضّي من الطلبة والمريدين على مشايخهم يكون في حياتهم وبعد مماتهم كما لا يخفى.

وعليه، فلو كان الراوي عن أبي الفضل كتب أو أملى هذه النسخة في حياة شيخه أبي الفضل فمعنى هذا أنّ هذه النسخة قولًا واحدًا كُتِبَتْ في القرن السادس، وكذا لو كتبها في سنة وفاته أو بعدها بسنة، وإلا فستكون مكتوبة في القرن السابع الهجري.

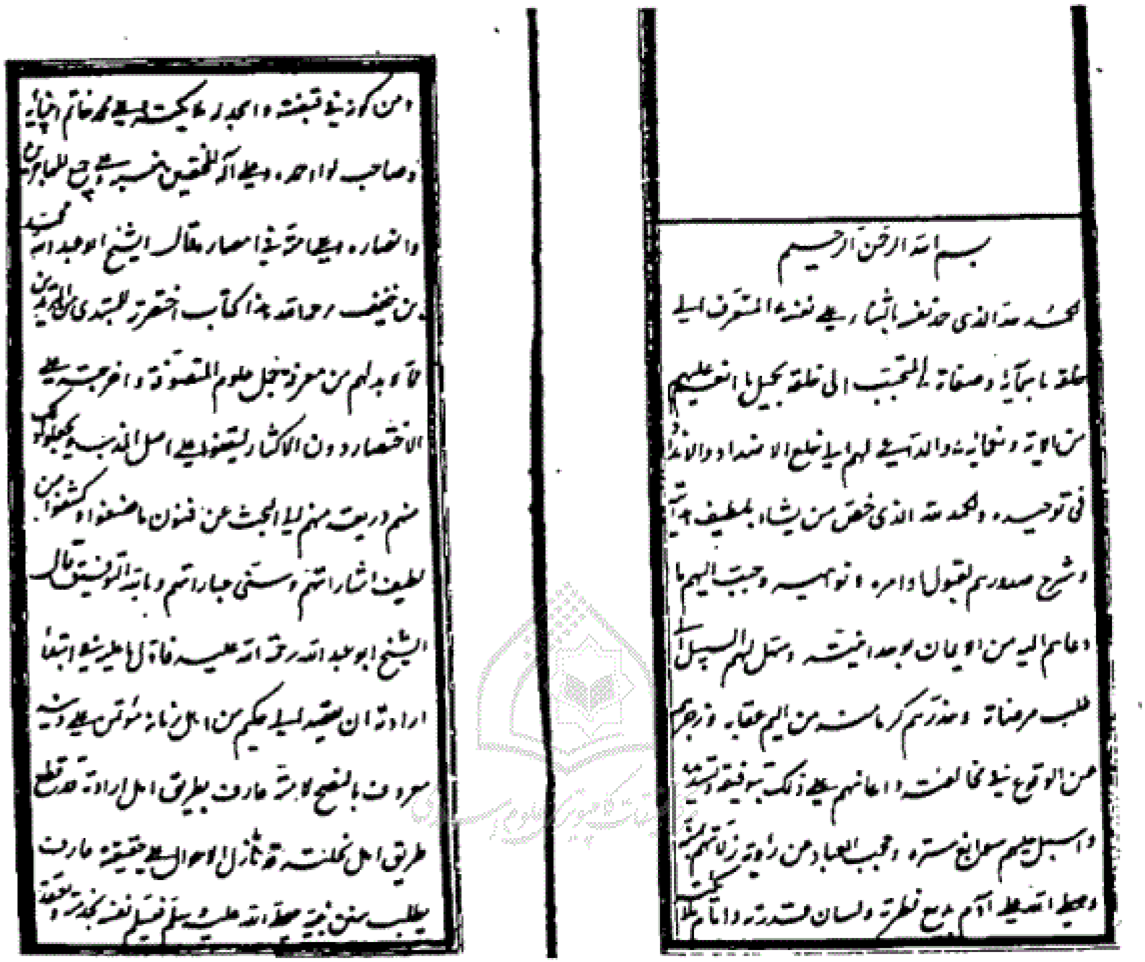
ثانيًا: نماذج مصورة من المخطوطات المستخدمة في التحقيق



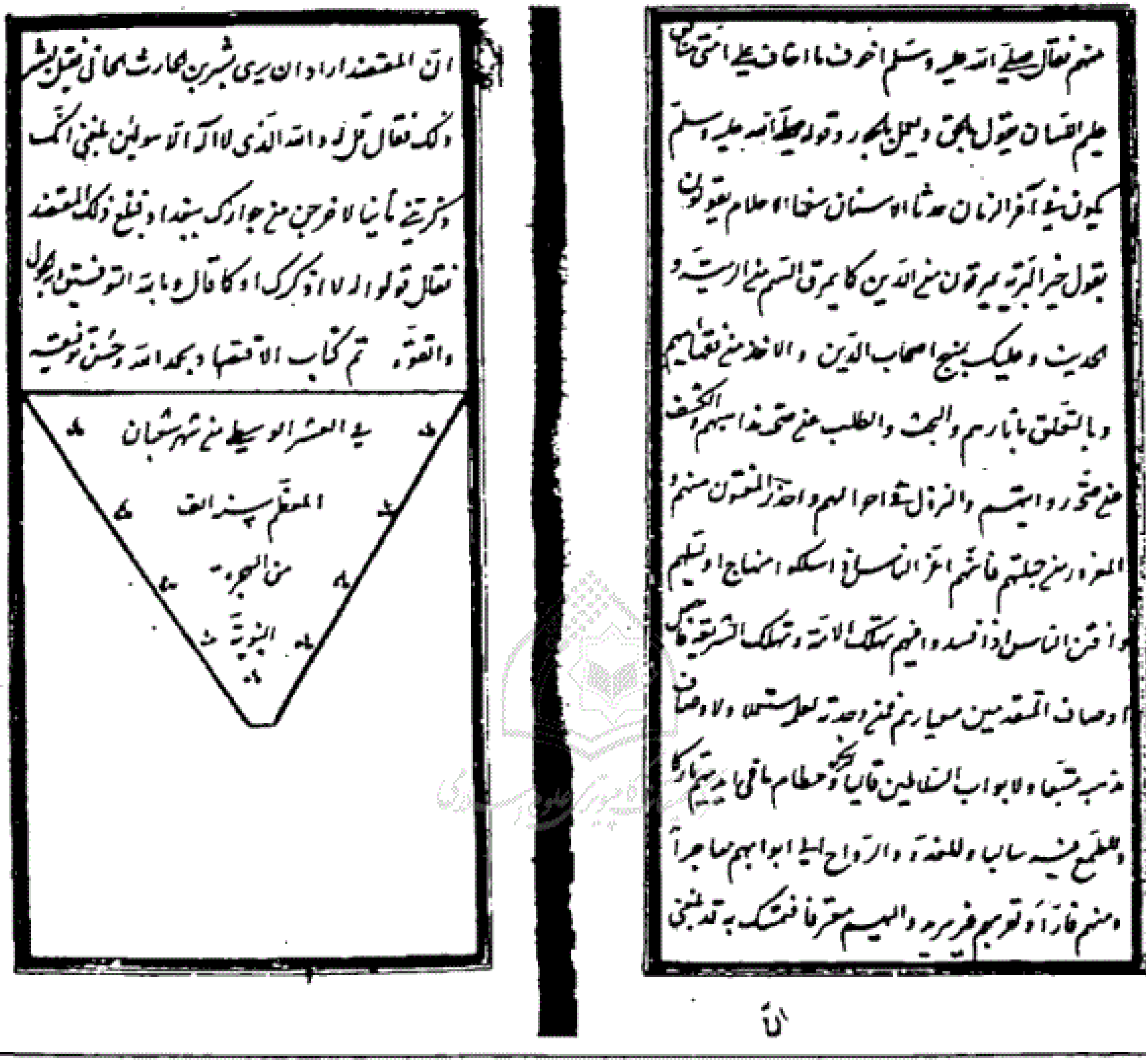
اللوحة الأولى من النسخة (أ)



اللوحة الأخيرة من النسخة (أ)



اللوحة الأولى من النسخة (ب)



منهم فقال صلى الله عليه وسلم أخوف ما أخاف على أمتي منافق
عليم اللسان يقول بالحق ويعمل بالجور وقوله صلى الله عليه وسلم
يكون في آخر الزمان حدثاء الأسنان سفهاء الأحلام يقولون
بقول خير البرية يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية و
الحديث وعليك بنهج أصحاب الدين والأخذ من نعتائهم
والتعلق بآثارهم والبحث والطلب عن متقدمي أئمتهم والكشف
عن متحرر رواياتهم والنزول بفناء الهمم واحذر المفتون منهم
المغرور من جبلتهم فإنهم أعز الناس في أسلكه منهاج وتسليم
وأفتن الناس إذا فسد وفيهم تهلك الأمة وتهلك الشريعة فإن
أوصاف المتقدمين معيارهم من وجدته على استقلال ولا وصاف
مذهب تبعا ولا بواب السلاطين قاربا وحطام ما في أيديهم تاركا
وللطمع فيه سابا وللعفة والرواح إلى أبوابهم هاجرا
ومنهم فارا وتوسم فرسه والعيسم معترفا فتمسك به

أن المعتضد أراد أن يرى بشر بن الحارث الحافي فسأل بشر
ذلك فقال قل له والله الذي لا إله إلا هو لئن بلغني أنك
ذكرتني ثانيا لأخرجن من جوارك بغدادا وقطع ذلك المعتضد
فقال قولوا له لا أذكرك أو كما قال وبالله التوفيق والحول
والقوة تم كتاب الاقتصاد بحمد الله وحسن توفيقه
في العشر الأوسط من شهر شعبان
المعظم سنة ألف
من الهجرة
النبوية

اللوحة الأخيرة من النسخة (ب)



وقف كتابخانه عمومى آيت الله العظمى نجفى (قم)

بسم الله الرحمن الرحيم

اخبرنا الشيخ الامام الفقيه شهاب الدين ابو الفضل محمد بن ابي سعد علي الغزنوي الحنفي رضي الله عنه قال اخبرنا الشيخ ابو بكر المبارك بن كامل بن ابي غالب الخفاف اجازة قال اخبرنا الشيخ ابو محمد يحيى بن علي الطراح بقراءتي عليه قال اخبرنا القاضي ابو المظفر هناد بن ابراهيم النسفي اجازة قال اخبرنا ابو القسم علي بن محمد بن الحسن الصوفي قال اخبرنا ابو عبد الله محمد بن خفيف رحمه الله قال الشيخ المبارك بن كامل واخبرنا به الشريف ابو الكرم المبارك بن جعفر بن مسلم الهاشمي بقراءتي عليه في جمادى الاولى سنة خمس عشرة وخمسمائة قال اخبرنا ابو محمد التميمي اجازة عن السلمي عن ابي عبد الله بن خفيف قال الشيخ ابو بكر واخبرنا الشيخ ابو الحسن علي بن احمد بن الحسن الموحد بقراءتي عليه قال اخبرنا هناد بن ابراهيم النسفي اجازة قال اخبرنا علي بن محمد الصوفي قال ابو عبد الله بن خفيف رحمة الله عليه الحمد لله الذي حمد نفسه بالثناء على نفسه للتعرف المنور

للتعرف الى خلقه باياته ومننه للتحبب الى خلقه لجميل ما انعم عليهم من آلائه ونعمائه والذي لم يزل [illegible] الاضداد والانداد في توحيده والحمد لله الذي خص من شاء بلطيف هدايته وشرح صدورهم للقبول لاوامره ونواهيه وحبب اليهم ما دعاهم اليه من الايمان بوحدانيته وسهل لهم السبيل الى مرضاته وحذرهم كرما منه من اليم عقابه وزجرهم عن الوقوع في مخالفته واعانهم على ذلك بتوفيقه وتسديده واسبغ عليهم سوابغ ستره وحجب العباد عن [illegible] الله على ادم بديع فطرته [illegible] على محمد خاتم انبيائه وصاحب [illegible] احمد [illegible] وعلى جميع المهاجرين والانصار وعلى امته في امصاره قال ابو عبد الله محمد بن خفيف رحمه الله هذا كتاب [illegible] للمبتدي من المريدين بما لا بد لهم من معرفته من جمل علوم المتصوفة واخرجته على الاختصار دون الاكثار ليقفوا على اصل المذهب ويجعلوه ذريعة منهم الى البحث عن فنون

اللوحة الأولى من النسخة (ج)


قادر عليه ان يلبسه كساه الله من حلل الرحمة يوم القيامة
ويأخذ من اللباس ما يترفع به [illegible] ويترك الزينة وان
يكون في جملة العوام ولا يقصد الى لباس لم يسبقه حقيقته
[illegible] يكون متشبعا بما لم يعط ويتحلى بما ليس فيه [illegible]
احوال الصديقين لقوله عليه السلام ليس الايمان بالتمني
ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل فيكون لباسه
[illegible]
علانيته اعلى من سره وذلك ساقط من نعت الصادقين فالحذر
في لباسه ترك الترفع على الاقران [illegible] قوله عليه السلام
ثلاثة لا ينظر الله اليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب اليم الشيخ الزاني
والامام الكذاب والفقير المختال فيكون في لباسه [illegible]
[illegible]
[illegible] ولا مترفع
في لبسه وليحذر المريد ان يغويه الشيطان بالاعجاب فيتطاول
على الاقران ويترفع على نظرائه [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
التوبة

[illegible]

اللوحة الأخيرة من النسخة (ج)

كتاب الاقتصاد
للشيخ الكبير أبي عبد الله محمد بن خفيف الشيرازي
(المتوفى سنة ٣٧١هـ)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربِّ يسِّر وأعن[1]

[مُقدِّمة الكِتاب]

الحمد لله الذي حمد نفسه بالثّناء على نفسه، المُتَعَرِّف إلى خلقه بأسمائه وصفاته، المتحبِّب إلى خلقه بجميل ما أنعم عليهم من آلائه ونعمائه، والدّاعي لهم إلى خلع الأضداد[2] والأنداد[3] في توحيده.

والحمد لله الذي خصّ[4] مَنْ شاء[5] بلطيف هدايته، وشرح صدورهم لقبول أوامره

---

(١) - «رب يسر وأعن» في النّسختين (ب) و(ج).

(٢) الضدّ: يقال في الاصطلاح العامّ لموجود في الخارج مساوٍ في القوّة لموجود آخر ممانع له، والضّدّان في اصطلاح المتكلمين عبارة عمّا لا يجتمعان في شيء واحد من جهة واحدة، والضّدّان لا يجتمعان لكن يرتفعان كالسّواد والبياض، والنقيضان لا يجتمعان ولا يرتفعان كالوجود والعدم والحركة والسّكون. (انظر: الكفويّ: الكليّات ص٥٧٤ (بتحقيق: عدنان درويش ومحمّد المصريّ، مؤسسة الرّسالة - بيروت، بدون)، وراجع: السّيّد الشّريف: التّعريفات ص١٣٧ (الطّبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار الكتب العلميّة - بيروت)، الأحمد نكريّ: جامع العلوم في اصطلاحات الفنون ج٢ ص١٨٩ (عرّب عباراته الفارسيّة: حسن هاني، الطّبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، دار الكتب العلميّة - بيروت).

(٣) النّدّ: هو المخالف المماثل في الذّات أو القوّة، وقيل: هو المماثل في الذّات المخالف في الصّفات. (السّيّد الشّريف: شرح المواقف ج٨ ص١٧، والكفويّ: الكليّات ص٩١٣، والتهانويّ: كشّاف اصطلاحات الفنون والعلوم ج٢ ص١٦٨٤ (بتحقيق: د/ علي دحروج، وتعريب: د/ عبد الله الخالديّ، الطّبعة الأولى سنة ١٩٩٦م، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت).

(٤) في النّسخة (أ): «خلص»، وصُوبت في هامش النّسخة على نحو ما أثبتناه، والتصويب موافق للنّسخة (ب) و(ج).

(٥) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «يشاء».

ونواهيه، وحبَّبَ إليهم ما دعاهم إليه[1] من الإيمان بوحدانيته[2]، وسهَّلَ لهم السَّبيل إلى طلب[3] مرضاته، وحذَّرهم كرمًا منه من أليم عقابه، وزجرهم عن الوقوع في مخالفته، وأعانهم على ذلك بتوفيقه وتسديده[4]، وأسبل[5] عليهم سوابغ[6] ستره، وحجب العباد عن رؤية[7] زلّاتهم بِمَنِّه[8].

---

(١) - «إليه» في النّسخة (أ).

(٢) في النّسخة (ج): «بتوحدانيه».

(٣) - «طلب» في النّسخة (ج).

(٤) هذا الّذي ذكره الشّيخ الكبير مِن اختصاص الله تعالى مَنْ شاء سبحانه بلطيف هدايته وشرح صدورهم لقبول أوامره ونواهيه...إلخ مبنيّ على اعتقاد أهل السّنة والجماعة في مسألة «الهداية والتّوفيق» حيث يرون أنّ الهداية للإيمان وانشراح الصّدر له والتّوفيق إلى الطّاعة فضلٌ من الله تعالى يتفضّل به على عباده المؤمنين، وقد قرّر هذه القضيّة ابن خفيف في «المعتقد الصّغير» حيث قال: «ويعتقد أنّه تعالى يُقَرِّب من يشاء بغير سبب، ويُبْعِد من يشاء بغير سبب». (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص٢٨٠، ٢٨١، وللاستزادة حول هذه القضية راجع: الماتريديّ: تأويلات أهل السّنة ج٤ ص٢٥٤، وابن فورك: مجرد مقالات الشّيخ أبي الحسن الأشعريّ ص١٢٦، ١٢٧ (بتحقيق: أ.د/ أحمد السّايح، الطّبعة الأولى سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، مكتبة الثّقافة الدّينيّة)، وأبو اليسر البزدويّ: أصول الدين ص١٢٩، والجوينيّ: الإرشاد ص٢١٠، ٢١١).

(٥) جاء في معجم «مقاييس اللّغة»: «(سَبَلَ) السّين والباء واللّام أصل واحد يدل على إرسال شيء من علوّ إلى سفل، وعلى امتداد شيء، فالأوّل من قيلك: أَسْبَلْتُ السّتر، وأَسْبَلَتْ السّحابة ماءها وبمائها...والممتدّ طولًا: السّبيل، وهو الطّريق، سُمّي بذلك لامتداده» (ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة ج٣ ص١٢٩، ١٣٠ (بتحقيق: عبد السّلام هارون، دار الفكر، طبعة سنة ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م)، وراجع: ابن منظور: لسان العرب ج١١ ص٣٢١).

(٦) في «معجم مقاييس اللّغة»: «(سَبَغَ) السّين والباء والغين أصل واحد يدل على تمام الشّيء وكماله، يقال: أَسْبَغْتُ الأمر، وأسبغ فلان وضوءه، ويقال: أسبغ الله عليه نعمه، ورجل مُسْبِغ، أي عليه درع سابغة». (ابن فارس: معجم مقاييس اللّغة ج٣ ص١٢٩، وراجع: ابن منظور: لسان العرب ج٨ ص٤٤٣).

(٧) في النّسخة (ج): «زويتة».

(٨) في النّسخة (ج): «بمشيته».

وصلَّى الله على آدم بديع فطرته[1]، ولسان قدرته، وإمام ملائكته، ومن كَوَّنه في قبضته، وأسجد له ملائكته، وعلى محمّد خاتم أنبيائه، وصاحب[2] لواء حمده، وعلى آله المختصّين بنسبه، وعلى جميع المهاجرين وأنصاره، وعلى أمّته في أمصاره[3].

(١) ورد في قصّة توبة آدم عليه السلام أنّ الله تعالى أمَرَ جبريل عليه السلام أن يهبط على آدم عليه السلام، وقال له: «إنّ آدم بديع فطرتي قد أبكى أهل سمواتي وأرضي، ولا يذكر غيري، ولم يَخَفْ سواي...» (شهاب الدّين النّويري: نهاية الأرب في فنون الأدب ج١٣ ص٢٣ (الطّبعة الأولى سنة ١٤٢٣هـ دار الكتب والوثائق القوميّة - القاهرة)، وممّا ورد في قصّة زواجه عليه السلام من السّيدة حوّاء أنّ الله تعالى خطب خطبة لنكاحهما، وفيها: «إنّي زوَّجتُ حوّاء أمَتي عبدي آدم بديع فطرتي». (راجع: حسين الديار بكريّ: تاريخ الخميس في أحوال أنفس النّفيس ج١ ص٤٧ (دار صادر - بيروت، بدون)، والحلوانيّ: مواكب ربيع في مولد الشّفيع ﷺ ص١١٦ (بتحقيق أحمد المزيديّ، ط دار الكتب العلميّة - بيروت، سنة ٢٠٠٧م).

(٢) عند (صيروي): «أصحاب».

(٣) هذه الفقرة وردت أيضًا مع اختلاف يسير في مقدّمة ابن خفيف لكتابه «فضل التّصوّف على سائر المذاهب». (راجع: ص٥٤ من الكتاب المذكور).

[سبب تأليف الكتاب]

قال الشّيخ[1] أبو عبد الله محمّد بن خفيف رَحِمَهُ اللهُ[2]: هذا كتاب اختصرته للمُبْتَدِئ من المريدين[3] ممّا لا بُدَّ لهم من معرفة[4] جُمَل علوم المتصوّفة[5]، وأخرجته[6] على الاختصار دون الإكثار، لِيَقِفُوا على أصل المذهب، ويجعلوا ذلك ذريعة منهم إلى البحث عن فنون ما صنّفوا وكشفوا من لطيف إشاراتهم وسَنِيّ عباراتهم، وبالله التّوفيق.

---

(١) - «الشيخ» في النّسخة (ج).

(٢) - «قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن خفيف رَحِمَهُ اللهُ» في النّسخة (أ)، وأثبتها (صبيروي) في الهامش.

(٣) المريد له تعريفات عدة عند الصّوفيّة، منها تعريف أبي المواهب الشاذليّ، وهو «المريد: مَنْ فنيتْ حظوظه النّفسيّة وخمدتْ شهواته البشريّة، المريد: مَنْ قام برسوم الآداب بعد تصحيح مقام المتاب، المريد: ميّت في حضرة أستاذ مُنَفِّذ لما يأمره به مِن مراده، المريد: في مقام التّجريد، المريد: قائم بالتّسديد، المريد: ميّت شهيد». (أبو المواهب الشاذليّ: قوانين حكم الإشراق ص٩٧، ٩٨ (راجعه وضبطه وصحّحه: محمّد شحاتة إبراهيم، المكتبة الأزهريّة للتّراث - القاهرة، سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م)، وراجع: رفيق العجم: موسوعة مصطلحات الصّوفيّة ص٨٧٦:٨٨٧ (الطّبعة الأولى سنة ١٩٩٩م، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت).

(٤) في النّسخة (ج): «معرفته».

(٥) يقول القشيريّ: «هذه التّسمية غلبتْ على هذه الطائفة، فيقال: «رجل صوفيّ»، وللجماعة «صوفيّة»، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: «متصوّف»، وللجماعة «المتصوّفة»، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق، والأظهر فيه: أنّه كاللّقب...وتكلّم النّاس في التّصوُّف: ما معناه؟ وفي الصّوفيّ: من هو؟ فكلّ عَبَّر بما وقع له». (القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج٢ ص٤٤٠، وراجع: الكلاباذيّ: التّعَرُّف ص١٣:١٧، والسَّرَّاج الطوسيّ: اللُّمع ص٤٠، ٤١).

(٦) في النّسخة (أ): «وخرجته»، لكن زِيدَتْ «ألف» فوقها بعد «الواو» إشارة لنسيانها من النّاسخ بحيث تصير الكلمة: «وأخرجته» وهي ما تتوافق مع النّسخة (ب)، وأثبت (صبيروي): «وخرجته».

فصل(١)

[في وجوب القصد إلى شيخ حكيم للسّلوك على يديه(٢)]

قال الشيخ(٣) أبو عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ(٤)(٥): فأوّل ما عليه في ابتداء إرادته أن يقصد إلى حكيم(٦) من أهل زمانه، مؤتمن على دينه، معروف بالنصح لِأُمَّته، عارف بطرق(٧) أهل(٨) إرادته، قد قطع طريق أهل نحلته، قد(٩) نازل الأحوال(١٠)......................

(١) - «فصل» في النّسختين (أ) و(ب)، وهي في النسخة (ج): «باب»، وربّما هو سهو من النّاسخ، فالكتاب كلّه مُقَسَّم إلى فصول على ما سيظهر، ومن هنا فقد جعلناها: «فصل»، لتتوافق مع تقسيم الكتاب.

(٢) ينبّه الشّيخ الكبير ابن خفيف المريد ههنا على ضرورة أن يكون أوّل ما يبتدئ به طريق الصّوفيّة هو أن يقصد شيخًا مأمونًا ليسلك الطّريق على يديه، وهو ما نبّه عليه أيضًا في وصيّته للمريدين، حيث قال: «السّابع: أن يكون له أستاذ وأخ ناصح» (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٧/ ب، نسخة «برتو باشا» ضمن مجموع رقم ٦٥٢).

(٣) - «الشيخ» في النّسخة (ج).

(٤) في النّسخة (ب): «رحمة الله عليه».

(٥) - «قال الشيخ أبو عبد الله رحمة الله عليه» في النّسخة (أ)، وأثبتها (صبيروي) في الهامش.

(٦) لا يخفى أنّ المقصود من الحكيم ههنا هو الشّيخ العارف بالله تعالى، ومنه قول مُظَفَّر القرمسينيّ: «من لم يأخذ الأدب عن حكيم لم يتأدّب به مريد». (انظر: السّلميّ: طبقات الصّوفيّة ص٣٠٠، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص١٢٧).

(٧) في النّسخة (ب): «بطريق».

(٨) - «أهل» في النّسخة (ج).

(٩) في النّسخة (ج): «وقد».

(١٠) الحال عند الصّوفيّة هو معنى يَرِدُ على القلب من غير تعمُّد منهم ولا اجتلاب ولا اكتساب لهم من طرب أو حزن أو بسط أو قبض أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو احتياج، ويقابله المقام وهو ما يتحقّق به العبد بمنازلته من الآداب بما يتوصل إليه بنوع تَصَرُّف، ويتحقّق به بضرب تَطَلُّب ومقاساة تَكَلُّف، فمقام كل أحد موضع إقامته عند ذلك وما هو مشتغل بالرّياضة له، وشرطه أن لا يرتقي من مقام إلى مقام آخر ما لم يستوفِ=

على حقيقته، عارف يطلب[(١)] سُنَن نبيّه ﷺ[(٢)]، فيُسَلِّم نفسه لِخدمته[(٣)]، ويعتقد ترك مخالفته، ويكون الصّدق حالته.

ثمّ يلزم العارف أن يُعَرِّفَه كيفيَةَ الرّجوع إلى سيّده وبارئه[(٤)] ﷻ[(٥)]، وهو التّوبة[(٦)] إلى الله[(٧)] تعالى[(٨)]، فأوّل الرّجوع المعرفة بتوحيد الله والتّصديق لرسوله، وهو تحقيق إثبات وحدانية الله بكمال أسمائه وصفاته، بنفي[(٩)] الأضداد والأنداد والأشباه[(١٠)] وأنّه ﴿لَيْسَ

=أحكام ذلك المقام. (انظر: القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص١٥٣، ١٥٤، وراجع: السّرّاج الطوسيّ: اللّمع ص٤١١، ورفيق العجم: موسوعة مصطلحات الصّوفيّة ص٢٦٧: ٢٧٢).

(١) - «يطلب» في النّسخة (ج)، وفي النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «بطلب».

(٢) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «بخدمته».

(٤) في النّسخة (ب): «وبأيه».

(٥) - «ﷻ» في النّسختين (أ) و(ب).

(٦) كانت التّوبة هي أولى الوصايا التي أوصى بها ابن خفيف المريدين في وصيّته لهم، حيث قال: «يجب على المريد إذا قصد سلوك الطريق، والخروج من المضيق إلى الشفيق الرفيق، أن يحفظ هذه الخصال التي أذكرها: أوّل خصلة: أن يبدأ بالندم على ما سلف من أيامه في الغفلة والتفريط، الثاني: أن يخرج من المظالم» (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٧/ أ).

(٧) - «الله» في النّسخة (ب).

(٨) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «ﷻ».

(٩) في النّسخة (ب): «منفي».

(١٠) الشّبيه والمثيل والنّظير ألفاظ موضوعة للمشابهة، إلا أنّ المثيل هو أعمّ الألفاظ الموضوعة للمشابهة، فهو المساوي للشيء في جميع الوجوه، والشّبيه أخصّ من المثل، فهو المساوي في أغلب الوجوه، وكذا النّظير، فهو المساوي للشيء ولو في بعض الوجوه. (انظر: جلال الدّين السّيوطيّ: الحاوي للفتاوي ج٢ ص٣٢٩ (دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م)، والكفويّ: الكليّات ص٨٥١).

كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١]، وبذلك أخبر الله ﷻ[1] فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: ٥٦]، قال[2] ابن عبّاس رضي الله عنهما[3]: «أي[4]: إلا ليعرفون»[5].

وبصحّة ظاهر القرآن وردت[6] السّنة، قال[7] ابن عباس رضي الله عنهما[8]: «لَمّا بعث رسول الله ﷺ[9] معاذًا رضي الله عنه[10] إلى اليمن قال[11] له: يا معاذ، إنّ[12] أوّل ما تدعوهم إلى عبادة

(١) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «سبحانه».

(٢) في النّسخة (ج): «فقال».

(٣) – «رضي الله عنهما» في النّسخة (ج).

(٤) – «أي» في النّسختين (ب) و(ج).

(٥) المرويّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، أي: إلا لِيُقِرُّوا بالعبودية طوعًا وكرهًا (راجع: ابن جرير الطبريّ: جامع البيان في تأويل القرآن ج٢٢ ص٤٤٤ (بتحقيق: أحمد شاكر، الطّبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م، مؤسّسة الرّسالة)، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ج٧ ص٤٢٥، والسيوطيّ: الدّرّ المنثور في التّفسير بالمأثور ج٧ ص٦٢٤(دار الفكر – بيروت، بدون)، وأمّا القول بأنّ المعنى: إلا ليعرفون فهو قول ابن جريج ومجاهد (راجع: الثعلبيّ: الكشف والبيان عن تفسير القرآن ج٩ ص١٢٠ (الطّبعة الأولى سنة ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م، دار التّفسير – جدة).

(٦) عند (صبيروي): «ورد».

(٧) في النّسخة (ج): «فقال».

(٨) – «رضي الله عنهما» في النّسخة (ج).

(٩) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(١٠) – «رضي الله عنه» في النّسختين (ب) و(ج).

(١١) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «فقال».

(١٢) – «إن» عند (صبيروي).

الله[1]، فإذا عرفوا الله فأعلمهم أنّ الله فرض[2] عليهم خمس صلوات»، وذكر الحديث بطوله[3]، فعلى المريد أن يعتقد صحّة ذلك تحقيقًا ويقينًا.

(١) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «إلى عبادة الله ﷻ المعرفة»، وفي النّسخة (ج): «إلى عبادة الله ومعرفة الله»، وما أثبتناه هو من النّسخة (ب) وهو الأقرب إلى نصّ الحديث في البخاريّ ومسلم.

(٢) في النّسخة (ج): «افترض».

(٣) أخرجه البخاريّ في صحيحه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، كتاب «الزّكاة»، باب «لا تؤخذ كرائم أموال النّاس في الصّدقة»، ج٢ ص١١٩ برقم ١٤٥٨، بلفظ: أنّ رسول الله ﷺ لمّا بعث معاذًا رضي الله عنه على اليمن، قال: «إنّك تقدم على قوم أهل كتاب، فليكن أوّل ما تدعوهم إليه عبادة الله، فإذا عرفوا الله، فأخبرهم أنّ الله قد فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم...»، وكذا أخرجه مسلم في صحيحه عنه، كتاب «الإيمان»، باب «الدّعاء إلى الشّهادتين وشرائع الإسلام»، ج١ ص٥١ برقم ١٩.

فصل
[في وجوب معرفة الإيمان وما يلزمه من صحّة الاعتقاد(١)]

ثمّ على المريد أن يعرف الإيمان وما يلزمه من صحّة الاعتقاد، خوفًا من أن يقع في الاختلاف والبدع، فيعتقد أنّ الإيمان في التّسمية ينقسم على(٢) حالين(٣): أحدهما: موهبة، والثاني: اكتساب(٤).

فأمّا الموهبة: فقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحجرات: ١٧]، وقوله تعالى(٥): ﴿مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال ﷻ: ﴿لِتُخْرِجَ(٦) ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ

(١) في هذا الفصل والفصول الأربعة التي تليه يتناول ابن خفيف قضيّة الإيمان ويربطها بالتوبة، فينبّه على أهمية تصحيح الاعتقاد كأساس ينطلق منه المريد في سيره في طريق الله تعالى، وهذا ما أكد عليه أيضًا في «المعتقد الصّغير». (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص ٢٦٠، ٢٦١).
والصوفية دائمًا ما يُصَدِّرون الطّريق الّذي ينبغي أن يسير فيه المريد بهذا الأمر. (راجع مثلًا: السّرّاج الطوسيّ: اللّمع ص٤٩، الكلاباذيّ: التّعرّف ص٣٣، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص١٩، والغزالي: الإحياء ج١ ص٨٩).
(٢) في النّسخة (ج): «إلى».
(٣) في النّسخة (ج): «قسمين».
(٤) قرّر ابن خفيف هذه القضيّة أيضًا في «المعتقد الصّغير» في عبارة مقتضبة، حيث قال: «وأصل الإيمان موهبة، وشرائطه مكتسبة» (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص ٣١٠)، وهذه القضيّة لها علاقة بمسألة الهداية والتوفيق الّتي سبق الكلام عليها (راجع هامش رقم (٤) ص ٢٨٠)، فالشّيخ الكبير - كسنّي - يقرّر أنّ أصل الإيمان هو اصطفاء من الله تعالى واختيار منه سبحانه، ثمّ إنّ شرائطه من تصديق بما يجب له سبحانه وما يجوز وما يستحيل عليه وكذا ما يتعلق بالأنبياء والغيبيات والإقرار بذلك والعمل بمقتضاه هي أفعال للعبد تُنال بالاكتساب.
(٥) - «تعالى» في النّسختين (أ) و(ج) وعند (صبيروي).
(٦) في النّسختين (ب) و(ج): «ليخرج».

رَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١]، وإنّما أخرجهم من ظلمة الكفر إلى نور[1] الإيمان، وقال رسول الله[2] ﷺ[3]: «مَنْ أراد أن ينظر[4] إلى عبد نوَّر الله الإيمان في قلبه فلينظر إلى حارثة»[5]، وبالأنوار يقع على القلوب الانفتاح[6] والانشراح، وذلك كلّه[7] داخل في قوله تعالى[8]: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ[9]﴾.

والقسم الثاني: وهو المفروض على عباده بقوله تعالى[10]: ﴿قُلْ[11] يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ

---

(١) - «نور» في النّسخة (ج).

(٢) - «رسول الله» في النّسختين (ب) و(ج).

(٣) في النّسخة (ج): «عليه السلام».

(٤) - «ينظر» في النّسخة (أ) ثمّ أُثبت في الهامش وهو متوافق مع النّسخة (ب).

(٥) حديث حارثة أو حارث رُوي من وجوه عدة فيها مقال، منها على سبيل المثال: ما أخرجه عبد بن حميد في المسند عن الحارث بن مالك رضي الله عنه ج١ ص١٦٥ برقم ٤٤٥، وفي سنده ابن لهيعة، وهو ضعيف، ومنها ما رواه البزّار في المسند عن أنس رضي الله عنه ج١٣ ص٣٣٣ برقم ٦٩٤٨، وفي سنده يوسف بن عطية، وهو ليِّن الحديث، وقال ابن حجر العسقلانيّ: له شاهد (مختصر زوائد مسند البزّار ج١ ص١٧ (بتحقيق: صبري عبد الخالق، الطّبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت)، وقال ابن رجب الحنبلي: قد رُوي من وجوه مرسلة، ورُوي متصلًا، والمرسل أصحّ. (ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ج١ ص١٢٧ (بتحقيق: شعيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، الطبعة السابعة سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، مؤسسة الرسالة - بيروت).

(٦) في النّسخة (ب): «الانفساح»، وفي النّسخة (ج): «الانقسام».

(٧) في النّسخة (أ) و(ب): «كلها».

(٨) - «تعالى» في النّسخة (ج).

(٩) - «لِلإيمَانِ» في النّسخة (ب).

(١٠) - «تعالى» في النّسخة (ج).

(١١) - «قل» في النّسخة (ج).

وَرَسُولِهِ[1]﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فطالبهم بالإيمان، وكان ما خاطبهم به[2] معروفًا عندهم[3] أنّه التّصديق فنبّه[4] النبي[5] ﷺ[6] في هذه الآية على التّوحيد و[7] الأسماء والصّفات، ثمّ طالبهم[8] أن يصدّقوه[9] فيما أخبرهم عن الله ﷻ، والتّصديق[10] صفة القلب[11]، ثمّ قال ﷺ[12]: «أُمرت أن أقاتل النّاس حتى يقولوا: لا إله إلا الله وأنّي رسول الله»[13]، وذلك قسط اللّسان من الإيمان.

---

(١) - «ورسوله» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).
(٢) - «به» في النّسخة (ب).
(٣) في النّسخة (ب): «عند الله».
(٤) عند (صبيروي): «فينبه».
(٥) - «النبي» في النّسختين (ب) و(ج).
(٦) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».
(٧) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «في».
(٨) عند (صبيروي): «طلبهم».
(٩) في النّسخة (ب): «يصدقوه به».
(١٠) في النّسخة (ب): «فالتصديق».
(١١) في النّسخة (ج): «للقلب».
(١٢) في النسخة (ج): «عليه السلام».
(١٣) أخرجه البخاريّ في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما بألفاظ قريبة، كتاب «الإيمان»، باب «﴿فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّواْ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]»، ج١ ص١٤ برقم ٢٥، ومسلم في صحيحه عنه، كتاب «الإيمان»، باب «الأمر بقتال النّاس حتّى يقولوا: لا إله إلا الله محمّد رسول الله»، ج١ ص٥٣ برقم ٢٢.

فصل[1]
[في وجوب معرفة أنّ الأعمال من الإيمان]

ثمّ يلزم المريد أن يعلم أنّ الأعمال من الإيمان كما قال الله[2] ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْۤ وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۩ ٧٧﴾ [الحجّ: ٧٧]، وذلك قسط الجوارح من الإيمان، فدخل في هذه الآية جميع الأعمال من الفرض والنّفل[3]، وهو مسمّى بتسمية[4] الأصل؛ إذ[5] كان الباعث لهم على ذلك التّصديق، وكل ذلك خضوع وتذلُّل للواحد القهّار، وبذلك نطق ﷺ[6] حين[7] قال أبو ذر: يا رسول الله أيّ الأعمال أفضل؟ قال: «الإيمان[8] بالله، وجهاد في سبيله[9]»[10]، فسمّى الإيمان عملًا، ثمّ أجمل ذلك كلّه[11] ﷺ[12] فقال[13]: «الإيمان بضع وسبعون بابًا، أعلاها شهادة أن لا

(١) - «فصل» في النّسختين (ب) و(ج).
(٢) - «الله» في النّسخة (ج).
(٣) في النّسخة (ب): «والنقل».
(٤) في النّسخة (ب): «بتسميته».
(٥) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «إذا».
(٦) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».
(٧) - «حين» في النّسخة (ج).
(٨) في النّسخة (ج): «إيمان».
(٩) في النّسخة (ج): «سبيل الله».
(١٠) أخرجه البخاريّ في الصّحيح عن أبي ذرّ رضي الله عنه، كتاب «العتق»، باب «أيّ الرّقاب أفضل»، ج٣ ص١٤٤ برقم ٢٥١٨.
(١١) في النّسختين (أ) و(ب): «كلها».
(١٢) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».
(١٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «ثم أجمل ذلك كله فقال ﷺ».

إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذي عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان»(١)، فصحّ أنّ الإيمان تصديق بالقلب وإقرار باللّسان وعمل بالجوارح(٢).

(١) أخرجه مسلم في الصّحيح عن أبي هريرة ﷺ، كتاب «الإيمان»، باب «شعب الإيمان»، ج١ ص٦٣ برقم ٣٥.

(٢) قرّر ابن خفيف هذه القضيّة في عبارة مقتضبة في «المعتقد الصّغير» حيث قال: «والإيمان قول وعمل ونية» (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص٣٠٣)، ونقل أبو نعيم عنه ما يفيد هذا (راجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج١٠ ص٣٨٦).

ويتّفق الشّيخ الكبير في هذه القضيّة مع أهل الحديث، والصّوفيّة. (راجع في حقيقة الإيمان عند أهل الحديث: القاسم بن سلام: الإيمان ص ٥٣ (الطّبعة الثّانية سنة ١٤٠٥هـ دار الأرقم - الكويت)، وابن منده: الإيمان ج١ ص١٣١ (بتحقيق د/ عليّ بن محمد بن ناصر الفقيهيّ، الطّبعة الثّانية سنة ١٤٠٦هـ مؤسسة الرّسالة - بيروت)، وراجع عند الصّوفيّة: والكلاباذيّ: التّعرف ص٧٩، والسّيرجانيّ: كتاب البياض والسّواد ص٧٢، وأبو النّجيب السّهرورديّ: آداب المريدين ص١١).

فصل
[في وجوب معرفة أسماء أصول الدّين]

ثمّ على المريد أن يعرف أسماء أصول الدّين وما اتفق عليه رسول الله ﷺ[1] وجبريل عليه السلام[2]، من ذلك أنّ جبريل عليه السلام سأل النبي ﷺ[3] عن الإيمان، فقال: «الإيمان[4]: أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والقدر خيره وشره»، ثمّ سأله عن الإسلام، فقال: «شهادة أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحجّ البيت[5]»، فقال: «فإذا فعلتُ ذلك فأنا مسلم»، فقال: «نعم»[6]، وهكذا أجاب في الإيمان فقال: «إذا[7] فعلتُ ذلك فأنا مؤمن»، فقال: «نعم»، ثمّ سأله عن الإحسان فقال: «أن تعبد الله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك».

فكانت السؤالات مفهومة والجوابات معلومة، فجعل[8] ذلك كلّه[9] أفعال العبد الذي هو مُطالَب[10] بها ومجازى عليها ومعاقب على تركها، ثم قال ﷺ[11]: «هذا جبريل

(١) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».
(٢) - «عليه السلام» في النّسخة (ج).
(٣) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».
(٤) - «الإيمان» في النّسخة (ج).
(٥) في النّسخة (ج): «وحج البيت وصوم رمضان».
(٦) - «فقال: نعم» في النّسخة (ج).
(٧) في النّسخة (ب): «فإذا».
(٨) في النّسخة (ج): «في حد».
(٩) في النّسخ الثلاث وعند (صبيروي): «كلها».
(١٠) في النّسخ الثلاث وعند (صبيروي): «مطلوب».
(١١) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

جاءكم يُعَلِّمكم أمر دينكم»[1].

فاكتفى المؤمنون[2] بما اتّفق[3] عليه الأمينان[4] جبريل ورسول الله عليهما الصَّلاة والسَّلام[5]، وذلك مُفَصَّل من جملة قوله ﷺ[6]: «الإيمان بضع وسبعون بابًا»، وهذا مُجْمَل، ثمّ قال ﷺ[7]: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنّي رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت[8]»[9][10].

(١) أخرجه البخاريّ في الصّحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب «الإيمان»، باب «سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة»، ج١ ص١٩ برقم ٥٠، ومسلم في الصحيح عنه، كتاب «الإيمان»، باب «الإيمان ما هو وبيان خصاله»، ج١ ص٣٩ برقم ٩.

(٢) في النّسخة (ج): «المؤمنين».

(٣) في النّسخة (ب): «تفقا»، وفي النّسخة (ج): «اتفقا».

(٤) عند (صبيروي): «الإثنان».

(٥) في النّسخة (ب): «صلى الله عليهما»، وفي النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٦) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٧) في النّسخة (ج): «عليه السلام».

(٨) - «وحج البيت» في النّسخة (ج).

(٩) - «شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم شهر رمضان، وحج البيت» في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، وبدلًا منها مثبت كلمة: «الحديث».

(١٠) أخرجه البخاريّ في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب «الإيمان»، باب «قول النّبيّ ﷺ: «بُني الإسلام على خمس»»، ج١ ص١١ برقم ٨، ومسلم في الصّحيح عنه، كتاب «الإيمان»، باب «قول النّبيّ ﷺ: «بُني الإسلام على خمس»»، ج١ ص٤٥ برقم ١٦.

فصل
[في وجوب التّوبة من المخالفات]

قال الشّيخ[١] أبو عبد الله محمّد بن خفيف[٢] رحمة الله عليه[٣][٤]: ثمّ يلزم[٥] المريد معرفة التّوبة من المخالفات التي لا يخلو منها[٦] العباد بعد[٧] دخولهم في الإيمان؛ لقوله[٨] تعالى[٩]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [التّحريم: ٨]، وقال[١٠] ﷻ: ﴿وَتُوبُوٓاْ[١١] إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ[١٢] ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٣١﴾ [النور: ٣١]، وكان[١٣] في[١٤] أوّل المطالبة سمّاهم بأسماء الجنس بقوله تعالى[١٥]: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ

(١) - «الشيخ» في النّسخة (ج).
(٢) - «محمد بن خفيف» في النّسخة (ب).
(٣) - «رحمة الله عليه» في النّسخة (ج).
(٤) - «قال الشيخ أبو عبد الله محمد بن خفيف رحمة الله عليه» في النّسخة (أ) وعند (صبيروي).
(٥) عند (صبيروي): «تلزم».
(٦) في النّسخة (ب): «منه».
(٧) في النّسخة (ب): «بعدد».
(٨) في النّسختين (أ) و(ج) وعند (صبيروي): «بقوله».
(٩) - «تعالى» في النّسخة (ج).
(١٠) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «وقوله».
(١١) في النّسخة (ب): «توبوا».
(١٢) في النّسختين (ب) و(ج): «أيها».
(١٣) في النّسخة (ج): «فكان».
(١٤) - «في» في النّسخة (ب).
(١٥) - «تعالى» في النّسختين (ب) و(ج).

إِلَيْكُمْ جَمِيعًا[1]﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فلمّا دخلوا فيه[2] سمّاهم بأسماء الأحوال فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ الآية[3]، فيلزم[4] المريد معرفة التّوبة، فصارت[5] التّوبة الرّجوع إلى الله ﷻ[6] من حيث ذهابه عن الله إذا كان راجعًا إلى الله بالتّصديق والتّوحيد.

وذلك أنّ أصل التّوبة يختلف[7] على ابتداء أوصاف الخلق من الذّاهبين عن الله ﷻ[8]، فإن[9] كان[10] ذهابهم بالكفر والشّرك[11] والجحد[12] والمعاصي[13]، فيلزم[14] الخلق الرجوع إلى الله بالتّصديق الّذي ضدّه[15] التكذيب، ....

(١) - «جَمِيعًا» في النّسخة (ج).

(٢) في النّسختين (ب) و(ج): «فيها».

(٣) - «﴿تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ الآية» في النّسخة (ج).

(٤) عند (صبيروي): «فتلزم».

(٥) في النّسخ الثّلاث: «فصار».

(٦) - «ﷻ» في النّسخة (ج).

(٧) - «يختلف» في النّسخة (ج).

(٨) - «ﷻ» في النّسختين (ب) و(ج).

(٩) - «إن» في النّسختين (ب) و(ج).

(١٠) في النّسخة (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «كانت».

(١١) يقول الإمام النوويّ: «إنّ الشّرك والكفر قد يُطلقان بمعنى واحد وهو الكفر بالله تعالى، وقد يُفرّق بينهما فيُخصّ الشّرك بعبدة الأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله تعالى ككفار قريش، فيكون الكفر أعمّ من الشّرك». (النوويّ: المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجّاج ج٢ ص٧١).

(١٢) يبدو من السّياق أنّ المراد من «الجحد» ههنا هو ارتكاب المعصية مع إنكار كونها معصية وتكذيب النصّ الوارد في شأنها، وليس مجرد الارتكاب لها بسبب الغفلة واتّباع الهوى مع التّصديق بكونها معصية.

(١٣) في النّسخة (ج): «والمعارضة».

(١٤) في النّسخة (ب): «فلزم».

(١٥) في النّسخة (ب): «ضد لها».

وبالتّوحيد الّذي ضدّه الشّرك[١]، وبالإقرار الّذي ضدّه الجحد، وبالطّاعات الّتي ضدّها المعاصي.

فرجع طائفة بالتّصديق والتّوحيد والإقرار والأعمال، وعارض[٢] طائفة من هؤلاء بالمعاصي[٣] على أحكام الهوى وسلطان الغفلة عن غير عقد ولا إقرار، فاستحقّوا اسم[٤] الإيمان مع كون الخلاف منهم، فلم يُسقط الله ﷻ[٥] عنهم اسم[٦] الإيمان وجوّز عليهم المعاصي، فطالبهم[٧] بالرّجوع عن المعاصي إلى الطّاعة[٨]، وبالله التّوفيق.

(١) - «وبالتوحيد الذي ضده الشرك» في النّسختين (ب) و(ج).

(٢) - «طائفة بالتصديق والتوحيد والإقرار والأعمال، وعارض» في النّسخة (ب).

(٣) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «المعاصي».

(٤) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «أسماء».

(٥) - «ﷻ» في النّسخة (ج).

(٦) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «أسماء».

(٧) في النّسخة (ب): «وطالبهم».

(٨) - «إلى الطاعة» عند (صبيروي).

فصل
[في وجوب معرفة الإيمان من الدّخول فيه والخروج منه]

ثمّ على المريد معرفة أحكام الدّاخلين في الإيمان، وكيفيّة خروجهم منها بعد وقوع التّسمية عليهم:

اعلم أنّ الله ﷻ[1] ذكر ثلاثة أصناف: كافر مشرك، ومنافق مقرّ، ومؤمن عاصٍ، فقارن الله ﷻ[2] توبة الكافرين[3] في حال توبتهم بالإيمان، وقارن توبة المنافقين[4] بالإخلاص، وقارن توبة العاصي[5] بالصّلاح، فقال في توبة الكافرين[6]: ﴿إِلَّا[7] مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [مريم: ٦٠]، وقال في توبة المنافقين[8]: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ﴾ [النّساء: ١٤٦]، وقال في توبة العاصي: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠][9]، ....

(١) في النّسخة (ب): «تعالى».
(٢) - «ﷻ» في النّسخة (ج)، وفي النّسخة (ب): «تعالى».
(٣) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «الكافر».
(٤) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «المنافق».
(٥) في النّسخة (ج): «المعاصي».
(٦) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «الكافر».
(٧) - «إلّا» في النّسخة (ب).
(٨) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «المنافق».
(٩) أثبتنا الآية الكريمة من النّسخة (ج)، وقد جاءت في النّسخة (أ) هكذا: «إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا وبينوا»، وفيها زيادة: «من بعد ذلك»، وهو تصحيف، فلا توجد آية في المصحف الشّريف هكذا، وقد أثبت (صبيروي) ما في النّسخة (أ) لكن على أنّها جزءان من آيتين، الجزء الأول قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ﴾ [آل عمران: ٨٩]، والجزء الآخر قوله تعالى: ﴿وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ﴾ [البقرة: ١٦٠]، وفي=

فلزمهم الرّجوع إلى الله من حيث ما ذهبوا[1]، وبالله التّوفيق.

=النّسخة (ب) جاءت آية أخرى وهي قول الله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٨٩، والنّور: ٥].

(١) اقتبس السّلميّ قول ابن خفيف في التّوبة: «الرّجوع إلى الله من حيث ما ذهبوا»، وذلك أثناء تفسيره لقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا﴾ [سورة التّحريم: ٨]. (السّلمي: حقائق التّفسير ج٢ ص٣٣٧ (بتحقيق سيّد عمران، الطّبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، دار الكتب العلميّة - بيروت).

فصل
[في وجوب معرفة حقيقة التّوبة وكيفيّتها[1]]

ثمّ على المريد عند[2] تصحيح التّوبة الرّجوع[3] إلى الله في ظاهره وباطنه، فأمّا الباطن فالندم على قبيح المخالفات من السرّ والإجهار[4]، وصحّة العقد على ترك المخالفات، مع حلّ الإصرار، ودوام الاستغفار[5]، فإذا فعل ذلك فقد دخل في تسمية التّوبة في الوقت عند وجود هذه الأفعال.

ثمّ عليه صحّة ما أوجب عليه التّوبة على ترتيب الموافقات بمفارقة ترتيب المخالفات، فأوّل ذلك ما ضَيَّع من عبادة[6] الله تعالى، مثل الصّلاة[7] المُضَيَّعة[8] بترك صحّة الرّكوع والسّجود والطّمأنينة والاعتدال، مع الجهل بأحكام الطّهارات[9]...........

---

(١) بعد أن ربط ابن خفيف بين الإيمان والتّوبة في الفصول الخمسة السّابقة بيّن هنا كيفيّة تحقيق التّوبة، وللاستزادة حول هذه المسألة عند الصّوفيّة راجع: أبو طالب المكيّ: قوت القلوب ج١ ص٣٠٣، ٣٠٤، والهجويريّ: كشف المحجوب ج١ ص٣٢٥، ٣٢٦، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص٢١٠، ٢١١.

(٢) - «عند» في النّسخة (ج).

(٣) في النّسخة (ب): «بالرجوع».

(٤) الإجهار بمعنى المجاهرة الّتي هي الإظهار والإعلان، ومنه الحديث الشّريف: «كلّ أمّتي معافاة، إلا المجاهرين، وإنّ من الإجهار أن يعمل العبد باللّيل عملًا، ثم يصبح قد ستره ربُّه، فيقول: يا فلان قد عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربُّه، فيبيت يستره ربُّه، ويصبح يكشف ستر الله عنه». (راجع: ابن منظور: لسان العرب ج٤ ص١٥٠، والحديث أخرجه مسلم في الصّحيح عن أبي هريرة ﷺ، كتاب «الزّهد والرّقائق»، باب «النّهي عن هتك الإنسان ستر نفسه»، ج٤ ص٢٢٩١ برقم ٢٩٩٠).

(٥) - «الاستغفار» في النّسخة (ب).

(٦) في النّسخة (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «عبودية».

(٧) في النّسخة (ب): «صلاة».

(٨) في النّسخة (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «المفروضة».

(٩) في النّسخة (ب): «الطاهرات».

ووضع الوضوء مواضعه[1]، مع الغفلة بالنّية، والصّيام[2] مع الجهل بأحكامه، وما يُفسد عليه الصّوم وما يصلحه.

ثمّ عليه ردّ المظالم على العباد[3] الّذين[4] لهم[5] عليه، فَمَنْ عليه[6] ظُلامة[7][8] في[9] ماله فعليه أن يردّها[10]، أو[11] يستحلّه، أو يكسب عليه فيردّه، فإن مات المظلوم ردّ على وارثه.

وأمّا ما كان عليه[12] من ضرب الإنسان[13] فالقصاص[14]، أو[15] الاستحلال منه،

(١) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «مواضعها».
(٢) في النّسخة (ب): «والقيام».
(٣) - «العباد» في النّسخة (ب).
(٤) في النّسختين (ب) و(ج): «الذي».
(٥) - «لهم» في النّسخة (ج)، وفي النّسخة (ب): «له»، وعند (صبيروي): «هم».
(٦) - «فمن عليه» في النّسخة (ب).
(٧) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «الظلامة».
(٨) جاء في «مختار الصّحاح» ص١٩٧ (بتحقيق: يوسف الشّيخ محمّد، الطّبعة الخامسة سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، المكتبة العصريّة - بيروت): «(الظُّلَامَة) و (الظَّلِيمَة) و (الْمَظْلَمَة) بفتح اللّام ما تطلبه عند الظّالم وهو اسم ما أخذه منك». (وراجع أيضًا: لسان العرب ج١٢ ص٣٧٥).
(٩) في النّسخة (ج): «من».
(١٠) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «يرده».
(١١) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «و».
(١٢) - «عليه» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).
(١٣) في النّسخة (ج): «الأبشار».
(١٤) في النّسخة (ج): «والقصاص».
(١٥) في النّسخة (ج) وعند (صبيروي): «و».

وما كان من الوقيعة والغيبة[1] والنّميمة والشّتيمة فالاستحلال، أو[2] الاستغفار لصاحبه، وبالله التّوفيق[3].

(١) في النّسخة (أ) وعند صبيروي: «وما كان من الغيبة والوقيعة».
(٢) في النّسخة (ب) و(ج): «و».
(٣) - «وبالله التوفيق» في النّسختين (ب) و(ج).

فصل
[في وجوب معرفة أحكام النّفس وكيفيّة سياستها[1]]

ثمّ على التّائب من المريدين[2] أن يعلم أحكام نَفْسه[3]، ومعرفة دواعيها والوقوف على شرورها، ويعلم أنّ لها أخلاقًا[4] وحشيّة[5][6] وأوصافًا[7] جموحية[8][9]، فيعمل في

(١) في هذا الفصل والفصل الذي يليه يتناول الشّيخ الكبير قضيّة النّفس وأخلاقها الدّنيّة وكيفيّة التّعامل معها، وقد جعل ابن خفيف في كتابه «فضل التصوف» هذه القضيّة ممّا يُمَيِّز الصّوفيّة على غيرهم من أصحاب المذاهب الأخرى. (راجع: ابن خفيف: فضل التّصوّف على سائر المذاهب ص٥٥، وللاستزادة حول هذه القضيّة راجع: المحاسبي: الرّعاية لحقوق الله ص٣٢٥:٣٣٤ (بتحقيق: عبد القادر عطا، الطّبعة الرّابعة، دار الكتب العلميّة - بيروت)، والهجويريّ: كشف المحجوب ج١ ص٢٢٦:٢٣٧، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص٢٨٣:٢٨٧، والغزاليّ: الإحياء ج٣ ص٤٨:٧٩).

(٢) في النّسخة (أ) و(ب): «من المريد».

(٣) يعبّر الصّوفيّة بالنَّفْس عن الصّفات المذمومة في العبد، يقول الإمام القشيريّ: «نَفْس الشيء في اللغة: وجوده، وعند القوم ليس المراد من إطلاق لفظ النَّفْس الوجود ولا القالب الموضوع، إنّما أرادوا بالنَّفْس ما كان معلولًا من أوصاف العبد ومذمومًا من أخلاقه وأفعاله». (القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص٢٠٣، وراجع: الهجويريّ: كشف المحجوب ج٢ ص٤٢٧، والغزاليّ: الإحياء ج٣ ص٤).

(٤) في النّسخة (ج): «أوصاف».

(٥) في النّسخة (ج): «أوحشية».

(٦) وحشيّة: نسبة لـ«وحش»، وهو كلّ شيء من دوابّ البرّ ممّا لا يُستأنس. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٦ ص٩١، وابن منظور: لسان العرب ج٦ ص٣٦٨)، وكأنّ ابن خفيف أراد من هذا التّعبير أن يقول بأنّ للنّفس صفاتٍ مذمومة يصعب ترويدها وإخراجها عن طبعها بجعلها ساكنة كامنة.

(٧) في النّسخة (ج): «أوصاف».

(٨) في النّسخة (ج): «اجموحية».

(٩) جاء في معجم «مقاييس اللّغة»: «(جَمَحَ) الجيم والميم والحاء أصل واحد مطّرد، وهو ذهاب الشيء قُدُمًا بغلبة وقوة، يقال: جَمَحَ الدّابّة جماحًا إذا اعْتَزّ فارسه حتى يغلبه، وفرس جَمُوح... قال بعض أهل اللغة:=

ملاطفتها في إلزام أحكام التّوبة في الظّاهر، ويعتقد لها العداوة في الباطن، فيلزمها القمع بالرّياضة[1] والكسر بالمجاهدة[2]، ويطالع اختلاف مطالبتها فيما تهوى، والمبالغة في منع شهواتها، ويأخذ عليها أنفاسها في منع لذّاتها بدوام الحراسة، ويتفقّد[3] أوقاتها بالمراعاة لها؛ ليستديم[4] له[5] صحّة ما اعتقده[6] من التّوبة وأحكامها.

ويعلم أوقاتها في حال الزّيادة والنّقصان في الأيام واللّيالي مع ترك الإغفال عنها، فإنّ

=الجَمُوح: الرّاكب هواه» (ابن فارس: مقاييس اللّغة ج١ ص٤٧٦، وراجع: ابن منظور: لسان العرب ج٢ ص٤٢٦)، ومن أقوال عمرو بن عثمان المكيّ: «العلم قائد، والخوف سائق، والنّفس حرون بين ذلك، جموح خدّاعة روّاغة، فاحذرها وراعها بسياسة العلم، وسُقها بتهديد الخوف يتمّ لك ما تريد». (راجع: السّلميّ: طبقات الصّوفيّة ص١٦٤، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص٩٠).

(١) يقول ابن خفيف: «الرّياضة: كسر النّفوس بالخدمة ومنعها عن الفترة». (السّلميّ: طبقات الصّوفيّة ص٣٤٦، وأبو نعيم: حلية الأولياء ج١٠ ص٣٨٦).

(٢) الفرق بين الرّياضة والمجاهدة عند الصّوفيّة أنّ المجاهدة هي حمل النّفس على المشاق البدنيّة ومخالفة الهوى على كلّ حال، ولكن لا يتمكّن من مخالفة الهوى إلا بعد الرّياضة، والرّياضة قسمان: رياضة الأدب وهو الخروج عن طبع النّفس، ورياضة الطّلب وهي صحّة المراد به، وبالجملة فهي عبارة عن تهذيب الأخلاق النّفسيّة، وعليه فالمجاهدة تختصّ بما يرجع إلى الأمور البدنيّة والرّياضة بما يرجع إلى الأمور النّفسانيّة. (انظر: ابن عربيّ: الفتوحات المكيّة ج٣ ص٢١٩، وراجع: القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص٢١٨، والغزاليّ: الإحياء ج٣ ص٦٦، ولسان الدّين بن الخطيب: روضة التّعريف بالحبّ الشّريف ج٢ ص٤٦٥ (بتحقيق: محمّد الكتّانيّ، الطّبعة الأولى سنة ١٩٧٠م، دار الثّقافة).

(٣) في النّسخة (ب): «وتفقد».

(٤) عند (صبيروي): «لتستديم».

(٥) - «له» في النّسخة (ج).

(٦) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «اعتقد».

ذلك[1] يديم[2] له صحّة العبودية والقيام بصحّة المجاهدة، فإنّها[3] مأوى كل سوء، و[4]بذلك وصفها الله تعالى أنّها أمّارة بالسّوء[5]، وبالله التّوفيق[6].

(١) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «بذلك».

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «تدوم»، وفي النّسخة (ب): «يدوم».

(٣) في النّسخة (ب): «فإنه».

(٤) - «و» في النّسخة (ج).

(٥) قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ إِنَّ رَبِّي غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝﴾ [يوسف: ٥٣].

(٦) - «وبالله التوفيق» في النّسختين (ب) و(ج).

فصل
[في وجوب ترويض النّفس بطول الاجتهاد وكثرة الأوراد]

ثمّ على المريد بعد المعرفة بسوء أخلاقها الجدّ والتّشمير[1] في منازلة[2] الأفعال وكثرة الأوراد، فيلزم الصّوم على الاستدامة، فإنّها تسدّ خلل الهموم عن القلوب مع ترك المطعم والمشرب، فيقلب[3] صفاتها وينقلها[4] عن عاداتها، فيجعل بدل الشّبع جوعًا، وبدل النّوم سهرًا، وبدل[5] طيب مناولة ما أراد ترك الشّهوات، وبدل الرّفاهيات[6] طول المجاهدات في إلزام ترك[7] المحابّ، ويمنعها عن[8] التّمتّع بلبس الفاخرات، فيلبسها[9] الصّغار والذّلّة، ويلبس[10] الخشن الضّيّق حتى لا يجد[11] العزّ والفخر فيه[12] مساغًا[13]،

---

(١) في النّسخة (ب): «والتشمر».

(٢) في النّسخة (ب): «منازل».

(٣) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «فتنقلب».

(٤) في النّسخة (ج): «ويردها».

(٥) في النّسخة (ب): «بعد».

(٦) في النّسخة (ج): «الرفاهية».

(٧) - «الشهوات، وبدل الرفاهيات طول المجاهدات في إلزام ترك» في النّسخة (ب).

(٨) في النّسخة (ب): «من».

(٩) في النّسخة (ب): «بلبسه»، وفي النّسخة (ج): «التلبسه».

(١٠) في النّسخة (ب): «وليلبس».

(١١) عند (صبيروي): «تجد».

(١٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «فيها».

(١٣) في الحديث: «يا أبا ذرّ البس الخشن الضيّق حتّى لا يجد العزّ والفخر فيك مساغًا» (الحديث عزاه ابن حجر لابن منده عن أنيس بن الضّحّاك الأسلميّ، وقال ابن منده: غريب وفيه إرسال. (ابن حجر العسقلانيّ: الإصابة في تمييز الصحابة ج١ ص٢٨٥ (بتحقيق: عادل عبد الموجود وعليّ معوض، الطبعة الأولى سنة=

فإنّ ذلك مانع[1] له عن طلب الفضولات بالرّجوع إلى ما كان عليه من البطالات والغفلات[2] والتهاون بالفرائض والإعراض عن النوافل.

ويطالبها[3] بدوام الصّلوات، وأن يستديم[4] الجماعات[5]، وأن يُقِلَّ المجالسات مع مراعاة الخلوات، وكثرة البكاء في الأسحار.

فاحذر ألّا يفوتك طلب التّوبة والاستغفار من[6] الذّنوب في تلك[7] الأوقات، ويكون القلب منك مُفتقرًا[8]، واللّسان منك سائلًا[9]، وتُعَفِّر[10] الوجه في التّراب[11] بين يدي الله ﷻ[12] معفرة[13].

وتراعي[14] النّفس في تضاعيف ....

=١٥٤ هـ دار الكتب العلمية - بيروت)، وعزاه المناويّ لابن عساكر عن أبي ذرّ، وذكر أن سنده فيه مجاهيل (المناويّ: فيض القدير ج٣ ص١٦٢ برقم ٣٠١٩ (الطبعة الأولى ١٣٦٥ هـ المكتبة التجارية - مصر).

(١) في النّسخة (ج): «مانعا».

(٢) عند (صبيروي): «والغفالات».

(٣) في النّسخة (ج): «ويطلبها».

(٤) في النّسخة (ج): «تستديم».

(٥) في النّسخة (ج): «بالجماعات».

(٦) في النّسخة (ب): «عن».

(٧) في النّسخة (ج): «كل».

(٨) في النّسخة (ج): «مفتقر».

(٩) في النّسخة (ج): «سائل».

(١٠) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «ويعفر»، و(ب): «ويعقر».

(١١) في النّسخة (ب): «تراب».

(١٢) - «ﷻ» في النّسخة (ب)، وفي النّسخة (ج): «تعالى».

(١٣) - «معفرة» في النّسخة (ج)، وفي النّسخة (ب): «معقرة».

(١٤) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «ويراعي».

ذلك عن[١] عوارض الفترة[٢]، وترك الملال في الخدمة، وتحذر[٣] عن[٤][٥] معارضات التّأويل في طلب العلم ممّا فيه[٦] من[٧] الرّخص المؤدي إلى الفترة.

وإيّاك وأكل اللّحم[٨]، فإنّ له[٩] ضراوة كضراوة الخمر، وقد قيل: إنّ الله ﷻ[١٠]

---

(١) - «عن» في النّسخة (ج).

(٢) يقول ابن خفيف: «الرّياضة: كسر النّفوس بالخدمة ومنعها عن الفَتْرة». (السّلميّ: طبقات الصّوفيّة ص٣٤٦، وأبو نعيم: حلية الأولياء ج١٠ ص٣٨٦)، والفترة عند الصّوفيّة هي خمود حرارة الطلب اللّازمة للبداية، ويُفرّق الصّوفيّة بين الفترة والوقفة بأنّ الفترة رجوع عن الإرادة وخروج منها، بينما الوقفة هي سكون عن السّير باستحلاء حالات الكسل. (راجع: القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج٢ ص٥٧٥، وأبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٤٦٠، والكاشانيّ: معجم اصطلاحات الصّوفيّة ص١٥٣).

(٣) في النّسختين (أ) و(ج) وعند (صبيروي): «ويحذر».

(٤) في النّسخة (ج): «من».

(٥) - «عوارض الفترة، وترك الملال في الخدمة، وتحذر عن» في النّسخة (ب)، ثم صُحِّحَتْ في هامشها على نحو ما هو مُثْبَت.

(٦) في النّسختين (ب) و(ج): «فيها».

(٧) - «من» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).

(٨) لعلّه من المهمّ أن نبين ههنا أنّ مقصد ابن خفيف من التّحذير من أكل اللّحم هو التّحذير من أن يكون العبد شَرِهًا لتناوله، وليس المراد المنع عنه بالكلّيّة وإلا كان تحريمًا لما أحلّ الله تعالى، والشّيخ الكبير معروف عنه تمسكه بالشّرع والتّشديد في عدم مخالفته، فيَبْعُد جدًّا أن يكون المقصد من هذا الكلام تحريمًا لما أحلّ الله تعالى، والأثر الذي ساقه يؤكّد أن المقصد هو تربية المريد على ألا يكون طيِّعًا لشهواته بحيث تكون متحكّمة فيه على نحو ما هو متحقّق في الإنسان الشّره عمومًا وفي المتناول للّحم خصوصًا، ثمّ إنّ ابن خفيف في «المعتقد الصغير» قال: «وأموال المسلمين وذبائحهم حلال إلا ما رُوِّينا فيه التّحريم» (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص٣٣٠، ٣٣١)، وهذا يؤكّد أنّه لم يُحَرِّم أكل اللّحم، وإنّما الأمر على نحو ما ذكرناه.

(٩) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «فيها».

(١٠) في النّسخة (ب): «تعالى».

أوحى إلى داود عليه السلام فقال: «يا داود ما بال الأقوياء ومناولتهم[1] الشّهوات، إنّما جعلت الشّهوات لضعفاء خلقي، إنّ القلوب المتعلّقة بالشّهوات عقولها عندها[2] محجوبة عني»[3]، وبالله التّوفيق.

(١) في النّسخة (ج): «ومناولت».

(٢) - «عندها» في النّسختين (ب) و(ج).

(٣) جاء في «حلية الأولياء» عن أبي سليمان الداراني قال: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: «إنّي إنّما خلقت الشّهوات لضعفاء خلقي، فإيّاك أن تُعلّق قلبك منها بشيء، فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبّي من قلبك» (أبو نعيم: حلية الأولياء ج١٠ ص٢٠)، وورد عن بِشْر بألفاظ قريبة منه في «مختصر تاريخ دمشق». (ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق ج٨ ص١٢٢ (بتحقيق: روحيّة النّحاس وآخرون، الطّبعة الأولى سنة ١٤٠٢هـ - ١٩٨٤م، دار الفكر للطباعة والتّوزيع والنّشر - دمشق).

فصل

[وجوب الاقتداء بأهل العزائم وترك مجالسة أهل الرُّخَص[1]]

ثمّ على المريد[2] طلب أخلاق الكرام، ومطالعة أهل الوفاء ممّن مضى مِن صدر هذه الأمّة ممّن درجوا[3] على السّلامة[4]، ويكون مُراعيًا لقوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ۝ لِّيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤] الآية[5].

واعلم أنّ أوّل فتنة المريد مجالسة أهل الرُّخَص و[6]المُتأوِّلين، وأوّل عارض من الفترة طلب العلم المانع لهم[7] عن حقيقة حالهم[8] والانقطاع عن مقاصدهم[9]،

---

(١) في هذا الفصل والفصل الذي يليه يحذّر ابن خفيف أيّما تحذير من أنّ الاستماع إلى أهل الرّخص والمتأوّلين لهو من أشدّ الفتن الّتي تعرض للمريد، وتجعل «الفترة» تعتريه فتخور عزيمته في مجاهدة نفسه بعد أن علم حقيقة نفسه وما فيها من أخلاق رديّة، حتى قال ابن خفيف فيما روي عنه: «ليس شيء أضرّ على المريد من مسامحة النّفس في ركوب الرّخص وقبول التّأويلات» (راجع: السّلميّ: طبقات الصّوفيّة ص٣٤٧، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص١٤٠، وابن الملقّن: طبقات الأولياء ص٢٩٠)، وراجع في مسألة «تحذير المريد من تتبّع الرّخص»: الهجويريّ: كشف المحجوب ج١ ص١٤٦، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج٢ ص٥٧٣، وأبو حفص السهرورديّ: عوارف المعارف ص٣٩١، وأبو النّجيب السهرورديّ: آداب المريدين ص٧١.

(٢) - «المريد» في النّسخة (ج).

(٣) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «خرجوا».

(٤) في النّسخة (ب): «السلام».

(٥) - «الآية» في النّسختين (أ) و(ج) وعند (صبيروي).

(٦) - «و» في النّسخة (ج).

(٧) في النّسخة (ج): «له».

(٨) في النّسخة (ج): «حاله».

(٩) في النّسخة (ج): «مقاصده».

فيركنون[١] إلى التّأويلات[٢] في طلب التَّبَحُّر[٣] في فنون الرّوايات عند مجالسته[٤] مع[٥] هؤلاء الفرق الفتّانة، فقد روى زيد بن أسلم عن أبيه قال: دخلت على عمر بن الخطّاب[٦] ﷺ وهو يبكي، فقلتُ له[٧]: ما يُبكيك؟ قال[٨]: «ذكرتُ أقوامًا يكونون في آخر هذه الأمّة، يَتَسَمُّون بالعلماء، ويتشبّهون بالعلماء، وقد وعوا ما قالت العلماء، عيّابين[٩] لعّانين[١٠] طعّانين[١١] مغتابين، لا الله يخشون، ولا النّاس يهابون، هم وأشياعهم أوّل[١٢] ما يُسَدُّ بهم أركان جهنّم، فينادُون[١٣]: واصلاتاه[١٤]..................................

(١) في النّسخة (ج): «فيركنوا».

(٢) لا يخفى أنّ الرّخص وقبول التّأويلات التي حذّر ابن خفيف المريد منها إنّما هي تلك الرّخص والتّأويلات التي كرهها الشّارع، وقد عقد الشّيخ زَرّوق لهذه المسألة فصلًا بعنوان «فصل في الرّخصة والشّهوة والشّبهة والتّأويل وحال المريد في ذلك»، فَصَّل فيه المسألة ثمّ قال: «الرّخصة المذمومة عند القوم الرّخصة المكروهة، كترك معتاد الفضائل والاسترسال في العاديّات، أو التّوسّع في المباحات، أو الرّجوع في المندوبات، أو الدّخول في جَليّ الخلافيات، لا لضرورة فادحة» (زرّوق الفاسي: عدّة المريد الصّادق ص٢١٥).

(٣) في النّسخة (ج): «البحث».

(٤) في النّسخة (ب): «مجالسة».

(٥) - «مع» في النّسخة (ب).

(٦) - «ابن الخطاب» في النّسخة (أ) وعند (صبيروي).

(٧) - «له» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).

(٨) - «دخلت على عمر بن الخطاب ﷺ وهو يبكي، فقلت: ما يبكيك؟ قال:» في النّسخة (ب).

(٩) في النّسخة (ج): «عايشن».

(١٠) في النّسخة (ج): «الغايين».

(١١) - «طعانين» في النّسخة (ج).

(١٢) في النّسخة (ج): «أو».

(١٣) في النّسخة (ج): «ينادون».

(١٤) في النّسخة (ب): «يا صلاتاه».

واصياماه[١]، لا يُجابون ولا يُسمع منهم[٢]»، فقال[٣]: «قم عني»، فقمتُ عنه وهو يبكي وأنا أبكي[٤]، أو[٥] كما قال.

فقد[٦] وصفهم أنّهم[٧] قد وعوا ما قالت العلماء إلا أنّ الله تعالى[٨] لم ينفعهم بعلمهم لِتَخَلُّفِهم عن استعماله، وبالله التّوفيق.

(١) في النّسخة (ب): «وياصياماه».
(٢) في النّسخة (ب): «عنهم».
(٣) - «فقال» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).
(٤) الأثر أخرجه نجم الدّين عمر بن محمّد النّسفيّ في «القند في ذكر علماء سمرقند» ص٥٨٧ (بتحقيق: يوسف الهادي، مؤسسة الطّباعة والنّشر التّابعة لوزارة الثّقافة والإرشاد الإسلاميّ - إيران، طبعة سنة ١٣٧٨هـ)، بسند ضعيف، فيه محمّد بن إسحاق بن يسار إمام المغازي، وهو صدوق، إلا أنّه معروف بالتّدليس ومشهور به، فقد وضعه الحافظ ابن حجر في «طبقات المدلّسين» ص٥١ برقم ١٢٥ (بتحقيق: د/ عاصم القريوتيّ، الطّبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، مكتبة المنار - عمان)، في المرتبة الرابعة (وهي من اتفق على أنه لا يُحتجّ بشيء من حديثهم إلا بما صرّحوا فيه بالسّماع لكثرة تدليسهم على الضّعفاء والمجاهيل)، ولم يصرّح ابن إسحاق بسماع هذا الأثر من شيخه، وفي إسناد هذا الأثر أيضًا جماعة من الرواة لم أقف لهم على ترجمة.
(٥) في النّسخة (ب): «و».
(٦) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «وقد».
(٧) في النّسخة (ج): «ربهم».
(٨) - «تعالى» في النّسخة (ج).

فصل
[في وجوب الحذر من علم يُقعده عن زيادة الأحوال ويدعوه إلى الرُّخص]

ثمّ على المريد الحذر من مطالعة علم يُقعده عن إقامة الأحوال الموظّفة[١]، ويجنح[٢] إلى داعي[٣] الترخُّص[٤] بورود الفترة، وأن يحذر أن يورثه الإغماض في مناولة الدّنيا والمسامحة في أخذها؛ فإنّ الله عليك رقيب[٥]، بل عليك منه زجر[٦] وتهديد[٧]، فقد[٨] وصف الله قومًا[٩] في ذلك فقال: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ ۝﴾ [الحديد: ٢٧].

فقد أعلمك[١٠] الله تعالى[١١] أنّهم[١٢][١٣] ما اختاروا طلبًا لرضوانه والنّجاة من أليم

(١) في النّسخة (ج): «المواظبة».

(٢) في النّسختين (ب) و(ج): «ويحتج».

(٣) في النّسخة (ج): «دواعي».

(٤) في النّسخة (ب): «المرخص»، وفي النّسخة (ج) وعند (صبيروي): «الرخص».

(٥) من بداية الفقرة إلى هذا الموضع اقتبسه السّلميّ ونسبه لابن خفيف، وذلك أثناء تفسير السّلميّ لقول الله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [سورة الحديد: ٢٧]. (السّلميّ: حقائق التّفسير ج٢ ص٣١٣).

(٦) في النّسختين (ب) و(ج): «زاجر».

(٧) في النّسختين (أ) و(ب): «وتحذير»، وقد صُوّبت في هامش النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه، وهو ما توافق مع النّسخة (ج).

(٨) عند (صبيروي): «وقد».

(٩) في النّسخة (ج): «القوم».

(١٠) عند (صبيروي): «أعلمكم».

(١١) - «تعالى» في النّسخة (أ).

(١٢) - «أنهم» في النّسخة (ب) وعند (صبيروي).

(١٣) - «الله تعالى أنهم» في النّسخة (ج).

عذابه(١)، صار آخرهم ترك(٢) الوفاء والقيام فيها من الفاسقين، فأعماهم عن البصيرة(٣) الّتي كانوا بها قاصدين وفيها(٤) سائرين، وقد(٥) قال ﷻ: ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

وذلك أنّ بلاء المريد وفتنته ظهور الفترة والرّجوع إلى أحكام الرّخصة، وذلك(٦) أنّ(٧) أصل الفترة انقطاع موارد الغيب(٨) عن القلوب مع تسكين الحدّة وذهاب(٩) الإرادة(١٠) وخمود(١١) الطّلب عند ركون النّفس إلى التّأويلات بكثرة الرّوايات من

---

(١) في النّسخة (ب): «عقابه».

(٢) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صيروي): «بترك».

(٣) البصيرة هي قوّة للقلب منوّرة بنور القدس، يرى بها حقائق الأشياء وبواطنها، بمثابة البصر للنّفس الّذي تُرى به صور الأشياء وظواهرها. (انظر: الكاشانيّ: معجم اصطلاحات الصّوفيّة ص٦٤، وراجع: أبو حفص السهرورديّ: عوارف المعارف ص٥٠٦، ولسان الدّين بن الخطيب: روضة التّعريف ص٤٧٩).

(٤) في النّسخة (ج): «بها».

(٥) - «قد» في النّسخة (ب).

(٦) في النّسخة (ب): «دون».

(٧) في النّسخة (ب): «آن».

(٨) الغيب عند الصّوفيّة هو ما ستره الحقّ عنك، منك لا منه. (انظر: ابن عربيّ: الفتوحات المكيّة ج٢ ص١٢٩، وراجع: الكلاباذيّ: التّعرّف ص١٢٢، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج٢ ص٣٨٧).

(٩) في النّسخة (ج): «واذهاب».

(١٠) يقول ابن خفيف: «حقيقة الإرادة استدامة الكدّ وترك الرّاحة» (السّلميّ: طبقات الصّوفيّة ص٣٤٧، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص١٤٠)، فالصّوفيّة يقصدون من مصطلح «الإرادة»: ترك ما عليه العادة، وعادة النّاس في الغالب التّعريج في أوطان الغفلة والرّكون إلى اتّباع الشّهوة والإخلاد إلى ما دعتْ إليه المُنْيَة، والمريد مُنسلخ عن هذه الجملة. (انظر: القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج٢ ص٣٥٢، وراجع: الغزاليّ: الإحياء ج٣ ص٨، وأبو حفص السهرورديّ: عوارف المعارف ص٦١).

(١١) في النّسخة (ج): «وجمود».

أوصاف المفتونين[١] من صدر[٢] هذه الأمّة كما وصفهم عمر رضي الله عنه.

فصاروا[٣] فتنة على المريدين، واحتجّ بهم الفاترون[٤] مِمَّنْ رجعوا عن طريق الإرادة الّذين كانوا[٥] قد رموا نفوسهم[٦] عن أحكام المحظورات، وماكسوا[٧] نفوسهم[٨] في أخذ المباحات، وجاهدوا نفوسهم في منع الشّهوات، خوفًا من فتنة الدّنيا، وطلبًا[٩] لترك المساءلة في القيامة، لمّا سمعوا من العلماء[١٠] حقائق الصّادقين، وأنّ النّبيّ ﷺ[١١] خرج فرأى أبا بكر وعمر رضي الله عنهما[١٢] وهما جائعان فأخبر[١٣] عن نفسه ﷺ[١٤] بعض ما كانوا[١٥] فيه، فحملهم إلى بيت بعض الأنصار[١٦] فأطعمهم خبزًا ولحمًا وبُسْرًا[١٧] وشربوا من

(١) هكذا في النّسخ الثلاث، وفوق الكلمة في النسخة (أ) الكلمة مصوبة: «المفترين».

(٢) في النّسخة (ب): «صدور».

(٣) في النّسخة (ب): «فصار».

(٤) في النّسختين (ب) و(ج): «الفايزون».

(٥) - «كانوا» عند (صبيروي).

(٦) في النّسخة (ب): «أنفسهم».

(٧) يقال: ماكس صاحبه أي شاكسه، خالفه، نابذه، وحاجه. (انظر: مرتضى الزَّبيديّ: تاج العروس ج١٦ ص٥١٤ (دار الهداية، بدون).

(٨) في النّسخة (ب): «أنفوسهم».

(٩) عند (صبيروي): «طلبًا».

(١٠) في النّسخة (ج): «علوم».

(١١) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(١٢) - «رضي الله عنهما» في النّسخة (ب).

(١٣) في النّسخة (ج): «فأخرج».

(١٤) - «ﷺ» في النّسختين (ب) و(ج).

(١٥) في النّسخة (ج): «كانا».

(١٦) في النّسخة (ج): «بعض بيوت الأنصار».

(١٧) أوّل التمر طَلْع، ثم خَلَال، ثم بلح، ثم بُسْر، ثم رطب، ثم تمر. (انظر: الرازي: مختار الصّحاح ص٣٩).

الماء فقال ﷺ[1]: «إنّ هذا من النّعيم الّذي تسألون[2] عنه»[3].

وكان القصد منهما[4] مرتفعًا[5] والطّمع فيهما[6] غير موجود، خاطبهم بذلك حتّى[7] سأله[8] عمر، فقال: «إلا ما يستر الرّجل عورته، و[9] يسدّ جوعته، و[10] بيت يواريه من القرّ[11] والحرّ، وما فضل عن ذلك فليس لابن آدم فيه حقّ»[12].

---

(١) - «ﷺ» في النّسختين (أ) و(ج) وعند (صبيروي).

(٢) في النّسخة (ب): «تسلون»، وفي النّسخة (ج): «يسلون».

(٣) أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه بألفاظ قريبة، كتاب «الأشربة»، باب «جواز استتباعه غيره إلى دار من يثق برضاه بذلك، ويتحقّقه تحقّقًا تامًا، واستحباب الاجتماع على الطّعام»، ج٣ ص١٦٠٩ برقم ٢٠٣٨، وكذا التّرمذيّ في السّنن عنه بألفاظ قريبة، أبواب «الزهد»، باب «ما جاء في معيشة أصحاب النّبيّ ﷺ»، ج٤ ص١٦٢ برقم ٢٣٦٩، وقال: حسن صحيح غريب، وكنّى الرّجل الّذي من الأنصار فقال: أبو الهيثم بن التّيهان.

(٤) - «منهما» عند (صبيروي).

(٥) - «مرتفعًا» في النّسخة (ج)، وفي النّسخة (ب): «مرتفع».

(٦) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «منهما».

(٧) في النّسخة (ج): «حين».

(٨) عند (صبيروي): «يسأله».

(٩) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «أو».

(١٠) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «أو».

(١١) القرّ: البرد عامّة، وقال بعضهم: القرّ في الشّتاء والبرد في الشّتاء والصيف. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٥ ص٧، وابن منظور: لسان العرب ج٥ ص٨٢).

(١٢) أخرجه أحمد في «الزهد» عن عثمان بن عفان رضي الله عنه ص٢١ برقم ١١٤ بلفظ: «كلّ شيء سوى ظلّ بيت، وجلف الخبز، وثوب يواري عورته، والماء، فما فضل عن هذا فليس لابن آدم فيه حقّ»، وأخرجه في مسنده عن أبي عسيب رضي الله عنه في سياق قصّة الرّجل الّذي من الأنصار، ج٣٤ ص٣٦٧ برقم ٢٠٧٦٨، وممّا جاء في لفظه أنّ عمر سأل النبي ﷺ: يا رسول الله، أئنّا لمسئولون عن هذا يوم القيامة؟ قال: «نعم، إلا من ثلاث: خرقة كفّ بها الرجل عورته، أو كسرة سدّ بها جوعته، أو حجر يتدخل فيه من الحرّ والقرّ»، وذكر شعيب=

فلا زالت[1] أحكام الفترة فيهم متحكّمة إلى أن[2] واقعوا الدّنيا فأخذوها ورجعوا[3] إليها على أقبحه[4]، فخرج قول النّبيّ ﷺ[5] عليهم[6] إلى[7] أن قال: «فمن[8] كانت فترته إلى سنّتي فقد نجا، وإلّا فقد هلك»[9]، وبالله التّوفيق.

=الأرنؤوط أنّ في سنده ابن نباتة الأشجعيّ وهو مختلف فيه، وأنّ في الباب ما يشهد لبعضه.

(١) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «زال»، وفي النّسخة (أ) الكلمة غير واضحة.

(٢) - «أن» في النّسخة (ج).

(٣) في النّسخة (ج): «وراجعوا».

(٤) هكذا في النّسخ الثلاث وعند (صبيروي)، ولعلها: «قبحها».

(٥) - «وسلم» في النّسخة (ب)، وفي النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٦) - «عليهم» في النّسختين (ب) و(ج).

(٧) في النّسخة (ب): «إلا».

(٨) في النّسخة (ج): «من».

(٩) أخرجه أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما بألفاظ قريبة، ج١١ ص٣٧٥ برقم ٦٧٦٣، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فصل
[في وجوب تعلّم العلم، وأجلّ أنواعه علم الزّهد والورع[1]]

ثمّ على المريد إن طالبته نفسه بتعلُّم[2] العلم أن يقصد إلى أجلّ العلوم وأسناها، فيتعلَّم[3] علم الزّهد[4] والورع[5]، و[6]المؤديان[7][8] إلى إصلاح المطعم والملبس الذي لا يصحّ لنبيّ ولا صدّيق ولا شهيد ولا بديل[9] ....

(١) في هذا الفصل تناول الشّيخ الكبير قضيّة الزّهد والورع المؤديين إلى تصفية المطعم والملبس وغير ذلك ممّا يحتاج إليه الإنسان في ضرورات معاشه، والزّهد والورع من المقامات الّتي تأتي عند الصوفيّة بعد التّوبة مباشرة. (راجع: السّرّاج الطوسيّ: اللّمع ص٧٠ و٧٢، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص٢٣٣ و٢٣٩، وأبو حفص السهرورديّ: عوارف المعارف ص٥٤٣ و٥٤٥).

(٢) في النّسخة (ج): «بتعليم».

(٣) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «بتعلم».

(٤) للزّهد تعريفات عدة عند الصّوفيّة منها تعريف ابن خفيف الّذي قال فيه: «الزّهد: سُلُوّ القلب عن الأسباب، ونفض الأيدي عن الأملاك، وحقيقة الزّهد: التبرم بالدنيا، ووجود الراحة في الخروج منها». (راجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج١٠ ص٣٦٠، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص٢٤١، ٢٤٢).

(٥) قال إبراهيم بن أدهم: الورع ورعان، ورع فرض، وورع حذر، فورع الفرض: الكفّ عن كلّ معاصي الله، وورع الحذر: الكفّ عن الشّبهات في محارم الله تعالى، فورع العامّ من الحرام والشّبهة، وهو كلّ ما كان للمخلق عليه تَبِعَة، وللشّرع فيه مطالبة، وورع الخاصّ مِنْ كل ما كان فيه الهوى وللنّفس فيه شهوة ولذة، وورع خاصّ الخاصّ مِنْ كلّ ما كان لهم فيه إرادة ورؤية. (انظر: عبد القادر الجيلانيّ: الغنية ج١ ص٢٥١، وراجع: السّرّاج الطوسيّ: اللّمع ص٧٠، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص٢٣٣).

(٦) - «و» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).

(٧) عند (صبيروي): «المؤديين».

(٨) + «ذلك» في النّسختين (أ) و(ج).

(٩) بديل: مفرد أبدال أو بُدلاء، وهم عند الصّوفيّة قوم من الصّالحين لا تخلو الدّنيا منهم، إذا مات واحد منهم أبدل الله تعالى مكانه. (راجع: ابن منظور: لسان العرب ج١١ ص٤٩، والرازيّ: مختار الصّحاح ص٣٠، وانظر من مصادر الصّوفيّة: الهجويريّ: كشف المحجوب ج١ ص٢٤٥، وابن عربيّ: الفتوحات المكيّة=

إلا بصحّته؛ إذ[1] كان مدار الدّين عليهما وقبول الطّاعات و[2]العبادات بهما، فإنّ تصفية القوت والملبس يؤديان التّائب المريد إلى الاستقامة في أداء الفرائض[3] والنّوافل[4]، فقد[5] قال النّبيّ[6] ﷺ[7]: «ومطعمه[8] حرام وملبسه حرام فأنّى يُستجاب له»[9]، وقد[10] قال ﷺ[11] لسعد: «إن أردت أن يجيب الله[12] دعوتك فَطَيِّب مطعمك»[13]، ....

=ج٢ ص٤١).

(١) في النّسخة (ب): «إذا».

(٢) - «الطاعات و» في النّسختين (أ) و(ج) وعند (صبيروي).

(٣) في النّسخة (ج): «الفرض».

(٤) في النّسخة (ج): «والنفل».

(٥) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «وقد».

(٦) - «النبي» في النّسخة (ج).

(٧) في النّسخة (ج): «عليه السلام».

(٨) في النّسخة (ب): «إذا كان مطعمه».

(٩) أخرجه الإمام مسلم في الصّحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب «الزّكاة»، باب «قبول الصّدقة من الكسب الطّيب وتربيتها»، ج٢ ص٧٠٣ برقم ١٠١٥، بلفظ: «...ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذِّي بالحرام، فأنّى يُستجاب لذلك؟».

(١٠) - «قد» في النّسخة (ب).

(١١) في النّسخة (ج): «عليه السلام».

(١٢) في النّسخة (ج): «إن أردت الله أن يجيب».

(١٣) أخرجه الطبرانيّ في الأوسط عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، ج٦ ص٣١٠ برقم ٦٤٩٥ (بتحقيق: طارق بن عوض الله وعبد المحسن بن إبراهيم، دار الحرمين - القاهرة)، بلفظ: «يا سعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة»، وفي سنده الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطي، قال ابن عديّ: يسرق الحديث منكر عن الثقات. (راجع: ابن عديّ: الكامل في ضعفاء الرّجال ج٣ ص١٨٧ (بتحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية - بيروت).

فكان[1] يُعْرَف في أصحابه[2] أنه مجاب الدّعوة، فقال: «ما دخل في[3] جوفي إلا ما علمتُ[4] من أين مخرجه»[5]، وهو رأس العبادة وسنام ذروتها.

وبذلك يجد المريد الزّيادة[6] في حاله، وبالإغفال عنها والمسامحة فيها طالت حيرته، وقَلَّتْ[7] بركته، وفَقَدَ الرَّوْح[8] والرّاحة في عبادته، وبالله التّوفيق.

(١) في النّسخة (ج): «وكان».

(٢) في النّسخة (ج): «الصحابة».

(٣) - «في» في النّسخة (ج).

(٤) - «ما علمت» في النّسخة (ج).

(٥) راجع: ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم ج١ ص٢٧٥، ففيه: روى عكرمة بن عمار: حدثنا الأصفر، قال: قيل لسعد بن أبي وقاص: تُستجاب دعوتك من بين أصحاب رسول الله ﷺ؟ فقال: «ما رفعتُ إلى فمي لقمة إلا وأنا عالم من أين مجيئها، ومن أين خرجتْ».

(٦) في النّسخة (ج): «زيادة».

(٧) في النّسخة (ج): «وقلة».

(٨) الرَّوْح والتَرَوُّح: نسيم تَنَسَّمُ به قلوب أهل الحقائق فَيَتَرَوَّح من تعب ثقل ما حُمِّلَ من الرّعاية بحسن العناية، قال يحيى بن معاذ: الحكمة جند من جنود الله يرسلها إلى قلوب العارفين حتّى تُرَوِّحَ عنها وهج الدنيا. (انظر: السّرّاج الطوسيّ: اللّمع ص٤٢٧، وراجع: القشيريّ: لطائف الإشارات ج٣ ص٥٢٧ (بتحقيق: إبراهيم البسيونيّ، الطبعة الثالثة، الهيئة المصريّة العامة للكتاب - مصر).

فصل
[في وجوب معرفة علم الإخلاص الّذي عليه مدار قبول القربات[1]]

ثمّ على المريد أن يعلم أنّه[2] لا يصحّ له ما ذكرنا من الأفعال إلا بتعرُّف[3] علم الإخلاص، فإنّ الله تعالى طالب العباد بذلك، وأوصل[4] على العبودية وداناها[5] بالإخلاص فقال ﷻ: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [البيّنة: ٥]، إذ لا يقبل الله تعالى[6] من القربات إلّا ما كان لله خالصًا، وهو[7] إفراد المقاصد لله وتصفية الأعمال عن رؤية الخلق[8].

(١) في هذا الفصل وعدّة فصول تليه يعالج الشّيخ الكبير قضيّة «الإخلاص» من حيث ضرورة تحقيق المريد له، وكيفيّة تحقيقه، ومجالاته المتعددة الّتي يدخل فيها، والقواطع الّتي يمكن أن تزيله بعد تحقيقه، وقد ضمّن ابن خفيف «وصيّته للمريدين» قضيّة الإخلاص حيث قال: «الثّامن: أن يوافق قلبه لسانه، التّاسع: أن يستعمل الصّدق في جميع أحواله وأقواله» (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٧/ ب)، وللاستزادة حول هذه القضيّة راجع: المحاسبيّ: الرّعاية لحقوق الله ص١٥٣:٣٠٦، وأبو طالب المكيّ: قوت القلوب ج٢ ص٢٦٧:٢٧٦، وابن فورك: الإبانة عن طرق القاصدين ص١٠١:١١١، والغزاليّ: الإحياء ج٤ ص٣٧٦:٣٨٦.

(٢) في النّسخة (ب): «أن».

(٣) في النّسخة (ج): «بتعريف».

(٤) في النّسخة (ج): «وواصل».

(٥) في النّسختين (ب) و(ج): «دانيها»، ومكتوب فوق الكلمة في النّسخة (أ): «أي قاربها»، وهو ما نُصّ عليه في معاجم اللّغة. (انظر مثلًا: ابن منظور: لسان العرب ج١ ص٦٦٦، والفيروزآباديّ: القاموس المحيط ص١٢٣).

(٦) – «تعالى» في النّسختين (أ) و(ج) وعند (صيبروي).

(٧) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صيبروي): «وهي».

(٨) هذا إخلاص العوامّ، أما إخلاص الخواصّ فأمر آخر، يقول أبو عثمان المغربيّ: «الإخلاص ما لا يكون للنّفس فيه حظّ بحال، وهذا إخلاص العوامّ، وأما إخلاص الخواصّ فهو ما يجرى عليهم لا بهم، فتبدو=

ولا يصحّ للمريد ذلك حتّى يصحّ له علم التّوحيد والمعرفة[1] بأوصاف الله، فيتحقّق: أنّه الضّارّ النّافع[2] المعطي المانع، وأنّ مقاليد السّموات والأرض بيده، فيكون القصد في إتيان العبودية طلب نواله والطّمع في غفرانه والفوز بجنته والهرب من أليم عقابه.

وأنّه القائم على كلّ نفس بما كسبت، مع معرفتك بمقادير الخلق وضعفهم وقلّة نفعهم وضرّهم وأنّهم لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا وأنّهم كما وصفهم: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا ۝﴾ [مريم: ٤٢]، فالخلق في[3] الحقيقة[4] كما وصفهم إبراهيم عليه السلام[5].

مع صحّة عقدك على ما خاطب رسول الله ﷺ[6] ابن عبّاس رضي الله عنهما[7] فقال: «يا غلام، اعلم[8] أنّه[9] لو اجتمع الأوّلون والآخرون على أن ينفعوك بشيء لم[10] يُقدِّره الله عليك ما قَدَرُوا[11] على ذلك»..،

=منهم الطّاعات وهم عنها بمعزل، ولا يقع لهم عليها رؤية ولا بها اعتداد». (القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج٢ ص٣٦٠).

(١) يقول الشّيخ الكبير: «المعرفة: مطالعة القلوب لإفراده عن مطالعة تعريفه، والتّوحيد: تحقيق القلوب بإثبات المُوَحد بكمال أسمائه وصفاته». (أبو نعيم: حلية الأولياء ج١٠ ص٣٨٦).

(٢) في النّسختة (ج): «والنافع».

(٣) - «في» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).

(٤) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «بالحقيقة».

(٥) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «ﷺ».

(٦) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٧) - «رضي الله عنهما» في النّسختين (ب) و(ج).

(٨) في النّسخة (ج): «واعلم».

(٩) في النّسخة (ج): «أن».

(١٠) في النّسخة (ب): «ولم».

(١١) في النّسخة (ب): «اقدروا».

ثمّ قال: «جفّ القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة»[(١)]، وأنّه ﷺ[(٢)] قال: «لا يجد أحدكم حلاوة الإيمان حتى يعلم أنّ ما أصابه لم يكن ليخطئه، وأنّ ما أخطأه لم يكن ليصيبه»[(٣)].

فتكون[(٤)] المقاصد مبنيّة على هذا العلم مع صحّة المعرفة بالحقّ[(٥)]؛ إذ يقول: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ [آل عمران: ٢٦]، مع صحّة العلم بمقدار المخلوقين وأنّهم[(٦)] لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا، فيصحّ الإخلاص على تيقُّظ القلوب على أوصاف المعبود، وبالله التّوفيق[(٧)].

---

(١) أخرجه الترمذيّ في السّنن عن ابن عبّاس رضي الله عنهما، ج٤ ص٢٤٨ برقم ٢٥١٦، بلفظ: «واعلم أنّ الأمّة لو اجتمعتْ على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرّوك بشيء لم يضرّوك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصّحف»، وقال: حسن صحيح، وكذا أحمد في مسنده ج٤ ص٤٠٩ برقم ٢٦٦٩.

(٢) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٣) أخرج أبو داود في سننه، كتاب «السُّنة»، باب «في القدر»، ج٧ ص٨٦ برقم ٤٧٠٠، عن أبي حفصة قال: قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بُنيّ إنّك لن تجد طعم حقيقة الإيمان حتّى تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنّ أوّل ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب، قال: ربِّ، وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كلّ شيء حتّى تقوم الساعة»، يا بُنيّ، إنّي سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ مات على غير هذا فليس مِنّي»، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن.

(٤) في النّسختين (ب) و(ج): «فيكون».

(٥) في النّسخة (ج): «الخلق»، وفي النّسخة (أ): «الخالق»، ثم صُوِّبَتْ على نحو ما هو مُثبت، وهو متوافق مع ما في النّسخة (ب).

(٦) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «أنهم»، وفي النّسخة (ب): «مع أنهم».

(٧) – «وبالله التوفيق» في النّسخة (ج).

فصل
[في وجوب معرفة أنّ الإخلاص فرضٌ خاصّة في التّوحيد]

ثمّ على المريد أن يعلم أنّ الإخلاص يجري على أوصاف مختلفة، وهو فرض في جميع العبوديات[1]، فأوّل الفرض الإخلاص في التّوحيد لقوله[2] ﷺ[3]: «من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنة»[4]، وقال ﷺ[5]: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده[6] وعبادة ربّه لا شريك له فارقها والله عنه راضٍ»، ثمّ قال ﷺ[7]: «وهو دين الله الّذي جاءت به الرّسل وبلّغوه عن ربّهم قبل هرج[8] الأحاديث واختلاف الأهواء»[9].

فالإخلاص في التّوحيد إفراد[10] المُوَحَّد[11] بكمال ما أخبر عن نفسه من أوصافه

---

(١) في النّسخة (ج): «العبادات».

(٢) في النّسخة (ب): «لقوله تعا».

(٣) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٤) أخرجه البخاريّ في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب «العلم»، باب «الحرص على الحديث»، ج١ ص٣١ برقم ٩٩، بلفظ: «أسعد النّاس بشفاعتي يوم القيامة، من قال لا إله إلا الله، خالصًا من قلبه، أو نفسه»، ومسلم في صحيحه عن عثمان رضي الله عنه، كتاب «الإيمان»، باب «من لقي الله بالإيمان وهو غير شاكٍّ فيه دخل الجنّة وحرم على النّار»، ج١ ص٥٥ برقم ٢٦، بلفظ: «من مات وهو يعلم أنّه لا إله إلا الله، دخل الجنّة».

(٥) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٦) - «وحده» في النّسخة (ج).

(٧) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٨) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «مرج».

(٩) أخرجه ابن ماجة في سننه عن أنس بن مالك رضي الله عنه، أبواب «السّنة»، باب «في الإيمان»، ج١ ص٤٩ برقم ٧٠، لكن قوله: «وهو دين الله الذي جاءت به الرّسل وبلّغوه...» هو من كلام أنس رضي الله عنه وليس من جملة قول النبي ﷺ، وقال شعيب الأرنؤوط في تخريج هذا الحديث: ضعيف الإسناد.

(١٠) في النّسخة (ب): «افراده».

(١١) في النّسخة (ب): «الموجد».

وأسمائه وصفاته[1] ممّا نطق به الكتاب وأخبر عنه الرّسول ﷺ[2][3]، وأنّه المتفرد بالعزّ والكبرياء[4] والقدرة والسّلطان والعظمة، الحيّ القيّوم[5] الّذي لا يموت، وأنّه ليس كمثله شيء وهو السّميع البصير، بلا تشبيه ولا تمثيل ولا تصوير ولا[6] مُقايسة ولا مُخايلة[7] ولا مُمازجة[8]، وأنه لا يُشَبَّه ولا يُوصَف[9] بالأعضاء المفصّلات ولا بالتراكيب المخترعات، ولا يوصف بالألسنة واللّهوات[10]، ولا يوصف بالسّكون والحركات، ولا بالزّوال والتنقيلات[11][12]، ....

(١) - «وصفاته» في النّسخة (ج)، وكذا في النّسخة (أ) لكنها أُثبت في هامشها، وهو متوافق مع ما في النّسخة (ب)، وعند (صبيروي): «من أوصافه وصفاته وأسمائه».

(٢) - «ﷺ» في النّسخة (ج).

(٣) يقول الشّيخ الكبير: «والأسماء والصّفات مأخوذة من السّمع، إمّا ما وصف الله به نفسه أو وصف به رسوله ﷺ أو أجمع المسلمون على صفته، لا تُؤخذ أسماؤه تلقيًا ولا قياسًا» (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص٢٧٢، ٢٧٣).

(٤) - «والكبرياء» في النّسخة (ج).

(٥) + «الحي» في النّسخة (أ).

(٦) في النّسخة (ج): «بلا».

(٧) يقول الشّيخ الكبير: «وهكذا جميع الأخبار الصّحيحة الّتي رويت في الصّفات، يعتقده إيمانًا وتسليمًا لا مُقايسة ولا مُفاتشة». (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص٢٧٧).

(٨) يقول الشّيخ الكبير: «وليس بمحلّ للحوادث ولا الحوادث محلّ له، ولا حالّ في الأشياء ولا الأشياء حالّة فيه، ولا يتجلّى في شيء ولا استتر بالحوادث» (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص٢٦٥، ٢٦٦).

(٩) - «ولا يوصف» في النّسخة (ج).

(١٠) يقول الشّيخ الكبير: «وأنّه شيء لا كالأشياء، وأنّه لا شبه له من خلقه....ولا هو جسم ولا عرض ولا جوهر» (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص٢٦٢: ٢٦٤).

(١١) في النّسخة (ب): «والتقلبات» وكذا أثبتها (صبيروي)، وفي النّسخة (ج): «والنقلات».

(١٢) يقول الشّيخ الكبير: «وأنّه ينزل إلى سماء الدنيا عند الأسحار بمعنى الصّفة لا بمعنى الانتقال» (ابن خفيف: المعتقد الصّغير ص٢٧٦).

إلهًا واحدًا أحدًا صمدًا فردًا[1]، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، وبالله التّوفيق[2].

(١) في النّسخة (ج): «فردًا صمدًا».

(٢) - «وبالله التوفيق» في النّسخة (ج).

فصل
[في وجوب تحقيق الإخلاص في العبوديّة]

ثمّ على المريد بعد[1] تصحيح العقود بإخلاص التّوحيد أن[2] يعلم[3] الإخلاص في العبودية الّذي قال: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ[4] عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، وإن كان التّوحيد من أجلّ العبوديات فهو خاصّ من قوله ﷺ[5][6].

فالإخلاص في العبودية تصفية[7] الأعمال عن[8][9] اذّكار[10] الخلق ورؤيتهم، وصحّة القصد فيما طالبك الحقّ به وندبك[11] إليه فرضًا وفضلًا[12] بإزالة المخلوقين وإسقاط

(١) - «بعد» في النّسخة (ج).
(٢) في النّسخة (ب): «وأن».
(٣) + «أن» في النّسخة (ج).
(٤) في النّسخة (ب): «فيعمل».
(٥) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».
(٦) يقصد أحاديث النّبيّ ﷺ الّتي خصّصتْ التّوحيد بضرورة الإخلاص فيه، والّتي سبق وذكر الشّيخ الكبير في الفصل السابق بعضًا منها، كقوله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصًا دخل الجنّة».
(٧) في النّسخة (ب): «تضفية».
(٨) في النّسخة (ج): «من».
(٩) + «ذكر» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).
(١٠) عند (صبيروي): «أذكار».
(١١) في النّسخة (ب): «ونديك».
(١٢) أي إنّ المريد ينبغي أن يحقق الإخلاص فيما طالب الله تعالى به العبد على سبيل الفرض، وكذا ما طالبه به على سبيل الفضل وهي النوافل، لأن النّوافل هي زيادة على الفرائض، فـ«الفضل» على الشيء هو الزيادة عليه. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٤ ص٥٠٨، وابن منظور: لسان العرب ج١١ ص٥٢٤).

المربوبين، فيكون الله[1] الغالب على قلبك في[2] مقاصدك عند التماس النّوال منه بعبوديتك، وتمنع[3] القلب[4] عن طلب[5] الجاه والرّفعة عند الخلق في عبوديتك له[6] حتّى يكون كما قال: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ[7] ﴿٩٩﴾﴾[8]، وبالله التّوفيق.

(١) - «الله» في النّسخة (ج).

(٢) في النّسخة (ب): «من».

(٣) في النّسخة (ب): «ويمنع».

(٤) في النّسخة (ب): «القلوب».

(٥) - «طلب» في النّسخة (أ).

(٦) - «له» في النّسختين (أ) و(ب).

(٧) عند (صبيروي): «سيهديني».

(٨) سورة الصّافات: ٩٩.

فصل(١)

[في وجوب تعلّم علم الإخلاص من أحوال المشايخ]

ثمّ على المريد أن يَتَفَقَّد علم الإخلاص من الحكماء(٢)، وأن يسعى بمقدار علمه(٣) في إخلاصه حين(٤) يُعَرِّفه الحكيم أنّ الإخلاص في الأوصاف، وأَجَلُّ ذلك إخلاص الهمّة عن المتفرقات، والخروج عن(٥) موافقة الصّفات، وترك موافقة النّفس عند مطالبتها، وترك مراعاة الخلق في منافعك، وإزالة الهمّ عنهم فيما أنت متصرّف فيها من أمر دنياك وآخرتك، فيكون الهمّ في الله همًّا واحدًا وأنّه المراد والمقصود ﷻ(٦).

وذلك أنّ(٧) الهمّة إذا خَلَتْ(٨) عن الأسباب(٩) ....

---

(١) - «فصل» في النّسخة (ب).

(٢) سبق أن ذكرنا أنّ المقصود من الحكيم في تعبير الشّيخ الكبير هم شيوخ التّصوّف العارفون بالله تعالى. (راجع: ص٢٨٣ هامش رقم (٦) من هذا الكتاب).

(٣) في النّسخة (ج): «علمهم».

(٤) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «حتى».

(٥) في النّسخة (ج): «من».

(٦) - «ﷻ» في النّسخة (ب).

(٧) - «أن» في النّسخة (ب).

(٨) في النّسخة (ب): «دخلت».

(٩) يستعمل الصّوفيّة مصطلح «الأسباب» في مقابل «تجريد الظّاهر» أي من هذه الأسباب، يقول ابن عطاء الله السكندريّ في حكمه: «إرادتك التّجريد مع إقامة الله إيّاك في الأسباب من الشّهوة الخفيّة، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إيّاك في التّجريد انحطاط عن الهمّة العليّة»، ويعلق ابن عجيبة على هذه الحكمة شارحًا المراد من التّجريد عند الصّوفيّة بما يظهر منه مقصدهم من الأسباب فيقول: «وأمّا عند الصّوفيّة فهو (التّجريد) على ثلاثة أقسام: تجرد الظّاهر فقط، أو الباطن فقط، أو هما معًا، فتجريد الظّاهر هو ترك الأسباب الدّنيويّة وخرق العوائد الجسمانيّة، والتّجريد الباطني هو ترك العلائق النّفسانيّة والعوائق الوهميّة، وتجريدهما=

طالع المكلوت[1] وقرب من المحبوب، وقد أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام فقال[2]: «أنزلني من نفسك كهمّك[3]، واجعلني ذخرًا لمعادك، وتقرب إليّ بالنّوافل أُدْنِكَ[4]، ولا تَوَلَّ غيري فأخذلك، كن يقظان[5] إذا نامت عيون الغافلين، وراعِ[6] اللّيل لِتَحَرِّي[7] مسرَّتي، وأظمأ[8] نهارك لليوم الّذي لك[9] عندي»[10].

فإذا منعت الهموم عن مراعاة طلب الحظوظ للنّفس[11] صفا الهمّ وطالع الغيب، وبتفرقها[12] في طلب حظّها يتشتّت[13] عليك الهموم ويتولّد عليك كثرة الغموم، ثمّ لم

=معًا هو ترك العلائق الباطنيّة والعوائد الجسمانيّة». (ابن عجيبة: إيقاظ الهمم في شرح الحكم ص٣٠، ٣١).

(١) «الملكوت» يطلق على عالم الغيب في مقابلة «الملك» الذي هو عالم الشّهادة. (انظر: ابن عربيّ: الفتوحات المكيّة ج٤ ص٢٠١، والكاشانيّ: اصطلاحات الصّوفيّة ص١٠٨).

(٢) - «فقال» في النّسخة (أ).

(٣) في النّسخة (أ) والنّسخة (ب): «الهمك».

(٤) في النّسخة (ب): «اذنك».

(٥) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «يقظانًا»، في النّسخة (ج): «يقضانًا».

(٦) في النّسختين (ب) و(ج): «وراعي».

(٧) في النّسختين (أ) و(ج): «التجري».

(٨) في النّسخة (ب): «واظماء».

(٩) في النّسخة (ج): «ذلك».

(١٠) أخرج نحوه ابن أبي الدّنيا بسنده في «الزّهد» ص٤٨ برقم ٦٣ عن صالح بن شعيب قال: أوحى الله ﷻ إلى عيسى ابن مريم....إلخ، وجزءًا منه بنفس السّند في «التّوكّل على الله» ص٥٩ برقم ٢٦، وأخرجه أبو نعيم في «الحلية» ج٦ ص٣٠١ بسنده عن عوسجة العقيليّ، وأخرج أحمد بسنده في «الزّهد» ص٧٦ برقم ٤٧٠ جزءًا منه بألفاظ قريبة عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

(١١) في النّسخة (ج): «للنفوس».

(١٢) في النّسخة (ب): «وتفرقها»، وفي النّسخة (ج): «وبتعرفها».

(١٣) في النّسخة (ج): «يتشيب»، وعند (صبيروي): «تتشتت».

يبالِ الله[1] في[2] أيّ[3] وادٍ هلك[4][5]، وبالله التّوفيق[6].

(١) - «الله» عند (صبيروي).

(٢) - «في» في النّسخة (ب).

(٣) في النّسخة (ب): «بأي».

(٤) في النّسخة (أ): «أهلك».

(٥) عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من جعل الهموم همًّا واحدًا كفاه الله همّ دنياه، ومن تشعبت به الهموم لم يبالِ الله في أيّ أودية الدّنيا هلك». (أخرجه الحاكم في المستدرك ج٢ ص٤٨١ برقم ٣٦٥٨، وقال الذهبيّ: صحيح).

(٦) - «وبالله التوفيق» في النّسخة (ب).

فصل
[في كيفيّة استعمال الإخلاص في العادات حتّى تصير عبادات[1]]

ثمّ على المريد استعمال الإخلاص في جميع أحواله حتّى في مأكله وملبسه وتصرُّفه[2]، فَيُخَلِّص الأكل عن حظّ النّفس فيكون آكلًا[3] للحقّ[4]، و[5]يمنعها عمّا[6] عليه لسان العلم.

فيفارق المناولة على الشَّرَه المتولِّد[7] من الطّبع[8]، ويفارق[9] التكالب[10] على أخذها عند منع النفوس عن حظّها بقوة الشّهوة الثّائرة من الطّبع عند طلب الطّيّبات ومطالعة اللّذات بأحكام الهوى بالاختيارات كما أجاز[11] ﷺ بقوله:

---

(١) يُطبّق ابن خفيف في هذا الفصل قضيّة الإخلاص في العادات حتى تصير عبادات على عادة «الأكل»، وللاستزادة حول آداب الصّوفيّة في المأكل انظر: السّرّاج الطّوسي: اللّمع ص٢٤٢:٢٤٧، والخركوشي: تهذيب الأسرار ص٢٥٠:٢٥٢، وأبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٣٦٣:، وأبو النّجيب السهروردي: آداب المريدين ص٤٩:٥٣.

(٢) يقول الإمام الجنيد: «بصفاء المطعم والملبس والمسكن يصلح الأمر كلّه» (السّرّاج الطوسي: اللّمع ص٢٤٤، والخركوشي: تهذيب الأسرار ص٢٥٠).

(٣) في النّسخة (ب): «أكل».

(٤) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «الحق»، وفي النّسخة (ج): «بحق».

(٥) - «و» في النّسخة (ج).

(٦) في النّسخة (ج): «عن ما».

(٧) في النّسخة (ب): «المتولدة»، وفي النّسخة (ج): «المولد».

(٨) في النّسخة (ب): «الطمع».

(٩) في النّسخة (ب): «وتفارق».

(١٠) في النّسخة (ج): «التكاليب».

(١١) في النّسخة (أ): «أخبر»، وصُوِّبَتْ في هامشها على نحو ما أثبتناه، وهو متوافق مع ما في النّسخة (ب)، وفي=

«إنّ لنفسك عليك حقًّا[1]»[2]، فيقصد إلى إعطاء[3] حقّها دون حظّها.

فأوّل ذلك أن يُصَفِّي[4] الطّعام من الحرام، ويُخَلِّصَه[5] من الشّبهات، ويقوم على المحدود من قوله ﷺ[6]: «ثلث للطّعام، وثلث للشّراب، وثلث للنَّفَس»[7]، وهو الاعتدال عند الحاجة على تقويم النَّفْس[8] على[9] أحكام السّياسة.

وتراعي[10] صحّة الوفاء فيما اعتقدت أنّك لا تأكل إلا لله دون نفسك، فتدخل في جملة من قال ﷺ: «ما يستر الرّجل عورته أو يسدّ به[11] جوعته أو بيت يواريه من القرّ

=النّسخة (ج): «أجاب».

(١) في النّسخة (ج): «حق».

(٢) أخرجه التّرمذيّ في السنن، عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه، أبواب «الزّهد»، ج٤ ص١٨٧ برقم ٢٤١٣، وقال: هذا حديث حسن صحيح.

(٣) في النّسخة (ج): «اعطاها».

(٤) في النّسخة (ج): «تصفي».

(٥) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «ويخلصها»، وفي النّسخة (ج): «وتخلصه».

(٦) في النّسخة (ج): «عليه السلام».

(٧) أخرجه التّرمذيّ عن مقدام بن معدي كرب رضي الله عنه، أبواب «الزّهد»، باب «ما جاء في كراهية كثرة الأكل»، ج٤ ص١٦٨ برقم ٢٣٨٠، بلفظ: «ما ملأ آدميّ وعاءً شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يُقمن صلبه، فإن كان لا محالة، فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه»، وقال: هذا حديث حسن صحيح، وأخرجه أحمد في مسنده عنه أيضًا، ج٢٨ ص٤٢٢ برقم ١٧١٨٦.

(٨) في النّسختين (ب) و(ج): «النفوس».

(٩) في النّسخة (ج): «علي».

(١٠) في النّسخة (ب): «ويراعي».

(١١) – «به» في النّسخة (ج).

والحرّ[1]»[2].

وأن لا يختار[3] عند[4] القدرة، وأن[5] لا يبسط[6] عند التّملّك بالأغذية الشهيّة[7]، بل يصرف الفضول[8] في وجوه القربة، ويقيم النّفس على منهج النبوّة[9] الّذي كان يربط على بطنه الحجر والحجرين[10] من الجوع[11][12]، فتُخَلِّص أكلك عن نفسك وتكون[13] لربّك خالصًا، وبالله التّوفيق.

(١) في النّسخة (ب): «من الحر والقر».

(٢) سبق تخريجه ص٣١٥.

(٣) في النّسخة (أ): «تختار»، وفي النّسخة (ج): «يجتار».

(٤) في النّسخة (ج): «عن».

(٥) - «أن» في النّسخة (ج).

(٦) في النّسخة (أ): «يتبسط».

(٧) في النّسخة (ج): «المشتهاة».

(٨) في النّسخة (ج): «الفصول».

(٩) - «ويقيم النفس على منهج النبوة» في النّسخة (ب).

(١٠) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «والحجر».

(١١) في النّسخة (ج): «الحجر والحجرين من الجوع على بطنه».

(١٢) عن جابر رضي الله عنه قال: لما حفر النّبيّ ﷺ وأصحابه الخندق أصابهم جهد شديد، حتى ربط النّبيّ ﷺ على بطنه حجرًا من الجوع (أخرجه أحمد في المسند ج٢٢ ص١٢٨ برقم ١٤٢٢٠، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط البخاريّ)، وعن أبي طلحة، قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن بطوننا عن حجر حجر فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين. (أخرجه الترمذيّ في سننه، أبوب «الزّهد»، باب «ما جاء في معيشة أصحاب النّبيّ ﷺ»، ج٤ ص١٦٣ برقم ٢٣٧١، وقال: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه).

(١٣) في النّسخة (ج): «ويكون».

فصل
[في كيفيّة استعمال الإخلاص في اللّباس أيضًا[1]]

ثمّ على المريد أن يستعمل الإخلاص في اللّباس كما استعمل ذلك في أكله، فيكون رجوعه إلى اللّباس بترك[2] الجمال ومحبة البذاذة[3]، وأن يقتصر على ما يؤدي به الفرض[4] ولا يُزْدَرَى[5][6] به عند الأغنياء و[7]لا يترفَّع[8] على الفقراء.

---

(١) للاستزادة حول آداب الصّوفيّة في اللّباس انظر: السّرّاج الطّوسيّ: اللّمع ص٢٤٨، والخركوشيّ: تهذيب الأسرار ص٢٥٣:٢٥٥، وأبو النّجيب السّهرورديّ: آداب المريدين ص٤٨، ٤٩، وأبو حفص السّهرورديّ: عوارف المعارف ص٣٦٣:٣٦٨.

(٢) في النّسخة (ج): «ترك».

(٣) البذاذة: رثاثة الهيئة (راجع: ابن منظور: لسان العرب ج٣ ص٤٤٧، والفيروزآباديّ: القاموس المحيط ص١٦٩)، وفي الحديث عن أبي أمامة، قال: ذكر أصحاب رسول الله ﷺ يومًا عنده الدّنيا، فقال رسول الله ﷺ: «ألا تسمعون، ألا تسمعون، إنّ البذاذة من الإيمان، إنّ البذاذة من الإيمان» يعني: التَّقَحُّل. (أخرجه أبو داود في السنن، أوّل كتاب «التّرجّل»، ج٦ ص٢٣٨ برقم ٤١٦١، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث حسن)، وليس المقصود من هذا ترك النّظافة وحسن الهيئة في اللّباس، وإنما المقصود «اطّراح الشّهوة في الملبس والإسراف فيه الدّاعي إلى التّبختر والبطر». (ابن عبد البرّ: الاستذكار ج١ ص٣٢٩، ٣٣٠ (بتحقيق: سالم عطا ومحمّد معوض، الطّبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، دار الكتب العلميّة - بيروت).

(٤) عند (صبيروي): «الغرض».

(٥) في النّسخة (أ): «يُزْرَى».

(٦) يقال: ازدرى يزدري ازدراء، والازدراء هو الاحتقار والانتقاص والعيب. (راجع: الأزهريّ: تهذيب اللّغة ج٨ ص٦٥ (بتحقيق: محمد مرعب، الطّبعة الأولى سنة ٢٠٠١م، دار إحياء التّراث العربيّ - بيروت).

(٧) + «أن» في النّسخة (ج).

(٨) في النّسخة (ب): «يرتفع».

ويحذر الشّهرة، فإنّه[1] قال ﷺ[2]: «من لبس ثوب شهرة أُلهب به في نار جهنّم»[3] أو كما قال[4]، ويقصد إلى ما[5] مدح رسول الله[6] ﷺ[7]: «من ترك ثوب جمال وهو قادر على أن يلبسه من حلال[8] كساه الله من حلل الكرامة يوم القيامة»[9].

فيأخذ[10] من اللّباس ما يدفع به[11] الحرّ والبرد بترك الزّينة، وأن يكون في جملة

(١) في النّسخة (ج): «وأنه».

(٢) في النّسخة (ج): «عليه السلام».

(٣) أخرجه أبو داود بألفاظ قريبة في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما، كتاب: اللّباس، باب: في لبس الشّهرة ج٦ ص١٤٣ برقم ٤٠٢٩، وابن ماجة في سننه عنه، أبواب: اللّباس، باب: من لبس شهرة من الثّياب، ج٤ ص٦٠١ برقم ٣٦٠٧ (بتحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، الطبعة الأولى سنة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م، دار الرسالة العالمية)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٤) - «أو كما قال» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).

(٥) - «يقصد إلى ما» في النّسخة (ج).

(٦) - «رسول الله» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).

(٧) في النّسخة (ج): «صلى الله عليه وآله».

(٨) - «من حلال» في النّسختين (ب) و(ج).

(٩) لفظ الحديث كما أخرجه التّرمذيّ في سننه، أبواب: صفة القيامة والرّقائق والورع عن رسول الله ﷺ، ج٤ ص٢٣١ برقم ٢٤٨١، عن سهل بن معاذ بن أنس الجهنيّ، عن أبيه، أنّ رسول الله ﷺ قال: «من ترك اللّباس تواضعًا لله وهو يقدر عليه دعاه الله يوم القيامة على رءوس الخلائق حتّى يُخيِّرَه من أيّ حلل الإيمان شاء يلبسها»، وقال التّرمذيّ: هذا حديث حسن، وأخرجه أحمد في المسند ج٢٤ ص٣٩٤ برقم ١٥٦٣١، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن، وأخرجه الحاكم في المستدرك ج٤ ص٢٠٤ برقم ٧٣٧٢، وقال الذهبي: صحيح.

(١٠) في النّسخة (ج): «ويأخذ».

(١١) - «به» في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).

العوامّ، ولا يقصد إلى لباس لم يسعه[1] حقيقته[2] إلى لبسها، فيكون متشبّعًا بما لم يُعْطَ[3]، فيتحلّى بما[4] ليس فيه ويتمنّى[5] أحوال الصدِّيقين، لقوله ﷺ[6]: «ليس الإيمان بالتّحلّي ولا بالتّمنّي[7] ولكن ما وقر في القلب وصدّقه العمل»[8]، فيكون لباسه بخمسة دراهم وشهوته وإرادته بعشرة دراهم، فتكون[9] علانيته أعلى من سرِّه، وذلك ساقط[10] من نعت[11] الصّادقين.

---

(١) في النّسخة (ج): «يسعه»، وكذا في النّسخة (أ)، ثم صوِّبت في هامشها على النّحو الذي أثبتناه، وهو متوافق مع ما في النّسختين (ب) و(ج).

(٢) في النّسخة (ج): «حقيقيه».

(٣) روي عن النّبيّ ﷺ أنّه قال: «المُتَشبِّع بما لم يُعطَ كلابس ثوبيّ زور». (أخرجه البخاريّ في الصحيح عن أسماء ﵂، كتاب «النكاح»، باب «المتشبّع بما لم ينل، وما ينهى من افتخار الضَّرَّة»، ج٧ ص٣٥ برقم ٥٢١٩، ومسلم في الصحيح عن عائشة ﵂، كتاب «اللّباس والزّينة»، باب «النّهي عن التّزوير في اللّباس وغيره والتّشبّع بما لم يعط»، ج٣ ص١٦٨١ برقم ٢١٢٩).

(٤) في النّسخة (أ): «ما».

(٥) في النّسخة (ب): «وتمنى».

(٦) في النّسختين (ب) و(ج): «ﷺ».

(٧) في النّسخة (ب): «بالتمني ولا بالتجلي»، في النّسخة (ب): «بالتمني ولا بالتخلي».

(٨) لم يثبت هذا الحديث مرفوعًا عن النّبيّ ﷺ من طريق صحيح، لكن رُوي معناه بسند جيّد عن الحسن البصريّ من قوله. (راجع: السيوطيّ: الجامع الكبير ج٧ ص٢٣٠ (بتحقيق: مختار الهائج وآخرون، الطّبعة الثّانية سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، الأزهر الشّريف - القاهرة)، وأحمد بن محمد الصديق الغماريّ: المداوي لعلل الجامع الصّغير وشرحي المناويّ ج٥ ص٣٣١ برقم ٢٨٩١ (الطّبعة الأولى سنة ١٩٩٦م، دار الكتبيّ - القاهرة).

(٩) في النّسختين (ب) و(ج) وعند (صبيروي): «فيكون».

(١٠) - «ساقط» من النّسخة (ب).

(١١) في النّسخة (ب): «صفات».

ويحذر في لباسه[1] التَّرفُّع على[2] الأنام فيدخل في قوله ﷺ[3]:

«ثلاثة[4] لا ينظر الله إليهم ولا يزكّيهم ولهم عذاب أليم: الشّيخ الزّاني، والإمام الكذّاب، والفقير المختال[5]»[6]، فيكون في لبسه[7] قاصدًا إلى أداء فرضه[8] وستر عورته وترك ما لا يليق بوصفه ولباسه، فيكون متواضعًا متذلّلًا منكسرًا[9][10] غير متكبِّر ولا مترفِّع[11] في لبسه.

(١) + «ترك» في النّسخة (ج).

(٢) في النّسخة (ب): «عن».

(٣) في النّسخة (ج): «عليه السلام».

(٤) عند (صبيروي): «ثلاث».

(٥) في النّسخة (ج): «المحتال».

(٦) أخرجه مسلم في الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه، كتاب «الإيمان»، باب «بيان غلظ تحريم إسبال الإزار»، ج١ ص١٠٢ برقم ١٠٧، بلفظ: «ثلاثة لا يكلّمهم الله يوم القيامة ولا يزكّيهم - قال أبو معاوية: ولا ينظر إليهم - ولهم عذاب أليم: شيخ زانٍ، وملك كذّاب، وعائل مستكبر»، وفي سنن التّرمذيّ، أبواب «صفة الجنّة»، ج٤ ص٢٧٩ برقم ٢٥٦٨، عن أبي ذرّ رضي الله عنه عن النّبيّ ﷺ: «والثلاثة الذين يبغضهم الله: الشّيخ الزّاني، والفقير المختال، والغنيّ الظّلوم»، وقال التّرمذيّ: هذا حديث صحيح.

(٧) في النّسخة (ج): «لباسه».

(٨) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «فرائضه».

(٩) في النّسخة (ب): «متكسّرًا».

(١٠) + «ليس» في النّسخة (ج).

(١١) في النّسخة (ب): «ترفع»، وعند (صبيروي): «يترفع».

وليحذر المريد أن لا[1] يغرّه[2] الشيطان بالإعجاب[3]، فيتطاول[4] على الأنام ويترفّع على نظرائه[5]، وأن يطالب بلبسه[6] نوالًا من عباده، أو يظهر في لباسه طمعًا لما في أيديهم، أو يُرِي بلباسه حقوقًا[7] له على خلقه، فيرجع في حاله إلى مقصود[8] سوى الله تعالى[9] فيزيله عن الإخلاص ويأوي بإرادته إلى[10] المخلوقين، وبالله التوفيق.

(١) - «لا» في النسخة (ج).

(٢) في النسخة (ج): «يغوه».

(٣) جاء في وصيّة ابن خفيف للمريدين: «الثاني والعشرون: إيّاه والكبر، وعلامة الكبر أن يزدري بأحد أو يستخفّ بالنّاس، الثالث والعشرون: إيّاه والعُجْب، وعلامة العُجْب أن يرضى بنفسه وعقله ولا يقبل من أحد شيئًا إذا نصحه». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٨/ أ).

(٤) في النسخة (أ): «فيطاول».

(٥) في النسخة (ب): «يظائره».

(٦) في النسخة (أ): «بلبسته».

(٧) في النسخة (ب): «حقوق».

(٨) في النسخة (ب): «مقصوده».

(٩) - «تعالى» في النسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي).

(١٠) في هذا الموضع وما يليه بكلمات تختلف النسخ الثلاث:

حيث الكلام في النسخة (ج) هكذا: «فيزيله عن الإخلاص ويأوي بإرادته إلى المخلوقين، وبالله التوفيق»، وهنا تنتهي معنا النسخة (ج) فقد سبق وبيّنّا أنّها نسخة منقوصة.

ويتواصل الكلام في النسخة (أ) على نحو ما هو مُثبت إلى آخر الكتاب.

أمّا النسخة (ب) ففيها فجوة حدثتْ بسبب أنّ النّاسخ أدخل النّصّ في بعضه، وقد جاء النّصّ فيها على هذا النحو: «فيزيله عن الإخلاص ويأوي بإرادته إلى (هنا محل الفجوة) أن ينظر إليه بأوصاف فترته ورجوعه.....»، وهذه الفجوة تجاوزتْ فيها النسخة (ب) حوالي (٧) لوحات من النسخة (أ).

لذا سنعتمد على النسخة (أ) في تحقيق هذا الجزء الذي تجاوزته النسخة (ب) وحدث فيه هذه الفجوة، وهو غير موجود في النسخة (ج) لكونها منقوصة.

فصل
[في وجوب معرفة تحذير الشّرع من أوصاف الفقير المختال[1]]

ثم يلزم المريد أن يعرف ما حذّر ﷺ من أوصاف الفقير[2] المختال إذ كان ذلك[3] الحال مطيّته وسجيّته ومطلبه، فيعلم أنّ شواهد الفقير[4] المختال هي التكبُّر بحاله على عباده، والترفُّع في نفسه على أشكاله، وأنّ الّذي أدّى الفقير إلى التكبّر والترفّع قلّة العلم لا محالة، ونظره إلى نفسه بعين الكمال وأنّه ليس هناك مستزاد، فرأى فضل فقره برؤية نفسه وشرف حاله أنّه لا مثل له في حاله، فأدّاه رؤية حاله إلى استعباد[5] الخلق وطالبهم بالانقياد له، فلم يَرَ لعالم لبيب ولا لحكيم أديب ولا لناسك خبير عنده مقدارًا، فتلاشى مقدار الخلق عند رؤية مقداره، فصار نظره إلى شرفه وعلوّ حاله مستغنيًا بها[6] ومستقلًّا بما هو فيه، فاستصغر الأنام مزريًا[7] بما يُعْطَى مستدعيًا لأكثر من ذلك، فيكون في حال أخذه متقلّلًا مزريًا بالمعطي غليظ القلب عليه لما يرى من التقصير منهم في حاله وأنّه لم يعرف مقداره كمعرفته بمقداره، فلا[8] بالقليل يشبع ولا بالكثير يشكر.

(١) جاء في نهاية وصيّة ابن خفيف للمريدين ما يتوافق مع مضمون هذا الفصل، وهو التّحذير من التباهي بالفقر، حيث يقول ابن خفيف: «ووصيّتي لكم حفظ العهد...وكتمان الفقر، والقعود للحقّ بلسان الحقّ في طريق الحقّ حتّى يصل للحقّ إن شاء الله تعالى». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٨/ ب).

(٢) عند (صبيروي): «الفقر».

(٣) عند (صبيروي): «ذاك».

(٤) عند (صبيروي): «الفقر».

(٥) في النّسخة (أ): «استبعاد»، وصوّبت في هامش النّسخة على نحو ما أثبتناه.

(٦) هكذا في النّسخة (أ) وعند (صبيروي).

(٧) اسم فاعل من أزرى، يقال: أزرى بالشيء إذا حقّره وهونّه. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٣ ص٥٢، وابن منظور: لسان العرب ج١٤ ص٣٥٦).

(٨) عند (صبيروي): «ولا».

فبرؤيته لنفسه يرى أنّ ما في أيدي النّاس حقّه، وأنّه المستحق بحاله، وهو بعين التخلّف إليهم ناظر، وبرؤية تقصيرهم مشاهد، فالغضب عليهم سجيّته، والحقد والغيظ منه لهم أرومته[1]، والبغضاء لهم في وهمه، والنظر إليهم بعين الإزراء صحبته[2]، والوقيعة واللّوم[3] لهم إرادته، وترك التّسليم عليهم نهمته، والرّدّ لجواب السّلام لهم غرامته، ومجالسته لهم خسارته، والنّظر إليهم بعين الشين والتقصير حالته، ولذلك عاقبه الله بترك النظر إليه[4] وقارنه[5] مع الزّناة في مخالفته.

فليحذر الفقير من المريدين من هذه الأوصاف أن لا تعارضه فيواقعها[6] فيهلك مع الهالكين، وبالله التّوفيق.

(١) الأرومة أصل كلّ شجرة، وأصل الحسب أرومة، وكذلك أصل كلّ شيء ومجتمعه. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج١ ص٨٥، وابن نظور: لسان العرب ج١٢ ص١٤).

(٢) عند (صبيروي): «محبته».

(٣) عند (صبيروي): «واللؤم».

(٤) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «إليهم».

(٥) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «وقارنهم».

(٦) في النّسخة (أ) وعند صبيروي: «فيواقعه».

فصل
[في وجوب الإخلاص في طلب العلم[1]]

ثمّ على المريد الإخلاص في كلامه عند إظهار علمه والإخبار عن أوصافه، فيكون القصد منه في طلب علمه وإظهار ذلك ونشره على عباده، وأن يكون في طلبه إرادة النّجاة وما يعود إليه نفعه.

فأوّل الإخلاص في طلبه علم ما يحتاج إليه في حركته وسكونه، وما هو مطلوب من عبادته[2]، ويراعي قوله ﷺ: «من طلب العلم ليماري به العلماء أو يجاري به السّفهاء أو ليصرف به وجوه النّاس إليه فهو في النّار»[3].

فيكون شغله في طلب معرفة الحلال من الحرام والحقّ من الباطل، وأن يُجعل مطيّته إلى الله بالنّجاة من عذاب الله، وأن لا يشتغل بطلب علم قد كفاه الله ﷻ أمره – وقد قام

---

(١) للاستزادة حول آداب الصّوفيّة في طلب العلم انظر: السّرّاج الطّوسيّ: اللّمع ص٢٣٨: ٢٤١، وأبو النّجيب السّهروردي: آداب المريدين ص٢٥: ٢٧.

(٢) جاء في وصيّة ابن خفيف للمريدين ما يتوافق مع هذا المعنى، حيث قال ابن خفيف: «الثالثة: أن يَتَعَلَّم من العلم ما يستعمل في وقته». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٧/أ).

(٣) أخرجه التّرمذيّ في سننه عن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنهما، أبواب «العلم»، باب «ما جاء فيمن يطلب بعلمه الدّنيا»، ج٤ ص٣٢٩ برقم ٢٦٥٤، بلفظ: «من طلب العلم ليجاري به العلماء أو ليماري به السّفهاء أو يصرف به وجوه النّاس إليه أدخله الله النّار»، وقال التّرمذيّ: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، وإسحاق بن يحيى بن طلحة ليس بذاك القويّ عندهم، تُكُلِّم فيه من قِبَل حفظه. ا.هـ وأخرجه ابن ماجة في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما، أبواب «السّنة»، باب «الانتفاع بالعلم والعمل به»، ج١ ص١٧٠ برقم ٢٥٣ (بتحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي)، بلفظ: «من طلب العلم ليماري به السّفهاء، أو ليباهي به العلماء، أو ليصرف وجوه النّاس إليه، فهو في النّار»، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره إن شاء الله.

به[1] من هو مطلوبه -، فيشغله عمّا هو أولى به من وأنفع له من طلب علم ما طالبه الله ﷻ في اللّيل والنّهار والسّر والجهار من أحكام مأكله وملبسه وصلاته وصيامه، وما هو مدفوع إليه من مراعاة نفسه وانتصاف[2] عدوّه ودواعيه، وما طالبه الله من صحّة التّوجُّه إليه، فإنّ في ذلك تأثيرًا في الإخلاص وضعفًا في الحقيقة، وأنت موصوف[3] بترك ما يعنيك ذاهب[4] لطلب[5] ما لا يعنيك، وقد قال ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»[6]، وبالله التّوفيق.

(١) - «به» في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، وأضفتها ليستقيم الكلام.

(٢) هكذا في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، ولعلها: «وأوصاف».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «موصوفًا».

(٤) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «ذاهبًا».

(٥) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «عن طلب».

(٦) أخرجه التّرمذيّ في سننه عن أبي هريرة ﷺ، أبواب «الزّهد»، ج٤ ص١٣٦ برقم ٢٣١٧، وقال: هذا حديث غريب، وأخرجه أحمد في المسند عن الحسين بن علي عن أبيه ﷺ، ج٣ ص٢٥٩ برقم ١٧٣٧، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن بشواهده.

فصل
[في وجوب الإخلاص في نشر العلم وإظهاره[1]]

ثمّ يلزم المريد أن يُخلص في نشر ما علم وإظهار ما فهم، فيحذر أن لا يعارضه عَرَض من الدّنيا[2] وطلب الجاه والرّفعة واستعطاف الخلق ورفع المنزلة، وأن يقفو آثاره، فقد قال ﷺ عن جبريل عن الله ﷻ فقال: «يا محمد بشّر أمّتك بالسّنا والرّفعة والنّصر[3] والتّمكين في الدّين، فمن عَمِلَ عَمَلَ الآخرة يريد به الدّنيا فليس له في الآخرة من نصيب»[4].

واعلم أنّ الله ﷻ قد ذمّ طالبي الدّنيا بالدّين وذمّ رسوله ﷺ، وقد حذّر الله ﷻ وحذّر رسوله ﷺ الوقوع في طلب الدّنيا بإظهار الدّين، وقد أخبر الله ﷻ عن الأمم ممّن كانوا يكتبون الكتاب بأيديهم ثمّ يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنًا قليلًا فويل لهم ممّا كتبت أيديهم وويل لهم ممّا يكسبون[5]، وقد قصّ الله ﷻ علينا أخبارهم وعرّفنا صفاتهم.

---

(١) للاستزادة حول آداب الصّوفيّة في نشر العلم انظر: الغزاليّ: الإحياء ج١ ص٥٨:٨٢، وأبو النّجيب السّهرورديّ: آداب المريدين ص٢٦، ٢٧.

(٢) ممّا جاء في وصيّة ابن خفيف للمريدين: «السابع عشر: إيّاه واستماع الكلام في الدّنيا». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٨/ أ).

(٣) في النّسخة (أ): «والنضر»، وعند (صبيروي): «واليقين».

(٤) أخرجه أحمد في المسند بألفاظ قريبة عن أُبَيّ بن كعب ﷺ، ج٣٥ ص١٤٧ برقم ٢١٢٢٤، وقال شعيب الأرنؤوط: حديث صحيح، وأخرجه الحاكم في المستدرك عنه أيضًا، كتاب «الرّقاق»، ج٤ ص٣٤٦ برقم ٧٨٦٢ (بتحقيق: مصطفى عطا، الطبعة الأولى سنة ١٤١١هـ - ١٩٩٠م، دار الكتب العلمية - بيروت)، وقال الذّهبي: صحيح.

(٥) قال الله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

كذلك مُظهر السّنة للدّعوة وأظهر الحكمة، وطلب بذلك المنزلة، وأراد الرّفعة والوصول إلى الدّنيا الدنيّة، فدخل في جملة من لم ينفعه الله بعلمه ومنه استعاذ ﷺ فقال: «وأعوذ بك من علم لا ينفع»(١)، وروي عنه أنّه قال ﷺ: «لا يكن(٢) أحدكم مثل السّراج يحرق نفسه ويضيء غيره»(٣)، و«لا يغرنّ أحدكم كثرة من حوله»(٤).

وليحذر المريد من تعلُّم المراء في الدّين والجدال(٥) في حال المنافقين، وينبغي للمريد أن لا يحترف بوصفه من العلم والحكمة، وأن لا يزري بغيره، وأن لا يصول بحاله، وأن يكون في نشر العلم ناصحًا لعباده غير طامع فيهم، ويكون في نشره مراعيًا لنفسه؛ خوفًا من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، عن زيد بن أرقم كتاب الذكر والدعاء والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل ج٤ ص٢٠٨٨ برقم ٢٧٢٢.

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «يكون».

(٣) أخرج الطّبرانيّ في المعجم الكبير ج٢ ص١٦٥ برقم ١٦٨١ عن جندب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَل العالم الّذي يعلّم النّاس الخير وينسى نفسه كمثل السّراج يضيء للنّاس ويحرق نفسه»، قال المنذريّ: وإسناده حسن إن شاء الله تعالى. (راجع: المنذريّ: التّرغيب والتّرهيب ج١ ص٧٤ برقم٢١٧).

(٤) أخرجه ابن المبارك بألفاظ قريبة في «الزّهد والرقائق» مرسلًا عن الحسن البصريّ عن رسول الله ﷺ ج١ ص٢٩٢ برقم ٨٥١ (بتحقيق: حبيب الرّحمن الأعظمي، دار الكتب العلميّة - بيروت، بدون)، وأحمد في «الزّهد» ص٢٢٠ برقم ١٥٣٩ (وضع حواشيه: محمّد عبد السّلام شاهين، الطّبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار الكتب العلميّة - بيروت) من كلام الحسن البصريّ بلفظ: «يرحم الله رجلًا لم يُغْره ما يرى من كثرة النّاس...».

(٥) يُفَرّق بين الجدال والمراء بأنّ المراء هو طعن في كلام الغير لإظهار خلل فيه، من غير أن يرتبط به غرض سوى تحقير الغير، والجدال عبارة عن مراء يتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها. (السّيّد الشّريف: التّعريفات ص٧٥، و٢٠٩، وانظر: الرّاغب الأصفهانيّ: المفردات في غريب القرآن ص١٨٩ و٧٦٦ (بتحقيق: صفوان عدنان الداوديّ، الطّبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ ط دار القلم، الدّار الشّامية - دمشق، بيروت).

الإعجاب بفعله، فيعارضه الترفّع على الأنام[1].

وليحذر أن لا يكون كما قال ﷺ: «أوّل من يدخل النّار ثلاث: القارئ والغازي والسّخيّ»، قال: «فيسأل القارئ ماذا أردت بقراءتك؟ فيقول: أن تكون كلمة الله هي العليا، فيقال له: كذبت، إنّما أردت أن يقال: فلان قارئ، وقد قيل ذلك، ثم يؤمر فيُسْحَب على وجهه في النّار»[2]، وبالله التّوفيق.

(١) ممّا جاء في وصيّة ابن خفيف للمريدين: «الثّاني والعشرون: إيّاه والكبر، وعلامة الكبر أن يزدري بأحد أو= =يستخفّ بالنّاس». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٨/أ).

(٢) أخرجه مسلم في الصّحيح عن أبي هريرة ﷺ، كتاب «الإمارة»، باب «من قاتل للرّياء والسّمعة استحق النّار»، ج٣ ص١٥١٣ برقم ١٩٠٥ بلفظ: «إنّ أوّل النّاس يُقضى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأُتِيَ به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: قاتلتُ فيك حتّى استشهدتُ، قال: كذبتَ، ولكنّك قاتلتَ لأن يقال: جريء، فقد قيل، ثمّ أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتّى أُلْقِيَ في النّار، ورجل تعلّم العلم، وعلّمه وقرأ القرآن، فأُتِيَ به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: تعلمتُ العلم، وعلّمته وقرأتُ فيك القرآن، قال: كذبتَ، ولكنّك تعلّمتَ العلم ليقال: عالم، وقرأتَ القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه حتّى أُلْقِيَ في النّار، ورجل وسّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كلّه، فأُتِيَ به فعرّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملتَ فيها؟ قال: ما تركتُ من سبيل تحبّ أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبتَ، ولكنّك فعلتَ ليقال: هو جَوّاد، فقد قيل، ثمّ أُمِرَ به فسُحِبَ على وجهه، ثمّ أُلْقِيَ في النّار».

فصل
[في وجوب الحذر من مراءاة الخلق وترك مراعاة الخالق[1]]

ثمَّ يلزم على المريد تَفَقُّد ما ورد من أخبار الرّسول ﷺ والتفقُّه فيها، فقد رُوي عن عديٍّ بن حاتم قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة بعث الله أناسًا من النّاس إلى الجنّة حتى إذا أُدنوا[2] منها ونظروا إلى ثمارها واستنشقوا من رائحتها وإلى ما أعدَّ الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها»، قال: «فيقولون: يا ربنا لو فعلت بنا هذا قبل أن تُرِيَنا ما رأيناه كان أسهل علينا، فيقول: هذا أردت بكم، كنتم إذا خلوتم بمحارمي بارزتموني بالعظام، هبتم النّاس ولم تهابوني، أجللتم النّاس ولم تُجِلُّوني، تركتم للنّاس ولم تتركوا لي، اليوم أذيقكم من عذابي مع ما حَرَمْتُكم من ثوابي»[3].

فاسمع يا أخي: فإنّه أظهر فيها أوصاف من أظهر الترك وكان بنعت المراءاة، وأنّه غلب على قلوبهم من تعظيم الخلق ما نَشَّزَهم عن تعظيم الله تعالى وإجلاله، وأخبر أنّهم هابوا النّاس فغابوا عن هيبة الله تعالى، وأنّهم كانوا مطالبين[4] بالتعظيم والهيبة لله، فيكون تركهم

---

(١) للاستزادة حول تحذير الصّوفيّة من الرّياء انظر: المحاسبيّ: الرّعاية لحقوق الله ص١٥٣: ٣٠٦، وابن فورك: الإبانة عن طرق القاصدين ص١٠٧: ١١، والغزاليّ: الإحياء ج٣ ص٢٧٤: ٣٣٥.

(٢) عند (صبيروي): «دنوا».

(٣) أخرجه الطبرانيّ في «المعجم الكبير» بألفاظ قريبة عن عديّ بن حاتم ج١٧ ص٨٥ برقم ١٩٩، وفي الأوسط عنه ج٥ ص٣٣٥ برقم ٥٤٧٨، والبيهقيّ في شعب الإيمان ج٩ ص١٣٨ برقم ٦٣٩٠، وغيرهم، وفي إسناده أبو جنادة وهو حصين بن مخارق، قال الدّارقطني: يضع الحديث، وقال ابن حبّان: لا يجوز الاحتجاج به. (راجع: الذهبيّ: ميزان الاعتدال ج١ ص٥٥٤ (بتحقيق: عليّ البجاويّ، الطبعة الأولى سنة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٣م، دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت).

(٤) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «مطلوبين».

لما أرادوا تركه[1] تعظيمًا وإجلالًا لله ﷻ، فقد أخبر أنّ الترك لكلّ ما لا يرضي الله ﷻ ترك[2] لغير الله، وما كان من المخالفات والموافقات، فكان ترك المخالفة خوفًا من الخلق كما وصفهم الله إذ يقول: ﴿لَأَنتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]، وما كان من الموافقات كان قصدهم فيها التماس الجاه والمنزلة.

فتركوا للخلق لا للخالق، وأظهروا ما كان الحقّ المستحقّ من عباده تعظيمًا وإجلالًا، فعظّموا مَنْ[3] صغّرهم الله في عبوديته، وأعرضوا عن تعظيم الله تعالى، وهذا الحديث خاصّ للمريدين وعامّ للمؤمنين، وبالله التّوفيق.

(١) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «تركها».

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «تركوا».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «ما».

فصل
[في ضرورة مراعاة أفضل الأوقات وهو اللّيل لطلب مرضاة الله تعالى[(١)]]

ثمّ على المريد في صدق دعواه وافتقاره في نجواه أن يراعي اللّيل لتحرّي مسرّة الله[(٢)]، فإمّا أن يكون نائمًا لله أو نائمًا بالله، وليحذر أن يكون نائمًا عنه، فقد ورد في مناجاة داود عليه السلام: «كذب من ادّعى محبّتي، فإذا جَنَّه اللّيل نام عني، أليس كل مُحِبٍّ يحبُّ خلوة حبيبه، ها أنا ذا مُطَّلع على قلوب أحبّائي، فإذا جَنَّهُم اللّيل تَمَلَّقُوني»[(٣)].

وذلك أنّ النّائمين لله هم القاصدون إلى أخذ النوم بُلْغَةً ليستعينوا بذلك على القيام في آخر اللّيل، حيث يظهر الحقّ بالدّعوة لعباده فيقول: «ألا من داعٍ فأستجيب له؟ ألا من

(١) للاستزادة حول آداب الصّوفيّة في التّعامل مع اللّيل والنّوم فيه راجع: أبو حفص السّهرورديّ: عوارف المعارف ص٣٧٢:٣٧٥، وأبو النّجيب السّهرورديّ: آداب المريدين ص٥٤، ٥٥.

(٢) مكتوب فوقها: «أي رضى الله»، وكلمة «رضى» ههنا تُكتب على هذا النحو وتكتب أيضًا: «رضا»، وهو الأكثر كما قال ابن قتيبة. (راجع: ابن قتيبة الدّينوريّ: أدب الكاتب ص٢٥٨ (بتحقيق: محمّد الدّاليّ، مؤسسة الرسالة، بدون).

(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» ج٨ ص٩٩ بألفاظ قريبة، وكذا الدّينوريّ في «المجالسة» ج١ ص٤٤٥ برقم ١٣٢ (بتحقيق: أبو عبيدة مشهور آل سلمان، طبعة جمعية التربية الإسلامية - البحرين، دار ابن حزم - بيروت، طبعة سنة ١٤١٩هـ)، وغيرهما من كلام الفضيل بن عياض، ورواه أبو الحسين الطّيوريّ في «الطّيوريات انتخاب السّلفيّ» ج٣ ص١٠٣٤ (دراسة وتحقيق: دسمان معالي وعباس الحسن، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م، مكتبة أضواء السلف - الرياض)، وكذا ابن عساكر في «تاريخ دمشق» ج٣٤ ص١٣٨ من كلام أبي سليمان الداراني، وذكره الغزاليّ في «الإحياء» ج٤ ص٣٣٣، وكذا الزمخشريّ في «ربيع الأبرار» ج٢ ص٢٦٧ (الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ مؤسسة الأعلمي - بيروت) على أنّه ممّا أوحى الله تعالى به إلى داود عليه السلام.

سائلٍ فأعطيه؟ ألا من مستغفرٍ فأغفر له؟»[1]، فكرهوا أن يكون محبوبهم يناديهم وهم عنه موتى في طيب الرّقاد على فرش المهاد.

وأما النائمون[2] به، فهم الّذين أيقظهم من نومهم لمعرفتهم بمن لا تأخذه سنة ولا نوم، فكانوا على إزالة ذلك منهم معتقدين أن لا يقصدوا إلى لذيذ الرّقاد طلبًا[3] للسّهاد[4]، فورد النّوم عليهم بلا اختيارهم[5]، وهم الممدوحون بقوله: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، ثمّ قال: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾﴾ [الفرقان: ٦٤]، فهم على طيب المناجاة وَوَرَدَ عليهم النّوم فناموا في سجودهم، قال: فيقول الله ﷻ: «عبدي ساجد وروحه عندي»[6].

---

(١) أخرج نحوه البخاريّ في الصّحيح عن أبي هريرة ﷺ، كتاب «التّهجّد»، باب «الدّعاء في الصّلاة من آخر اللّيل»، ج٢ ص٥٣ برقم ١١٤٥، ومسلم في الصّحيح عنه، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»، باب «التّرغيب في الدّعاء والذّكر في آخر اللّيل، والإجابة فيه»، ج١ ص٥٢١ برقم ٧٥٨.

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «النائم».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «طالبًا».

(٤) السُّهَادُ: قلّة النوم، وهو نقيض الرقاد. (ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٣ ص١٠٨، وابن منظور: لسان العرب ج٣ ص٢٢٤).

(٥) في وصيّة ابن خفيف للمريدين: «ولا ينام حتّى يغلب عليه». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٧/ ب).

(٦) روى نحوه البيهقيّ في «الخلافيّات» من حديث أنس، وفيه داود بن الزبرقان وهو ضعيف، وروي من وجه آخر عن أبان عن أنس، وأبان متروك، ورواه ابن شاهين في «النّاسخ والمنسوخ»، من حديث المبارك بن فضالة، وذكره الدارقطنيّ في «العلل»، من حديث عبّاد بن راشد، كلاهما عن الحسن، عن أبي هريرة، قال: وقيل: عن الحسن بلغنا عن النبي ﷺ، قال: والحسن لم يسمع من أبي هريرة، انتهى، وعلى هذه الرواية اقتصر ابن حزم، وأعلّها بالانقطاع، ومرسل الحسن أخرجه أحمد في «الزّهد»، وروى ابن شاهين عن أبي سعيد معناه، وإسناده ضعيف. (ابن حجر العسقلانيّ: التلخيص الحبير ج١ ص٢١٢ (بتحقيق: أبو عاصم حسن بن عبّاس، الطّبعة الأولى سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م، مؤسسة قرطبة - مصر).

ولا يكون ممّن نام عنه قصدًا إلى طيب الرّقاد، قد تخلّص من بلاء النّهار وتعب الغفلات وكثرة الهفوات وركوب الزلّات، ممتلئًا من الموبقات، قد أثّر في الفرائض الموظّفات، قد نسي ذكر الله ﷻ في حال رقاده، نام على غير وضوء، كلما انتبه كره وُرُودَ النّهار، لم يُشبع من النّوم وَطَرَه، ولا أخذ منه[1] أرَبَه، فإذا انتبه أصبح قد بال الشيطان في أذنه[2]، كسلان تعس النّفس.

(١) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «منها».

(٢) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: ذكر عند النّبيّ ﷺ رجل، فقيل: ما زال نائمًا حتّى أصبح، ما قام إلى الصّلاة، فقال: «بال الشّيطان في أذنه». (أخرجه البخاريّ في الصّحيح، كتاب «التّهجّد»، باب «إذا نام ولم يُصلّ بال الشّيطان في أذنه»، ج٢ ص٥٢ برقم ١١٤٤، ومسلم في الصّحيح، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»، باب «ما روي فيمن نام اللّيل أجمع حتّى أصبح»، ج١ ص٥٣٧ برقم ٧٧٤، واللفظ للبخاريّ).

فصل
[في ضرورة اتّصاف المريد بأسنى الأحوال وأعلى المقامات[1]]

ثمّ على المريد استعمال الصدق فيما أعطى من نفسه[2]، و[3]أن يتلبّس بثوب[4] الحُرِّيَّة[5] بإسقاط الرّغبة عن[6] قلبه، وأن يشتمل بثوب الزّهد الذي يُسْقِط عنه ثوب المذلَّة، ويراعي القناعة لتصحيح حاله بإسقاط ثوب الزّيادة، ويعمل في التحرِّي باليسير من البُلْغَة، ويتجافى عن حالة الشَّرَه، ويطوي بطنه لجاره باستعمال الجوع وطلب الإيثار ليظفر بالكرم، ويختار التَقلُّل ليريح نفسه عن تعب الطّلب خوفًا من النزول في أوساخ النّاس، ويقمع التكالب بشدّة المجاهدة ليستريح من كثرة الغموم، ويُفني دواعي نفسه بالإمساك عن الأَشَر والبَطَر[7]، ويعمل في إزالة مطالبتها وترك دواعيها التي تستر القلوب

---

(١) سبق وأشار ابن خفيف في مواضع سابقة إلى ضرورة مجاهدة المريد نفسه مطالبًا إيّاه بالأخذ بالعزائم وترك الرّخص، وبقهر النّفس بركوب معالي الأمور وترك سفاسفها، وفي هذا الفصل يعود للتأكيد على تلك القضية لكن مع ضرب الأمثلة.

(٢) في وصيّة ابن خفيف للمريدين: «أن يستعمل الصّدق في جميع أحواله وأقواله». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٧/ ب).

(٣) - «و» في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، وأضفتها ليستقيم الكلام.

(٤) عند (صبيروي): «من ثوب».

(٥) الحريّة عند الصّوفيّة إشارة إلى نهاية التّحقُّق بالعبودية لله تعالى، وهو أن لا يملكك شيء من المكوّنات وغيرها، فتكون حرًّا إذا كنتَ لله عبدًا. (السّرّاج الطّوسيّ: اللّمع ص٤٥٠، وراجع: القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج٢ ص٣٧١:٣٧٣).

(٦) عند (صبيروي): «من».

(٧) في الحديث: «سيصيب أمتي داء الأمم» فقالوا: يا رسول الله، وما داء الأمم؟ قال: «الأشر والبطر والتكاثر والتناجش في الدّنيا والتّباغض والتّحاسد حتّى يكون البغي» (أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه ج٤ ص١٨٥ برقم ٧٣١١، وقال: صحيح الإسناد ووافقه الذهبي)، وفي «فيض القدير»: «(الأشر)=

عن رؤية ضمان الله ﷻ، فقد قال ﷺ: «ما مُلِئ وعاء شرّ من بطن ابن آدم، حسبه لُقيمات يُقمن صلبه، فإن كان ولا بُدَّ، فثلث للطّعام وثلث للشّراب وثلث للنَّفَس»[1]، وقد صرَّح بالدّعوة تحريضًا[2] فقال[3]: «إذا سَدَدتَ كلب الجوع عنك برغيف وكوز من الماء[4] القَراح[5] فعلى الدّنيا الدَّمار[6]»[7]، وبالله التّوفيق.

=أي كفر النّعمة (والبطر) الطّغيان عند النّعمة وشدة المرح والفرح وطول الغنى». (المناويّ: فيض القدير ج٤ ص١٢٥).

(١) سبق تخريجه ص٣٣٢.

(٢) عند (صبيروي): «تعريضًا».

(٣) عند (صبيروي): «فيقال».

(٤) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «ماء».

(٥) عند (صبيروي): «الفرات».

(٦) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «الدبار»، وفي هامش النّسخة (أ): «أي الخسار والهلاك».

(٧) قال العراقيّ: حديث «إذا سددتَ كلب الجوع برغيف وكوز من الماء القراح فعلى الدّنيا وأهلها الدّمار» أخرجه أبو منصور الدّيلميّ في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة بإسناد ضعيف. (العراقيّ: المغني عن حمل الأسفار ص٩٧٨ (الطبعة الأولى سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، دار ابن حزم - بيروت).

فصل
[في وجوب كبح جماح النّفس عن طلب الفضول في أمور الدّنيا[1]]

ثمّ على المريد إذا أراد الدّخول فيما وصفت لك أخذه بزمام نفسه، فألبسه ثوب إخراج الرغبة، والنّظر في مخارج المطعم والملبس، وأن لا يُهمل نفسه بالتسوُّف والأمانيّ، بل يُسارع فيما اعتقد، ويزمّ[2] نفسه عن الاتساع في المأكولات بانزمام الهمّة في تناوله[3] الشّهوات.

وأن يراعي قَوْلَه من الشَّرَه والسّؤال للفضولات[4]، مع شهوده أنّ أهل الدّار من المُتْرَفين وأهل الأسواق من الكاسبين وأهل التّقوى من الناسكين وأهل العلم من المُتبحرين إنّما صانوا نفوسهم باستعمال التّقلُّل، وَوُصِفُوا برفض الفضول، ونُقِلَتْ

---

(١) حذَّر الصّوفيّة المريد أيّما تحذير من طلب الفضول والزّيادات عن حدّ الضرورة، حتّى قال أبو حفص السّهرورديّ: «إنّ كل شيء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حدّ الضرورة جرّ إلى الفضول، ثم يجرّ إلى تضييع الأصول، قال سفيان: إنّما حُرِموا الوصول بتضييع الأصول.ا.هـ فكلّ مَنْ لا يتمسك بالضّرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطّعام والشّراب والنّوم، ومتى تعدّي الضّرورة تداعتْ عزائم قلبه، وانحلّتْ شيئًا بعد شيء»، قال سهل بن عبد الله: مَنْ لم يعبد الله اختيارًا يعبد الخلق اضطرارًا، وينفتح على العبد أبواب الرّخص والاتّساع، ويهلك مع الهالكين.ا.هـ». (أبو حفص السّهرورديّ: عوارف المعارف ص٥١٠، وراجع: أبو طالب المكيّ: قوت القلوب ج٢ ص٢٨١، والغزاليّ: الإحياء ج٤ ص٢٣٠).

(٢) زَمَّ الشيء يَزُمُّه زمًا فانزَمَّ: شَدَّهُ، والزِّمامُ: ما زُمَّ به، والجمع أَزِمَّة. (ابن منظور: لسان العرب ج١٢ ص٢٧٢، وراجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٣ ص٥).

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «مناولة»، وصوِّبت فوقها في هامش النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٤) في وصيّة ابن خفيف للمريدين: «العاشر: أن يضبط بطنه ولسانه...وإذا كان كثير الكلام فإنّه لا يسكن قلبه بذكر الله تعالى ومراقبته، فإنّ معصية اللّسان أكثر من سائر المعاصي». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٧/ ب).

صفاتهم في دواوين العلماء بانقطاعهم عن الدّنيا وأسبابها وترك مداخلة أبناء الدّنيا وطلّابها، وأنّهم[1] أهلكهم طلب فضول الدّنيا وأوساخها، وعامّة من غلب عليه الهلاك من اتّسع فيها[2]، قال ﷺ: «من وُقِيَ شر ما بين لَحْيَيْه وفخذيه ضمنت له الجنّة»[3].

فصار القرّاء[4] أذلّاء عند أبناء الدّنيا وأهل الأسواق، هلكى في طلب حطام الدّنيا، وأهل الجدّة والأغنياء فقد أهلكهم طلب الإكثار لزوائد مائدة ولباس فاخر، فصاروا هالكين ولطلب الازدياد والهِين، وأهل الأكساب متآلفين، والقرّاء طامعين، وكُلّهم عن الله ذاهبين، وبالله التّوفيق[5].

(١) عند (صبيروي): «وانما».

(٢) عند (صبيروي): «فيما».

(٣) أخرجه البخاريّ في الصّحيح عن سهل بن سعد ﷺ، كتاب «الرّقاق»، باب «حفظ اللسان»، ج٨ ص١٠٠ برقم ٦٤٧٤ بلفظ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنّة».

(٤) يظهر من الكلام السابق أنّ المقصود بـ«القرّاء» هنا «أهل العلم».

(٥) في حاشية هذا الفصل كتب النّاسخ: قال عليه الصلاة والسلام فيمن ترك الحفظ لهما فقال ﷺ: «من وُقِيَ شر لَقْلَقه وقَبْقَبه وذَبْذَبه فقد وُقِيَ شرًا عظيمًا». (قال العراقيّ: أخرجه أبو منصور الديلميّ من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ «فقد وجبت له الجنّة». (العراقيّ: المغني عن حمل الأسفار ص٩٩٦).

وبيّن النّاسخ علام بعود الضّمير في قوله «ترك الحفظ لهما» فكتب فوقها: «أي البطن واللّسان»، وبيّن المراد من «القلقه» في الحديث فكتب تحتها: «لسانه»، وكذا بيّن المراد من «قبقبه» فكتب تحتها: «البطن»، وأيضًا بيّن المراد من «ذبذبه» فكتب تحتها: «الذَّكَر».

فصل
[في ضرورة معرفة أوصاف الفرق المختلفة والتّجافي عن الهالكين والتّشبّث بالنّاجين[1]]

ثمّ على المريد مطالعة ما رسمتُ من أوصاف الفِرَق على اختلاف إرادتهم وكثرة رغبتهم، وكيف أخرجهم إلى الهلاك، ويعرف السبب الموجب لهم من الوقوع في هذه البليّات، فيشتمل بثوب التجافي ومفارقة أوصاف أهل البلاوي، ويطلب أوصاف أهل العوافي، بمطالعة الدّار الفانية وذهابهم عن الدّار الباقية، وما قد دُفعوا إليه من التّعب والنّصب، فيعمل في طلب الراحة ويركب مطيّة التقلّل ورفض ما فيها.

فيكون العلم بأهل الدّار ومن فيها مطيّته، والزّهد والورع سجيّته، والقناعة والتّقلّل حليته، وطلب الزلفى[2] والرّغبة في الله إرادته، وطلب العافية وترك التّعرض للبلاء نهمته، وقصر الآمال والخروج من الدّنيا أرومته، والاكتفاء بالله والاستعانة به حقيقته، وترك مداخلة أبناء الدّنيا والطالبين لها صناعته، وعند استعمال ما وصفتُ لك همّته، وإسقاط الفضول من القول ومصاحبة[3] الطّالبين لبسته.

وبذلك طاب عيشه، وسمحت نفسه، واستجابت[4] أطواره[5]، وزَكَتْ أفعاله، وخَفَّتْ

---

(١) راجع في هذه القضية: أبو حفص السهروردي: عوارف المعارف ص٤٦٦، وأبو النجيب السهروردي: آدبا المريدين ص٤٤، وابن قدامة المقدسي: مختصر منهاج القاصدين ص٩٩، ١٠٠، وابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص١٢٨.

(٢) عند (صبيروي): «الزلفة».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «ومطالبة»، وصوِّبت في هامش النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٤) مكتوب فوقها في النّسخة (أ): «أي تناسبت».

(٥) مكتوب فوقها في النّسخة (أ): «أحواله».

مؤنته، وسَلِم المسلمون من لسانه ويده، وأعرض عن كثير من أشكاله لاستدامة شغله ومراعاة حاله، وأعرض بالكلّية عن دار جعلها الله سجنًا لأوليائه وجنّة لأعدائه[1]، واستحيى من الله تعالى أن يطّلع على قلبه وهو عاكف على ما أبغض الله وطالب لما لم ينظر الله إليه، فأعرض عنهما واكتفى بربّه ﷻ، وبالله التّوفيق.

(١) في الحديث الشريف: «الدّنيا سجن المؤمن، وجنّة الكافر». (أخرجه مسلم في الصّحيح عن أبي هريرة ﷺ، كتاب «الزّهد والرّقائق»، ج٤ ص٢٢٧٢ برقم ٢٩٥٦).

فصل
[في وجوب الحذر من الاغترار بالشّهرة وثناء النّاس[1]]

ثمّ يلزم[2] المريد أن يحذر عند انتشار ذكره وإظهار نسبته، وإذا عُرف عند الخاصّ والعامّ عند ظهور حاله إذا وُصِفَ بالأحوال السَّنيّة، ومُدَّت إليه الأبصار، وأشاروا إليه بالأصابع، وبذلوا له الأموال من كل ناحية، وأبيح له الأملاك سرًّا وعلانية، وخرجت الألسنة بالثّناء عليه، فيحفظ نفسه ويُراعي سرَّه، ويلزم الوفاء بصدق أهل حاله من صحّة القصد فيما أعطاه الله من نفسه من الأحوال الّتي بها أوصله إلى هذه المنزلة الرّفيعة[3] والمقامات السّنيّة، فإنّه أوان اختباره وصدق مطالبة الحقّ فيما أعطاه من القيام بالعبودية وإسقاط الخليقة من قلبه، وأن لا يجنح إلى الدّنيا الدّنيّة فإنّها قبلت بتركها، وأظهر الله شأنه في التّجافي عنها، ويُراعي قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ﴾ إلى قوله: ﴿لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٣، ٢٤][4]، ويُطالع أحكام غيبه في الامتحان.

ويحذر الركون إلى التّأويل الّذي أهلك أهل زمانه من المنسوبين إلى التّقوى من أهل نحلته، والفاترين من أهل قضيّته، والناكثين بعهده، ويعمل في تضاعيف ذلك كثرة اللّياذ وإظهار الفقر والاعتذار والتّنصُّل بالأسحار، مع دوام الاستغفار، وأن يستعيذ بالله من شرّ

---

(١) راجع في قضية التحذير من ثناء النّاس على الشّخص ومدحه: الغزاليّ: الإحياء ج٣ ص١٦١، وابن القيّم: مدارج السالكين ج٢ ص٨ (بتحقيق: محمّد المعتصم بالله، الطّبعة الثّالثة سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي - بيروت)، وابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص٥٢، ٥٣.

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «ثم على»، وصوِّبت في هامش النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «والرفعة»، وصوِّبت في هامش النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٤) قال تعالى: ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا ۝ لِّيَجۡزِيَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدۡقِهِمۡ﴾.

نفسه، وأن يسأل الله أن لا يردّه إليها طرفة عين فيكون من الهالكين، وأن يستعين بالله في إخماده وإقماعه، وأن يُكثر الافتقار وطرح الكنف عند العزيز الغفّار، وليعلم أنّه أوان بلائه ومطالبة اختباره وإظهار صدقه وإخلاصه، وبالله التّوفيق.

فصلٌ
[في وجوب اليقين بأنّه لا يُترك سُدًى بل عليه رقيب وحسيب[1]]

ثمّ على المريد الصادق أن يعلم أنه لا يُترك سُدًى، وأنه[2] يُستَخرَج منه صدق ما أُعْطِي من قيام الحال بصدق الوفاء، وأنّ الله ﷻ قد أخبر بقوله: ﴿الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝﴾ [العنكبوت: ١:٣]، فكلّ مَنْ ظنّ ذلك أو سبق إلى قلبه أنّه لا يُستخرج منه حقيقة ما ادّعى فهو مفتون، وأشار إليه قول الله تعالى: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ۝﴾ [القيامة: ٣٦]، وأن لا يُبتلى ولا يُطالب بحقيقة ما أعطى من نفسه في حال العوافي بانقلاب الأعيان[3] من[4] التّلوين[5] والتّغيير[6].

---

(١) في هذا الفصل والفصل الذي يليه يتناول الشّيخ الكبير بعض الابتلاءات الّتي تعرض للمريد من نحو ثناء النّاس عليه ومدحهم له وكذا تغيُّر معاملتهم له بالهجر والابتعاد عنه، ومن خلال هذه الابتلاءات يظهر صدق إخلاص المريد في أحواله.

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «وأن».

(٣) هكذا في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، ولعلها: «العادات»، لاحِظ قوله في الفصل القادم: «وتلوين الأحكام وتغاير الألسنة وانقلاب العادات من الخلق...».

(٤) هكذا في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، ولعلّها واو العطف، لاحِظ ما ذُكر في الهامش السّابق.

(٥) التّلوين عند الصّوفيّة معناه تَلَوُّن العبد في أحواله، فمن أشار إلى تلوين القلوب وتَغَيُّر الأحوال قال: علامة الحقيقة رفع التّلوين، ومن أشار إلى تلوين القلوب والأسرار الخالصة لله تعالى مشاهدتها وما يَرِد عليها من التّعظيم والهيبة وغير ذلك من تلوين الواردات قال: علامة الحقيقة التّلوين. (راجع: السّرّاج الطّوسيّ: اللّمع ص٤٤٣، وانظر: القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص١٨٩، وأبو حفص السّهرورديّ: عوارف المعارف ص٥٠٦).

(٦) عند (صبيروي): «والتغير».

فعليك أيُّها المريد أن تراعي صدق الحال، وأن تتلبّس بثياب[1] الأكياس[2]، وتلزم الحال، وتعمل لما بعد الموت[3]، وتحفظ وتعلم ما أوصله الحقّ إلى مُحبّيه، وتهتف بصوت الرعاية وإلزام المجاهدة على نفسك[4]، فتدعوها[5] إلى الله تعالى[6].

ويحذر أن لا يقف مع المادحين[7] له، وأن لا يغترّ بالمُثنين عليه، وأن لا يُعرض عن معرفة نفسه بقول المُجاملين؛ لأن ما يُرى من نفسه خلاف ما خفي منه على الناظرين، فليس[8] الخبر كالمعاينة، وأن لا يُصغي إلى قول مَنْ أثنى عليه[9] لحظة ومَنْ لا يراعي لسانه، فإنّ المغرور مَنْ أعرض عن نفسه بأقاويل خلقه، وبالله التّوفيق.

---

(١) عند (صبيروي): «بثوب».

(٢) جاء في معجم «مقاييس اللغة»: «(كَيَسَ) الكاف والياء والسّين أصل يدل على ضمّ وجمع، من ذلك الْكِيس، سُمي لِمَا أنه يضمّ الشيء ويجمعه، ومن بابه الْكَيْسُ في الإنسان: خلاف الْخُرْق، لأنه مجتمع الرأي والعقل، يقال: رجل كَيِّس ورجال أكْيَاس». (ابن فارس: مقاييس اللغة ج٥ ص١٤٩، وراجع: ابن منظور: لسان العرب ج٦ ص٢٠٠).

(٣) في الحديث: «الكيّس من دان نفسه وعمل لِمَا بعد الموت، والعاجز من أتْبَع نفسه هواها وتمنّى على الله». (أخرجه التّرمذيّ في سننه عن شداد بن أوس ﷺ، أبواب «صفة القيامة والرّقائق والورع عن رسول الله ﷺ»، ج٤ ص٢١٩ برقم ٢٤٥٩، وقال: هذا حديث حسن).

(٤) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «نفسه».

(٥) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «فيدعوه».

(٦) – «تعالى» عند (صبيروي).

(٧) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «المداحين»، وصوّبت في هامش النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٨) عند (صبيروي): «وليس».

(٩) في النّسخة (أ): «أثناه»، وصوّبت في هامش النّسخة (أ) وعند (صبيروي) على نحو ما أثبتناه.

فصل
[في وجوب الثّبات على الوفاء بعهد الله والتّسليم لِحُكمه وإن تغيّرتْ معاملة الخلق]

ثمّ ليحذر المريد عند دعواه فيما يرضي الحقّ من بلواه أن لا يحجبه عن الله ﷻ عند تلوين الأحكام، وتغاير الألسنة، وانقلاب العادات من الخلق، عندما يُبدل الله من الثّناء إعراضًا، ومن الإقبال عليه إدبارًا وجفاءً، وبعد البذلّ انقباضًا وإعراضًا، وبعد ابتداء السّلام بالتّرحيب إظهار التّثاقل[1] واستيحاشًا، وبعد الأنس برؤيته وكلامه وحشة وتباعدًا، فإنّ ذلك من أحكام الاختبار النّائطة...[2] ذلك ابتلاءً في الدّرجة الثانية من القبول والانقياد وقبول القول ونفاذ أمره.

وفي هذه الأحوال المراد منه حالان: أحدهما: الإقبال على شأنه وترك الالتفات إلى خلقه، والثاني: مطالعة أحكامه فيما يجري على عبده من صدق اختياره.

وليحذر المريد في صحّة قصده ترك الموافقة منه لهم على أحكام الاستتار، وأن لا يحتجب بهم عن العزيز الغفّار، فإنّ في موافقته للخلق الاحتجاب عن النّظر إلى حكمه، وبسط اللّسان عليهم بإظهار الوقيعة والنّميمة والغيبة والشّتيمة، فيُورث[3] قلبه البغضاء والعداوة والحقد والمذمّة والإعراض عن الله ﷻ بالكليّة والخروج عن الأحكام الحقيقيّة، وما كان قد أعطى من نفسه من صحّة الإقبال على الله وترك الضّيق[4]

---

(١) في النّسخة (أ): «التغقّل»، وصوّبت في هامش النّسخة (أ) وعند (صبيروي) على نحو ما أثبتناه.

(٢) مقدار كلمة أو اثنين غير واضح في النّسخة (أ)، ولم يهتدِ (صبيروي) للمكتوب، ولعلّه: «بالاختيار في».

(٣) عند (صبيروي): «فيورثه».

(٤) عند (صبيروي): «الصدق».

والحرج[1]، وأن لا يجد في نفسه حرجًا ممّا[2] حكم وقضى وأن يُسلِّم تسليمًا، فإن تلاقاه الله بفضله فطرف سرِّه إلى الحالين: أحدهما: مطالعة الغيب، والثاني: الصّبر تحت المرّ من أحكامه، كان ذلك أولى به، وإن طالع رؤية استحقاقه بالإقبال على نفسه باللائمة وألزم نفسه الجناية لظهور الخيانة كان ذلك مُنجيًا له، وإلا فقد هلك، وبالله التّوفيق.

(١) عند (صبيروي): «والخروج».

(٢) عند (صبيروي): «عما».

فصل
[في وجوب الصّبر على ما ينزل به من قضاء الله لأنّ ذلك سنّة الأنبياء والأولياء[1]]

ثمّ ليحذر المريد إن سلّمه الله ممّا ذكرنا، وأخرجه من الوصفين، وأعرض عن خلقه، وراعى الوفاء، واستعمل الصدق، وقام مع الله بما أعطاه من نفسه، واعتقد لله ﷻ في أحواله، فلم يأخذه إقبالهم ولا أثّر في أحواله إدبارهم، فسَلِم[2] من فتنة الفريقين وزمّ قلبه عن النظر إليهم، قصده الحقّ في إيلام نفسه وأرسل عليه[3] البلاء صبًّا وجرَّعه مرارة الموت صِرْفًا، وصبَّ عليه عجائب الأمراض وفنون الأسقام، ومنع الخلق عن عيادته، وحجبهم عن عوائده، وتحقَّق عليه إحكام الفقر مع ضيق الصّدر، وجفاه الحميم في حالته، وأعرض الصديق عنه في مرضه[4]، وضاق[5] عليه أسباب مرافقه، وحُجبت القلوب عن ذكره، وأنسى الخليقة[6] ذكره وحاله، وأسقط الرحمة له عن قلوب عباده، ورُمي بالجفاء في

---

(١) راجع في قضيّة الصّبر على الابتلاءات: الخركوشي: تهذيب الأسرار ص١٢٢:١٢٨، والقشيري: الرسالة القشيرية ج١ ص٣٢٢:٣٢٨، والغزالي: الإحياء ج٤ ص٧٠:٧٥.

(٢) عند (صبيروي): «فيسلم».

(٣) في النّسخة (أ): «إليه»، وصوِّبت فوقها على نحو ما أثبتناه.

(٤) عند (صبيروي): «وأعرض عنه الصديق في مرضه».

(٥) عند (صبيروي): «وضاقت».

(٦) عند (صبيروي): «الخليفة».

مواصلته، وطُولِب في درج[1] ذلك كلّه[2] بترك الشّكوى ومنع الأنين إليه في بلواه حتّى كاد أن يتحكّم فيه بلواه.

فإن هو صبر واستعاذ وتَنَصّل من نفسه، وأناب واعتذر بما هو فيه، واستغاث به من دون خلقه بمطالعة أحكامه ورؤية محبّته، عرَّفه[3] أنّ ذلك من سنن الله[4] في أنبيائه وأوليائه، وأشهده ما سبق له في قديم العلم قبل اتخاذ عهده وأنّ له الخلق والأمر[5] وأنّه العدل في قضائه، والمختار لهم ما هو أولى بهم في دنياهم وآخرتهم، وأنّه مدخول في أوصاف أهل بلائه والمخصوصين من عباده وأهل الصّفوة من أوليائه، فإنّه أرفق بعبده من أن يسلبه ما اختار له من التّوحيد لله وصحّة إيمانه وما أعطاه الله من المعرفة بآلائه، وقديم ما خصّه من إفضاله وإنعامه، وأنه لو ردّه إلى نفسه لحظة في بلائه لضاقت عليه أرضه وسماؤه، فهو فيما ابتلاه كالئًا[6] حافظًا وله مُحِبًّا وله مُعينًا وله ذاكرًا، وبالله التّوفيق.

---

(١) جاء في معجم «مقاييس اللّغة»: «(دَرَجَ) الدّال والراء والجيم أصل واحد يدل على مُضِيّ الشيء والمضيّ في الشيء، من ذلك قولهم درج الشيء، إذا مضى لسبيله». (ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٢ ص٢٧٥، وراجع: ابن منظور: لسان العرب ج٢ ص٢٦٦).

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «كلها».

(٣) في النّسخة (أ): «وعرفه».

(٤) عند (صبيروي): «من سهومه».

(٥) عند (صبيروي): «والعز».

(٦) اسم فاعل من «كلأ» بمعنى حفظ، تقول: كلأه الله، أي حفظه، قال الله عزّ وعلا: ﴿قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ مِنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الأنبياء: ٤٢]. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٥ ص١٣١، وابن منظور: لسان العرب ج١ ص١٤٥).

فصل

[في وجوب الحذر من الشّهرة بل يبقى على حال التّواضع وخفض الجناح[1]]

ثمّ ليحذر المريد مراعاة حاله عند ظهور اسمه ونشر أوصافه من أحكام رياسته، وما عُقِد له من القبول في الأنام، وتمكُّنه عند الخاصّ والعامّ في حال ابتداء لسان معرفته وتناهي حاله، فعليه أن يلزم أحوالًا سَنِيَّة.

فأوّل ذلك بمراعاة[2] أحواله القديمة وأوقاته العامرة، والوفاء بينه وبين الله تعالى فيما اعتقده إلى القيامة، ويتلبّس بنور التّواضع وخفض الجناح لمن طلب الله، ولِيْن الجانب للضّعيف، وإكرام اليتيم، والتَّفَقُّد للجار، وصيانة الأرامل، وبذل العون، مع مبادرة قضاء حوائج النّاس، وترك الضّجر والتّبَرُّم بهم، وأن يعمّ الإخوان والمعارف بالفضل[3] وبسط الوجه، وما يجد السّبيل إليه من المال والجاه وإن كان مُرًّا شَدَّ عليه، وما كان من بذل الجاه فلا يمنع، وما كان من قضاء الحوائج فلا يبخل[4]، وما كان من رفع منزلتهم يُعطي، وما كان من النُّصح فلا يمتنع، وما كان من العلم والحكمة فلا يكتم، ومن المُسْتَحِق خاصّة فلا يُعرض.

---

(١) تناول الشّيخ الكبير في هذا الفصل والفصل الذي يليه قضيّة الشّهرة وكيفيّة علاجها بالتّواضع وخفض الجناح للنّاس عمومًا وللمريدين خصوصًا وعدم التّكلُّف والتّصنُّع في هذا، وللاستزادة حول هذه القضيّة راجع: السّراج الطّوسي: اللّمع ص٢٩، وص٢٧٣، ٢٧٤، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ص٢٧٣، ٢٧٤، ص٢٧٥:٢٨٢، وعبد القادر الجيلانيّ: الغنية ج٢ ص٣١٥، ٣١٦، وأبو حفص السهرورديّ: عوارف المعارف ص٤١٧، ٤١٨.

(٢) عند (صبيروي): «مراعاة».

(٣) عند (صبيروي): «بالتفضل».

(٤) عند (صبيروي): «يتخلى».

وليحذر أن لا يُضَيِّع ودائع الله، ولا يضع الحكمة لطالب الدّنيا، فإن الله مطالبك[1] بحق العلم وتضييعه، وتعرف مقدار ما أعطاك الله في طول خدمتك وأيام عبوديتك، وما خصّك الله بذلك من ترك الدّنيا والتّجافي عنها مع دوام أوقاتك فيما يرضي الله، حتى أفادك الله تعالى وجعلك أهلًا لذلك، فتجعل ذلك مَطْعَمَة ومأكلة تطلب بذلك الدّنيا، فقد[2] قال ﷺ لرجل عَلَّم سورًا من القرآن لرجل من الأنصار وأهدى إليه قوسًا فقال ﷺ: «إن أردتَ أن يُقَوِّسَك الله بقوس من النّار فاقبله»[3].

ورُوي عن إبراهيم بن أدهم[4] أنه بعث إلى سفيان الثوريّ[5] - رحمة الله عليهما -

---

(١) عند (صبيروي): «يطالبك».

(٢) عند (صبيروي): «وقد».

(٣) أخرجه ابن ماجة في سننه، أبواب «التّجارات»، باب «الأجر على تعليم القرآن»، ج٣ ص٢٨٧ برقم ٢١٥٨، بلفظ: عن أُبَيّ بن كعب، قال: علّمتُ رجلًا القرآن، فأهدى إليّ قوسًا، فذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «إن أخذتَها أخذتَ قوسًا من نار» فرددتُها. قال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف. ا.هـ، وقد صحّح بعض العلماء أحاديث أخرى في نفس المعنى منها ما رُوي عن أبي الدّرداء أنّ رسول الله ﷺ، قال: «من أخذ قوسًا على تعليم القرآن، قلّده الله قوسًا من نار». (راجع: الزيلعيّ: نصب الراية ج٤ ص١٣٨ (بتحقيق: محمّد عوامة، الطّبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، مؤسسة الريّان للطّباعة والنّشر).

(٤) هو إبراهيم بن أدهم بن منصور، التميميّ البلخيّ أبو إسحاق: زاهد مشهور، كان أبوه من أهل الغنى في بلخ، فتَفَقَّه ورحل إلى بغداد، وجال في العراق والشّام والحجاز، وأخذ عن كثير من علماء الأقطار الثّلاثة، وكان يعيش من العمل بالحصاد وحفظ البساتين والحمل والطّحن ويشترك مع الغزاة في قتال الروم، وكان إذا حضر مجلس سفيان الثوريّ وهو يعظ أوجز سفيان في كلامه مخافة أن يزل، أخباره كثيرة وفيها اضطراب واختلاف في نسبته ومسكنه ومتوفاه، ولعلّ الرّاجح أنه مات سنة ١٦٠هـ ودفن في سوفنن (حصن من بلاد الرّوم). (انظر: الزّركلي: الأعلام ج١ ص٣١، وراجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٧ ص٣٦٧، وابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦ ص٢٧٧).

(٥) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثوريّ، من بني ثور بن عبد مناة، من مضر، أبو عبد الله: أمير المؤمنين في الحديث، كان سيّد أهل زمانه في علوم الدّين والتّقوى، وُلد سنة ٩٧ هـ في الكوفة ونشأ بها، وراوده المنصور العباسيّ على أن يلي الحكم، فأبى، وخرج من الكوفة سنة ١٤٤هـ فسكن مكة والمدينة، ثم طلبه المهديّ،=

فقال: «احمل إليّ شيئًا من الحديث فَحَدِّثْنَا به»، قال[1]: فأخذ سفيان جرابًا فيها كتب فحمل إلى إبراهيم وأصحابه، قال: فلما دنا منهم قال إبراهيم: «لا تنزعجوا»، قال: فجلس الثوريّ وسَلَّم وقال: «إخواني جاءني رسولكم أن أحمل شيئًا من الحديث»، قال: فوثب إبراهيم وأصحابه وصَدَّروه وجلسوا حوله، فقال إبراهيم: «يا أبا[2] عبد الله، إنما أردتُ أن أجرِّبك فأُعْلِم تواضعك للفقراء لمّا صار إليك الرئاسة»، فقال: «إخواني، والله إنّي وددتُ أن يبعث إليّ الترك والديلم فأحمل إليهم حديث رسول الله ﷺ»[3]، وبالله التّوفيق.

=فتواري، وانتقل إلى البصرة فمات فيها مستخفيًا سنة ١٦١هـ له من الكتب «الجامع الكبير» و«الجامع الصغير» كلاهما في الحديث، وكتاب في «الفرائض»، وكان آية في الحفظ. (انظر: الزّركلي: الأعلام ج٣ ص١٠٤، وراجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٧ ص٤، والخطيب البغداديّ: تاريخ بغداد ج١٠ ص٢١٩).

(١) - «قال» عند (صبيروي).

(٢) في النّسخة (أ): «ابا».

(٣) روى أبو نعيم بسنده في «الحلية» ج٦ ص٣٦٧ عن أبي عيسى الحواريّ قال: لمّا قدم سفيان الثوريّ الرّملة - أو بيت المقدس - أرسل إليه إبراهيم بن أدهم تعال حدّثنا، فقيل له: يا أبا إسحاق تبعث إليه بمثل هذا قال: إنما أردتُ كيف تواضعه، قال: فجاء فحدثهم.

فصل
[في وجوب الحذر من التّصنّع والتّكلّف طلبًا للجاه والرّفعة]

ثمّ ليحذر المريد أن يكون عند استعمال هذه الأحوال السّنيّة مراعيًا لقلبه لا يوافق الخلق لِيُعْرَف بذلك، فيصير بعد الحقيقة تَصَنُّعًا ورياءً وسمعة، فيخرج عن الإخلاص إلى التَّزيُّد[1] والتكلُّف، وأن يكره أن يُعْرَف بخلاف ما عُرِف به، فيُظهر أوصاف نفسه في نفسه في طلب العزّ وإبقاء الاسم؛ لأن النّفس لها أخلاق رَدِيَّة وأوابد[2] وحشيّة، لا يأمن العبد[3] ظهور المحن واستحلاء إقامة الأقدار ومحبّة انتشار الأذكار.

فيُظهر أوصاف النفس في تَلَبُّس دواعيها، فيدّعي أنّ هذا من أوصاف أهل الإحاشة[4][5] والقائدين الخلق إلى الله بإظهار الوصف القديم، فيجعل إظهار أحواله الّتي استترت[6] مع الله في الخلوات بالصدق والإخلاص مُنْكَشِفًا، طالبًا بها الجاه والرفعة بادعائها أنّ ذلك لا يأخذ منك ولا يؤثر في حقيقتك وأنّها زيادة في حالك وحالهم، فإنّ ذلك من خفي التّأويل ودقيق الرّياء المخفيّ في النّفوس كما قال ﷺ: «الرّياء فيكم أخفى

---

(١) في النّسخة (أ): «التزايد».

(٢) الأوابد والأُبُدُ: الوَحْش، الذَّكَر آبد والأنثى آبدة، وأَبَدَت الوحش تأبُد وتأبِدُ أُبودًا وتأبّدت تأبُّدًا: تَوَحَّشَتْ. والتأبُّد: التَّوَحُّش، وأبِدَ الرجل: تَوَحَّش. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج١ ص٣٤).

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «لا يؤمن للعبد»، وصوّبت في هامش النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٤) عند (صبيروي): «الإجاشة».

(٥) يقال: حُش عليّ الصّيد من حاشَ يَحُوش، ومعناه ضمّ الصّيد من جانبيه، ويقال: حُشْتُ الإبل: جمعتُها وسقتُها (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٢ ص١١٩، وابن منظور: لسان العرب ج٦ ص٢٨٥)، وعليه فالمقصود من أهل الإحاشة ههنا أي الّذين يجمعون النّاس ويسوقونهم إلى طريق الله تعالى.

(٦) عند (صبيروي): «استتر».

من دبيب النّمل على الصّفا في اللّيلة الظّلماء»[1]، وبالله التّوفيق.

(١) الحديث أخرجه الحكيم التّرمذيّ في «النّوادر» والحاكم في «التّفسير» وأبو نعيم في «الحلية» كلّهم عن عائشة رضي الله عنها بلفظ: «الشّرك أخفى في أمّتي من دبيب النّمل على الصّفا في اللّيلة الظّلماء...» (راجع: السّيوطيّ: الفتح الكبير في ضمّ الزّيادة إلى الجامع الصّغير ج٢ ص١٧٢ برقم ٧١٣٨ (بتحقق: يوسف النّبهانيّ، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٣ – ٢٠٠٣م، دار الفكر – بيروت)، وقال المناويّ: قال الحاكم: صحيح، وتعقّبه الذّهبيّ في «التّلخيص» بأنّ فيه عبد الأعلى بن أعين قال الدارقطنيّ: غير ثقة، وقال في «الميزان» عن العقيليّ: جاء بأحاديث منكرة وساق هذا منها، وقال ابن حبّان: لا يجوز الاحتجاج بها. (راجع: المناويّ: فيض القدير ج٤ ص١٧٤)، وقد صحّ في هذا الباب ما رُوي عن معقل بن يسار قال: انطلقت مع أبي بكر الصدّيق رضي الله عنه إلى النّبيّ ﷺ، فقال: «يا أبا بكر، لَلشّرك فيكم أخفى من دبيب النّمل»، فقال أبو بكر: وهل الشّرك إلا مَنْ جعل مع الله إلهًا آخر؟ فقال النّبيّ ﷺ: «والّذي نفسي بيده، للشّرك أخفى من دبيب النّمل، ألا أدلّك على شيء إذا قلته ذهب عنك قليله وكثيره؟» قال: «قل: اللّهمّ إنّي أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم». (أخرجه البخاريّ في الأدب المفرد ص٢٥٠ برقم ٧١٦ (بتحقيق: محمّد فؤاد عبد الباقي، الطّبعة الثّالثة سنة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م، دار البشائر الإسلامية – بيروت).

فصل
[في وجوب الحذر من مخالطة أبناء الدّنيا سيّما الأغنياء منهم[(١)]]

ثمّ ليحذر المريد بعد تَحَقُّقِه بأحوال المعارف من سَنِيِّ الأحوال أن يُداخل أبناء الدّنيا من الأغنياء، وينقبض عنهم جهده وطاقته، ويحفظ نفسه أن لا تستريح إلى مجالستهم ومحادثتهم، ويحذر[(٢)] الحضور على موائدهم ويترك مؤاكلتهم، ويتحمّل في نفسه محمل البلاء عند الحاجة إليهم.

وأن يراعي الضّنك والضّرّ وعظم الشّدة من الفقر المؤلم في نفسه، ويتغصّص بِتَجَرُّع نكايات الشدّة فيما بينه وبين الله ﷻ، وأن يجهد أن لا يطّلع عليه أحد من هؤلاء، وكذلك الأخلّاء والإخوان، لإسقاط الشّغل منهم بك[(٣)].

ويكون في لُقياهم طَيِّبَ النّفس نشيطًا في فقره، لا يَتَمَاوَتْ[(٤)] عندهم مع إظهار قلّة المبالاة بالقلّة، ويتجرّع المرارة بالعزلة عنهم، فإنّ في إظهار ذلك ذلّة ومهانة، ووضعًا في الحقيقة، وتأثيرًا في المحبّة، وتهاونًا بأهل الطّريقة[(٥)]، وشَيْنًا على أهل الحقيقة، وقَطْعًا لهم

---

(١) حذّر الشّيخ الكبير في هذا الفصل من صحبة أهل الدّنيا من الأغنياء الّذين تَعُود صحبتهم بالذلّة والمهانة على المريد وبالنّقص والحطّ على أهل الطريق من الصّوفيّة الفقراء، وقد ضمّن وصيّته للمريدين شيئًا عن هذا فقال: «السادس عشر: إيّاه ومجالسة الغافلين إلا عن ضرورة أو في ما لا بُدّ منه» (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٨/ أ)، وللاستزادة حول هذه القضيّة راجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٦ ص٣٨٨، والغزاليّ: الإحياء ج٢ ص٢٠٧.

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «ويحضر».

(٣) عند (صبيروي): «بل».

(٤) يقال: تَمَاوَتَ الرّجل إذا أظهر من نفسه التّخافت والتّضاعف من العبادة والزّهد والصّوم. (راجع: ابن منظور: لسان العرب ج٢ ص٩٤، ومرتضى الزّبيديّ: تاج العروس ج٥ ص١٠٦).

(٥) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «القضية»، وصوّبت فوقها في النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

عن الإحاشة[1]، وإظهار شرف الزّهد والعُدم.

وذلك أنّ الواحد منهم لو بلغ معك النّهاية ثم عرف منك الحاجة إليه لقد كان الصّولة[2] لا تفارقه، والنّخوة[3] ورؤية الفضل لا يعدمه، والإزراء والنّقص يصحبه في سرّه لك، وتصير حجّته عليك وعلى أهل مذهبك، إذا احتجت إليه فيجعل ذلك سُبّة فيقول: فلان في جلال حالته أخذ واحتاج، فيجعل تأريخًا له وذريعة إذا احتاج إليه بالوضع والوقيعة، ولذلك قال ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «إيّاك ومخالطة الأغنياء، ولا تلبسي ثوبًا حتى تُرَقِّعيه، ولا تجمعي طعامك لشهر»[4]، والله أعلم.

(١) عند (صبيروي): «الإجاشة».

(٢) جاء في معجم «مقاييس اللّغة»: «(صول) الصّاد والواو واللّام أصل صحيح، يدل على قهر وعلو، يقال: صال عليه يصول صولة، إذا استطال». (ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٣ ص٣٢٢، وراجع: ابن منظور: لسان العرب ج١١ ص٣٨٧).

(٣) النّخوة: الكبر والعظمة. (راجع: ابن منظور: لسان العرب ج٥ ص٧٩، والرّازيّ: مختار الصّحاح ص٣٠٧).

(٤) أخرجه التّرمذيّ في سننه، أبواب «اللّباس»، باب «ما جاء في ترقيع الثّوب»، ج٣ ص٢٩٧ برقم ١٧٨٠ وغيره من طريق صالح بن حسان، بلفظ: عن عائشة قالت: قال لي رسول الله ﷺ: «إذا أردتِ اللّحوق بي فليكفكِ من الدّنيا كزاد الرّاكب، وإيّاكِ ومجالسة الأغنياء، ولا تستخلقي ثوبًا حتى تُرَقِّعيه»، وقال التّرمذيّ: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث صالح بن حسان وسمعتُ محمدًا يقول: صالح بن حسان منكر الحديث.ا.هـ وأخرجه الطبرانيّ في «الأوسط» ج٧ ص١١٣ برقم ٧٠١٠، وفي سنده نوح بن ذكوان، قال فيه ابن حبّان: منكر الحديث جدًا.ا.هـ (ابن حبّان: المجروحين ج٣ ص٤٧ برقم ١١٠٢ (بتحقيق: محمود إبراهيم زايد، الطّبعة الأولى سنة ١٣٩٦هـ دار الوعي – حلب)، وفيه أيضًا: سويد بن عبد العزيز، قال فيه أحمد بن حنبل: متروك الحديث.ا.هـ. (أحمد بن حنبل: العلل ومعرفة الرّجال ج٢ ص٤٧٦ برقم٣١٢٢ (بتحقيق: وصيّ الله بن محمد عبّاس، الطّبعة الثّانية سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، دار الخاني – الرياض).

فصل
[في وجوب الصّدق في ذمّ الدّنيا ظاهرًا وباطنًا[1]]

ثمّ ليحذر المريد بعد المعرفة أن لا يجعل ذمّ الدّنيا حرفة والوضع من أهلها صناعة، وأن يُعرف عند أبناء جنسه أنّه من المبغضين لهم ظاهرًا، وقد علم الله ﷻ منك أنّك مستحل لقربهم في باطنك، وأنت مُظهر للزّهد فيهم، وأنت بَلَغْتَ الرّغبة مُقبلًا عليهم، فإنّ الله يمقت ذلك، وهو من أحكام النّفاق إذا علم الله ﷻ منك ضدّ ذلك.

واحذر أن لا تجعل مذمّة أهل نحلتك من أهل الفساد عندهم من سجيّتك، فإن احتاج إليه مَنْ يستحق منك النصيحة حيث لا بُدَّ لك إظهار كذب المُدَّعين من أهل الانخرام[2] فتُظهر شرف المتحقّقين بإظهار الحقّ من الباطل، ولا يكون المُدّعى[3] منك ذلك عند أهل الغباوة من الشامتين، ولا عند المُتعصّبين[4] عليهم، فتصير لسانهم عليهم من قولك، ويسوقون الكلّ بعصا المذمّة، ولا يميزون الخبيث من الطيب، وتكون[5] سبب وقوع صاحبك في الإثم على أهل الحقيقة.

وذلك أنّ طائفة من المنسوبين إلى العلم والحكمة جعلوا الوقيعة فيهم سببًا وذريعة

---

(١) بعد تحذير الشّيخ الكبير للمريد من صحبة أهل الدّنيا في الفصل السّابق شدَّدَ عليه في هذا الفصل والذي يليه بأن يكون مخلصًا صادقًا في ذمّه للدنيا وأهلها، وحذَّره من إظهار ما ليس هو متحقّق به من الأحوال العليّة والمقامات السّنيّة.

(٢) الانخرام مصدر من الفعل انخرم، وهو بمعنى انشق وانقطع ونقص، ومنه انخرم ثقب الأذن أي انشق، واخترمهم الدّهر أي اقتطعهم، وانخرم الكتاب أي نقص (انظر: ابن منظور: لسان العرب ج١٢ ص١٧٠، والرازيّ: مختار الصّحاح ص٩٠، ومرتضى الزّبيديّ: تاج العروس ج٣٢ ص٧٢).

(٣) عند (صبيروي): «المدعون».

(٤) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «المبغضين»، وصوِّبت فوقها في النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٥) عند (صبيروي): «ويكون».

إلى طلب ما في أيديهم من الحطام الدّنيّة والسّحت القذرة، فليس يتوصلون إلى ذلك إلا بإظهار الوقيعة ليصحّ لهم التّبرِّي[1] منهم، وأنّه ليس من جملتهم، وأن لا ينظروا إليه أنّه منهم وما قُبِل إلا بهم، فإنّ الله تعالى يمقت على ذلك؛ إذ لم يزل في الفِرَق صالح وطالح، وهذا ممّا[2] لا تَعْرَى منه المذاهب، وبالله التّوفيق.

(١) عند (صبيروي): «التبرؤ».

(٢) عند (صبيروي): «ما».

فصل
[في وجوب الحذر من إظهار صفات ليست فيه]

ثمّ ليحذر المريد الصّادق استعمال الصّدق وصحّة الإخلاص في أحواله وأوقاته إذا كان بنعت الفترة والرّجوع عن الحدّة في العبادة، وأن[1] لا يتأوّل بحاله خوفًا من سقوط جاهه، وأن لا يتشبَّع[2] بما ليس فيه، فيُظهر أحوال أهل الحدّة وأهل التّشمير وادّعاء الكمال، فيوري[3] أماكن التّحقيق عند فقدانه، وأن لا يُخْفِي حاله ويحتجّ[4] بصحّته.

---

(١) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «أن».

(٢) في الحديث: «المُتَشَبِّع بما لم يُعْطَ كلابس ثَوْبَي زور» (أخرجه البخاريّ في الصّحيح عن أسماء رضي الله عنها، كتاب «النّكاح»، باب «المتشبّع بما لم يَنَل، وما يُنهى من افتخار الضّرّة»، ج٧ ص٣٥ برقم ٥٢١٩، ومسلم في الصّحيح عن عائشة رضي الله عنها، كتاب «اللّباس والزّينة»، باب «النّهي عن التّزوير في اللّباس وغيره والتّشبّع بما لم يعط»، ج٣ ص١٦٨١ برقم ٢١٢٩)، وفي شرح الحديث قال النّوويّ: «قال أبو عبيد وآخرون: هو الّذي يلبس ثياب أهل الزّهد والعبادة والورع ومقصوده أن يظهر للنّاس أنّه مُتّصف بتلك الصّفة ويظهر من التّخشّع والزّهد أكثر ممّا في قلبه، فهذه ثياب زور ورياء» (النّوويّ: المنهاج شرح صحيح مسلم ج١٤ ص١١٠، ١١١).

(٣) هكذا في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، وصوّبت الكلمة فوقها في النّسخة (أ) هكذا: «فيودي»، حيث وضع النّاسخ علامة التّصويب فوق الكلمة، وكتب فوق حرف «الرّاء» حرف «الدّال»، ولعلّ الأنسب ما في الأصل قبل التّصويب وهو ما أثبته (صبيروي) ووافقناه، وذلك لأنّه يقال: «يُوري الحجر النّار» أي يُخرجها (انظر: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٢ ص٢٣٢، وابن منظور: لسان العرب ج٢ ص٥٥٤)، فيكون المعنى أنّ ابن خفيف يُحذّر المريد من أنّه في زمان فترته وخوفًا من سقوطه في أعين النّاس، فإنّه قد يلجأ لأن يُخرج ويُظهر ما يبدو منه أنّه من المحقّقين، لكنّه في الحقيقة فاقد لذلك في هذا الحال، أمّا «يودي» فلا مناسبة لها في هذا السياق؛ إذ «يودي» بمعنى يُهلك (انظر: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج١ ص٣٢٥، وابن منظور: لسان العرب ج١٢ ص١٩٨)، ولعلّ الكلمة في الأصل «فيُبْدِي» فحصل لها تصحيف.

(٤) هكذا في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، وصوّبت الكلمة في حاشية النّسخة (أ) هكذا: «يجنح»، ولعلّ الصّواب ما هو في مُثْبَت في الأصل.

فليعمل الصّدق والإخلاص ولا يكون للخائنين خصيمًا[1]، ويستغفر الله بإظهار الاعتراف والتقصير عند رجوعه إلى أخذ حظوظه بإظهار التأسّف على ما فاته، وإظهار القول لصحّة أحواله القديمة وأوصافه المرضيّة، و[2]أن لا تكون فترته والاحتجاج[3] لها[4] بلاءً على أهل نحلته والمنسوبين إلى الدّين من أهل مذهبه...[5] فيقول الله ﷻ: «أبي يَغْتَرُّون أم علي يجترئون، فبعزّتي حلفتُ لأُتِيحَنَّكم فتنة تدع الحليم فيه حيران»[6].

فليكن الحقّ على لسانه وإن كان بخلافه، فقد اعترف من هو خير منه بذلك فقال: إنّه مرّ الصّدّيق على قوم يُقرأ عليهم القرآن وهم يبكون فقال: «هكذا كنّا حتّى قست القلوب»[7]..،

(١) قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ۝ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ۝﴾ [النّساء: ١٠٥-١٠٨].

(٢) - «و» في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، وأضفناها ليستقيم الكلام.

(٣) في النّسخة (أ): «الاختلاج»، وصوّبت فوقها على نحو ما أثبتناه وأثبته (صبيروي).

(٤) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «له».

(٥) كلمة غير واضحة في الأصل، أثبتها (صبيروي): «قال».

(٦) أخرجه التّرمذيّ في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما، أبواب «الزّهد»، ج٤ ص١٨٣ برقم ٢٤٠٥، بلفظ: عن النّبيّ ﷺ، قال: «إنّ الله تعالى قال: لقد خلقتُ خلقًا ألسنتهم أحلى من العسل، وقلوبهم أمرّ من الصّبر، فبي حلفتُ لأتيحنّهم فتنة تدع الحليم منهم حيرانًا، فبي يغترون أم علي يجترئون»، وفي إسناده: حمزة بن أبي محمّد، قال ابن أبي حاتم: ضعيف الحديث، منكر الحديث (راجع: ابن أبي حاتم: الجرح والتعديل ج٣ ص٢١٥ برقم ٩٤٧ (الطّبعة الأولى سنة ١٢٧١هـ - ١٩٥٢م، طبعة مجلس دائرة المعارف العثمانيّة - بحيدر آباد الدّكن - الهند)، وقال الذّهبيّ: مجهول (راجع: الذّهبيّ: ديوان الضّعفاء ص١٠٤ برقم ١١٥٦ (بتحقيق: حمّاد الأنصاريّ، الطّبعة الثّانية سنة ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م، مكتبة النهضة الحديثة - مكة).

(٧) ورد هذا الأثر بلفظ: «هكذا كنّا ثمّ قَسَتِ القلوب» من طريقين كلاهما مرسل، الطّريق الأول: أخرجه ابن أبي شيبة في «المصنّف» ج٧ ص٢٢٤ برقم ٣٥٥٢٤ (بتحقيق: كمال الحوت، الطّبعة الأولى سنة=

وأخبر عن صحّة إقدامهم[1] فقال: «طوبى لمن مات في النأنأة»[2]، يعني في حال حدّته وصحّة أوبته وحقائق توبته، وبالله التّوفيق.

=١٤٠٩هـ مكتبة الرشد - الرياض)، وأبو نعيم في «الحلية» ج١ ص٣٣، كلاهما بسند عن أبي صالح، قال ابن أبي حاتم: أبو صالح ذكوان عن أبي بكر الصّديق: مرسل (راجع: ابن أبي حاتم: المراسيل ص٥٧ برقم ٢٠١ (بتحقيق: شكر الله قوجانيّ، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٧هـ مؤسسة الرسالة - بيروت)، والطّريق الآخر: أخرجه ابن الكمال الحنبليّ في «المنتقى من سماعات محمد بن عبد الرّحيم المقدسي» ص١١ برقم ١٠، بسند عن عمر بن مرّة، قال ابن أبي حاتم في «المراسيل» ص١٤٧ برقم ٥٣١: سمعتُ أبي يقول: عمرو بن مرّة لم يسمع من ابن عمر، ولم يسمع من أحد من أصحاب رسول الله ﷺ إلا من ابن أبي أوفى.

(١) عند (صبيروي): «إقدامهم».

(٢) أخرجه ابن المبارك في «الزّهد» ج١ ص٩٥، وأبو نعيم في «الحلية» ج١ ص٣٣، والدّارقطنيّ في «العلل» ج١ ص٢٧٤ برقم٦٦ (بتحقيق: محفوظ الرّحمن زين الله، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار طيبة - الرّياض)، كلهم بسند صحيح عن طارق بن شهاب، وفي الأثر أنّ طارقًا سُئل عن معنى «النأنأة» فقال: جِدَّة الإسلام أو بدء الإسلام.

فصل
[في وجوب الحذر من ادّعاء التّوكّل في أمور معيشته وترك الكسب الحلال[1]]

وليحذر المريد - وهو أولى الأشياء في زمانه وما ظهر من الفساد في أوانه - أن لا يكون مُعَوَّله على ادّعاء التّوكّل على صفة أهل زمانه، وأن يَدَّعي أن مأكله من الغيب، ولا يراعي مخرج مأكله وملبسه، وأن لا يستقصي في ذلك؛ إذ لا يقبل الله الصّلاة والصّيام وغير ذلك إلا بتصفية الأكل واللّباس، بل يجعل أوقاته بعد الصّلوات[2] مصروفة[3] إلى تحرّي ذلك، أن يكون[4] من أطيب ما يجد السّبيل إليه من الوجوه الجائزة أحكامها في العلم، وأن يكون بعد ما أجهد نفسه في طلب الحلال إن لم يجد أفضل من ذلك فلا ينبسط في أوساخ ما يوجد، فإنّ العالِم يلزمه ما لا يلزم الجاهل عندما ظهر في زمانه من انتشار الفساد بترك التغميض[5] الّذي قال ﷻ[6]: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ

---

(١) تناول ابن خفيف في هذا الفصل قضيّة «أنّ الأصل في المريد - خاصّة في بداياته - أن يكون له حرفة يقتات منها»، هذه القضيّة يتبنّاها الشّيخ الكبير أيضًا في بعض كتبه الأخرى، حيث يقول فيما نُقِل عنه من كتاب «اعتقاد التّوحيد بإثبات الأسماء والصّفات»: «ونقول: إنّ ترك المكاسب غير جائز إلا بشرائط مرسومة من التّعفّف والاستغناء عمّا في أيدي النّاس، ومَنْ جعل السّؤال حرفة وهو صحيح، فهو مذموم في الحقيقة خارج». (نقلًا عن ابن تيمية في الفتوى الحمويّة الكبرى ص٤٧٣، ٤٧٤).

(٢) عند (صبيروي): «الصلوة».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «مصروفًا».

(٤) في النّسخة (أ): «تكون».

(٥) التّغميض: المساهلة والمسامحة، وهو من إغماض العين فكأنّك لا ترى هذا الشّيء الّذي تساهلتَ وتسامحتَ فيه (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٤ ٣٩٦، وابن منظور: لسان العرب ج٧ ص١٩٩)، فالعالِم الّذي يقف على الطّيّب من الخبيث في المأكل والملبس لا يغمض يعني لا يتساهل ولا يتسامح في الخبيث.

(٦) + «فيه» عند (صبيروي).

فِيهِ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

فإن تعذَّر بعد الجهد والمبالغة فليرجع إلى نفسه بأخذ البُلْغَة وسدّ الجوع عنك، وبيت يواريه من القرّ والحرّ؛ لأنّ النّظر في المأكول هو أحد أركان التوكّل وصحّة الاعتماد على الله، وإنّما كان يطيب ترك المكاسب والجلوس مع الله بالفقر[(١)]، وترك الأسباب لوجود الحلال وانتشاره في أيدي المسلمين، وكان الله قد كفى المسلمين أصل الأملاك، فكان[(٢)] المتوكّل من أيّ وجه أتاه أخذ؛ إذ كان الأصل مباحًا، وكان يشتغل به بغير الطّلب.

فأمّا طلب الحلال و...[(٣)] فهو من أصول الدين الّذي حثّ العلم على ذلك، وهو أَجَلُّ عمدة الإسلام كما قال ﷺ: «طلب الحلال فريضة بعد فريضة الإسلام»[(٤)]، فقارن ﷺ فرضه بفرض التّوحيد والشّرائع المبنية على الإسلام، وهذه الحالة تلزم العارف في تناهيه والسّائر في مباديه[(٥)] والمريد في أحواله، وخاصّة أهل النّسك من المريدين، وبالله التّوفيق.

(١) قال الشّيخ الكبير ابن خفيف: «من شرط الفقير أن تتحقّق فيه ثلاث خصال: الصّبر عند العدم، والإيثار عند الوجود، والسّكون عند المحنة فلا اضطراب ولا جزع، فإذا تحقّقتْ فيه هذه الثلاث وفاتَه شيء آخر فلا ضير». (الديلمي: سيرة الشّيخ الكبير ص٢٦٠).

(٢) عند (صبيروي): «وكان».

(٣) كلمة غير واضحة في النّسخة (أ)، ولم يهتدِ لها (صبيروي)، ولعلّها: «الأكساب».

(٤) أخرجه الطّبرانيّ والبيهقيّ في الشُّعَب، والقضاعيّ من جهة عبّاد بن كثير عن الثّوريّ عن منصور عن إبراهيم عن علقمة عن ابن مسعود به مرفوعًا، تَفَرَّد به عبّاد، وهو ضعيف، وله شواهد بعضها يؤكد بعضًا. (المناويّ: المقاصد الحسنة ص٥٠٥، ٥٠٦ برقم ٨٠١ (بتحقيق: محمد الخشت، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، دار الكتاب العربي - بيروت).

(٥) هكذا في النّسخة (أ)، وصوّبت في هامشها: «معانيه»، ولعلّ ما في الأصل هو الأصوب لمناسبتها قوله قبلها: «في تناهيه»، وأثبت (صبيروي): «مبادئه».

فصل
[في وجوب الحذر من مخالطة الأدعياء الّذين ليس لهم قدم صدق في الطّريق[1]]

وليحذر المريد مجالسة هؤلاء الجوّالين في البلدان ممّن ليسوا موقنين في الدّين وليس يهمهم أمر الشّرائع والفرائض ممّن مُعَوَّلهم على لبس الصّدِّيقين، وقد استعاروا إشارات المحقّقين، وقد تزيّنوا بزيّ الفاضلين، فإنّهم المنسلخون من الدّين، وإيّاك والاغترار بهؤلاء اللّعابين من المحاكين، وعليك بمنهج المتقدّمين، وطلب آثار الكرام من الصّحابة والتّابعين، وأهل الأثر من المعروفين، ممّن أثنى الله عليهم من الصّالحين.

ولا تغترّ بألفاظهم المزخرفة المستخرجة من علوم الجمع والتفريق[2]، وإيّاك والنّظر إلى المُتَحَلِّين والمُدَّعين للفقر ولبس المُرَقَّعات[3] من هؤلاء الشّحاذين ممّن هربوا من

---

(١) حذّر ابن خفيف المريد في هذا الفصل من أدعياء التّصوف، وقد وجدنا الصّوفيّة من بعده يبذلون جهدهم في تدوين علوم القوم وبيان الأصول التي انبنت عليها محذّرين أيما تحذير من هؤلاء الأدعياء، وقد نصّوا على هذا في مفتتح كتبهم ورسائلهم في هذا الصّدد. (راجع مثلًا: السّرّاج الطّوسي: اللّمع ص١٩، ٢٠، والكلاباذيّ: التّعرّف ص٢٠، والقشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج١ ص١٦، ١٧).

(٢) يقول أبو حفص السّهرورديّ: «أشاروا بالجمع إلى تجريد التّوحيد، وأشاروا بالتّفرقة إلى الاكتساب، فعلى هذا لا جمع إلا بتفرقة، ويقولون: فلان في «عين الجمع»، يعنون استيلاء مراقبة الحقّ على باطنه، فإذا عاد إلى شيء من أعماله عاد إلى التّفرقة، فصحّة الجمع بالتّفرقة، وصحّة التّفرقة بالجمع، فهذا يرجع حاصله إلى أنّ الجمع من العلم بالله، والتّفرقة من العلم بأمر الله ولا بُدَّ منهما جميعًا، قال المزيّن: الجمع: عين الفناء بالله، والتّفرقة: العبودية، متصل بعضها بالبعض.ا.هـ وقد غلط قوم وادّعوا أنّهم في عين الجمع، وأشاروا إلى صرف التّوحيد، وعطّلوا الاكتساب، فتزندقوا، وإنّما الجمع حكم الرّوح، والتّفرقة حكم القالب، وما دام هذا التّركيب باقيًا فلا بُدَّ من الجمع والتّفرقة». (أبو حفص السّهرورديّ: عوارف المعارف ص٥٨٦، وراجع: السّرّاج الطوسيّ: اللّمع ص٤١٦).

(٣) لبس المُرَقَّعة هو شعار الصّوفيّة، إشارة منهم إلى التّجرد عن الدّنيا والإقبال على الله تعالى بالكلّيّة، وقد=

العمل وجعلوا صناعتهم الرّقص والزَّفْن[1] على محاكاة المخنّثين، فإنّهم القُطّاع على المريدين، وفتنة على أهل الدّين، ووضعًا من هؤلاء الفقراء والمساكين، ممّن طالت عبادتهم وكثرت مجاهدتهم، فإنّ هؤلاء جعلوا ما يتقلّبون فيه[2] ذريعة إلى طلب هذا الحطام، فليسوا يتوصّلون إليه[3] إلا من هذه الجهات.

وعليك بأحوال أسلافك والنُّجباء المعروفين من أهل نحلتك، وعليك بالبحث عن أوصافهم، وطلب صحّة أحوالهم، فإنّ المُتَمَسّك بأوصافهم فائز مسرور، والرّاغب عنه هالك مغرور، والنّصح واجب، وإيّاك وإيّاهم، فلا يُنْسِيَنَّك الشّيطان فتكون من الغاوين، وبالله التّوفيق.

=أمر مشايخ الصّوفيّة المريدين بأن يتحلّوا بالمرقّعات ويتزيّنوا بها، لتكون لهم علامة بين الخلق، ويكون الخلق رقباء عليهم، فإذا خطوا خطوة على خلاف الطريق يُطلقون فيهم لسان الملامة، وإذا أرادوا إتيان المعصية في تلك الثّياب فإنّهم لا يستطيعون خجلًا. (راجع: الهجويريّ: كشف المحجوب ج١ ص٢٤٥).

(١) الزَّفْن: الرّقص واللّعب. (راجع: ابن منظور: لسان العرب ج١٣ ص١٩٧، ومرتضى الزّبيديّ: تاج العروس ج٣٥ ص١٤٧).

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «فيها».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «إليها».

فصل
[في وجوب مجالسة أهل الصّلاح والصّدق والرّسوخ في طريق الله[١]]

وليحذر المريد إن طالبته نفسه إلى المجالسات، فليقصد إلى طائفة من المعروفين[٢] من أهل الدّين ممّن هم مشغولون بإصلاح شأنهم، المُراعين[٣] لأوقاتهم فيما يُقَرِّبُهم إلى الله ﷻ، ويحفظ أوقاته في حال حضور المجالس - فإنّ البَلِيَّة في المجالسات كثيرة - بأن لا يكون مُغتابًا ولا لعّانًا ولا طعّانًا ولا نمّامًا ولا ممّن قد ذهبتْ أوقاته بالنّظر إلى زلّات الخلق وحفظ مساوئهم، ولا يحبّ عثراتهم، ويحذر أن لا يكون شامتًا بزلّاتهم، بل يكون مغمومًا لما يحلّ بالعباد، ويكون داعيًا للأئمة[٤] بالصلاح والمؤمنين بالفلاح.

وطالِع الفِرَق التي تجالسهم، فإن كان همّتهم تصفية المأكول والملبوس[٥] فَالْزَمْهم، فإنّ المجالسات قليل سلامتها كثير ملامتها، وقد أوصى رسول الله ﷺ عقبة بن عامر حين قال: يا رسول الله ما النّجاة؟ فقال: «احفظ عليك لسانك، وليسعك بيتك، وابكِ على خطيئتك»[٦].

---

(١) تناول الشّيخ الكبير في هذا الفصل قضية مع من تكون المجالسة أو الخُلْطَة وآدابها، وللاستزادة حول هذه القضيّة راجع: السّرّاج الطوسيّ: اللّمع ص٢٣٤:٢٣٧ وص٢٦٧، ٢٦٨، وأبو النّجيب السّهرورديّ: آداب المريدين ص٣٤:٤٤، وأبو حفص السّهرورديّ: عوارف المعارف ص٤٢٠:٤٣٥.

(٢) في النّسخة (أ): «معروفين».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «مراعين».

(٤) عند (صبيروي): «للأمة».

(٥) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «القوت واللبس»، وصوّبت في حاشية النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٦) أخرجه التّرمذيّ في سننه عن عقبة بن عامر ﵁، أبواب «الزّهد»، باب «ما جاء في حفظ اللّسان»، ج٤ ص١٨٣ برقم ٢٤٠٦، بلفظ: «املك» بدل «احفظ»، وقال التّرمذيّ: هذا حديث حسن.ا.هـ وأخرجه أحمد في المسند ج٣٦ ص٥٧٠ برقم ٢٢٢٣٥، وقال شعيب الأرنؤوط: حسن لغيره.

قال بعضهم: وجئتُ إلى عند[1] فلان، فقال لي من أين؟ قلتُ: من عند يوسف بن أسباط، فقال: تعرفه؟ قلتُ: نعم، فقال: الْزَمْه فإنّه يدري من أين يأكل[2].

ومع هذا فيكون الانفراد أحبَّ إليك من الاجتماع[3]، وإيّاك والمُبايتات[4]، وأن تُعَوِّد نفسك المخالطات[5] النكرة التي يجري فيها الطَّنَز[6] والخَنَا[7] والرّقص والمحاكاة[8] والتَّطايب[9] على السّرمديّات فإنّه يؤدي إلى الغيبة والنّميمة، ويتولّد منها كلّ بليّة.

---

(١) هكذا في النّسخة (أ) وعند (صبيروي).

(٢) وردتْ هذه القصّة في «الورع» للإمام أحمد لكن على غير هذا النحو، حيث جاء فيه: «سمعتُ عليّ بن شعيب يقول: لمّا قَدِم شعيب بن حرب على يوسف بن أسباط رأى عنده شابًّا يُكلّم يوسف ويغتاظ له، قال: ويرفع صوته، فقال شعيب: ترفع صوتك، فقال له يوسف: يا أبا صالح إنّه محمد بن إدريس، إنّه يدري من أين يأكل، قال أبو عبد الله: كان محمد بن إدريس رجلًا من الثّغر، قال شعيب: بأبي أنت وأمي نذرتُ إذا رأيتك أن أحدّثك». (أحمد بن حنبل: الورع ص١٣ رقم ٣٠ (بتحقيق: سمير الزّهيريّ، الطّبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار الصّميعيّ - الرّياض).

(٣) من ضمن وصايا ابن خفيف للمريدين: «الرّابع: لزوم الصّمت والخلوة وذكر الله تعالى في كلّ حال». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٧/أ).

(٤) عند (صبيروي): «المباينات».

(٥) عند (صبيروي): «بالمخالطات».

(٦) مكتوب في هامش النّسخة (أ): «أي السّخرية»، وهي كذلك كما في معاجم اللّغة. (انظر مثلًا: ابن منظور: لسان العرب ج٥ ص٣٦٩، والفيروزآباديّ: القاموس المحيط ص٥١٥).

(٧) الخنا من الكلام: أفحشه. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٢ ص٢٢٢، وابن منظور: لسان العرب ج١٤ ص٢٤٤).

(٨) لعلّ الشّيخ الكبير يقصد من «المحاكاة» هنا: تقليد الإنسان لغيره استهزاءً، من قولهم: حاكى فلان فلانًا أي فعل مثل فعله. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج١ ص٢٣٥، وابن منظور: لسان العرب ج١٤ ص١٩١).

(٩) لعلّ مقصود الشّيخ الكبير من هذا الكلمة: المزاح، يقال: طايَبه: مازَحه. (راجع: الجوهريّ: الصّحاح ج١ ص١٧٣، وابن منظور: لسان العرب ج١ ص٥٦٦).

واحفظ أوقات ليلك ونهارك أن لا تذهب[1] منك هباءً[2]، فإنّه معروض ومسئول منك، فاحذر أن لا يكون وبالًا عليك وحسرة في القيامة، وبالله التّوفيق.

(١) عند (صبيروي): «يذهب».

(٢) هكذا في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، وصوّبت في هامش النّسخة (أ): «وباء»، ولعلّ ما في الأصل هو الصّواب.

فصل
[في وجوب شغل الأوقات بعمل نافع دينًا ودنيا[1]]

وليحذر المريد، فَلْتَكُنْ مراعاة ساعاته عامرة بضرب من ضروب الأذكار، وليحذر ساعات الغفلات، فتكون ساعاته مقسومة من حين طلوع الفجر إلى وقت غروب الشّمس، فيكون سعيه:

إمّا طالبًا للعلم النافع ممّا يُقَوِّيك على قطع العلائق، ويوصلّك إلى ما قد نَوَيْتَ من الخيرات.

وإمّا أن تكون تلقى[2] فيه من إذا رأيته ألبسك رؤيته ادِّكار الآخرة ويُقَوِّيك على طلب ما أنت تريده.

أو تكون في طلب قُوْتِك من وجهه وهو أجَلُّ السعي.

أو تكون في إقامة ما وَظَّفْتَ على نفسك من أورادك.

أو تكون في سعيٍ لقضاء حوائج إخوانك.

أو تكون زائرًا لبعض الصالحين؛ طلبًا لثواب ربِّ العالمين.

أو تكون مُعِينًا لأخيك أو ضعيفًا بفضل علمك أو ذات يدك ممّا تجد السّبيل إليه.

(١) تناول ابن خفيف في هذا الفصل قضيّة حفظ المريد للوقت واستغلاله فيما يُرضي الله تعالى، وللاستزادة حول هذه القضيّة راجع: السّيرجانيّ: كتاب البياض والسّواد ص١٤٣:١٤٦، أبو حفص السّهرورديّ: عوارف المعارف ص٣٩٣:٤٠٤، وابن عجيبة: إيقاظ الهمم ص٤٤٧.

(٢) في النّسخة (أ): «بتلقاه».

مع استدامة أذكار القلوب والتيقُّظ من الغفلات.

وتُعطي نفسك حظّها من النوم بالنّهار؛ ليكون[1] عونًا على قيام اللّيل.

وتراعي أوقاتك في يوم صومك من مراعاة جوارحك بالمنع[2] منها إلى ما يكون عليها وبالًا أو تأثيرًا في صومك.

واقصد الجنائز على شرط الإخلاص وإسقاط رؤية صاحب الجنازة، أن لا تُحبّ أن يراك فيذهب أجرك ويبطل سعيك.

وعوِّد نفسك عيادة المرضى، وخاصّة المطروحين بالأطراف، فَأَعِنهم بما يعود عليهم[3] النّفع بمالك ولسانك وبذل جاهك، وتنبيه أهل الفضل على أحوالهم، ورَغِّبهم في ثواب تَفَقُّدِهم، وما يُعوّض الله لمن قام لمريض فقير بإعطاء شهوة أو بسدّ فاقة أو خدمة لنفسه، فإنّ ذلك ممّا يقربك إلى الله ﷻ، وبالله التّوفيق.

---

(١) عند (صبيروي): «لتكون».

(٢) عند (صبيروي): «ما يمنع».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «عليه».

فصل

[في وجوب مراعاة اللّيل وقسمته من أوله إلى آخره في الطّاعات[1]]

وليحذر المريد ساعات ليله وهجوم ظلامه أن لا يفوته، فقد حثّ ﷺ أمّته فقال: «عليكم بقيام اللّيل، فإنّه دأب الصالحين قبلكم، ومنهاة عن الإثم، ومطردة للدّاء عن الجسد»[2]، وقد قال ﷺ: «ما نام أحد إلى الصّباح إلا بال الشّيطان في أذنيه»[3].

وأن يراعي بين[4] المغرب والعشاء فإنّه صلاة الأوّابين[5]، وهو وقت يشتغل فيه

---

(١) تناول ابن خفيف في هذا الفصل قضيّة توزيع المريد لأوقات اللّيل واستغلالها فيما يرضي الله تعالى، وللاستزادة حول هذه القضيّة راجع: الغزاليّ: الإحياء ج١ ص٣٤٠:٣٤٨، وأبو حفص السّهرورديّ: عوارف المعارف ص٣٧٢:٣٨٣.

(٢) أخرجه التّرمذيّ في سننه عن بلال رضي الله عنه، أبواب «الدّعوات»، ج٥ ص٤٤٤ برقم ٣٥٤٩، بلفظ: «عليكم بقيام اللّيل فإنّه دأب الصّالحين قبلكم، وإنّ قيام اللّيل قربة إلى الله، ومنهاة عن الإثم، وتكفير للسّيّئات، ومطردة للدّاء عن الجسد»، وأعلّه، ثمّ ساق رواية أخرى عن أبي أمامة بلفظ: «عليكم بقيام اللّيل فإنّه دأب الصّالحين قبلكم، وهو قربة إلى ربّكم، ومكفرة للسّيّئات، ومنهاة للإثم»، ثمّ قال: وهذا أصحّ من حديث أبي إدريس عن بلال.ا.هـ قال العراقيّ: أخرجه التّرمذيّ من حديث بلال وقال غريب ولا يصحّ ورواه الطبرانيّ والبيهقيّ من حديث أبي أمامة بسند حسن وقال التّرمذيّ إنّه أصحّ.ا.هـ. (المغني عن حمل الأسفار ص٤٢١).

(٣) سبق تخريجه ص٣٥٠.

(٤) عند (صبيروي): «هو».

(٥) تُطلَق صلاة الأوّابين على صلاة الضّحى، ففي الحديث: «صلاة الأوّابين حين تَرْمَض الفِصال» (أخرجه مسلم في الصّحيح عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، كتاب «صلاة المسافرين وقصرها»، باب «صلاة الأوّابين حين ترمض الفصال»، ج١ ص٥١٥ برقم ٧٤٨، والمقصود من «ترمض الفصال» أي: حين يحترق أخفاف الفصال وهي الصّغار من أولاد الإبل جمع فصيل من شدّة حرّ الرّمل، وهذا أفضل وقت لصلاة الضّحى. (راجع: النّوويّ: المنهاج شرح صحيح مسلم ج٦ ص٣٠). =

الصّائمون والمُفْطِرون على اختلاف أحوالهم، وليحذر أن لا تفوته الصّلوات[1] في الجماعات وخاصّة الصّبح والعشاء[2] الآخرة، فقد قال ﷺ: «من حافظ على البردين دخل الجنّة»[3]، وقد كانت النّساء تحضرن مع رسول الله ﷺ فيهما[4].

وليجتهد أن لا يفوته ورده من القراءة[5] إمّا[6] في أول اللّيل أو[7] في آخره؛ خوفًا من أن يُكتب من الغافلين، وليجتهد أن يكون متيقّظًا[8] عند السّحر قبل طلوع الفجر ليدرك أوقات ما أخبر ﷺ عن الله ﷻ: «أنّه إذا بقي ثلث اللّيل الآخر ينزل الله ﷻ إلى السّماء الدّنيا فيبسط يديه فيقول: ألا من سائلٍ فأعطيه، ألا من داعٍ فأستجيب له، ألا من مستغفرٍ فأغفر له؟»[9]، والله أعلى وأجلّ وأصدق القائلين أن يَعِدَ ثمّ يُخلف، فيقوم العبد مُصَدِّقًا لقوله،

=وكذا تُطلق صلاة الأوّابين على الصّلاة بين المغرب والعشاء، فقد ذكر الشوكانيّ عددًا من الآثار في فضل الصّلاة بين المغرب والعشاء ثم قال بعدها: «وقد رُوي عن محمد بن المنكدر «أن النّبيّ ﷺ قال: إنّها صلاة الأوّابين»، وهذا وإن كان مرسلًا لا يعارضه ما في الصّحيح من قوله ﷺ: «صلاة الأوّابين إذا رمضت الفصال»، فإنّه لا مانع أن يكون كلّ من الصّلاتين صلاة الأوّابين». (الشوكانيّ: نيل الأوطار ج٣ ص٦٧ (بتحقيق: عصام الدين الصّبابطيّ، الطّبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م، دار الحديث، مصر).

(١) عند (صبيروي): «الصلوة».

(٢) هكذا في النّسخة (أ) وعند (صبيروي)، وصُوِّبت فوقها في النّسخة (أ): «عشاء»، والصّواب ما في الأصل.

(٣) أخرجه البخاريّ في الصّحيح عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه، كتاب «مواقيت الصّلاة»، باب «فضل صلاة الفجر»، ج١ ص١١٩ برقم ٥٧٤، ومسلم في الصّحيح عنه، كتاب «الصّلاة»، باب «فضل صلاتي الصّبح والعصر، والمحافظة عليهما»، ج١ ص٤٤٠ برقم ٦٣٥، كلاهما بلفظ: «من صلّى البردين دخل الجنّة».

(٤) عند (صبيروي): «فيها».

(٥) عند (صبيروي): «القراءات».

(٦) - «إما» عند (صبيروي).

(٧) عند (صبيروي): «و».

(٨) عند (صبيروي): «مستيقظًا».

(٩) سبق تخريجه هامش رقم (--) ص٣٤٩.

قاصدًا وطالبًا ومُتَعَرِّضًا ومُفتقرًا ومُناجيًا[1] وسائلًا ومُستغفرًا نادمًا، ثمّ يمنعه ذلك ويبخس حظّه وهو يقول: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، واللّيل مطيّة الأبرار وملجأ الأخيار وأهل الضرّ والافتقار وأهل التعرّض والنّوال[2]، وبالله التّوفيق.

(١) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «وناجيًا».

(٢) هكذا في النّسخة (أ)، وصوّبت في الهامش: «التعريض والإنزال»، ولعلّ الأصوب ما في الأصل.

فصل
[في الواجب على المريد إذا اعترته فترة أو انقطاع عن أحواله السّابقة[1]]

وليحذر المريد في حال فترته أن يُراعي الصّدق والإخلاص في كتمان أحواله، وأن تكون أحواله السّرّ أحب إليه من إعلانه، حتى يكون الله ﷻ يلبسه رداء عمله من حيث ذهاب اختياره لمحبّة كتمانه.

وذلك أنّ المريد إذا عُرف بالأحوال السّنِيَّة، وظهرت عليه معاملات رفيعة من كثرة الصّوم والصّلاة وترك الشّهوات وقلّة النّوم في اللّيالي الدّاجيات[2] وترك الدّنيا وإظهار الزّهد والورع، فإذا كان أوان فترته ووقت انقطاعه من تلك الأحوال السَّنِيَّة - كما قال ﷺ: «إنّ لكلّ عَمَلٍ[3] شِرَّة[4]، ولكلّ شِرَّة فَتْرَة»[5] - فتورثه الفترة محبّة[6] أن يُذْكَر بتلك الأحوال.

فيُخفي أكله بإظهار صومه، ويستر عن الخلق تصرُّفه من أين أخذ حظوظه، ويكره

---

(١) في هذا الفصل حذّر ابن خفيف المريدَ من عدم مراعاة الإخلاص في حال فترته، حيث يُراعي الخلق ويخشى أن يطّلعوا على حاله هذا الّذي يظهر فيه جليًّا فتور عزيمته عمّا كان عليه من عبادات ومجاهدات، وقد تحدّث ابن خفيف في فصلين سابقين عن «الفترة» وكيفيّة تعامل المريد مع تلك الحال بما ينجّيه من آفاتها. (راجع ص ٣٠٩ - ٣١٢ من هذا الكتاب).

(٢) أي: المُظْلِمَات. (راجع: الجوهريّ: الصّحاح ج٦ ص٢٣٣٤، وابن منظور: لسان العرب ج١٤ ص٢٥٠).

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «عالم».

(٤) مكتوب تحتها في النّسخة (أ): «حدة».

(٥) أخرجه أحمد في «المسند» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ج١١ ص٣٧٥ برقم ٦٧٦٣، وابن حبّان في صحيحه عنه، ج١ ص١٨٧ برقم ١١ بتحقيق: شعيب الأرنؤوط، الطبعة الثانية سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، مؤسسة الرسالة - بيروت)، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده صحيح على شرط الشّيخين.

(٦) عند (صبيروي): «محبته».

اطّلاع النّاس على رجوعه وانقطاعه، ولا يحبّ أن[1] يُنظر إليه بأوصاف فترته ورجوعه وانقطاعه[2] عما كان به[3] بَدِيًا[4] من سَنِيّ أحواله، حتّى ربّما يصير أكله مستخفيًا في مواضع مُنْكَرة من الأخلية[5] والأَزِقّة[6] والأروقة[7][8] النائية[9]، ويكون[10] قبوله من الخلق شيئًا[11] من أعراض الدّنيا على الاستخفاء، والمراعاة من النّاس وإظهار ما كان به من الزّهد والورع وقلّة التّصرُّف، وحالته حالة لا تليق[12] بأهل معاملته، فيفارق الإخلاص

---

(١) بداية من هذه الكلمة عادت معنا النّسخة (ب)، لذا سنرجع في تحقيق النّصّ إلى المقارنة بين النّسختين (أ) و(ب) ونشرة (صبيروي).

(٢) - «وانقطاعه» في النّسخة (ب).

(٣) - «به» في النّسخة (أ).

(٤) عند (صبيروي): «بدنًا».

(٥) واضح من السّياق أنّ المقصود من «الأخلية» تلك الأماكن الّتي لا شيء بها. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٢ ص٢٠٤، وابن منظور: لسان العرب ج١٤ ص٢٣٨).

(٦) الأزقّة: جمع زُقاق، وهو الطّريق الضّيّق دون السّكة. (راجع: الجوهريّ: الصّحاح ج٤ ص١٤٩١، وابن منظور: لسان العرب ج١٠ ص١٤٣).

(٧) في النّسخة (ب): «والازوية».

(٨) جاء في لسان العرب: «ورَوْق البيت: مقدَّمه، ورِواقه ورُواقه: ما بين يديه، وقيل سماوته، وهي الشّقة الّتي دون العليا، والجمع أروقة، ورُوق في الكثير... الجوهريّ: الرَّوق والرِّواق سقف في مقدّم البيت، والرِّواق ستر يمدّ دون السّقف». (ابن منظور: لسان العرب ج١٠ ص١٣٢، وراجع: الجوهريّ: الصّحاح ج٤ ص١٤٨٥).

(٩) في النّسخة (ب): «النابتة».

(١٠) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «فيكون».

(١١) عند (صبيروي): «ثمنًا».

(١٢) في النّسخة (ب): «يليق».

من جميع الجهات الّتي[1] كان يستعمل، ويذهب عنه الصّدق الّذي كان قد[2] تَسَرْبَلَ به[3] مع الحقّ، فتكون[4] أوقاته المعمورة بالعبادة والتّقرُّب إليه[5] وقلّة المبالاة بالخلق تصير[6] مراعاتهم نصبًا في قلبك، ومراعيًا لأوقاتهم أن لا يطّلعوا على أحوالك في أوقات أكلك وشربك وأخذك من الدّنيا في[7] أوقات مخفيّة ومواضع نائية[8] والمواضع السّارية[9] واللّيالي[10] المظلمة، كيلا[11] يُوقَف عليه في ذلك، وبالله التّوفيق.

---

(١) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «الذي».

(٢) - «قد» في النّسخة (ب).

(٣) جاء في لسان العرب: «سَرْبَلَ: السّربال: القميص والدّرع، وقيل: كل ما لبس فهو سربال، وقد تَسَرْبَلَ به وسَرْبَلَه إياه وسَرْبَلْتُه فتَسَرْبَل أي ألبسته السّربال، وفي حديث عثمان ﷺ: «لا أخلع سربالًا سَرْبَلَنيه الله تعالى»، السّربال: القميص وكنّى به عن الخلافة ويُجمع على سرابيل». (ابن منظور: لسان العرب ج١١ ص٣٣٥، وراجع: مرتضى الزّبيديّ: تاج العروس ج٢٩ ص١٩٦).

وعليه فالمقصود من قول ابن خفيف: «ويذهب عنه الصّدق الّذي كان قد تَسَرْبَلَ به مع الحقّ»، أي: يذهب عنه الصّدق مع الله تعالى الّذي كان قد اكتسى وتحلّى به.

(٤) في النّسخة (ب): «فيكون».

(٥) في النّسخة (ب): «إليها».

(٦) في النّسخة (ب): «يصير».

(٧) - «في» في النّسخة (ب).

(٨) في النّسخة (ب): «نابتة».

(٩) في النّسخة (أ) مكتوب فوقها: «المظلمة»، وفي المعاجم اللّغوية أنّ من معاني «السّارية»: السّحابة الّتي تسري ليلًا أو السّحابة المَطِرة ليلًا. (راجع مثلًا: ابن منظور: لسان العرب ج١٤ ص٣٨٢، ومرتضى الزّبيديّ: تاج العروس ج٣٨ ص٢٦٣).

(١٠) في النّسخة (ب): «الليل».

(١١) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «لئلا».

فصل

[في وجوب الحذر من التّصدّر وطلب الرّئاسة قبل أوانها لما يترتب على ذلك من آفات[1]]

ثمّ ليحذر المريد الصّادق إظهار نفسه في الرئاسة قبل حينه وأوانه، فإنّ ذلك يُوَلِّد عليه آفات[2] تقطعه عن الله تعالى[3] بادّعائه أنّه من الدّعاة إلى الله ﷻ[4].

فمن[5] ذلك اشتغال قلبه بمن يجالسه، والتّفكّر في إقبالهم عليه، وكثرة الاهتمام إذا انتقلوا عنه إلى غيره، و[6]ما يجده[7] عليه و[8]على المقصود الّذي ذهب إليه[9] من الحقد وطلب الوقيعة ووجود البغضاء[10]، فقد رُوي عن زاذان[11] أنّه[12] قال: كنتُ مع أمير

(١) في هذا الفصل تناول الشيخ الكبير قضيّة حبّ المريد للتّصدُّر للمشيخة قبل أن يأتي أوانه وما يترتّب على ذلك من آفات خطيرة تقطعه عن طريق الله تعالى فضلًا عن أن يأخذ بيد غيره فيه، وللمزيد حول هذه القضيّة راجع: القشيريّ: الرّسالة القشيريّة ج٢ ص٥٨٣، والغزاليّ: الإحياء ج١ ص٤٨، وزرّوق الفاسيّ: عدّة المريد الصّادق ص٤٤.

(٢) في النّسخة (ب): «آفاتا».

(٣) في النّسخة (أ) وعند (صيروي): «ﷻ».

(٤) – «بادعائه أنه من الدعاة إلى الله ﷻ» في النّسخة (ب).

(٥) في النّسخة (ب): «من».

(٦) – «و» في النّسخة (ب).

(٧) في النّسخة (ب): «يجد».

(٨) – «و» في النّسخة (ب).

(٩) في النّسخة (ب): «عليه».

(١٠) في وصيّة ابن خفيف للمريدين: «الرابع والعشرون: إيّاه والحسد، وعلامة الحسد أن يحسد النّاس على ما آتاهم الله من فضله». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٨/ أ، ب).

(١١) في النّسخة (ب): «ذاذان».

(١٢) – «أنه» في النّسخة (ب).

المؤمنين عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ومعه الدِّرَّة ودخل المسجد فإذا رجل[1] يَقُصّ، فوقف عليه فقال له: «عرفتَ النّاسخ والمنسوخ»، قال: لا، قال: «فتعرف الفرائض»، قال: لا، فضربه بالدِّرَّة، فقلت: يا سبحان الله، تضرب رجلًا[2] يذكر الله، فقال عليّ: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: يكون في آخر الزّمان أقوام[3] يُحدِّثون[4] الخلق يقصُّون، فإذا قام أحدهم من مجلسه إلى مجلس غيره وجد[5] في نفسه، أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم، أو[6] كما قال[7].

وخصلة أخرى: أن يتكلّف لهم ما لم ينوِ من الأفعال الّتي يتقرب بذلك إلى قلوبهم؛ ليستعطفهم على نفسه.

وخصلة أخرى: الوضع من العلماء والحكماء عندهم أنّهم طلاب الدّنيا، فيصفم بالآفات والتّخلُّف الذي به[8] يسقطون من أعين الحاضرين ليرفع نفسه.

---

(١) في النّسخة (ب): «رجع».

(٢) في النّسخة (ب): «أحدا».

(٣) في النّسخة (ب): «قوم».

(٤) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «يتحدثون».

(٥) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «فوجده».

(٦) في النّسخة (ب): «و».

(٧) روى النّحاس في «النّاسخ والمنسوخ» ص٤٧ (بتحقيق: د/ محمّد عبد السّلام، الطّبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ مكتبة الفلاح - الكويت)، بسنده عن أبي البختريّ أنّه قال: دخل عليّ بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ المسجد فإذا رجل يُخَوِّف النّاس فقال: «ما هذا؟» فقالوا: رجل يُذَكِّر النّاس، فقال: «ليس برجل يُذكّر النّاس ولكنّه يقول: أنا فلان ابن فلان فاعرفوني»، فأرسل إليه أتعرف النّاسخ من المنسوخ؟ فقال: لا، قال: «فاخرج من مسجدنا ولا تُذَكِّر فيه». (الأثر صحيح وله رويات متعددة، راجع: ابن الجوزيّ: نواسخ القرآن ص٢٤ (بتحقيق: أبو عبد الله العامليّ، الطّبعة الأولى سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م، شركه أبناء شريف الأنصاريّ - بيروت)، لكن لم يرد في رواياته نصّ الحديث الّذي أورده ابن خفيف في آخره).

(٨) في النّسختين (أ) و(ب): «بهم».

وخصلة أخرى: وهو أنّه لا يرتفع هو عندهم إلا بإسقاط هؤلاء العلماء، و[1] إلا بالوقيعة، وإظهار التّبرّي من عارهم ومنقصة أوصافهم لإظهار نفسه[2].

وخصلة أخرى: وهو الإخبار والتّشبُّع[3] بما لم يعمله[4] ولم يُنازله[5] من أوصاف أهل الحقائق ليثبت عندهم نفسه.

وخصلة أخرى: إظهار التّصنُّع وطلب التّرفُّع من لُقيا[6] العلماء وأهل الحقيقة شرفًا عندهم لنفسه.

وخصلة أخرى: وهو التّبجُّح بالحكايات عن أهل الحقيقة[7]، وطول خدمته لهم؛ ليُظهر شرفه لرؤيتهم[8]، وليُعَرِّف[9] الحاضرين منزلته[10] وطول صحبته لإظهار نفسه.

وخصلة أخرى: وهو ما بلغه من أوصاف المتقدّمين وحكايات الصّالحين فيضيف[11] ذلك إلى حاله طلبًا[12] ....

(١) - «و» في النّسخة (ب).

(٢) في وصيّة ابن خفيف للمريدين: «الحادي والعشرون: أن لا يقبل من نفسه شيئًا من الوسواس أنّه خير من غيره، وأنّه يعلم ما لا يعلم غيره». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٨/ أ).

(٣) في النّسخة (ب): «التشنيع».

(٤) في النّسختين (أ) و(ب): «يعلمها»، وعند (صبيروي): «يعملها».

(٥) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «ينازلها».

(٦) في النّسخة (أ): «لقي»، وعند (صبيروي): «لُقِيّ».

(٧) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «القصة».

(٨) في النّسخة (ب): «ليرؤيتهم».

(٩) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «ليعرف».

(١٠) في النّسخة (ب): «منزلتهم».

(١١) عند (صبيروي): «ليضيف».

(١٢) في النّسخة (ب): «طالبًا».

للمنزلة في[1] نفسه[2].

وخصلة أخرى: وهو الاستنكاف عن التّعلُّم عند عقد الرّئاسة ممّا يحتاج إليه؛ خوفًا بأن لا ينظروا[3] إليه أنّه محتاج إلى التّعلُّم، وأنّه لا يستحق أن يكون أستاذ[4] المريدين[5]؛ طلبًا لعزّ نفسه.

وخصلة أخرى: وهو محاكاة المشايخ في لباسهم وزيّهم ادّعاءً منه أنّه من نظرائهم وأشكالهم.

وخصلة أخرى: وهو اندساس[6] نفسه في جملة[7] المذكورين في المحافل والمشاهد، والمشي معهم، وإظهاره أنّه منهم ومن جملتهم لعيون العامّة وبعض الخاصّة لإظهار[8] نفسه.

وخصلة أخرى: أنّه يعمد[9] إلى كلّ ما تكلّم به العلماء من المتقدّمين من الحكمة قصدًا[10] إلى[11] الاعتراض عليهم والردّ لمقالاتهم عند هؤلاء الجهّال لإثبات حاله

(١) - «في» في النّسخة (ب).

(٢) في النّسخة (ب): «النفسه».

(٣) - «خوفًا بأن لا ينظروا» في النّسخة (ب).

(٤) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «أستاذا».

(٥) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «للمريدين».

(٦) عند (صبيروي): «أنه ساس».

(٧) في النّسخة (ب): «جمل».

(٨) في النّسخة (ب): «باظهار».

(٩) في النّسخة (أ): «يعهد».

(١٠) في النّسخة (ب): «وقصد».

(١١) - «إلى» في النّسخة (ب).

وشرف نفسه.

وخصلة أخرى: وهو أنّه لا يُذكر عنده عالم أديب، و[1]حكيم لبيب من أهل زمانه إلا علّق عليه من الزلّات، و[2]خصلة من العثرات أو خطأً ممّا لا يعرى منه الكرام لإظهار نفسه.

وخصلة أخرى: وهو من أحفظ النّاس لخطأ المتقدّمين وزلّات المتأخرين مع سوء الرأي في جميع أحوالهم لإظهار نفسه[3].

وخصلة أخرى: إذا وجد منافقًا يُصغي إليه كشفًا[4] عن[5] عورات[6] الطّائفة المنسوبة إليهم من الوضع وإظهار فساد ما قد أتوا من قبيح الفعل من المحترمين[7]، فَيُعَلِّق[8] على جملتهم قاطبة لا يميز[9] الخبيث من الطّيب، كلّ ذلك ليبرّئ[10] نفسه.

وخصلة أخرى: و[11]هو أنه يُذهِب أوقاته آناء اللّيل والنّهار للاهتمام بمجلسه، في[12]

(١) - «و» في النّسخة (ب).

(٢) - «و» في النّسخة (ب).

(٣) - «مع سوء الرأي في جميع أحوالهم لإظهار نفسه» في النّسخة (ب).

(٤) في النّسخة (ب): «عن كشف».

(٥) - «عن» في النّسخة (ب).

(٦) في النّسخة (ب): «عوار».

(٧) في النّسختين (أ) و(ب): «المتحرمين»، وعند (صبيروي): «المتجرمين»، وصوّبت فوق الكلمة في النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٨) في النّسخة (أ): «فتعلق».

(٩) - «قاطبة لا يميز» في النّسخة (ب).

(١٠) في النّسخة (ب): «التبرى»، وعند (صبيروي): «التبري».

(١١) - «و» في النّسخة (ب).

(١٢) في النّسخة (ب): «و».

مطالعة من يحضره، ومراعاة قاصديه، والاهتمام بمريديه، والتّملّق للعامّة في إثبات رئاسة نفسه.

فليحذر تلك[1] كلّها، ويكون منها على خطر[2]، وبالله التّوفيق.

(١) في النّسختين (أ) و(ب): «ذلك».

(٢) في النّسخة (ب): «خط».

فصل
[في وجوب الاعتناء بالنّفس وعدم الغفلة عن سياستها حتّى ولو تناهى في المعرفة[1]]

ثمّ ليحذر المريد الصّادق أن يُراعي نفسه ولا يغفل عنها وإن تناهى في المعرفة والعلم بالله ﷻ، فإنّه كان في نبوته ﷺ مراعيًا لها ومستعيذًا بالله منها، فكان[2] يقول ﷺ: «اللّهمّ إنّي أعوذ بك من شرّ نفسي»[3]، ويقول: «اللّهمّ لا تكلني إلى نفسي طرفة عين ولا أقلّ من ذلك ولا أكثر»[4]، «إنّك إن تكلني إلى نفسي تكلني إلى ضيعة وعورة»[5]، فاحذرها على

---

(١) سبق أن عقد الشّيخ الكبير فصلين تناول فيهما قضيّة معرفة أخلاق النّفس الدّنية وضرورة مجاهدتها (راجع ص٣٠٢ - ٣٠٥)، وههنا يعود فيؤكّد على ضرورة أن لا يغفل المريد عن هذا الأمر حتّى في المراحل المتقدّمة في طريق معرفة الله تعالى.

(٢) في النّسخة (ب): «وكان».

(٣) أخرجه أبو داود في سننه، أبواب «النّوم»، باب «ما يقول إذا أصبح»، ج٧ ص٤٠٣ برقم ٥٠٦٧، بلفظ: عن أبي هريرة أنّ أبا بكر الصّدّيق قال: يا رسول الله ﷺ، مُرْني بكلمات أقولهنّ إذا أصبحتُ وإذا أمسيتُ، قال: «قل: اللّهمّ فاطر السّماوات والأرض، عالم الغيب والشّهادة، ربّ كلّ شيء ومليكه، أشهد أن لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شرّ نفسي، وشرّ الشّيطان وشركه»، قال: «قلها إذا أصبحتَ، وإذا أمسيتَ، وإذا أخذتَ مضجعك»، والتّرمذيّ في سننه، أبواب «الدّعوات»، ج٥ ص٣٣٤ برقم ٣٣٩٢، واللفظ لأبي داود، وقال التّرمذيّ: هذا حديث حسن صحيح.

(٤) أخرجه أحمد في المسند ج٣٤ ص٧٤ برقم ٢٠٤٣٠ عن عبد الرحمن بن أبي بكرة عن أبيه، بلفظ: وقال النّبيّ ﷺ: «دعوات المكروب: اللّهمّ رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، أصلح لي شأني كلّه، لا إله إلا أنت»، وأبو داود في سننه، أبواب «النّوم»، باب «ما يقول إذا أصبح»، ج٧ ص٤٢١ برقم ٥٠٩٠، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده حسن.

(٥) أخرجه أحمد في المسند عن زيد بن ثابت ﷺ، ج٣٥ ص٥٢١ برقم ٢١٦٦٧، بلفظ: «وأشهد أنّك إن تكلني إلى نفسي، تكلني إلى ضيعة وعورة وذنب وخطيئة»، وقال الهيثمي: رواه أحمد، والطبرانيّ، وأحد=

الأحوال كلّها.

واعلم[١] أنّها طالبة[٢] أن تكون ضدّ الله - تبارك وتعالى - في دعواه، وندًّا لله[٣] في مطالبتها، وقد طمعته[٤]، بل تطلب[٥] أنّ ما طالب[٦] الله تعالى[٧] من عباده لما[٨] يستحق منهم هو المطالب لهم.

وذلك أنّ الله ﷻ طالب عباده بالثّناء والمدح له[٩]، وطالبت النّفس[١٠] ذلك.

وطالب الله عباده أن يكون هو المذكور في الأنام عند الخاصّ والعامّ، وطالبت النّفس ذلك.

وطالب الله عباده أن يكون هو[١١] المشكور[١٢] المقصود، وطالبت النّفس ذلك.

وطالب الله عباده أن يكون المعبود بالذّلّة والمهانة، وطالبت النّفس ذلك.

=إسنادي الطبرانيّ رجاله وُثّقوا، وفي بقية الأسانيد أبو بكر بن أبي مريم، وهو ضعيف. (الهيثمي: مجمع الزوائد ج١٠ ص١١٣ برقم ١٦٩٨٨).

(١) في النّسخة (ب): «فاعلم».

(٢) في النّسخة (ب): «طالبت».

(٣) - «لله» في النّسخة (أ).

(٤) في النّسخة (ب): «طمع».

(٥) في النّسخة (ب): «يطلب».

(٦) في النّسخة (ب): «انما طالب».

(٧) - «تعالى» في النّسخة (ب).

(٨) في النّسخة (ب): «بما».

(٩) - «له» في النّسخة (ب).

(١٠) - «النفس» في النّسخة (ب).

(١١) - «هو» في النّسخة (أ) وعند (صبيروي).

(١٢) في النّسخة (ب): «المذكور».

وطالب الله عباده أن لا يخالفوا أمره والقيام له بالوفاء، وطالبت النّفس ذلك[1].

وطالب الله العباد أن يكون هو المُنَزَّه عن السّوء، وطالبت النّفس[2] ذلك.

وطالب الله العباد أن يوصف بالجود[3] والكرم، وطالبت النّفس ذلك.

وطالب الله عباده أن يكون هو المرهوب منه والمرغوب فيه، وطالبت النّفس ذلك.

قال أبو عبد الله رحمة الله عليه[4]: وقد شرحتُ مطالباتها في مسألة مفردة[5]، وفيها[6] ذكرتُ[7] من أخلاقها كفاية، وبالله التّوفيق[8].

---

(١) - «ذلك، وطالب الله عباده أن لا يخالفوا أمره والقيام له بالوفاء وطالبت النفس ذلك» في النّسخة (ب).

(٢) - «النّفس» في النسخة (ب).

(٣) في النّسخة (ب): «السخاء».

(٤) - «قال أبو عبد الله رحمة الله عليه» في النّسخة (أ) وعند (صبيروي).

(٥) لعلها ضمن كتاب «المفردات» الذي ذُكِر ضمن مؤلفات الشّيخ الكبير.

(٦) في النّسخة (ب): «فيها».

(٧) في النّسخة (ب): «ذكرها».

(٨) في النّسخة (ب): «والله الموفق».

فصل
[في وجوب اتّخاذ المريد حرفة يكتسب منها معاشه صيانة لنفسه عن ذلّ المسألة[1]]

وليحذر المريد الصّادق أن لا يترك المكاسب والحرفة وطلب ما يعود عليه[2] من مصالح معاشه[3]، والأخذ من الوجه الّذي ذكرتُ في أوّل المسألة، احتياطًا لدينه ونزاهة لمذهبه قبل أوانه، ولا يكون في تركه[4] المكاسب مُقَلِّدًا لأهل زمانه ممّن ادّعى التّوكّل واختار الفقر قبل أن يستحكم علم النفوس وأخلاقها، وما يلزمه[5] من الرّياضات وترك المجاهدات وأحكام السّياسات، ممّا يلبسه من فنون العبادات من التّقلّل للمطعم واستعمال القناعة من الملبس.

وذلك أنّ النّفس إذا لم يتقدّم لها أوصاف التّقلّل بالزّهد والورع وترك المعتاد من المألوفات مِن أخذ الطّيبات ومناولة الشّهوات إذا فَقَدَ ما اعتاد مِن إرادته وُلِّد عليه[6] الطّمع، وتكالبت نفسه في الشَّرَه، واستعمل الطّلب والتكلّف، فألبسه الدورانَ في الأسواق والسّكك وأخرجه إلى البلدان طمعًا فيما في[7] أيدي النّاس على أحواله وإظهار فقره

(١) سبق أن عقد ابن خفيف فصلًا نبّه فيه المريد على قضيّة أنّ الأصل في المريد – خاصّة في بداياته – أن يكون له حرفة يقتات منها (راجع ص٣٧٧)، وهي القضيّة الّتي تبنّاها الشّيخ الكبير أيضًا في بعض كتبه الأخرى كما سبقت الإشارة إليه، وفي هذا الفصل يعاود الشّيخ الكبير فيؤكّد هذا الأمر بشيء من التّفصيل.

(٢) في النّسخة (أ): «إليه».

(٣) في النّسخة (ب): «معايشه».

(٤) في النّسخة (ب): «ترك».

(٥) عند (صبيروي): «يلزم».

(٦) – «عليه» في النّسخة (ب).

(٧) في النّسخة (ب): «في فيما».

وفاقته.

فالمكاسب[1] من وجهه على شرط ما أبيح له من قول الرّسول ﷺ لخير[2] له؛ إذ قد[3] منع الطّمع واستعاذ منه[4]، وتكلم العلماء والفقهاء[5] والحكماء من أهل القضيّة[6] على فساد الطّمع والطّلب والسّؤال لهذه الطّائفة خاصّة، حتى قال: «لأن يأخذ[7] أحدكم حبلًا فيحتطب خير له من أن يسأل النّاس أعطوه أو منعوه»[8].

ويعمل في صحّة الطّلب احتياطًا لنفسه لأنّه أقدر على إصلاح كسبه، والأخذ من حيث ما قد أجهد نفسه بأن[9] لا[10] يأخذ من رجل[11] لا يبالي ما أخذ وما ترك غير مراعٍ لوجوه الطّيّب وأخذ الحلال، فيكون المريد إذا أجهد نفسه لطلب الحلال فإن أعياه ذلك نزل إلى

(١) في النّسخة (ب): «المكاسب».

(٢) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «بخير».

(٣) في النّسخة (ب): «إذا ما قد».

(٤) صحّ عن النّبيّ ﷺ أنّه استعاذ من «نفس لا تشبع» (أخرجه مسلم في الصّحيح عن زيد بن أرقم، كتاب «الذّكر والدّعاء والتّوبة والاستغفار»، باب «التّعوّذ من شر ما عمل ومن شر ما لم يعمل»، ج٤ ص٢٠٨٨ برقم ٢٧٢٢)، وممّا يروى في هذا المقام: عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، قال: قال لنا رسول الله ﷺ: «استعيذوا بالله من طمع يهدي إلى طبع، ومن طمع يهدي إلى غير مطمع، ومن طمع حيث لا طمع». (أخرجه أحمد في المسند ج٣٦ ص٣٥١ برقم ٢٢٠٢١، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده ضعيف).

(٥) - «الفقهاء» في النّسخة (ب).

(٦) عند (صبيروي): «القصة».

(٧) في النّسخة (أ): «أخذ».

(٨) أخرجه البخاريّ في الصّحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه بألفاظ قريبة، كتاب «الزّكاة»، باب «الاستعفاف عن المسألة»، ج٢ ص١٢٣ برقم ١٤٧٠.

(٩) في النّسخة (ب): «من».

(١٠) - «لا» في النّسختين (أ) و(ب)، وأضافها (صبيروي) ليستقيم الكلام.

(١١) في النّسخة (ب): «اجل».

شبهة ألطف من الحرام، فهو عند الله[1] من المعذورين[2].

فأمّا تارك يترك مكاسبه ثمّ لا يبالي في أيّ وادٍ هلك، وأخذ[3] ممّن كان أمسه خيرًا له من يومه وبطن الأرض لمثله خير له من ظهرها، فإنّ عمدة أهل الخصوص[4] من المذكورين على تصفية القوت مثل إبراهيم بن أدهم وغيره، وسفيان الثوريّ، وسليمان الخوّاص[5]، ووُهيب بن الورد[6]، ويوسف بن أسباط[7]، ....

(١) في النّسخة (ب): «امته».

(٢) عند (صبيروي): «المغرورين».

(٣) + «فإنه» في النّسخة (ب).

(٤) في النّسخة (ب): «الخلوص».

(٥) من العابدين الكبار بالشّام، قال محمد بن يوسف الفريابيّ: «كنتُ في مجلس فيه الأوزاعيّ وسعيد بن عبد العزيز وسليمان الخوّاص فذكر الأوزاعيّ الزّهاد، فقال الأوزاعيّ: ما نريد أن نرى في دهرنا مثل هؤلاء، فقال سعيد بن عبد العزيز: سليمان الخوّاص ما رأيتُ أزهد منه، وكان سليمان في المجلس ولا يعلم سعيد، فرفع سليمان رأسه وقام، فأقبل الأوزاعيّ فقال: ويحك لا تعقل ما يخرج من رأسك تؤذي جليسنا تُزكّيه في وجهه». (راجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٨ ص٢٧٦، ٢٧٧، والذّهبيّ: سير أعلام النبلاء ج٨ ص١٧٨: ١٨٠).

(٦) هو أبو أميّة وهيب بن الورد بن أبي الورد المخزومي، بالولاء، من العبّاد الحكماء، من أهل مكة، ووفاته بها سنة ١٥٣ هـ كان من أقران إبراهيم بن أدهم، قال بشر بن الحارث: «أربعة رفعهم الله بطيب المطعم: وهيب بن الورد، وإبراهيم بن أدهم، ويوسف بن أسباط، وسليمان الخوّاص»، وكان سفيان الثوريّ إذا حدّث النّاس في المسجد الحرام وفرغ قال: «قوموا إلى الطبيب»، يعني وهيبًا، من أقواله: «الزّهد في الدّنيا أن لا تأسى على ما فاتك منها ولا تفرح بما أتاك منها». (راجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٨ ص١٤٠: ١٦١، والزّركليّ: الأعلام ج٨ ص١٢٨).

(٧) يوسف بن أسباط: الزّاهد، من سادات المشايخ، له مواعظ وحكم، روى عن محل بن خليفة، والثّوريّ، وزائدة بن قدامة، وروى عنه المسيّب بن واضح، وعبد الله بن خبيق، وغيرهما، نزل الثّغور مرابطًا، قال المسيّب: سألته عن الزّهد، فقال: «أن تزهد في الحلال، فأمّا الحرام، فإن ارتكبته، عذّبك»، توفّي سنة نيّف وتسعين ومائة من الهجرة. (راجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٨ ص٢٣٧: ٢٥٣، والذّهبيّ: سير أعلام=

وأبي معاوية الأسود[١]، وداود الطائيّ[٢]، وحذيفة المرعشيّ[٣]، والفضيل بن عياض[٤]، وابنه[٥]، ....

=النبلاء ج٩ ص١٦٩:١٧١، والشعرانيّ: الطّبقات الكبرى ج١ ص٥٢، ٥٣).

(١) أبو معاوية الأسود: من كبار أولياء الله، صحب سفيان الثوريّ، وإبراهيم بن أدهم، وغيرهما، وكان يُعَدُّ من الأبدال، وقيل: إنّه ذهب بصره، فكان إذا أراد التلاوة في المصحف، أبصر بإذن الله، قال أحمد بن أبي الحواريّ: «جاء إلى أبي معاوية الأسود جماعة، ثم قالوا: ادع الله لنا، فقال: اللّهمّ ارحمني بهم، ولا تحرمهم بي»، وله مواعظ وحكم، منها: «مَنْ كانت الدّنيا همّه، طال غدًا غمّه، ومَنْ خاف ما بين يديه، ضاق به ذرعه». (راجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٨ ص٢٧١:٢٧٦، والذّهبيّ: سير أعلام النبلاء ج٩ ص٧٨، ٧٩).

(٢) هو أبو سليمان داود بن نصير الطائيّ، الإمام، الفقيه، القدوة، الزّاهد، الكوفي، أحد الأولياء، وُلِدَ بعد المائة بسنوات، وروى عن عبد الملك بن عمير، وحميد الطّويل، وهشام بن عروة، وجماعة، حدّث عنه: ابن عليّة، وزافر بن سليمان، ومصعب بن المقدام، وآخرون، وكان من كبار أئمة الفقه والرأي، برع في العلم بأبي حنيفة، ثم أقبل على شأنه، ولزم الصّمت، وآثر الخمول، سأله رجل عن حديث، فقال: «دعني أبادر خروج نفسي»، وكان الثوريّ يُعَظِّمُه، ويقول: «أبصر داود أمره»، ومناقبه كثيرة، مات سنة ١٦٢هـ وقيل: سنة ١٦٥هـ. (انظر: الذّهبيّ: سير أعلام النبلاء ج٧ ص٤٢٢:٤٢٥، وراجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٧ ص٣٣٥:٣٦٧، وابن الملقّن: طبقات الأولياء ص٢٠٠:٢٠٣).

(٣) هو حذيفة بن قتادة المرعشيّ، الزّاهد، صاحب سفيان الثوريّ، له قدم في العبادة وكلام نافع، وهو القائل: «إن لم تخشَ أن يعذّبك الله على أفضل عملك فأنت هالك»، وقال: «لو وجدتُ من يُبْغِضُني في الله لأوجبتُ على نفسي حبّه»، توفّي سنة ٢٠٧هـ. (انظر: الذّهبيّ: تاريخ الإسلام ج٥ ص٤٧، وراجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٨ ص٢٦٧:٢٧١، والشعرانيّ: الطّبقات الكبرى ج١ ص٥٣).

(٤) هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميميّ اليربوعيّ، أبو عليّ: شيخ الحرم المكيّ، من أكابر العبّاد الصّلحاء، كان ثقة في الحديث، أخذ عنه خلق منهم الإمام الشّافعي، ولد في «سمرقند» سنة ١٠٥هـ ونشأ بـ«أبيورد»، ودخل الكوفة وهو كبير، وأصله منها، ثم سكن مكة وتوفّي بها سنة ١٨٧هـ من كلامه: «من عرف النّاس استراح». (الزّركليّ: الأعلام ج٥ ص١٥٣، وراجع: السّلميّ: طبقات الصّوفيّة ص٢٢:٢٧، وأبو نعيم: حلية الأولياء ج٨ ص٨٤:١٣٩).

(٥) هو عليّ بن الفضيل بن عياض التميميّ: من كبار الأولياء، روى عن عبد العزيز بن أبي رواد، وعبّاد بن منصور، وجماعة، وحدّث عنه سفيان بن عيينة وأبوه وموسى بن أعين وجماعة حكايات، قال فيه النسائي:=

وأبي[1] عبد الرحمن العمريّ[2] – رحمة الله عليهم –، فكانوا لا يُعَوِّدون نفوسهم إظهار الطّلب والتّكلُّف، و[3] إنّما حدثتْ[4] هذه التّسمية في[5] قولهم: «تارك» منذ سُنَيَّات[6] يسيرة، وإلا فقولهم: «التّرك» و«هو تارك»، لم[7] يتقدّمهم في ذلك أحد من الأئمة ممّن ترك المكاسب وصار معوّلهم[8] على الطّلب والتّكلُّف، وبالله التّوفيق.

=ثقة، مأمون، قال الخطيب: مات قبل أبيه بمدة من آية سمعها تُقرأ، فغشي عليه، وتوفّي في الحال، قال أبو سليمان الداراني: «كان علي بن الفضيل لا يستطيع أن يقرأ «القارعة»، ولا تُقرأ عليه». (الذّهبيّ: سير أعلام النبلاء ج٨ ص٤٤٢:٤٤٦، وراجع: حلية الأولياء ج٨ ص٢٩٧:٢٩٩).

(١) في النّسخة (ب): «وأبو».

(٢) هو أبو عبد الرّحمن عبد الله بن عبد العزيز بن عبد الله بن صاحب رسول الله ﷺ عبد الله بن عمر بن الخطّاب، القرشيّ العدويّ المدنيّ، روى عن أبيه وعن أبي طوالة، وروى عنه ابن عيينة وابن المبارك، وغيرهما، وهو قليل الرواية، مشتغل بنفسه، قوّال بالحقّ، أمّار بالعرف، لا تأخذه في الله لومة لائم، قال مصعب الزبيريّ: «كان العمري أصفر، جسيمًا، لم يكن يقبل من السّلطان ولا غيره، ومن وُلّي من أقاربه ومعارفه لا يكلّمه، ووُلّي أخوه عمر المدينة وكرمان، فهجره، ما أدركت بالمدينة رجلًا أهيب منه، وكان يقبل صلة ابن المبارك»، توفّي سنة ١٨٤هـ.(الذّهبيّ: سير أعلام النبلاء ج٨ ص٣٧٣:٣٧٨، وراجع: أبو نعيم: حلية الأولياء ج٨ ص٢٨٣:٢٨٧).

(٣) – «و» في النّسخة (ب).

(٤) في النّسخة (ب): «حديث».

(٥) في النّسخة (أ): «من»، وصوّبت فوقها على نحو ما هو مثبت، وهو ما توافق مع النّسخة (ب).

(٦) في النّسخة (ب): «سنات».

(٧) في النّسخة (ب): «لمن».

(٨) في النّسخة (ب): «معلومهم».

فصل
[في وجوب ترك مجالسة أهل المراء والجدال الّذي لا ينبني عليه علم[1]]

وليحذر المريد في صِدْقه أن يعمل في ترك مجالسة النّظّار من أهل الزّمان والموسوسين[2] بالمجادلة[3]، فإنّه[4] نهى رسول الله ﷺ عنها[5] وزجر عنها أشدّ المنع، وذكر أنّ المراء في القرآن كفر، فأوّلُ ذلك يولّد الشّحناء بينهم، ويُظهر التّحريش[6] بينهم، ويعتقد البغضاء والعداوة[7] طلبًا للرئاسة.

ولا يهولنّك فصاحتهم في المناظرات والمقالات، وإظهار البراعة ورفع الأصوات، وقطع الخصماء في المجالس، فإنّ ذلك خارج من النّصيحة طلبًا[8] للرئاسة والوصول إلى الدّنيا الدّنيّة، وطلب البلوغ في الرّفعة عند السّلاطين والظّلمة؛ لأنّهم بذلك يَتَوَصّلون[9]

(١) يُحَذِّر الشّيخ الكبير في هذا الفصل المريدَ من مجالسة أهل المراء والجدل والمناظرات، وسيتضح من كلامه أنّ المناظرات الّتي ينبغي أن يحذرها المريد هي تلك الّتي تجرُّ الآفات الّتي سيذكرها، ولأبي حامد الغزاليّ تفصيل في بيان آفات تلك المناظرات. (راجع: الغزالي: الإحياء ج١ ص٤١:٤٨).

(٢) في النّسخة (ب): «والمرسومين».

(٣) في وصيّة ابن خفيف للمريدين: «العشرين: أن لا يناظر معتزليًّا ولا قدريًّا ولا رافضيًّا ولا مبتدعًا آخر البتة». (مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٨/ أ).

(٤) في النّسخة (أ): «فإنها».

(٥) في النّسخة (ب): «عنه».

(٦) يقال: حَرَّش بينهم تحريشًا: أي: أفسد وأغرى بعضهم ببعض. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٢ ص٣٩، وابن منظور: لسان العرب ج٦ ص٢٧٩).

(٧) في النّسخة (ب): «العداوة والبغضاء».

(٨) في النّسختين (أ) و(ب): «طالبًا»، وصوِّبت الكلمة فوقها في النّسخة (أ) على نحو ما أثبتناه.

(٩) في النّسخة (ب): «يصلون».

إلى أخذ مُناهم من التّمكين عندهم وترك الحقّ لهم والإغضاء[1] عمّا هم عليه وتحسين ما قد تبسطوا فيها، فقد قال ﷺ عن جبريل عن الله ﷻ[2] أنّه قال: «يا محمد، بَشِّرْ أمّتك بالسّناء والرّفعة والتّمكين واليقين في الدّين، فمن عَمِلَ عَمَلَ الآخرة يريد به الدّنيا فليس له في الآخرة من نصيب»[3]، وقد قال ﷺ: «من طلب العلم ليُجاري[4] به العلماء أو يُماري[5] به السّفهاء أو ليصرف به[6] وجوه النّاس إليه فهو في النّار[7]»[8]، وبالله التّوفيق.

(١) مكتوب فوقها في النّسخة (أ): «أي الإغماض».

(٢) في النّسخة (ب): «ﷺ».

(٣) سبق تخريجه هامش رقم (--) ص٣٤٣.

(٤) في النّسخة (ب): «ليماري».

(٥) في النّسخة (ب): «ليجاري».

(٦) - «به» في النّسخة (ب).

(٧) في النّسخة (ب) وعند (صبيروي): «فليتبوأ مقعده من النار».

(٨) سبق تخريجه هامش رقم (--) ص٣٤١.

فصل
[في وجوب الحذر من مخالطة أهل الأهواء والبدع(1)]

ثمّ ليحذر المريد وليحفظ سرّه وعلانيته من الإصغاء إلى كلام الموسوسين(2) بالبدع من الضُّلّال(3) من أهل ملتك، فإنّهم القوم الّذين(4) حذّرهم رسول الله ﷺ أمّته(5) منهم وخاف(6) عليهم منهم فقال ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان، يقول الحقّ ويعمل بالجَوْر»(7)، وقال(8) ﷺ: «يكون في آخر الزمان حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون بقول خير البريّة، يمرقون من الدّين كما يمرق السّهم من الرَّمِيَّة»(9)،

(1) في هذا الفصل الأخير يُرشد ابن خفيف المريد إلى ضرورة التّمسّك بالسّنّة ومجانبة البدعة وأهلها، وهي الوصيّة الّتي طالما نصح بها الصّوفيّة من أهل السّنّة مريديهم وأكّدوا عليهم أن يعضّوا عليها بالنواجذ. (انظر مثلًا: الغزاليّ: الإحياء ج1 ص79 وما بعدها، وعبد القادر الجيلانيّ: الغنية ج1 ص165، 166، وزرّوق الفاسيّ: عدّة المريد ص30 وما بعدها).

(2) في النّسخة (ب): «المرسومين»، وعند (صبيروي): «الموسومين».

(3) في النّسخة (أ): «للضلال»، وعند (صبيروي): «والضلال».

(4) في النّسخة (أ) وعند (صبيروي): «الذي».

(5) في النّسخة (ب): «على أمته».

(6) في النّسخة (ب): «فخاف».

(7) أخرجه أحمد في المسند عن عمر بن الخطاب ، ج1 ص289 برقم 143، بلفظ: «إنّ أخوف ما أخاف على أمّتي كلّ منافق عليم اللسان»، وقال شعيب الأرنؤوط: إسناده قويّ.ا.هـ وأخرجه عبد بن حميد في مسنده ص32 برقم 11 (بتحقق: صبحي السامرائيّ و محمود الصّعيديّ، الطبعة الأولى سنة 1408هـ - 1988م، مكتبة السّنّة - القاهرة)، والبيهقيّ في «شعب الإيمان» ج3 ص273 برقم 1641 (بتحقيق: د/ عبد العليّ عبد الحميد، الطبعة الأولى سنة 1423هـ - 2003م، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع - الرياض)، من طرق عن ديلم بن غزوان بالإسناد الّذي عند أحمد، وفيه زيادة «يتكلم بالحكمة، ويعمل بالجور».

(8) في النّسخة (ب): «وقوله».

(9) أخرجه البخاريّ في الصّحيح عن عليّ بألفاظ قريبة، كتاب «المناقب»، باب «علامات النّبوّة»، ج4=

وذكر[1] الحديث.

وعليك بمنهج أصحاب الحديث[2] والأخذ من فقهائهم، والتعلُّق[3] بآثارهم، والبحث والطّلب عن[4] مذاهبهم، والكشف عن صحّة روايتهم، والنزول في أحوالهم[5].

واحذر المفتون منهم والمغرور من جملتهم، فإنّهم أعزّ النّاس إذا سلكوا منهاج أوائلهم، وأفتن[6] النّاس إذا فسدوا، فبهم[7] تهلك الأمّة وتهلك الشّريعة، فاجعل أوصاف المتقدّمين معيارهم، فمن وجدتَه لعلمهم[8] مُسْتَعْمِلًا، ولأوصاف مذهبهم[9] مُتَّبِعًا،

=ص٢٠٠ برقم ٣٦١١، ومسلم في الصحيح عنه، كتاب «الزّكاة»، باب «التّحريض على قتل الخوارج»، ج٢ ص٧٤٦ برقم ١٠٦٦.

(١) - «ذكر» في النّسخة (ب).

(٢) في النّسخة (ب): «الدين».

(٣) في النّسخة (ب): «وبالتعلق».

(٤) + «صحة» في النّسخة (ب).

(٥) مطالبة ابن خفيف للمريد بضرورة النزول في «أحوال» المحدِّثين هو ما يميّز الصّوفيّة عن غيرهم المناهج الأخرى، وإلّا فقد يكون الشّخص من البارعين في رواية الحديث وتمييز الصّحيح منه من السّقيم، لكنّه في سلوكه بعيد عن هدي خير المرسلين على نحو ما سيذكر ابن خفيف عن المفتون من المحدِّثين.
وقد ذكر ابن خفيف في كتاب «فضل التّصوّف على سائر المذاهب» أصناف القائلين بالسُّنَّة، وبَيَّن أنّهم ثلاث طوائف: طائفة المحدِّثين الحافظين لسنّة خير المرسلين من تحريف القوم الضّالين، وطائفة الفقهاء الكاشفين للحلال والحرام المبيِّنين لما ورد به الشّرع من أحكام، ثمّ طائفة الصّوفيّة المنازلين لحقائق العلم الآخذين بأوصافه، ثم ذكر بعد هذا أنّ الصّوفيّة هم أعلى القوم وأسناهم منزلة؛ لأنّ المدح خرج لهم من الله ومن رسوله، فإذا كان المحدِّثون مخبرين عن رسول الله ﷺ، والفقهاء مبيِّنين لكيفيّة أفعاله وأحواله، فإنّ الصّوفيّة منازلون لها وداخلون فيها. (ابن خفيف: فضل التّصوّف على سائر المذاهب ص٥٤، ٥٥).

(٦) في النّسخة (أ): «وأفسد».

(٧) في النّسختين (أ) و(ب) وعند (صبيروي): «فيهم».

(٨) في النّسخة (ب): «لعلمه».

(٩) في النّسخة (ب): «مذهبه».

ولأبواب السّلاطين قاليًا[1]، ولترك حطام ما في أيديهم تاركًا، وللطّمع فيهم[2] ساليًا[3][4]، وللغدوّ والرّواح إلى أبوابهم مهاجرًا، ومنهم فارًّا، ولقربهم غير مريد، وإليهم غير مُتَعرِّف[5]، فتمسَّك به.

فقد[6] بلغني أنّ المعتضد[7] أراد أن يرى بشر بن الحارث الحافي[8]، فقيل لبشر ذلك، فقال: «قل له: والله الّذي لا إله إلا هو لئن بلغني أنّك ذكرتني لذلك[9] ثانيًا، لأخرجنّ من

(١) قاليًا: من القِلى، وهو التّجافي عن الشّيء والذّهاب عنه والكره له. (راجع: ابن فارس: مقاييس اللّغة ج٥ ص١٦، وابن منظور: لسان العرب ج١٥ ص١٩٨).

(٢) في النّسخة (ب): «فيه».

(٣) في النّسخة (ب): «سالبًا».

(٤) من الفعل «سلا» أي: نسي. (راجع: ابن فارس مقاييس اللّغة ج٣ ص٩١، وابن منظور: لسان العرب ج١٤ ص٣٩٤).

(٥) في النّسخة (ب): «معرفا».

(٦) في النّسخة (ب): «قد».

(٧) هو أحمد بن طلحة بن جعفر، أبو العبّاس المعتضد بالله بن الموفّق بالله بن المتوكّل: خليفة عبّاسي، وُلد في بغداد سنة ٢٤٢هـ ونشأ بها، كان عون أبيه في حياته أيام خلافة المعتمد، وأظهر بسالة ودراية في حروبه مع الزنج والأعراب وهو في سنّ الشّباب، وبويع له بالخلافة بعد وفاة عمّه المعتمد سنة ٢٧٩ هـ وكان شجاعًا، ذا عزم، مهيبًا عند أصحابه يتّقون سطوته ويكفّون عن الظلم خوفًا منه، وكان نقش خاتمه (أحمد يؤمن بالله الواحد)، توفّي سنة ٢٨٩هـ (الزّركلي: الأعلام ج١ ص١٤٠، وراجع: ابن الأثير: الكامل في التّاريخ ج٦ ص٣٤٨، و٣٩٤ و٤٦٠).

(٨) هو بشر بن الحارث بن عليّ بن عبد الرحمن المروزيّ، أبو نصر، المعروف بالحافيّ: من كبار الصّالحين، له في الزّهد والورع أخبار، وهو من ثقات رجال الحديث، من أهل «مرو»، سكن بغداد وتوفّي بها سنة ٢٢٧هـ قال المأمون: «لم يبقَ في هذه الكورة أحد يُستحيى منه غير هذا الشّيخ بشر بن الحارث». (الزّركلي: الأعلام ج٢ ص٥٤، وراجع: السّلمي: طبقات الصّوفيّة ص٤٢:٥١، وابن خلّكان: وفيات الأعيان ج١ ص٢٧٤:٢٧٧).

(٩) - «لذلك» في النّسخة (ب).

جوارك ببغداد»، فبلغ ذلك المعتضد فقال: «قولوا له: لا أذكرك»[1]، أو كما قال، وبالله التّوفيق، وبه الحول والقوّة[2][3].

---

(١) لم أعثر على مصدر لهذه الحادثة بين بشر الحافيّ والمعتضد، وبالرّجوع لتاريخ وفاة بشر ومولد المعتضد يظهر أن المعتضد لم يعاصر بشرًا أصلًا فضلًا عن أن يجري بينهما مثل تلك الحادثة، فبشر توفّي سنة ٢٢٧هـ والمعتضد وُلِد سنة ٢٤٢هـ وهذا يعني أنّ المعتضد وُلِد بعد وفاة بشر بخمسة عشر عامًا، ولعلّ هذه الحادثة جرت بين بشر وبين المأمون الّذي ولد سنة ١٧٠هـ وتوفّي سنة ٢١٨هـ فقد سبق في ترجمة بشر قول المأمون فيه: «لم يبقَ في هذه الكورة أحد يُستحيى منه غير هذا الشّيخ بشر بن الحارث».

(٢) - «وبه الحول والقوة» في النّسخة (أ) وعند (صبيروي).

(٣) خُتمت النّسخة (أ) بقول النّاسخ: «تمّ كتاب الاقتصاد ممّا ألّفه الشّيخ الإمام العلّامة، قدوة أرباب الحقيقة، المعروف بالشّيخ الكبير أبو عبد الله محمّد بن خفيف قدّس الله روحه ورضي عنه، والحمد لله ربّ العالمين، وهو حسبي ونعم الوكيل، وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله وسلّم تسليمًا، بيد الكاتب لنفسه نجيب بن إمام الدّين الإيجيّ – غفر لهما – بالجامع العتيق بشيراز آخر أولى جمادى ثماني عشرة وثمانمائة»، وكُتب في هامش خاتمة النسخة: «كلام المؤلّف رضي الله عنه: يحتاج المريد إلى أربعة أشياء، دابّة فارهة، ودار واسعة، وثوب حسن، وسراج مضيء، أمّا الدابّة الفارهة فهي الصّبر، والدّار الواسعة هي العلم، والثّوب الحسن هو الحياء، والسّراج المضيء هو العقل.ا.هـ عاش مائة وخمس سنين، وقيل أربعة عشر، وتوفّي ليلة الثالث والعشرين من رمضان سنة إحدى وسبعين وثلاثمائة».

وكلام ابن خفيف الّذي نقله النّاسخ ههنا في الهامش هو جزء من وصيّة ابن خفيف للمريدين (راجع: مخطوط وصيّة ابن خفيف للمريدين، ل٢٨/ ب)، ونلاحظ أنّ في آخر نسخة «الفاتح» من «رسالة المعتقد للشّيخ ابن الخفيف» أنّ النّاسخ قد ألحق بهذه الرّسالة هذا الجزء من الوصيّة أيضًا (راجع: مخطوط رسالة المعتقد للشّيخ ابن الخفيف، ل١١/ أ، نسخة بمكتبة «الفاتح» ضمن مجموع رقم (٥٣٩١)، ل١١/ أ)، وهذا فيه ما فيه من أهميّة هذا الجزء، وكأنّه خلاصة مذهب ابن خفيف في التّصوّف الّذي جمع فيه بين الحقيقة والشّريعة كما يظهر للمتأمّل.

أما النّسخة (ب) من كتاب «الاقتصاد» فقد خُتمت بقول النّاسخ: «تمّ كتاب الاقتصاد بحمد الله وحسن توفيقه في العشر الوسطى من شهر شعبان المعظّم سنة ألف من الهجرة النّبويّة».

فهرس لأهم المصادر والمراجع[1]

الأشعري، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٣٢٤هـ):

• اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع، صححه وقدم له: د/ حمودة غرابة، المكتبة الأزهرية للتراث، سنة ١٩٩٣م.

الأقفهسي، أبو العباس أحمد بن عماد الدين الشافعي (ت ٨٠٨هـ):

• آداب الأكل، بتحقيق د/ عبد الغفار البنداري ومحمد زغلول، الطبعة الثانية سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، دار الكتب العلمية - بيروت.

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب (ت ٤٠٣هـ):

• تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل، بتحقيق: الشيخ عماد الدين أحمد حيدر، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م، مؤسسة الكتب الثقافية.

البغدادي، أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب (ت ٤٦٣هـ):

• تاريخ بغداد، بتحقيق: د/ بشار عواد معروف، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م، دار الغرب الإسلامي - بيروت.

البغدادي، إسماعيل بن محمد أمين بن مير سليم الباباني (ت ١٣٩٩هـ):

• إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون، عنى بتصحيحه وطبعه على نسخة

---

(١) تشتمل الدراسة والتحقيق على كثير من المراجع التي لم تدرج في هذه القائمة، ككتب تخريج الحديث النبوي الشريف، ومعاجم اللغة العربية، وغيرها من الكتب، فقد حاولنا هنا أن نضع أهم المراجع، ولذا ننبه القارئ الكريم إلى أنه يمكن الرجوع إلى هذه المراجع في موضعها بالكتاب.

المؤلف: محمد شرف الدين بالتقايا، والمعلم رفعت بيلكه الكليسى، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، بدون.

• هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، طبع بعناية وكالة المعارف الجليلة في مطبعتها البهية إستانبول، سنة ١٩٥١م.

البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر بن محمد التميمي (ت ٤٢٩هـ):

• الفرق بين الفرق وبيان الفرقة الناجية، الطبعة الثانية سنة ١٩٧٧م، دار الآفاق الجديدة - بيروت.

البزدوي، صدر الإسلام أبو اليسر محمد بن محمد بن الحسين (ت ٤٩٣هـ):

• أصول الدين، بتحقيق: هانز بيتر لنس، المكتبة الأزهرية للتراث - القاهرة، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣.

التلمساني، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد المقري (ت ١٠٤١هـ):

• أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، بتحقيق: مصطفى السقا وإبراهيم الإبياري، الطبعة الأولى سنة ١٩٣٩م، طبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة.

التهانوي، محمد بن علي ابن القاضي محمد حامد الفاروقي (ت بعد ١١٥٨هـ):

• كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، بتحقيق: د/ علي دحروج، وتعريب: د/ عبد الله الخالدي، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٦م، مكتبة لبنان ناشرون - بيروت.

ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم الحراني (ت ٧٢٨هـ):

• درء تعارض العقل والنقل، بتحقيق: محمد رشاد سالم، الطبعة الثانية سنة ١٩٩١م، جامعة الإمام - السعودية.

• الفتوى الحموية الكبرى، بتحقيق: حمد بن عبد المحسن التويجري، الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٤م، دار الصميعي - الرياض.

• مجموع الفتاوى، بتحقيق: عبد الرحمن بن محمد قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف سنة ١٩٩٥م.

جامي، أبو البركات عبد الرحمن بن نظام الدين أحمد الدشتي (ت ٨٩٨هـ):

• نفحات الأنس من حضرات القدس، طبعة الأزهر الشريف، بدون تاريخ.

الجرجاني، السيد الشريف علي بن محمد بن علي الزين (ت ٨١٦هـ):

• التعريفات، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م، دار الكتب العلمية - بيروت.

• شرح المواقف، دار الكتب العلمية - بيروت، بدون.

جنيد الشيرازي، معين الدين أبو القاسم جنيد بن محمود (ت ٧٩١هـ):

• شد الإزار في حط الأوزار عن زوار المزار، صححه: محمد قزويني وعباس إقبال، طبعة طهران سنة ١٣٢٨هـ.

ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت ٥٩٧هـ):

• تلبيس إبليس، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت.

الجويني، إمام الحرمين أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف (ت ٤٧٨هـ):

• الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد، بتحقيق: د/ محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد، مطبعة السعادة بمصر، سنة ١٣٩٦هـ - ١٩٥٠م.

الجيلاني، أبو محمد محيي الدين عبد القادر بن موسى الحسني (ت ٥٦١هـ):

• الغنية لطالبي طريق الحق ﷻ، بتحقيق: صلاح عويضة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية - بيروت.

حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله القسطنطيني العثماني (ت ١٠٦٧هـ):

• سلم الوصول إلى طبقات الفحول، بتحقيق: محمود عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة إرسكيا - تركيا، سنة ٢٠١٠م.

• كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، مكتبة المثنى - بغداد، سنة ١٩٤١م.

الخركوشي، عبد الملك بن محمد بن إبراهيم النيسابوري (ت ٤٠٧هـ):

• تهذيب الأسرار، بتحقيق بسام بارود، طبعة المجمع الثقافي - أبو ظبي، سنة ١٩٩٩م.

ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد ابن خلكان البرمكي الإربلي (ت ٦٨١هـ):

• وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، بتحقيق إحسان عباس، دار صادر - بيروت.

الديلمي، أبو الحسن علي بن محمد (ت بعد ٣٨٩هـ):

• سيرة الشيخ الكبير، ترجمها: ركن الدين يحيى بن جنيد الشيرازي، وترجمها إلى العربية: د/ إبراهيم الدسوقي شتا، طبعة الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية بالقاهرة، سنة ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.

• عطف الألف المألوف على اللام المعطوف، بتحقيق: الدكتور حسن الشافعي والدكتور «جوزيف نورمنت بل»، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م، دار الكتاب المصري - القاهرة، دار الكتاب اللبناني - بيروت.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨هـ):

- تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، بتحقيق: د/ بشار عواد، الطبعة الأولى سنة ٢٠٠٣م، دار الغرب الإسلامي.
- سير أعلام النبلاء، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، دار الحديث - القاهرة.

الراغب الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت ٥٠٢هـ):

- المفردات في غريب القرآن، بتحقيق: صفوان عدنان الداودي، الطبعة الأولى سنة ١٤١٢ه، ط دار القلم، الدار الشامية - دمشق، بيروت.

الزبيدي، السيد محمد بن محمد الحسيني الشهير بمرتضى (ت ١٢٠٥هـ):

- إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، مؤسسة التاريخ العربي - بيروت، سنة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

زروق، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن محمد الفاسي (ت ٨٩٩هـ):

- عدة المريد الصادق، بتحقيق الصادق الغرياني، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، دار ابن حزم.
- قواعد التصوف، ضبطه وعلق عليه: محمود بيروتي، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م، ط دار البيروتي - دمشق.

الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد (ت ٥٣٨هـ):

- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٧هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.
- المنهاج في أصول الدين، بتحقيق: عباس حسين عيسى، مكتبة مركز بدر العلمي

والثقافي - صنعاء، بدون.

ابن الساعي، تاج الدين أبو طالب علي بن أنجب البغدادي (ت ٦٧٤هـ):

• أخبار الحلاج، بتحقيق: موفق فوزي الجبر، الطبعة الثانية سنة ١٩٩٧م، دار الطليعة الجديدة - دمشق.

السبكي، تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت ٧٧١هـ):

• طبقات الشافعية الكبرى، بتحقيق د/ محمود الطناحي ود/ عبد الفتاح محمد الحلو، الطبعة الثانية سنة ١٤١٣هـ، دار هجر للطباعة والنشر.

السكندري، أحمد بن محمد بن عبد الكريم ابن عطاء الله (ت ٧٠٩هـ):

• مفتاح الفلاح ومصباح الأرواح، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، طبعة سنة ١٣٣٢هـ.

السمعاني، أبو سعد عبد الكريم بن محمد بن منصور المروزي (ت ٥٦٢هـ):

• الأنساب، بتحقيق: عبد الرحمن المعلمي اليماني، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٢م، مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدر آباد.

السلماني، لسان الدين محمد بن عبد الله بن سعيد ابن الخطيب (ت ٧٧٦هـ):

• روضة التّعريف بالحبّ الشّريف، بتحقيق: محمّد الكتّانيّ، الطّبعة الأولى سنة ١٩٧٠م، دار الثّقافة.

السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن محمد النيسابوري (ت ٤١٢هـ):

• طبقات الصوفية، بتحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، الطبعة الأولى سنة ١٤١٩هـ -

١٩٩٨م، دار الكتب العلمية – بيروت.

• حقائق التّفسير، بتحقيق سيد عمران، الطبعة الأولى سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م، دار الكتب العلمية – بيروت).

السهروردي، شهاب الدين أبو حفص عمر بن محمد البكري (ت ٦٣٢هـ):

• عوارف المعارف، بتحقيق: الإمام الأكبر الدكتور عبد الحليم محمود ود/ محمود بن الشريف، الطبعة الثانية سنة ٢٠١٧م، دار المعارف – القاهرة.

السهروردي، أبو النجيب عبد القاهر بن عبد الله بن محمد البكري (ت ٥٦٣هـ):

• آداب المريدين، بتحقيق: الشيخ عاصم إبراهيم الكيالي، الطبعة الثانية، بدون، دار الكتب العلمية – بيروت.

السيرجاني، أبو الحسن علي بن الحسن الكرماني (ت نحو ٤٧٠هـ):

• كتاب البياض والسواد من خصائص حِكَم العباد في نعت المريد والمراد، بتحقيق: بلال الأرفه لي وندى صعب، شركة القدس للطباعة، بدون تاريخ.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد (ت ٩١١هـ):

• الحاوي للفتاوي، دار الفكر للطباعة والنشر – بيروت، سنة ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٤م.

• الدر المنثور في التفسير بالمأثور، دار الفكر – بيروت، بدون.

الشاذلي، أبو المواهب محمد بن أحمد التونسي القاهري (ت ٨٨١هـ):

• قوانين حكم الإشراق إلى كافّة الصّوفيّة بجميع الآفاق، راجعه وضبطه وصححه: محمد شحاتة إبراهيم، المكتبة الأزهرية للتراث – القاهرة، سنة ١٤١٩هـ – ١٩٩٩م.

الشعراني، أبو محمد عبد الوهاب بن أحمد بن علي (ت ٩٧٣هـ):

• الطبقات الكبرى، بتحقيق: أ.د/ أحمد عبد الرحيم السايح والمستشار توفيق علي وهبة، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، مكتبة الثقافة الدينية - القاهرة.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبي بكر (ت ٥٤٨هـ):

• الملل والنحل، طبعة مؤسسة الحلبي، بدون.

الشيرازي، أبو عبد الله محمد بن خفيف (ت ٣٧١هـ):

• فضل التصوف على المذاهب، عمل على نشره وإخراجه: فاطمة علاقه، بالتعاون مع كاظم برگ نيسي، ط معارف، دورة بانزدهم، شمارة ١ و٢، فروردين - آبان ١٣٧٧.

• المعتقد الصغير، بتحقيقنا، الطبعة الأولى سنة ٢٠٢٢م، دار الإمام الرازي للنشر والتوزيع - القاهرة.

• وصية ابن خفيف للمريدين، مخطوط، نسخة «برتو باشا» ضمن مجموع رقم ٦٥٢.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الآملي (ت ٣١٠هـ):

• جامع البيان في تأويل القرآن، بتحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠م، مؤسسة الرسالة.

الطحاوي، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن الأزدي المصري (ت ٣٢١هـ):

• متن العقدية الطحاوية، الطبعة الثانية سنة ١٤٣٢هـ - ٢٠٠١م، مكتبة البشرى - كراتشي، باكستان.

الطوسي، أبو نصر السراج عبد الله بن علي (ت ٣٧٨هـ):

• اللمع، بتحقيق: د/ عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور، دار الكتب الحديثة، سنة ١٩٦٠م.

ابن عجيبة، أبو العباس أحمد بن محمد الحسني الأنجري الفاسي (ت ١٢٢٤هـ):

• إيقاظ الهمم في شرح الحكم، تقديم ومراجعة: محمد أحمد حسب الله، دار المعارف - القاهرة، بدون.

ابن عربي، محيي الدين محمد بن علي بن محمد الطائي الحاتمي (ت ٦٣٨):

• الفتوحات المكية، ضبطه وصححه ووضع فهارسه: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية - بيروت، بدون.

ابن عساكر، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ):

• تاريخ مدينة دمشق، بتحقيق: محب الدين العمري، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٥م، دار الفكر - بيروت.

• تبيين كذب المفتري فيما نسب إلى الإمام الأشعري، الطبعة الثالثة سنة ١٤٠٤هـ، دار الكتاب العربي - بيروت.

العطار، فريد الدين أبو حامد محمد النيسابوري (ت بعد ٦١٨هـ):

• تذكرة الأولياء، ترجمة: د/ منال اليمني، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ٢٠٠٩م.

علي القاري، نور الدين أبو الحسن علي بن سلطان محمد (ت ١٠١٤هـ):

• منح الروض الأزهر في شرح الفقه الأكبر، الطبعة الأولى سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، دار البشائر الإسلامية - بيروت.

ابن العماد، أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العَكري (ت ١٠٨٩هـ):

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، حققه: محمود الأرناؤوط، خرج أحاديثه: عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، دار ابن كثير، دمشق - بيروت.

الغزالي أبو حامد محمد بن محمد بن محمد الطوسي (ت ٥٠٥هـ):

- إحياء علوم الدين، دار المعرفة - بيروت، بدون.

ابن فورك، أبو بكر محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني (ت ٤٠٦هـ):

- الإبانة عن طرق القاصدين والكشف عن مناهج السالكين، بتحقيق: أحمد يلديرم وعبد الغفار أصلان، طبعة استنابول سنة ٢٠١٤م.
- مجرد مقالات الشيخ أبي الحسن الأشعري، بتحقيق: أ.د/ أحمد السايح، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٥م، مكتبة الثقافة الدينية.

ابن قاضي شهبة، تقي الدين أبو بكر بن أحمد الشهبي الدمشقي (ت ٨٥١هـ):

- طبقات الشافعية، بتحقيق: د/ الحافظ عبد العليم خان، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٧هـ، عالم الكتب - بيروت.

القاضي عبد الجبار، أبو الحسين عبد الجبار بن أحمد الأسدابادي (ت٤١٥هـ):

- شرح الأصول الخمسة، بتحقيق: د/ عبد الكريم عثمان، مكتبة وهبة، بدون.

القشيري، أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك (ت ٤٦٥هـ):

- الرسالة القشيرية، بتحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود ود/ محمود بن الشريف، دار المعارف - القاهرة، بدون.

• لطائف الإشارات، بتحقيق: إبراهيم البسيوني، الطبعة الثالثة، الهيئة العامة للكتاب - القاهرة، بدون.

ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر بن أيوب (ت ٧٥١هـ):

• زاد المعاد في هدي خير العباد، الطبعة السّابعة والعشرون سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، مؤسسة الرسالة - بيروت.

• مدارج السالكين، بتحقيق: محمد المعتصم بالله، الطبعة الثالثة سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، دار الكتاب العربي - بيروت.

الكاشاني، عبد الرزاق جمال الدين بن أحمد كمال الدين (ت ٧٣٠هـ):

• معجم اصطلاحات الصوفية، بتحقيق: د/ عبد العال شاهين، الطبعة الأولى سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م، دار المنار.

ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشي الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ):

• البداية والنهاية، بتحقيق: علي شيري، الطبعة الأولى سنة ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م، دار إحياء التراث العربي.

• تفسير القرآن العظيم، بتحقيق: سامي بن محمد سلامة، الطبعة الثانية سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، دار طيبة للنشر والتوزيع.

الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني القريمي الحنفي (ت: ١٠٩٤هـ):

• الكليات، بتحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة - بيروت، بدون.

الكلاباذي، أبو بكر محمد بن أبي إسحاق البخاري الحنفي (ت ٣٨٠هـ):

• التعرف لمذهب أهل التصوف، دار الكتب العلمية - بيروت، بدون.

الماتريدي، أبو منصور محمد بن محمد بن محمود (ت ٣٣٣هـ):

• تأويلات أهل السنة، بتحقيق: د/ مجدي باسلوم، الطبعة الأولى سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥، دار الكتب العلمية - بيروت.

• كتاب التوحيد، بتحقيق: د/ فتح الله خليف، دار الجامعات المصرية، بدون.

المحاسبي، أبو عبد الله الحارث بن أسد البصري البغدادي (ت ٢٤٣هـ):

• الرّعاية لحقوق الله، بتحقيق: عبد القادر عطا، الطّبعة الرّابعة، دار الكتب العلميّة - بيروت.

المرصفي، محمد بن محمد زين العابدين الأشعري الغمري(ت ٩٦٦هـ):

• داعي الفلاح إلى سبل النجاح، تعليق: د/ عصام الكيالي، الطبعة الثانية سنة ٢٠١٣م، دار الكتب العلمية.

المقدسي، أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن قدامة (ت ٦٨٩هـ):

• مختصر منهاج القاصدين، قدم له: محمد أحمد دهمان، طبعة مكتبة دار البيان - دمشق، سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.

المقريزي، تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي بن الحسيني (ت ٨٤٥هـ):

• السلوك لمعرفة دول الملوك، بتحقيق: محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى سنة ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية - لبنان.

المكي، أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي (ت ٣٨٦هـ):

• قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد، بتحقيق: د/ عاصم الكيالي، الطبعة الثانية سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، دار الكتب العلمية - بيروت.

الملاحمي، ركن الدين محمود بن محمد (ت ٥٣٦هـ):

• الفائق في أصول الدين، بتحقيق: فيصل بدير عون، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، سنة ١٤٣١هـ - ٢٠١٠م.

ابن الملقن، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الشافعي المصري (ت ٨٠٤ هـ):

• طبقات الأولياء، بتحقيق: نور الدين شريبه من علماء الأزهر، الطبعة الثانية سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م، مكتبة الخانجي، بالقاهرة.

• العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، بتحقيق: أيمن نصر وسيد مهنى، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية - بيروت.

أبو نعيم، أحمد بن عبد الله بن أحمد الأصبهاني (ت ٤٣٠هـ):

• حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، مطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، سنة ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

الهجويري، أبو الحسن علي بن عثمان بن أبي علي الجلابي (ت ٤٦٥هـ):

• كشف المحجوب، دراسة وترجمة وتعليق: د/ سعاد عبد الهادي، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م.

اليافعي، أبو محمد عفيف الدين عبد الله بن أسعد بن علي (ت ٧٦٨هـ):

• مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، وضع حواشيه: خليل المنصور، الطبعة الأولى سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م، دار الكتب العلمية - بيروت.

فهرس الموضوعات